الهجاء والهجاءون

في الجاهلية

تأليف

الدكتور م. محمد حسين

مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر

مكتبة الآداب بالجماميز ت ٤٢٢٧٧

مطبعة أحمد مخيمر بشارع فاروق تليفون ٤٧١٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب فى تاريخ فن الهجاء فى الشعر العربى ، نحوت فيه نحوا جديدا فى دراسته وتحديده ، فجعلت فيه أقساما لم يتعارف النقاد على إدخالها فيه واعتبارها منه ، كالهجاء السياسى والهجاء الأخلاقى والاجتماعى .

ولما كان الموضوع طويلا متشعب النواحى ، فقد رأيت من الأوفق أن أخرجه أجزاء مستقلة ، وهذا هو الجزء الأول منه فى العصر الجاهلى . وقد قدمت للكتاب بتحديد موضوع الدراسة مبينا وجه هذا التحديد . ولم أر بدا من توضيح بعض المسائل العامة المتصلة بالعصر ، كالكلام عن الشعر ، وارتباط السحر به عامة وبالهجاء خاصة، وكالكلام عن صلة الشاعر بالقبيلة ، وعن القيم الأخلاقية والاجتماعية فى ذلك العصر . فقد رأيت فن الهجاء من أكثر فنون الشعر اتصالا بالحياة وبالواقع ، ورأيت أن الدارس لايستطيع أن يتعمقه من غير أن يوضح العصر وينير جوانبه

وقد أدخلت فى هذا الجزء عصر النبوة والشعراء المخضرمين فجعلتهم جاهليين باعتبار نشأتهم وبيئتهم

وكان سبيلى فيه وفيما يليه من الأجزاء أن أفرد بابا لكل قسم من أقسام الهجاء ، ثم أتبعه بترجمة لشاعر أو أكثر من شعرائه البارزين وقد بذلت الجهد فى تقريب الشعر العربى إلى الذوق ، بتلخيص جمل من روائعه ، تلخيصا تبقى فيه الصور ، ويُستبعَد فيه الغريب من الكلمات والتراكيب ، التى تحول بين طلاب الأدب وبين تذوقه ، ورجوت أن أنجح فى تحبيبه إلى الناس ، وأحرك فيهم الشوق لقراءة الشعر نفسه فى مراجعه ولست أزعم أنى قد احتفظت فى هذا التلخيص بكل مافى الأصل من جمال ، فمن الواضح أن شطرا

كبيرا من جمال الشعر يرجع إلى الوزن ، وإلى نظم الألفاظ فى هذا النسق الذى أصبح الكلام بفضله شعرا ، وأصبح قائله شاعرا . ولكنى أقنع بأن أكون قد قاربت الأصل ، وأرى نفسى قد وفقت إن كنت قد استطعت الاحتفاظ بروح الشعر وبلمحة من جمال صوره ، وإن كنت قد نجحت فى كشف هذا الستار الكثيف من الألفاظ الغريبة والاشارات المبهمة عن جوهره الدفين ، ونفض غبار الزمن وأكفان الأجيال عن جماله الأصيل .

والله الموفق والمستعان ؟

محمد حسين

رمل الاسكندرية فى ٣ يولية سنة ١٩٤٧

ما هو الهجاء

اصطلح الناس منذ القدم على أن الهجاء فن الشتم والسباب وهو نقيض المدح كما كان يقول قدامة . وهذا تعريف واضح لايحتاج إلى شرح . ولكننا مع ذلك نريد أن نناقشه وأن نضع لهذا الفن حدوده من جديد . بل نحن نريد أن ننظر فى تقسيم الشعر العربى جملة لنرى إلى أى حد كان شيوخنا الأقدمون موفقين . فلعل عقم دراساتنا الأدبية راجع إلى خطأ أساسى فى تقسيم الفنون الأدبية وتبويبها

فلنبدأ إذن باستعراض الذين تصدوا لتقسيم الشعر العربى

أقدم من تعرض لتبويب الشعر العربى فيما وصل إلينا أبو تمام (٢٣١ ﻫ) حين رتب مختاراته المشهورة بالحماسة فى عشرة أبواب هى الحماسة ، والمراثى ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف والمديح . والصفات . والسير والنعاس . والملح . ومذمة النساء .

ثم جاء من بعده قدامة بن جعفر (٣١٠ ﻫ) فكان أول من حدد أقسامه على نسق علمى أخذه الناس عنه وتأثر به كثير من النقاد الذين خلفوه

قسم قدامة الشعر إلى ستة أقسام فى كتابه « نقد الشعر » وهى : المديح ، والهجاء ، والنسيب ، والمراثى ، والوصف ، والتشبيه . ونجد تقسيما آخر فى كتاب ينسب إليه هو (نقد النثر) يجعل فيه الشعر أربعة أصناف المديح والهجاء والحكمة واللهو ويجعل لكل صنف منها فروعا تتفرع منه . فمن المديح المراثى والافتخار والشكر واللطف فى المسألة ومن الهجاء الذم والعتب والاستبطاء والتأنيب . ومن الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ . ومن اللهو الغزل والطرد وصفة الخمر والمجون

ثم خلف من بعده أبو هلال العسكرى (٣٩٥ هـ) فألف كتابه (ديوان المعانى) جمع فيه عيون الكلام من شعر ونثر وجعله اثنى عشر بابا الباب الأول فى التهانى والمديح والافتخار . والثانى فى الخصال المحمودة ، ويمكن أن نضيفه إلى الأول وندخله فيه والثالث فى المعاتبات والهجاء والاعتذار . والرابع فى الغزل وأوصاف الحسان . والأبواب الستة التى تلى ذلك كلها فى الوصف مقسما بحسب موضوعاته . فالخامس فى النار والطبخ وأنواع الطعام وصفات الشراب . والسادس فى السماء والنجوم والشمس والقمر . والسابع فى السحاب والمطر والثلوج والمياه وصفات البساتين . والثامن فى السلاح والحرب . والتاسع فى القلم والخط والكتاب وصفة البلاغة . والعاشر فى الخيل والإبل والسير والفلوات والسراب وصفة سائر الحيوان أما الباب الحادى عشر فهو فى ذكر الشباب والمشيب والعلل والموت والمراثى والتعازى والزهد والباب الثانى عشر وهو الأخير فى صفات أشياء مختلفة لم يرها داخلة فى قسم من الأقسام السابقة . ويجمل هذا التقسيم فيما نرى أن الشعر خمسة أقسام مديح وهجاء وغزل ووصف ورثاء . وهو نفس التقسيم الذى سبق إليه قدامة فى (نقد الشعر) . وإجمال هذه الأبواب فى خمسة أقسام شىء لم نأت به من عندنا ولكن أباهلال نفسه قد أشار إليه فى كتابه حين قال[1] « وإنما كانت أقسام الشعر فى الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيب والمراثى حتى زاد النابغة فيها قسما سادسا وهو الاعتذار فأحسن فيه » .

ويلى هؤلاء ابن رشيق (٤٥٦ هـ) روى آراء الذين سبقوه فى تقسيم الشعر [2] فنسب التقسيم الذى وجدناه فى نقد النثر بنصه وتفصيله لأستاذه عبد الكريم وروى تقسيم قدامة فى نقد الشعر مع شىء من التعديل ألحق التشبيه بالوصف. فحذف القسم السادس . وجعل الفخر مكان المراثى . ولما أراد

---

(١) ديوان المعانى ح ١ ص ٩١

(٢) العمدة ح ١ ص ٩٩ – ١٠٣ ، ص ٥٧ – ١١٠

بعد ذلك أن يتكلم عن أبواب الشعر فى شىء من التفصيل جعله تسعة أقسام : النسيب ، والمديح ، والافتخار ، والرثاء ، والاقتضاء والاستنجاز ، والعتاب ، والوعيد والانذار ، والهجاء ، والاعتذار . فهو قد زاد الافتخار وقدامة يدخله فى المدح ، وزاد باب الاقتضاء والاستنجاز . وباب العتاب . وباب الوعيد والإنذار ، وقدامة يدخلها فى الهجاء . ثم لم يجعل الوصف قسما . وزاد باب الاعتذار وهو القسم السادس الذى أشار العسكرى إلى أن النابغة قد استحدثه .

هذا عرض سريع للذين تصدوا لتقسيم الشعر العربى فلنناقش آراءهم فى إيجاز .

أما أبو تمام فهو يخرج الأبيات فى كثير من الأحيان عن أبوابها إلى أبواب لا تليق بها . وقد لاحظ هذا الخلط بعض المتقدمين كصاحب اليتيمة[1] . ولعل البحترى قد تنبه لهذا حين ألف حماسته بتجاوز أبوابه المائة والسبعين — وقد أعرضنا عن تقسيمه فلم نشر إليه لأنه كما ترى لا يصح أن يكون تقسيما علميا — وفى حماسة أبى تمام عيب آخر . فهو يسلخ الأبيات من القصيدة فيضعها فى قسم من أقسامه دون نظر إلى وحدة القصيدة وغرضها جملة . والواقع أن أبا تمام لم يكن ينظر إلى التقسيم بمقدار ما كان يهتم بجودة الاختيار وسهولة الحفظ والتعليق . ولذلك كانت مختاراته قصيرة . وقد جمعت قبله مختارات من الشعر العربى كالجمهرة والمفضليات والأصمعيات . فكان أصحابها يروون القصائد برمتها . ومع ذلك فأبو تمام أصلح حالا من البحترى . فقد كان ربما اختار البيت أو البيتين فوضعهما فى قسم من هذه الاقسام المترامية التى لا تحصرها الذاكرة ونحن مع ما نحرص على الإيجاز لا نرى بدا من أن نتقدم ببعض الأمثلة على خلط أبى تمام فى تقسيمه . فهو مثلا يذكر فى باب الحماسة أبيات جعفر بن علبة الحارثى[2]

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ٣ ٣٦٦ نقلا عن اليتيمة ٣ ٤٠٦

(٢) ص ١١

هواى مع الركب اليمانين مصعد   جنيب وجثمانى بمكة موثق

والواقع أنها ليست حماسة خالصة . فالنسيب غالب عليها. ويذكر فى هذا الباب أبيات أمية بن أبى الصلت[١]

غذوتك مولودا وعلتك يافعا   تعل بما أدنى إليك وتنهل

وهى ليست حماسة وربما كانت أليق بباب الهجاء أو الأدب . وكذلك القطعة التى تليها[٢]

ربيته وهو مثل الفرخ أعظمه   أم الطعام ترى فى جلده زغبا

ويذكر فى باب المراثى قصائد قيلت فى مناسبة قتيل ، وهى ليست من المراثى فى شىء . ليس بينها وبين المرثية من صلة إلا المناسبة التى قيلت فيها .
فمن ذلك أبيات أم الصريح الكندية[٣]

هوت أمهم ماذا بهم يوم صرعوا   بجيشان من أسباب مجد تصرما

ومما ذكره فى الرثاء وليس منه أبيات أبى الشغب العبسى فى سجن خالد القسرى[٤]

ألا إن خير الناس حيا وهالكا   أسير ثقيف عندهم فى السلاسل

أما باب الأدب فلعله يقصد فيه إلى الشعر الحكمى (نسبة للحكمة) أو الشعر التهذيبى . ولكنه لا يفرق فيه بين الحكمة التى تصدر عن القصد إلى النصح والتهذيب . وبين الهجاء الذى يصدر عن الغضب والاشمئزاز والقصد إلى التشفى والانتقام . فما جاء فى باب الأدب وهو هجاء فى حقيقة الأمر أبيات القريعى[٥]

متى ما ير الناس الغنى وجاره   فقير يقولوا عاجز وجليد

ومنها أبيات العباس بن مرداس[٦]

ترى الرجل النحيف فتزدريه   وفى أثوابه أسد مزير

---

(١) ص ٣
(٢) ص ٣١٦
(٣) ص ٣٨٣
(٤) ص ٣٨٤
(٥) ج ٢ ص ٨
(٦) ج ٢ ص ٢١

وكذلك أبيات مالك بن حريم الهمدانى [1]

أنبئت والأيام ذات تجارب ‏ ‏ ‏ وتبدى‌لك الأيام مالست تعلم

بأن ثراء المـال ينفع ربه ‏ ‏ ‏ ويثنى عليه الحمد وهو مذمم

وقد اضطر أبوتمام إلى إدخال شعر الخمر فى هذا الباب[2] وكان حقه أن يكون فى باب مفرد له، ذلك بأنه لم يجعل فى كتابه مكانا لشعر اللهو والمجون. فهو لم يستوف فى تقسيمه كل أبواب الشعر

أما باب الأضياف والمديح فهو لايصلح أن يكون قسما من أقسام الشعر أصلا، لأن تفريقه على الأقسام الأخرى ممكن، فعظمه يدخل فى الفخر فهو حماسة، مثل أبيات قيس بن عاصم المنقرى[3]

إنى امرؤ لا يعترى خلقى ‏ ‏ ‏ دنس يفنـــده ولا أفن

ومثل أبيات شقران مولى بنى سلامان بن سعد بن هذيم [4]

لوكنت مولى قيس عيلان لم تجد ‏ ‏ ‏ علىّ لإنسان من الناس درهما

ولـكننى مولى قضاعة كلها ‏ ‏ ‏ فلست أبالى أن أدين وتغرما

ومثل أبيات عمرو بن الإطنابة [5]

إنى من القوم الذين إذا انتدوا ‏ ‏ ‏ بدءوا بحق الله ثم النازل

وبعض هذا الباب يدخل فى الهجاء مثل أبيات عروة [6]

إنى امرؤ عافى إنائى شركة ‏ ‏ ‏ وأنت امرؤ عافى إنائك واحد

ومثل أبيات حـَطائط بن يعفر [7]

تقول ابنة العباب رهم حربتنا ‏ ‏ ‏ حطائط لم تترك لنفسك مقعدا

ومثل أبيات جؤية بن النضر [8]

قالت طريفـَة ماتبقى دراهمنا ‏ ‏ ‏ وما بنا سرف فيها ولا خرق

---

(١) ج ٢ ‏ ٣١ ‏ ‏ (٢) ج ٢ ص ٨٥ — ٩٠

(٣) ج ٢ ‏ ٢٦٣ ‏ ‏ (٤) ج ٢ : ٢٧٤

(٥) ج ٢ : ٢٨٩ ‏ ‏ (٦) ج ٢ : ٣٠١

(٧) ج ٢ ‏ ٣٤٢ ‏ ‏ (٨) ص ٣٤٤

ومثل قصيدة عارق الطائى (١)

ألا حى قبل البين من أنت عاشقه ... ومن أنت مشتاق إليه وشائقه

أما باب الصفات فهو قصير جدا لا يستغرق أكثر من ثلاث صفحات . مع أنه يتسع لأكثر من هـــذا وكان حق الباب الذى يليه (باب السير والنعاس) أن يضم إليه .

أما باب الملح فبعضه هجاء . وبعضه وضع للجد موضع الهزل . فهو لاحق بالهجاء . فمن الهجاء قول امرأة (٢)

فقدت الشيوخ وأشياعهم ... وذلك من بعض أقواليه

ترى زوجة الشيخ مغمومة ... وتمسى لصحبته قاليـــة

ومن أمثله وضع الجد موضع الهزل (٣)

فإنك إذ ترى عَرَصات جُمْــل ... بعاقبة فأنت إذاً سعيد

لها عينان من إقط وتمر ... وسائر خلقها بعد الثريد

ومنه :

يارب إن قتلتها فعـــدلها ... فلن تموت أو تجيد قتلها

أما باب مذمة النساء وهو آخر أبواب الكتاب فكله داخل فى الهجاء

ومع ذلك فقد كان أبو تمام موفقا من بعض النواحى على ماله من فضل السبق إلى التقسيم . فما وفق فيه جعل الحماسة قسما من أقسام الشعر . وقد فرق الذين جاءوا بعده هذا البـاب فى عدة أقسام . فجعلوا منه المديح والفخر وشعر الحروب ونظرة أبى تمـام إلى هذه الأقسـام مجتمعة فى باب واحد أشمل وأوضح . فالواقع أنها تصدر جميعا عن الحماسة والإعجاب . وهى تصور المثـل الأعلى للشاعر ممثلا فى ممدوحه أو فى نفســه وقبيلته أو فى فـكرة من الأفكار وقد كان لأبى تمام بعض العذر فى هذا الخلط لأن معظم مختاراته جاهلية . والشعر الجاهلى مختلط . تجد فيه النسيب والرثاء والحماسة و الهجاء فى القصيدة الواحدة .

---

(١) ح ٢ ص ٣٤٧ — ٣٥٠ (٢) ح ٢ : ٣٩٤ (٣) ح ٢ : ٤٠٣

كان اعتماد أبى تمام فى تقسيمه على فطرته السليمة وإحساسه الفنى. أما قدامة فقد اعتمد على عقله . وكان أبو تمام شاعرا صاحب ذوق ، أما قدامة فكان أعجميا صاحب منطق وفلسفة . ألف فى الفلسفة كتاب السياسة وفى المنطق صناعة الجدل . لذلك كان تقسيمه للشعر متأثرا بهذه الثقافة الفلسفية . فهو يطبق على الشعر صناعة المنطق من ناحية ، ويخضعه لقوانين الأخلاق من ناحية أخرى يبدأ تقسيمه بالمدح ويعتبره أصلا للفنون الاخرى ، فالهجاء عنده ضد المدح . والرثاء مدح ولكن الشاعر يخلط به شيئا يدل على أن المقصود به ميت مثل كان أوعدمنا به كيت وكيت أو ما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت ، وهو يعنى أول مايعنى بتعريف الفن الذى يتحدث عنه تعريفا منطقيا سليما فى أقل لفظ ممكن، ثم يأخذ فى شرح تعريفه ، فإذا فرغ من ذلك استخلص من التعريف ماينبغى أن يتوافر فى هذا الفن من الشروط والأركان ، ويمضى فى ذلك تاركا نفسه إلى حيث يسوقه هذا المنطق فهو يقول فى النسيب بعد التعريف . (وإذ قد بان أن الذى قلناه على ماقلناه ، فيجب أن يكون النسيب الذى يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك فى الصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة) . ويقول فى المدح (إنه لما كانت فضائل الناس من حيث أنهم ناس ، لا من طريق ماهم مشتركون فيه مع سائر الحيوان ، على ماعليه أهل الألباب من الاتفاق فى ذلك ، إنما هى العقل والشجاعة والعدل والعفة ، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبا ، والمادح بغيرها مخطئا) وعلى هذا الأساس الأخلاقى المحدد بحدود منطقية عنيفة تدور الأقسام الثلاثة : المدح والهجاء والرثاء . ومادام الهجاء عنده ضد المدح فينبغى إذاً أن يعتمد على نقض الفضائل النفسية وكلما كثرت أضداد المديح فى الشعر كان أهجى . ثم يقول (ثم ينظر أقسام المديح وأسبابه ، فيجرى أمر الهجاء محسبها فى المراتب والدرجات والأقسام . ويلزمه ضد المعنى الذى يدل عليه . إذ المديح ضد الهجاء) ومادامت المرثية هى المدحة لافرق بينهما إلا أن

الأولى لهالك والأخرى لحى ، فيجب أن تعتمد على الفضـائل النفسية . فهو يقول فى الرثاء (وإذ قد تبين بما قلنا آنفا أنه لافضل بين المديح والتأبين إلا فى اللفظ دون المعنى ، فإصابة المعنى به ومواجهة غرضه هو أن يجرى الأمر فيه على سبيل المديح) وواضح من الأمثلة التى قدمناها من كتابه مايلوح على ديباجته من المنطق العنيف الذى يفسد الأسلوب ، وواضح أيضاً أن رجلا كهذا لاصلة له بالشعر بل بالفن جملة فإنما هو صاحب منطق وأخلاق والـكلام فى الشعر يعتمد أول مايعتمد على الذوق وقد ذكر ياقوت فى ترجمته أنه كان بارعا فى الحساب . والواقع أن براعتـه فى الحساب تعلل لنـا طريقة فهمه للشعر فهو يفهمه فهما حسـابيا فالبيت من الشعر لايدل عنده إلا على أرقام . فهذا بيت فى المدح قد اجتمعت فيه الفضائل الأربع فهو خير من بيت آخر فيه فضيلتان أو ثلاث . وهو يمثل للهجاء الجيد بقول الشاعر :

إن يغدروا أو يفجروا   أو يبخلوا لا يحفـــلوا
وغدوا عليـك مرجّليـــــن كأنهـــم لم يفعـــلوا

انظر إلى هذا الرجل الذى يفهم الشعر بالأقام . ويزنه بموازين الأخلاق كيف يتصور الجمال فيهما يقول (فمن جودة هذا الهجاء أن الشـاعر تعمد به أضداد الفضائل على الحقيقة فجعلها فيهم . لأن الغدر ضد الوفاء . والفجور ضد الصدق . والبخل ضدالجود . ثم أتى بعد ذلك بضد أجل الفضائل وهو العقل حيث قال : وغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا . لأن هذا الفعل إنماهو من أفعال أهل الجهـــل والبهيمية والقحة التى هى من عمى القوة المنيرة كما قال جالينوس فى أخلاق النفس) وماظنك برجل يعـرِّف الشعر فى أول كتابه بقوله (هو كلام موزون مقفى يدل على معنى) .

كان من سوء حظ النقد أن قدامة أول من ألف فيه كتابا فتأثر به كثير من النقاد الذين جاءوا بعده وحتى أولئك الذين كانوا ينفرون من المنطق والفلسفة وإقحامها فى الدراسات الأدبيـة لم يستطيعوا أن يتخلصوا من أثر

قدامة ويتحرروا من قيوده . فهذا أبو هلال العسكرى وهو شاعر ، يعتمد فى كتبه فى البلاغة والنقد على الذوق ، قد تأثر بكتاب قدامة فى نقد الشعر ، برغم مايبدو من أنه نافر من أسلوبه فى دراسة الشعر هو يتجافى فى (ديوان المعانى) عن تقسيم قدامة ، ويبتعد عن التحديد المنطقى العنيف فى التعريف والتقسيم ، ويضع بين يدى القارىء كثرة من النصوص شعرا ونثرا ، يروض بها ذوقه ، ويصقل ملكاته . ولـكنه مع ذلك واقع تحت تأثير قدامة . نحس هذا فى كثير من مواضع كتابه . فهو يفرد من ديوان المعانى بابا لخصال الإنسان المحمودة من الجود والشجاعة والعلم والحلم والحزم والعقل وما يجرى مع ذلك . وواضح من عنوان هذا الباب أنه ينساق من غير أن يشعر إلى نظرية الفضائل الأربع عند قدامة . وتأثره بهذه النظرية يبدو فى مواضع أخرى من كتابه . فهو يقول فى بيت أبى العميثل[1] :

فاصدق وعف وجد وأنصت واحتمل   واصفح وكاف ودار واحلم واشجع

(وقد جمع هـذا البيت جميع خصال المدح) مع أن البيت كما ترى نظم لا جمال فيه . ويقول[2] بعد أن يروى أبياتا للبحترى (لم يبق وجه من وجوه المدح فى الجود والشجاعة وتصوب الرأى ومضاء العزيمة والدهاء وشدة الفـكر إلا قد اجتمع ذكره فى هذه الأبيات . ولم أعرف أحدا يستوفى مثل هذه المعانى فى أكثر مدائحه إلا البحترى) ويقول فى باب الهجاء[3]

وأبلغ الهجاء ما يكون بسبب الصفات المستحسنة التى تخص النفس من الحلم والعلم والعقل وما يجرى مجرى ذلك وليس الهجاء بقبح الوجه وضؤولة الجسم وقصر القامة وما فى معنى ذلك بليغا مرضيا . وروى فى بعض مواضع من كتابه أمثلة قدامة بعينها . فروى فى باب المدح أبيات الحطيئة[4]

يسوسون أحلاما بعيدا أناتها   وإن غضبوا جاء الحفيظة والجد

---

(١) ج ١ ص ٣٨   (٢) ص ٥٧

(٣) ج ١ ٢٠٢   (٤) ج ١ : ٣٨

ويقول بعدها (ولعمرى إن معانى هذه الأبيات أبكارليس للعرب مثلها. وكل من تناولها فإنما استعارها من الحطيئة . وهى جامعة لخصال المدح كلها)

ويروى فى باب الهجاء بيتى قدامة اللذين أشرنا إليهما منذ قليل[١]

إن يغدروا أو يفجروا أو يبخلوا لا يحفلوا

وغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا

ويقول (هذا أبلغ من ذكر الفروج والقول الفاحش المقذع فى الأمهات)

وبعد فتقسيم أبى هلال يمكن أن يرد آخر الأمر إلى تقسيم قدامة . فالباب الأول والثانى فى المديح ، والثالث فى الهجاء ، والرابع فى النسيب ، والأبواب الستة التى تليه فى الوصف ، والباب الحادى عشر فى الرثاء . والباب الأخير فى أشياء متفرقة رآها غير داخلة فى باب من أبواب كتابه .

ثم جاء بن رشيق وكان شاعرا صاحب ذوق ممتاز يتجلى فى حسن اختياره وفى جمال أمثاله التى أوردها فى كتاب العمدة ، فسار على نهج قدامة وتأثر به تأثراً عميقاً ، فهو يردد فى باب المديح كلام قدامة فى الفضائل النفسية ، ويمضى على آثاره مبينا مايتفرغ من كل فضيلة منها. ثم لايزال يروى آراء قدامة مستقصيا، حتى يذكر ما ينتج من تركيب بعضها مع البعض ، فالصبر على الملمات ونوازل الخطوب والوفاء بالإيعاد يحدث من تركيب العقل مع الشجاعة ، والبر وإنجاز الوعد وما أشبه ذلك يحدث من تركيب العقل مع السخاء . . وهكذا إلى أن ينتهى من كل الأمور المنطقية التى تنتج عن هذا التركيب وكل هذا كلام لاموضع له فى النقد

ولم يقف تأثره بقدامة عند هذا الحد من رواية بعض آرائه واستحسانها، بل تأثر به فى تقسيم الشعر، فجعل المدح أصلا لتقسيمه كما جعله قدامة . فالفخر عنده هو المدح نفسه غير أن الشاعر يختص به نفسه . والرثاء مدح أيضا ولكن الشاعر يخلط به مايدل على أن المقصود به ميت . والهجاء يعتمد على

---

(١) ص ٨٢ .

المدح أيضا فهو ضده لايختلف فى أصوله عنه . فليس بينهما من فرق إلا أن الشاعر ينقض فى الهجاء مايقال فى المدح ، فهو مثله يعتمد على الفضائل النفسية الأربع . وكلما كثرت أضداد المديح فى الشعر كان أهجى .

وابن رشيق إن كان أعجميا كقدامة فهو أصفى ذوقا وأقوم طبعا فهو صاحب شعر مليح واختيار تتجلى فيه سلامة الذوق . وفى كتابه التفاتات جميلة وملاحظات فنية حسنة . وإنما جنى عليه اعتماده على قدامة فى كثير من المواضع، وفتنته بمنطق أرسطو الذى كان بدع العلماء والمتعالمين فى ذلك الحين . ومع ذلك فأكثر مايعتمد ابن رشيق فى كتابه على الرواية ، فهو يعدد آراء الذين سبقوه من النقاد . ويستطيع القارىء أن يستخلص رأيه من بين هذه الروايات بما يعقب عليها مؤيدا أو معارضا . منبها إلى مَواضع الخطأ والانحراف عن الصواب .

ولسنا أول من يأخذ على قدامة أسلوبه فى دراسة الشعر وتقسيمه . فهذا هو الآمدى يتعرض له فى غير موضع من كتاب الموازنة ، فيسخف آراءه ويهجنه [١] بل لقد ألف كتابا فى الرد على (نقد الشعر) سماه (تبيين غلط قدامة بن جعفر فى كتاب نقد الشعر [٢]) .

لم يقع هؤلاء النقاد على الصفة الأساسية البارزة التى تميز الشعر وهى العاطفة وعليها وحدها يجب أن يقوم التقسيم . وخصوصا فى الشعر العربى الذى هو فى معظمه غنائى . فليس الشعر فى حقيقة الأمر إلا إبرازا للعواطف الإنسانية وتصويرا لانفعالات الشاعر وخلجات قلبه فهو - كما يقول ويردزويرث - فيضان من شعور قوى نبع من عواطف تجمعت فى هدوء

فالعاطفة - كما يقول بول فاليرى - هى أول الشعر وآخره . وأصل الفن وغايته . فالذى يتعرض لتقسيم الشعر يجب أن يعود إلى الأصل الذى صدر

---

(١) ص ١٢٤ ، ١٢٥

(٢) معجم الأدباء ج ٨ ٨٦

عنه ، وأن يرد هذا الإنتاج إلى مصدره الأول والواقع أن تقسيم الشعر ـ والغنائى منه بنوع خاص ـ مهمة شاقة ليست بالهينة . فموضوع الشعر واسع جدا سعة الحياة نفسها، وألوانه متعددة تعدد أهواء النفس البشرية وخلجاتها، ثم هو فى بعض الأحيان غامض مختلط يصعب تخليصه وتمييزه وإرجاعه إلى عاطفة خاصة ، فقد يكون مصورا لمزاج من عواطف مختلفة بل ومتناقضة فى بعض الأحيان . وهذا التناقض والغموض قد يكون فى نفسه مصدر جمال . فالشعر متعدد الألوان والأشكال تعدد ألوان النفوس التى صدر عنها ، حتى ليكاد شعر كل شاعر أن يكون قسما قائما بنفسه مختلفا عما عداه من الأقسام . والناظر فى كتب النقد الغربى يجد أنه لم يبرأ من الخلاف الذى قدمنا بعض صوره عند نقادنا . ونحن نكتفى فى هذا المقام بتحديد القسم الذى سندرسه فى هذا الكتاب وهو الهجاء .

الهجاء أدب غنائى يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء . وسواء فى ذلك أن يكون موضوع العاطفة هو الفرد أو الجماعة أو الأخلاق والمذاهب . فالهجاء لا يصطنعه ـ كما يقول برونوتيير[١] إلا وسيلة للتعبير عن طريقته فى الحس والتفكير ، معارضا طرق الآخرين فى حسهم وتفكيرهم . تلك الطرق التى تثير بالمعارضة ذاتها غضبه أو سخطه واستشناعه أو خوفه واحتقاره أو استهزاءه . وواضح أنا قد تعمدنا فى تعريف الهجاء أن لا نجعله شعرا غنائيا فهو أدب غنائى أى أنه شامل للشعر والنثر . فهو غناء أولا وتصوير لعواطف شخصية . وليس الشعر هو السبيل الوحيد لمثل ذلك . ونحن فى هذا التعريف نخالف المشهور عند نقاد العرب من وجهين . الوجه الأول أننا نجعله شاملا للشعر والنثر والمشهور أنه لا يكون إلا شعرا . والوجه الثانى أننا نجعل موضوعه شاملا للفرد والجماعة والأخلاق والمذاهب والمشهور عندهم أنه مقصور على الأفراد . ولكنا لا نعدم ما يؤيد مذهبنا عند نقاد العرب ومؤلفيهم . فالجاحظ

(١) دائرة المعارف الفرنسية مادة Satire

يسمى بعض رسائله النثرية هجاء فيقول فى مقدمة كتاب الحيوان[١] وعبتنى بكتاب الأوفاق والرياضيات . . . وبكل ما كتبت إلى إخوانى وخلطائى من مزح وجد ، ومن إفصاح وتعريض، ومن تغافل وتوفيق ، ومن هجاء لايزال ميسمه باقيا ، ومديح لايزال ناميا . . الخ » وصاحب العقد الفريد يجعل فى القرآن هجاء فيقول[٢] « قال الله تبارك وتعالى فى هجو المشركين (والشعراء يتبعهم الغاوون . الآية) » . وأبو هلال العسكرى يروى فى باب الهجاء شعرا أخلاقيا لايدخل فى الهجاء بمعناه الضيق عند قدامة وأشياعه . ويذكر فى هذا الباب نثرا مسجوعا فى أغلب الأحيان ولـكنه يسميه ذما

فمن أمثلة الهجاء الأخلاقى الذى ينصب على الجماعة ولاينصب على الفرد مايروى لنفسه[٣]

كم حاجـــة أنزلتها   بكريم قوم أو لئيم

فإذا الـكريم من اللئـــيم أو اللئيم من الـكريم

سبحان رب قادر   قدّ البرية من أديم

فشريفهم ووضيعهم   سيان فى شرف ولوم

قد قلّ خير غنيهم   فغنيهم مثل العـديم

وإذا اختبرت حميدهم   ألفيته مثل الذميم

لا نفع فيه للصغيـــر من الأمور ولاالعظيم

ومن أمثلة الهجاء نثرا قول بعضهم لرجل استضاف بخيلا (نزلت بواد غير ممطور . ورجل غير مسرور . فأقم بندم . وارحل بعدم) . وقول أعرابى دخل بغداد (فإذا ثياب أحرار على أجساد عبيد   إقبال حظهم إدبار حظ الـكرم . شجر فروعه عند أصوله . شغلهم عن المعروف رغبتهم فى المنكر[٤] والنويرى فى نهاية الأرب يجعل النثر والهجاء الأخلاقى فى باب الهجاء فيقول[٥]

---

(١) ح ١ : ٣   (٢) ح ٦ ١٥٥

(٣) ديوان المعانى ١ ١٩١   (٤) ديوان المعانى ٢ ١٠٣

(٥) ح ٣ ٢٦٩

« وإن للشعراء والبلغاء فى الذم والهجاء نظما ونثرا سنورد منها طرفا ». وهو يروى أبيات أبى هلال السابقة ويجعلها « مما هجى به أهل الوقت على الإطلاق » . ويجعل من الهجاء قسما هو هجاء أخلاقى . كهجاء الحسد والسعاية بالبغى والغيبة والنميمة »

وبعد فمدلول الكلمة اللغوى واشتقاقها يعيننا على ما نذهب إليه ويتسع له . فالمرأة تهجو زوجها وتهجو صحبته أى تذمه وتشكو منه . وقد ورد فى الحديث (اللهم إن عمرو بن العاص هجانى وهو يعلم أنى لست بشاعر فاهجه اللهم والعنه عدد ماهجانى ، أو مكان ما هجانى) والهجاء عند الزمخشرى مأخوذ من هجاء الحروف فهو تعديد للمعايب فالمرأة تهجو زوجها هجاء قبيحا إذا ذمت صحبته وعددت عيوبه . وهو تفريع غريب . فالكلمة جاهلية قديمة ، وهى بأن تكون سابقة للهجاء بمعنى تعديد حروف الكلمة أشبه . على أنه إن كان كل مالحظ فى نقلها هو التعديد فلم لم يكن تعديد المفاخر والفضائل هجاء أيضا ؟ الواقع أن فى المادة معانى أخرى هى أقرب لأن تكون أصلا للمعنى الأدبى . فالهجاة والهاجة الضفدع وهجو يومنا اشتد حره وفى اليائى من المادة هجى البيت هجيا انكشف ، وهجيت عين البعير غارت ومما هو قريب من المادة الهياج بمعنى الغضب والقتال والحرب ، والهَوج بمعنى الحمق والطيش والتسرع ، والهوجاء الريح التى تقتلع البيوت

ونحن لا نستطيع أن نرجح معنى من هذه المعانى على أنه أصل المادة فقد يكون الهجاء بمعناه الأدبى مأخوذاً من الضفدع فهو قبيح الشكل بشع الصوت . وقد يكون مأخوذاً من اشتداد الحر ففيه معنى التنكيل والتعذيب . وقد يكون مأخوذاً من الأصل اليائى فهو يكشف عن سيئات المهجو ولعل الهجاء بمعنى تعديد حروف الكلمة مأخوذ من المعنى الأخير . فالذى يعدد حروف الكلمة يكشف عنها كما تكشف الريح عما بداخل البيت . معانى المادة على كل حال تدور حول البشاعة والشدة والنكال والكشف . والكلمة مرنة

تحتمل الزيادة . وليس هناك ما يمنع من توسيع مدلولها الأدبى بحيث يشمل غيرها من المعانى القريبة جداً من المعنى الأول . وهى وإن كانت قد أخذت شكلا ثابتاً بهذا المعنى الذى اصطلح عليه القدماء فما ينبغى لها أن تجمد على هذا الشكل إن فرض عليها تطور الفنون الأدبية أن تتسع أو تضيق . والواقع أن الجاهليين حين قصروا الهجاء بمعناه الأدبى على شكله الشخصى كانوا محقين . فهم لم يعرفوا من أنواع الهجاء إلا هذا اللون . وقد نشأ الهجاء عندهم كما نشأ عند غيرهم من الأمم تنديدا بالمعايب الشخصية أول الأمر . ثم تقدم الهجاء عندهم كما تقدم عند غيرهم ، وارتفع عن الأحقاد الخاصة إلى عنصر الحياة العامة . فكان منه السياسى . وكان منه الأخلاقى . وكان منه الدينى . ولما ارتقى النثر وأخذ مكانه بين الفنون الجميلة التى يتأنق فيها أصحابها . ويبالغون فى صقلها وتهذيبها . وأصبح أداة صالحة لتصوير العواطف ونقلها قوية مؤثرة ، كان منه الهجاء . كما كانت منه فنون أخرى هى فى أصلها مواضيع للشعر كالحماسة والوصف والرثاء . وكل ما فى الامر أن النقاد لم يسمحوا لمدلول اللفظ أن يتطور بتطور الفن الذى يدل عليه . وهم لم يلتفتوا لذلك . فظلوا يطلقون الهجاء إطلاقه القديم . وسموا ما تفرع عنه وامتد منه ذما أو تهجينا أو زهدا أو أدبا . فإذا اكتشفنا نحن هذا الخطأ أو النسيان فما ينبغى لنا أن نتحرج ونزعم أن اللغة ليست ملكا لنا . فالقدماء أنفسهم قد سمحوا لمدلولات الألفاظ أن تتطور . والأدب نفسه قد تطور مدلوله منذ الجاهلية إلى عصرنا فضاق واتسع مرات .

الهجّاء يصور مثله الأعلى . ولكنه يصوره خلال سخطه وغضبه أو اشمئزازه واحتقاره . فهو يصوره بطريق غير مباشر حين يصوره المادح أو شاعر الحماسة — وليس المدح إلا حماسة فى حقيقة الأمر — بطريق مباشر . فهذا الفن الأدبى الذى يصور المثل الأعلى للشاعر بالسخرية من نقيضه ، ينبغى أن يدرس مجتمعاً بعضه إلى البعض . لأنه يصور ظاهرة فنية واحدة ، ولأنه

يصدر عن عاطفة واحدة ، ويتجه إلى هدف واحد . ونحن لا نبالى إذا جمعت هذه الأنواع الأدبية تحت جنس واحد أن تسمى ما تسمى . فلنسمها هجاء إن شئنا ، ولنبحث لها عن اسم آخر إن أردنا أن نطلق لفظ الهجاء على هذا الشكل الأدبى الذى تعود القدماء أن يطلقوه عليه . فليست التسمية بالشىء المهم . إنما المهم أن يقوم تقسيم الشعر ودراسته على أساس صحيح ، فلا نفرق منه ما ينبغى أن يجتمع ، ولا نجمع ما ينبغى أن يتفرق .

والأساس فى هذا الشكل الأدبى الذى نريد أن نسميه هجاء — لأنا لا نرى مانعا من هذه التسمية — أن الأديب يصور فيه مثله الأعلى لأن شيئاً قد عارض هذا المثل . وهذا الشىء قد يكون شخصاً من الأشخاص أو نظاما من النظم أو فكرة من الأفكار . فإذا صور الشاعر عاطفته فقد يصورها منصبة على هذا الشخص أو هذا النظام ، وقد يعم بها الجنس أو النوع الذى يجمع هذا الفرد وغيره من الأفراد التى تخضع لنفس الحكم والتى تثير عند الشاعر نفس العاطفة بتعارضها مع مثله الأعلى .

وهنا يجب أن نشير إلى فرق دقيق بين نوعين من الأدب لا ينبغى أن نخلط بينهما : هما شعر الهجاء والشعر التهذيبى (أو الأدب) كما كان يسميه بعض نقادنا القدماء . فالشعر التهذيبى يقصد به الوعظ والإرشاد ، أما الهجاء فيرمى به صاحبه إلى العقوبة والانتقام . فالأول يقدم درساً فى الأخلاق أو الدين أو الفلسفة . فى هدوء المعلم أو الواعظ والمبشر ، يزجيه الأمل فى الإصلاح . أما الهجاء فهو شريعة القصاص — كما يقول أرنولد — من المجرمين الذين لا تنالهم يد القانون القصيرة . فالهجّاء يرى أن هناك طائفة من المجرمين ، قد غلظت طبائعهم بما أشربوا فى قلوبهم الباطل والإثم والغرور ، حتى ما يؤثر فيهم نصح أو تحذير . فهو ينشر على الناس مخازيهم ، ويجعلهم أضحوكة ومثلة ، وقد لا يرجو من وراء عمله هذا أن يصلحهم أو يطهرهم . فالعلاقة بين الشعر التهذيبى والشعر الهجائى هى كالصلة بين المدرسة والمحكمة . أحدهما يسعى

لتكوين الفضيلة ونشر الحكمة . والآخر ينزل عقابه بالرذيلة ويهتك الستر عن الحماقة والسفه . دافع الشاعر التهذيبي رغبة صادقة فى الاصلاح ، ودافع الهجاء شهوة الغضب والانتقام . وقد تصور الهجاء الانجليزى (Pope) مهمة الهجَّاء تصوراً حسناً حين قال : —

Hear this and tremble, you who scaped the laws;
Yes, while I live, no rich or noble Knave,
Shall walk the world in credit to his grave;
To virtue only and her finds a friend;
The world beside may murmer or commend.

استمعوا إلى هذا وارتعدوا أيها الهاربون من القانون
فلن يستطيع الأغنياء والمخادعون من النبلاء — ما دبت فىّ الحياة —
أن يقطعوا حياتهم إلى القبر فى ثقة واطمئنان
للفضيلة وحدها ولأصدقائها أنا صديق
ما أبالى ضج الناس من حولى ساخطين . أو أثنو مادحين .

ولكى يستبين الفرق واضحاً بين النزعة التهذيبية والنزعة الهجائية ، نقدم قطعتين من الشعر ، إحداهما لأبى العتاهية ، والأخرى للمتنبي ، ثم ننظر فى الفرق بينهما!

يقول أبو العتاهية

الحرص داء قد أضـ	ـر بمن ترى إلا قليلا
كم من عزيز قد رأيـ	ـت الحرص صيره ذليلا
فتجنب الشهوات واحـ	ـذر أن تكون لها قتيلا
فلرب شهوة ساعة	قد أورثت حزناً طويلا
من لم يكن لك منصفاً	فى الود فابغ به بديلا
وعليك نفسك فارعها	واكسب لها فعلا جميلا

والمتنبي يقول :

فــؤاد ما تسليه المــدام وعمر مثل ما تهب اللئام [١]
ودهر ناســه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرَّغام [٢]
أرانب غير أنهمُ مــلوك مفتحة عيونهم نيــام [٣]
بأجسام يَحَرّ القتل فيها وما أقرانهــا إلا الطعام [٤]
وخيل ما يخر لها طعين كأن قنا فوارسها ثمام
خليلك أنت لا من قلت خِلّ وإن كثر التجمل والكلام
ولو حيز الحفاظ بغير عقل تجنب عنق صيقله الحسام [٥]
وشبه الشيء منجذب إليه وأشبهنــا بدنيانا الطغام
ولو لم يعل إلا ذو محــل تعالى الجيش وانحطّ القتام
ولو لم يرع إلا مســتحق لرتبته أســامهم المسام [٦]

* *

الفرق واضح بين الشاعرين، فالأول يقدم النصح للناس فى هدوء، ليس فى نفسه أثر لحقد أو غضب ، لأن عيوب الناس لا تثير فيه إلا العطف ، فهو يحاول أن يأخذ بيدهم لينجيهم من العذاب ، ويدلهم على طريق السعادة ، وكله أمل فى النجاح . أما المتنبي فهو محنق مغيظ ، وهو كالأب الذى يعالج أخطاء

---

(١) يقول إن آماله ضخمة عريضة ولكن عمره قصير لا يتسع لتحقيقها وهو يشبه عمره فى قصره بعطية البخيل اللئيم

(٢) الرغام التراب يقول إنه بين الناس كالذهب فى التراب .

(٣) يصف الناس بالغفلة ويشبههم بالأرانب تنام وعيونها مفتوحة

(٤) يقول إنهم لا يموتون فى حرب ولكنهم نهمون تقتلهم التخمة والشره للمأكل الذى لا يحفلون بغيره

(٥) يقول إن الناس لا عقول لهم ولذلك فهم لا يحافظون على حق ولا يرعون ذمة ولو جاز أن يكون الحفاظ لغير العاقل لنبا السيف عن عنق صاقله وصانعه إذا ضرب به .

(٦) يقول لو أن الأمور تجرى على الحق والعدل لكان الملوك سوقة والسوقة ملوك .

ابنه بالضرب بدل أن يعالجها بالنصيحة . ولكن الأب قد يرجو أن يصلح ابنه بالقسوة ، أما المتنبي فهو لا يفكر إلا فى نفسه . هو يريد أن يتشفى وينفس عن غضبه ، ثم لا يبالى بعد ذلك شيئاً

وليس يفهم من هذا أننا نغض من قيمة الهجاء والهجائيين بما نصورهم فى هذه الصورة البشعة التى لايستجيبون فيها إلا لشيطان الغضب . فالواقع أن فى الهجاء قوة بنائية إلى جانب هذا المظهر الهدّام، الذى هو أول مايطالع المتصفح له . فهو حين يهاجم شخصا من الأشخاص أو نظاما من النظم أو نزعة من النزعات ، يتصور فى حقيقة الأمر حياة أخرى بأشخاصها ونظامها وأساليبها، هى مثله الأعلى الذى يطمح إليه ويدعو له . فالهجاء له فلسفة فى الحياة يريد أن يؤديها إلينا على أن الزمن الذى كانت تقاس فيه الفنون بمقدار ماتنفع وتفيد من الناحية المادية قد مضى وأصبح الشعور الصادق فى اللفظ الجميل هو قوام الشعر الصحيح — كما يقول فاليرى — ولم يعد الفن وسيلة لشيء . ولكنه أصبح غاية فى نفسه . وكل مايطالب به الشاعر أن يكون دقيقا قويا فى المزاوجة بين إحساسه الفنى وبين الكلمات ، بحيث ينبجس شعره أنشودة رائعة وأثراً كاملا لما فى نفسه .

يقسم النقاد الهجاء إلى ثلاثة أقسام هجاء شخصى وهجاء أخلاقى وهجاء سياسى

فالهجاء الشخصى يعتمد على مهاجمة الأفراد وهو أقدم أنواع الشعر الهجائى . وهو فى معظم الأحيان متأثر بالأهواء الشخصية . بعيد عن العدل والإنصاف . لأنه لايرتقى إلى عناصر الحياة العامة إلا فى القليل من نواحيه، فهو أقرب للسباب. وأدنى إلى أن يتورط فى الفحش . ومثل هذا الشعر قد يعجب المعاصرين ويسترعى انتباههم. فيرددونه شامتين أوساخطين . ولكنه يفقد جزءاً كبيراً من قيمته بتداول العصور. فلا يتحمس له الناس ولا يجدون فيه المتعة . إلا بمقدار ما يشتمل عليه من نادرة طريفة . أو سخرية مسلية

أو نكتة مضحكة . وأكثر ما يكون الهجاء الشخصى ناجحا إذا استطاع فيه الشاعر أن يخفى حقده نحو الأفراد ، فيبدو غضبه منصبا على رذائل سائدة وحماقات منتشرة ،لاتعرض فيها أسماء الأشخاص إلا على سبيل التوضيح والمثال، كالذى نجده عندالجاحظ فى «البخلاء». ولسنا بحاجة إلى تقديم أمثلة شعرية لهذا القسم ، فهى كثيرة معروفة فى الشعر العربى القديم .

أما الهجاء الأخلاقى ، فموضوعه الجرائم الأخلاقية أوالدينية ،والمفاسد الاجتماعية . والعادات القبيحة . والعيوب الإنسانية على وجه العموم. وقد يعم به الهجّاء جنسا من الأجناس لا يعين منه أفراداً ، كالذى نجده فى شعر المعرى من السخط على المرأة أو رجال الدين ، فهو لا يعنى فيه امرأة مقصودة أو رجلا بعينه من رجال الدين، ولكنه يرى رذائل مصورة فى بعض من عرف من أولئك وهؤلاء ، فيدفعه السخط والاشمئزاز إلى التعميم . وبعض شعر المعرى يبدو مظلما مملا لا يروق المتفائلين . لأنه يبدو وكأنه لا يصدر عن سخط أخلاقى ، ولكن عن كراهية ونفور من الجنس البشرى .

انظر ما يقول فى هجاء رجال الدين[1]

وقد فتشت عن أصحاب دين	لهم نُسُك وليس لهم رياء
فألفيت البهائم لا عقول	تقيم لها الدليل ولا ضياء
وإخوان الفطانة فى إختيال	كأنهم لقوم أنبياء
فأما هؤلاء فأهل مكر	وأما الأولون فأغبياء
فإن كان التقى بَلَهاً وعِياً	فأعيار المذلة أتقياء[2]

ولاحظ ما يسودها من سخط على الجنس البشرى كله . فهو لا يصب سخطه على المتدينين وحدهم. ولكنهم يشمل به المتدينين وغير المتدينين فالمتدين أبله موصوم بالرياء ،وغير المتدين ماكر يملأه الكبر والغرور .

---

(١) اللزوميات ١ : ٤٢

(٢) الأعيار جمع عير وهو الحمار . يقول لو كان كل ما يتطلب فى التقى أن يكون أبله عيا لكان الحمار أحق شىء بوصف التقوى

وانظر مايقول عن الوعاظ فى موضع آخر (١)

رويدك قد غُررتَ وأنت حر   بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحا   ويشربها على عمد مساء
تحساها فمن مزج وصرف   يُعلّ كأننا ورد الحساء
يقول لكم غدوت بلا كساء   وفى لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى   فمن جهتين لا جهة أساء

وفى موضع ثالث (٢)

أقيمى لا أعد الحج فرضا   على عجز النساء ولا العذارى
وفى بطحاء مكة شر قوم   وليسوا بالحماة ولا الغيارى
وإن رجال شيبة سادنيها   إذا راحت لكعبتها الجمارا
قيام يدفعون الوفد شفعا   إلى البيت الحرام وهم سكارى
إذا أخذوا الزواتف أوجعوهم   ولو كانوا اليهود أو النصارى

أما تحامله على المرأة فهو معروف مشهور منه (٣)

خصاؤك خير من زواجك حرة   فكيف إذا أصبحت زوجا لمومس
وإن كتاب المهر فيما التمسته   نظير كتاب الشاعر المتلمس (٤)
فلا تُشهدَن فيه الشهود وألقه   إليهم وعد كالعائر المتشمس (٥)
ولبسك ثوب السقم أحسن منظرا   وأبهج من ثوب الغوى المتدمس (٦)
وإنك إن تستعمل العقل لا يزل   مبيتك فى ليل بعقلك مشمس

---

(١) اللورميات ١ ٥٠

(٢) اللزميات ١ ٦١   (٣) اللزوميات ٢ ٣٥

(٤) المتلمس شاعر جاهلى حقد عليه عمرو بن هند ملك الحيرة لهجائه فاحتال لقتله بأن أرسله بكتاب إلى عامله فى البحرين يأمره بقتله ولكن المتلمس توجس الشر ففض الكتاب فى الطريق وقرأه فنجا بنفسه

(٥) العائر الفرس الذى أفلت من صاحبه من عار الفرس بعير إذا أفلت وذهب على وجهه . والمتشمس المتعصى الممتنع

(٦) المتدمس المختال

وله فى اللزوميات قصيدة طويلة تبلغ ستة وتسعين بيتا معظمها فى هجاء المرأة . فهى أشبه بأهجية جوفينال السادسة . ومنها [١]

فوارس فتنة أعلام غى — لقينك بالأساور معلمات
ولكن الأوانس باعثات — ركابك فى مهالك مقتمات
صحبنك فاستفدت بهن ولدا — أصابك من أذاتك بالسمات
ومن رزق البنين فغير ناء — بذاك من نوائب مسقمات
فمن ثكل يهاب ومن عقوق — وأرزاء يجئن مصممات
وإن تعط الاناث فأى بؤس — تبين فى وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حليا — ويلقين الخطوب ملوحات
ولسن بدافعات يوم حرب — ولا فى غارة متغشمات
وليس عكوفهن على المصلى — أمانا من غوارر مجرمات
ولا تحمد حسانك إن توافت — بأيد للسطور مقومات
فحمل مغازل النسوان أولى — بهن من اليراع مقلمات
وإن جئن المنجم سائلات — فلسن عن الضلال بمنجمات
ليأخذن التلاوة عن عجوز — من اللائى فغرن مهتمات
فما عيب على الفتيات لحن — إذا قلن المراد مترجمات
فلا يدخلن دارك باختيار — فقد ألفيتهن مذممات
ولا يتأهلن شيخ مقل — بمعصرة من المتنعمات
فإن الفقر عيب إن أضيفت — إليه السن جاء بمعظمات

وواضح فى كل هذه الأهاجى ما يغشيها من تشاؤم وكراهية للنوع البشرى .

ومن الهجاء الأخلاقى قول بشار :

خير إخوانك المشارك فى المر — ر فأين الشريك فى المر أينا
الذى إن شهدت سرك فى الحـ — ـس وإن غبت كان أذنا وعينا

---

(١) اللزوميات ١ : ١٧٧ — ١٨٣ .

مثل سر الياقوت إن مسه النـــار جلاه البلاء فازداد زينـــا

أنت فى معشر إذا غبت عنهم بدلوا كل مايزينـك شينـا

وإذا مارأوك قالوا جميعـا أنت من أكرم البرايا علينا

ما أرى للأنام ودا صحيحا عاد كل الوراء زورا ومينـا

والفرق واضح بين المرارة القاسية التى تسم شعر المعرى، وبين النقد الذى هو أدنى للحكمة الأخلاقية عند بشار :

والنوع الثالث من الهجاء هو الهجاء السياسى . وهو يتميز عن سابقيه بأن صاحبه يرى مثله الأعلى فى حزب من الأحزاب أو طائفة من الطوائف أو مذهب من المذاهب ، فهو يهاجم كل ما يتعارض مع هذا المثل من نقائص ومعايب تتمثل فى أنصار حزب آخر . وهو يزعم فى كل هذا — صادقاً أو متصنعاً — أنه يهاجم فى سبيل الفضيلة والحق ونستطيع أن نلحق بهذا القسم الهجاء الدينى والهجاء القبلى . أما الهجاء الدينى فنجد له أمثلة فيما كان بين شعراء المسلمين وشعراء قريش أول ظهور الاسلام وأما الهجاء القبلى فهو فى الواقع ليس شعراً سياسياً بالمعنى الدقيق ، ولـكنه يصور الشعر السياسى فى طوره البدائى عند العرب . فالعرب فى جاهليتهم لم يعرفوا نظام الدولة ومن ثم لم تـكن لهم أحزاب منظمة تتقيد ببرامج خاصة . ولـكن العربى مع ذلك كان يحمل لقبيلته من القداسة والاجلال ، مثل ما يحمل المواطن لوطنه بل أشد . وكان للفرد على قبيلته من الحقوق ، ما يشبه حق المواطن على وطنه. فهى مكلفة بحمايته من كل اعتداء . وهو بعد هذا مسئول أمامها ، مرتبط بها لارأى له إلا مارأت . وهو يضع سيفه ولسانه فى خدمتها . ولها أن تحرمه من جنسيته بأن تتبرأ منه وتعلنه طريداً

فمن الشعر السيـاسى قول ابن بقيلة (وهو من اليمنية الذين ارتدوا عن الإسلام عصبية على نزار[1] :

---

(١) الطبرى ٢ ٥٦٦

أبعد المنذرين أرى سواماً   تروح بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرعى   قلوصاً بين مرة والحفير
فصرنا بعد هلك أبى قبيس   كجرب المعز فى اليوم المطير
تقسمنا القبائل من معد   علانية كأيسار الجزور
وكنا لا يرام لنا حريم   فنحن كضرة الضرع الفخور
نؤدى الخرج بعدخراج كسرى   وخرج من قريظة والنضير
كذاك الدهر دولته سجال   فيوم من مساءة أو سرور

ومنه قول حنظلة الكاتب فى فتنة عثمان[١]

عجبت لما يخوض الناس فيه   يرومون الخلافة أن تزولا
ولو زالت لزال الخير عنهم   ولاقوا بعدها ذلا ذليلا
وكانوا كاليهود أو النصارى   سواء كلهم ضلوا السبيلا

وقول حسان[٢] :

أتركتم غزو الدروب وراءكم   وغزوتمونا عند قبر محمد
فلبئس هدى المسلمين هديتم   ولبئس أمر الفاجر المتعمد
إن تقدموا نجعل قرى سرواتكم   حول المدينة كل لين مذوذ
أو تدبروا فلبئس ماسافرتم   ولمثل أمر أميركم لم يرشد
وكأن أصحاب النبى عشية   بدن تذبح عند باب المسجد
أبكى أبا عمرو لحسن بلائه   أمسى مقيما فى بقيع الغرقد

ومنه قول الشاعر يخاطب أم المؤمنين فى فتنة على ، حين طالبت بدم عثمان ، وكانت قد حضت على قتله[٣]

منك البداء ومنك الغير   ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الامام   وقلت لنا إنه قد كفر

(١) الطبرى ٣ : ٤١٧   (٢) الطبرى ٢ ٤٤٧
(٣) الطبرى : ٣ ٤٧٧

فهبنا أطعناك فى قتله / وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا / ولم ينكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرأ / يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها / وما من وفى مثل من قد غدر

ومنه قول الشاعر العلوى فى يوم صفين[١]

ألا أبلغ معاوية بن حرب / فإنك من أخى ثقة مليم
قطعت الدهر كالسدم المعنى / تهدر فى دمشق فما تريم
وإنك والكتاب إلى على / كدابغة وقد حلم الأديم
يمنيك الإمارة كل ركب / لأنقاض العراق بها رسيم
وقومك بالمدينة قد أبيدو / فهم صرعى كأنهم الهشيم
وليس أخو الترات بمن توانى / ولكن طالب الترة الغشوم
ولو كنت القتيل وكان حيا / لجرد لا ألف ولا سئوم
ولا نكل عن الأوتار حتى / يبىء بها ولا برم جثوم

ومنه قول الشاعر الخارجى عيسى بن فاتك التيمى[٢]

فلما أصبحو صلوا وقاموا / إلى الجرد العتاق مسومينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم / فظل ذوو الجعائل يقتلونا
بقية يومهم حتى أتاهم / سواد الليل فيه يراوغونا
يقول بصيرهم لما أتاهم / بأن القوم ولوا هاربينا
أألفا مؤمن فيما زعمتم / ويهزمهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم / ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك / على الفئة الكبيرة ينصرونا

---

(١) الطبرى ٣ ٥٦٣

(٢) الكامل ٢ ٥٧

ومنه قول أعشى همدان فى فتنة المختار [١]

شهــدت عليكم أنكم سبئية	وأنى بكم باشرطة الشرك عارف
وأقسم ما كرسيكم بسكينة	وإن كان قد لفت عليه اللفائف
وأن ليس كالتابوت فينا وإن سعت	شبام حواليه ونهد وخارف
وإنى امرؤ أحببت آل محمد	وتابعت وحيا ضمنته المصاحف
وتابعت عبد الله لما تتابعت	عليه قريش شمطها والغطارف

(١) الطبرى ٤ : ٥٥٠

الخصائص الفنية للشعر الهجائى

الهجَّاء ناقد بطبعه عياب. تسترعيه حماقات الناس وأخطاؤهم بأكثر مما تسترعيه فضائلهم، فهو لايحسّ مثله الأعلى بطريق مباشر، ولايفطن إليه إلا عن طريق ما يعارضه ويثيره، فكأنه لا يهتدى لنفسه إلا بالقدر الذى يدفعه إليه حقده وغضبه. فهو لا يكتشف ذوقه ومواهبه إلاعن طريق السخط، فإذا مات فى نفسه السخط، وسكت عنه الغضب، فقد معهما كل ظل من ملكاته محاسن الناس لا تثيره ولا تحرك نفسه. فهو يقول الشعر لأنه مغيظ وقد تساءل جوفينفال فى أهجيته الأولى عن السبب الذى يدعوه إلى الهجاء، ثم أجاب عن ذلك بأن الغضب يدفع إلى الشعر. ولقد يكفى أن يفتح إنسان عينيه فى بساطة، ليعرف أن من الصعب أن لا يقول هجاء

الهجّاء ساخط على المجتمع ثائر على مافيه ضيق به وهذا الشعور مركوز فى نفسه، مستقر فى باطنه. فهو يحول بينه وبين إدراك الجانب المضىء من الحياة. فهو كالثور الذى لا يحركه إلا منظر الدم هو جلاد لا يرى من عمله تعليق النياشين على صدور الأكفاء. ولكنه يصب سوطه على ظهور المجرمين.

ولو تتبعنا تاريخ الهجائين فى الآداب المختلفة لرأيناهم قد قاسوا من الحياة مابغضها إليهم، وحقرها فى نظرهم، وجعلهم يتطيرون بكل شىء فيها فالهجاء نتيجة عقدة نفسية، وربما كان فى كثير من الأحيان نتيجة لمركب نقص.

كان الحطيئة دميم الخلقة مغموز النسب وكان جرير متواضع النشأة والنسب وكان بشار مشوه الخلق وكان أبوه مولى مهينا وكان الجاحظ أسود قصيراً دميما ولو تتبعنا شعراء الموالى فى العصر الأموى لوجدناهم فى معظمهم هجائين منهم أبو عطاء السندى [1] وزياد الأعجم [2] والرماح

---

(١) الشعر والشعراء ٢٩٦، الأغانى ١٦ ٨١

(٢) الشعر والشعراء ٢٩٨، والأغانى ٢ ٢٦٣

ابن يزيد [١] وأبو العباس الأعمى [٢] وبشار وكذلك شأن الهجائين فى مختلف الآداب . فنى الأدب اللاتينى نجد أن جوفينال كان موتوراً لاقى فى نشأته الأولى كثيراً من الاستخفاف والاحتقار ، حين اضطره فقره إلى الاعتماد على بعض السادة من الأغنياء ، يضع نفسه تحت حمايتهم وينال عطاءهم لقاء شعره . وقد علم أن له من المواهب والذكاء ما يفضل به هؤلاء السادة الذين يعتمد عليهم فى حياته فترك ذلك فى نفسه مرارة لاذعة، تبدو فى قوله (إنه لخير للإنسان أن يكون كل ما يملكه ضباً واحداً من أن يكون له قصر فى روما) . وكان مارشيال مضطرباً معذباً مدة إقامته فى روما ، وقد اضطر آخر الأمر أن يعود — غير آسف — إلى وطنه فى اسبانيا أما استاذهما هوارس فقد كان أبوه رقيقاً معتقاً وقد مرت بحياته أزمات كاد يموت فيها جوعا ولم يستطيع أن يحصل على عيشه إلا كاتباً للنائب الذى يتولى تحقيق قضايا القتل والإفلاس (Quaestor) .

وكذلك كان شأن الهجائين فى الأدب الأنجليزى. كانت حياة بوب (Pope) مرضاً طويلا كما يصفها هو فقد كان عاجزاً عن أن يرتدى ملابسه بغير مساعدة . وكان شديد الحساسية بالبرودة إلى حد أنه كان مضطراً أن يلبس نوعا مزدوجا من الفرو تحت قميصه المبطن الكثيف وكان أحد جنبيه متقلصا لايستطيع الوقوف منتصباً إلا إذا شد وسطه بنطاق من نسيج صلب . وكان لنحول ساقيه يضطر للبس ثلاثة أزواج من الجوارب ، لا يستطيع ارتداءهما أو نزعهما بغير مساعدة وكان ينتابه مع ذلك كله صداع منهك يحطم مابقى من قواه . وقد قضى بعد موت أمه حياة مُوحشة مقفرة لأنه لم يتزوج

وكذلك كانت حياة صديقه سويفت (Swift) مؤلف رحلات جاليفر (Galliver's Travels) فقد نشأ يتيما مات أبوه قبل مولده ، فتولى عمه

---

(١) الشعر والشعراء ٢٩٨ (٢) الأغانى ١٥ ٥٩

تربيته ولم ينل لقمة العيش فى أول حياته إلا بعد تعب شديد وقد قضى الأعوام السبعة عشر الأخيرة من عمره فى وحشة محزنة،ويأس من الحياة شديد ، بعد أن فقد أعز أصدقائه ،وتعاورته الأسقام والأوجاع وفى هذه الوحدة الموحشة والضيق الشديد، كتب قصته الهجائية التى هى أروع ما كتب، فكانت أقسى ما رمى به الجنس البشرى من هجاء . وأى هجاء هو أقسى،وأى سخرية هى أنكى،من القسم الرابع الذى يتصور فيه أرضاً تحكمها الخيول،ويقوم فيها الآدميون ،أو(الياهو)كما يسميهم السادة الخيول.مقام الخدم ويعتبرونهم أحط أنواع الحيوان .

ولم يكن حظ جونسون(Johnson) أحسن حظاً من زميليه،فقد كان طفلا سقيما، وأول ماتعيه ذاكرته من حياته المشئومة أن الملكة آن لمسته لتشفيه من مرض خبيث كان الناس يزعمون أنه لا يشفى إلا بلمس الملوك (King-evil داء الملوك) . وكان بصره يعانى من الأمراض الرمدية . وكان جسمه موضوعا للأمراض العصبية والتشنجية وقد بدء محاولته الأولى فى سبيل العيش حاجباً أو عريفاً فى مدرسة

كل هذا يعلل لنا الميول الهجائية فى الهجائين. ولكنه لايعلل لنا نبوغهم . فالسخط وحده قد يخلق هجاء. ولكن هذا الهجّاء لاينبغ ويتفوق حتى تتوافر فيه صفات أخرى. وأول هذه الميزات وأبرزها دقة الملاحظة . فالهجّاء طلعة بصير يفطن إلى أدق التوافه وألطفها مما يحيط به ، وهو ينظر إلى كل ما حوله بعين الناقد الذى يلتمس العيوب .فهو سىء الظن بالناس فى معظم الأحيان . وقد لا يحتاج الهجّاء إلى أن يكون عميق التفكير أو ممتاز الخيال.ولكنه لا يكون ناجحاً إلا إذا رزق العين الناقدة التى تحسن اختيار مواطن الضعف ، وتعرف أين تضرب فريستها. والهجّاء لايرزق الذيوع والشهرة إلا إذا كان فى أسلوبه لذع يعتمد على الذكاء والفطنة . فهو لايؤدى فكرته أداء مباشراً صريحاً . ولكنه يشير إليها فى حذق.ويلمح إليها فى لباقة،

ويسخر من فريسته مداعبا . فجرير حين يهجو تيما بالجبن لا يقول فى صراحة إنهم يفرون من ميدان القتال، ولكنه يقول :

ترى الأبطال قد كلموا وتيم صحيحو الجلد من أثر الكلوم

وابن الرومى يقول فى نفس المعنى .

لا يعرف القرن وجهه ويرى قفــاه من فرسخ فيعرفه

وابن الرومى من الهجائيين الممتازين باللباقة ويقظة النكتة . انظر إلى هذه الدعابة المضحكة والفكاهة الحلوة ، التى هى خليقة أن تغرى الناس بالحرص على الشعر فى قوله .

عشقنا قفا عمرو وإن كان وجهه يذكرنا قبح الخيانة والغدر

فتى وجهه كالهجر لا وصل بعده وأما قفاه فهو وصل بلا هجر

ثم انظر إلى مايصف به نفسه من دمامة الخلقة

شغفت بالخرد الحسان وما يصلح وجهى إلا لذى ورع

كى يعبد الله فى الفلاة ولا يشهد فيــه مساجد الجمع

ومارسيال يهجو شاعرا بتفاهة شعره فلا يقول له ذلك بصراحة . ولكنه يتلطف فى أدائه فيقول :

تسألنى باپوميليانوس كيف فاتنى
أن أبعث إليك بشعرى الكثير
وعـــذرى أنك فى مقابله
قد تبعث إلى ببعض شعرك

والهجاء مع هذا ماهر فى التماس وجوه الشبه بين موضوع هجائه وبين أقبح الصور ، وأبعثها على الضحك والاستهزاء . ومن الهجائيين من يرزق إلى جانب هذه الموهبة عبقرية فى الحس اللفظى تلتئم فيها الألفاظ (من حيث هى حروف تتوالى) بالصور التئاما عجيباً . ولا نكاد نعرف هجاء عربيا

يعدل جريرا فى هذه الناحية فهجاؤه يستفز القارىء للضحك قبل أن يروى فى معناه ويحققه . انظر إلى قوله

ترى التيمى يزحف كالقرنبى إلى سوداء مثل قفا القدوم

واعتبر غرابة الصورة وقبحها المضحك . والتئام هذا مع الألفاظ التى تستجعل القارىء بالضحك أول ماتصافح سمعه ولعل تكرار القاف ودورانها فى البيت مما يعين على ذلك ، ثم انظر إلى قوله :

كأنى إذ فزعت إلى أحيح فزعت إلى مقوقية بيوض

أوزة غيضة لقحت كشافا لقحقحها إذا درجت تفيض

واعتبر دوران القاف فى هذه الأبيات أيضاً ثم استمع إلى قوله فى أم الأخطل

تغلى الخنانيص والفول الذى أكلت فى حاوياوى ردوم الليل مجعار

كيف يضحكك البيت قبل أن تتفهم معناه . فإذا تعرفت إليه لم تجده شيئا . فهى تأكل الفول وصغار الخنازير فتضطرب فى أمعائها

والهجاء — مع هذا كله — يعتمد على التأثير السريع والوضوح الخلاب . فأسلوبه يمتاز بالبساطة التى لا أثر فيها للتكلف . وقد يحمل فيه الإسفاف والهبوط إلى مستوى النكتة العامية والحديث الشائع المتداول بين العامة أما الفكرة العميقة . والفن الشعرى السامى . الذى يصدر عن الجهد الطويل . والإمعان فى التروى والتفكير ، فهو يذهب بشطر كبير من قوته وتأثيره . لم يفسد هجاء الفرزدق شىء كالتكلف . ولم يضعف هجاء أبى تمام شىء كالعمق والإبعاد فى الخيال . ولعل هذا هو مايعنيه صاحب زهر الآداب بقوله (وأصحاب المطبوع أقدر على الهجاء من أهل المصنوع . إذ كان كالنادرة التى إذا حدثت على سجية قائلها . وقربت من يد متناولها وكان واسع العطن ، كثير الفطن ، قربت القلب من اللسان . والتهبت بذر الإحسان[١]) .

---

(١) زهر الآداب ٣ — ٥٣

الهجاء نقد للحياة . فهو يأخذ مادته من الواقع ولا يستمدها من الخيال أو التفكير . ولذلك كانت أبرز صفاته الواقعية البعيدة عن الإسراف فى الصناعة، والتى تقوم على تجارب الحياة ودقة الملاحظة لما يجرى فيها من أحداث فهجاء المعرى فى لزومياته ليس إلا ملاحظات من صميم الواقع ، ينـدد فيها بالضعف الإنسانى فى شتى مظاهره من خداع ونفاق وغرور ورياء وقسوة وأنانية . فهذا رجل غليظ القلب يحمّل حماره المسكين فوق ما يطيق ، فإن عجز عن الحمل فرزح تحته أو ونى وفتر ، أحال عليه ضربا وجلدا

لقد رابنى مغدى الفقير بجهله ... على العير ضربا ساء مايتقلد

يحمله مالا يطيق فإن ونى ... أحال على ذى فترة يتجلد

يظل كزان مُـفتر غير محصن ... يقام عليه الحد شفعا فيجلد

تظاهر أبلاد الرزايا بظهره ... وكشحيه فاعذر عاجرا يتبلد

وهذا آخر يحتضر، ولـكن الغرور لا يفارقه ، فهو يحرص على أن يوصى قبل موته ، وكأنه سيعود إلى الدنيا بعد أيام .

يوصى الفتى عنـد الحمام كأنه ... يمـر فيقضى ساعة ويعـــود

ومانبست من رجعة نفس ظاعن ... مضت ولها عند القضاء وعود

وذاك واعظ منافق يجلس إلى الناس، فيحرم عليهم الخبائث، وينهاهم عن الشر وهو يأتى أغلظ الآثام عن عمد :

رويدك قـد غررت وأنت حر ... بصاحب حيـلة يعظ النساء

يحرم فيـــكم الصهباء صبحا ... ويشربها على عمـــد مساء

تحساها فمن مزج وصرف ... يعل كأنما ورد الحســـاء

يقول لـكم غدوت بلا كساء ... وفى لذاتها رهن الكساء

وتلك امراة مغرورة تؤمل أن يكون ابنها شيئا مذكورا، وترجو من حياته خيراً كثيراً . فهى تأتى به إلى المنجم تسأل كم تراه يعيش ، والمنجم أجهل الناس بالغيب . ولـكنه حريص على أن يطيل فى عمره ليشبع غرورها ، فهى

لا تجزل له العطاء إلا إذا سخا فى تقدير سنه . فيزعم لها أنه سيعيش مائة سنة، ثم تنصرف الأم بوليدها، فيأتى عليه الموت لشهره . وهذه فتاة تسعى جاهدة لتجد زوجا، ظنا منها أن فى ذلك الخير ، وهى إن كانت عفة طاهرة فلعلها أن لاتقع على طاهر عف ! والناس يكرهون البنات ويحبون البنين، ويتصور أحدهم أن هذا الابن سيعلى من قدره فى الحياة .وأنه سيسبق به الدنيا، فكانه المهر ينزل به إلى السباق مختالا ، وإنما هو وهم الإنسان وسفهه ، فليس أعدى للرجل من ولده .

سألت منجمها عن الطفل الذى	فى المهد كم هو عائش من دهره
فأجابها مائة ليأخـــذ درهما	واتى الحمام وليدها فى شهره
قلب الزمان فرب خود تبتغى	زوجا وتبـــذل غاليا فى مهره
إن كانت امراة الفتى فى طهرها	فلعله لم يأتها فى طهـــره
كره الجهول بناته وسليله	أجنى لمـا يغتاله من صبره
أعدى عدو لابن آدم خلته	ولد يكون خروجه من ظهره
وسفاهة الإنسان موهمـة له	بذ القوارح فى الرهان بمهره

هذا هجـاء لا يقوم إلا على تقرير الواقع، وتقديم صور من الحياة ، كل قيمتها فى صدقها، وفى قدرة الشاعر على التقاطها من شتى الصور المتشابكة فى الحياة ، وانتشالها من بين أخلاط المناظر ، وأكداس المحسوسات . يبرزها للقارىء ماثلة مجسمة ، فكأنه يراها للمرة الأولى ، وهى تحت بصره وسمعه . يمر بها فى كل يوم

وإذا أعدنا النظر فى كل هذا الهجاء لم نجد فيه نصيبا كبيرا للخيال أو الصناعة الشعرية ، فهو كلام أشبه بالنثر . يقرر الأشياء كما هى، كل عمل الخيال فيها هو التلفيق، وجمع أجزائها المبعثرة من هنا ومن هناك ،يلائم بينهـا ليخلق منها صورة كاملة

والواقع أن التعمق فى الخيال، والإسراف فى الصناعة الشعرية، وفى تكلف

الجزالة وسمو العبارة، يضعف الهجاء ويفقده قيمته، لأنه يباعد بينه وبين الواقع. ولذلك كان أصحاب الصنعة من الشعراء أقل الناس توفقاً وإصابة فى هذا الفن، فهجاء أبى تمام فاتر لأنه يقوم على الصناعة، ولا يقوم على تقرير الواقع . انظر إليه كيف يبعد فى التكلف حين يهجو أبا المغيث فيقول

هب من له شىء يريد حجابه ... ما بال لا شىء عليه حجاب
ما إن سمعت ولا أرانى سامعا ... أبداً بصحراء عليها باب
من كان مفقود الحياء فوجهه ... من غير بواب له بواب

وحين يتناول نفس المعنى فى موضع آخر فيقول :

لا تكلفن ـ وأرض وجهك صخرة ـ ... فى غير منفعة مؤونة حاجب
ما كنت أول آخر فى قدرة ... أثرى فصغر قدر حق الواجب
خذ من غدى الجائى بخزيك ضعف ما ... أعطيتنى فى صدر أمسى الذاهب

ثم أنظر إليه فى هجائه لعياش لما يئس من عطائه ، وإلى إفساده هجاءه بالإغراب فى التشبيه والتعمق فى الخيال :

محت نكباته سبل المعانى ... وأطفأ ليله سرج العقول
رجاء حل من عرصات قلبي ... محل البخل من قلب البخيل
فأجدى موقفى بنداك جدوى ... وقوف الصب فى الطلل المحيل
وأعكفت المنى فى ذات صدرى ... عكوف الدمع فى الخد الأسيل

فهذا شعر لا يفهم إلا بعد تدبر وروية وإعمال فكر . والهجاء يعتمد فى تأثيره على الوضوح الخلاب الذى يضحك القارىء أول مايقرأه ، فهو كالنكتة، إذا لم تفهم إلا بعد تفكير فترت وبردت وذهب بريقها .

وقد كان الأخطل — مع مكانته الشعرية — أقل زملائه الثلاثة حظا من هذا الفن، لأنه كان يجوّد شعره ويعنى بتسويته، ويذهب به مذهب الفخامة والتسامى . فهو لا يعيش مع الناس ، ولا يستمد هجاءه من خصمه ، ولكنه

يأخذه من فنه الشعرى . فبينما نرى جريرا يعتمد على الواقع وعلى دقة الملاحظة حين يهجوه بالبخل فيقول :

والتغلبى إذا تنحنح للقرى حك استه وتمثل الأمثالا

نجد الأخطل يعتمد على فنه وخياله حين يتناول نفس المعنى فيقول :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم بولى على النـــار

بيت جرير يستند إلى الواقع . فالصورة التى يقدمها حية لأنها من صميم الحياة . هذا الرجل البخيل قد تولته الحيرة . وتملكه الاضطراب، حين نزل به الضيف. ولذلك فهو يكثر من هذه الحركات العابثة ،التى تصور رجلا لايدرى ماذا يصنع . فهو يتنحنح لأنه لايدرى ماذا يقول . قد حل به الرجل فى موعد الطعام . وهو لا يريد أن يطعمه . فبأى حيلة يصرفه ؟ فهو يحك بيده بعض أجزاء جسمه فى اضطراب ظاهر . ويصرف الضيف إلى التمثل ببعض الأمثال، لعله يجد فى ذلك مخرجا . هذه صورة حية لاشك، تستند إلى الملاحظة الدقيقة لما خفى من الحركات النفسية ومظاهرها الجسمية، تجعل الهجاء صورة ناطقة متحركة من الحياة .

أما بيت الأخطل فهو يقوم على الصناعة وحدها ، وليس فيه من الواقع شىء فهو يستوحى خياله هذه الصورة الغريبة التى تجمع ألوانا من معانى البخل والامتهان والدناءة لا يكاد قوم جرير يسمعون نباح الكلب ، حتى يعلموا أن ضيفا قد طرقهم، فيسرعون إلى النـــار يطفئونها . وهم يطفئونها بطريقة عجيبة ، يطلبون إلى أمهم العجوز أن تبول عليهـــا ، مع ما فى ذلك من الامتهان لها والابتذال لحرمتها والنـار من الضئولة والتفاهة بحيث تكفى بولة عجوز لإطفائها وهذه صورة —على مافيها من البراعة الفنية— أبعد الأشياء عن الحياة وعن الذى يحدث فيها بالفعل

ويهجو الأخطل ابن بدر معيرا إياه هربه فى بعض الوقائع . فينصرف إلى فنه الشعرى، يجوده ويختار له أروع الألفاظ ، ويصف الفرس وراكبها

أجمل وصف وأبرعه . ولكنه ينسى أنه يهجو وأنه يهجو ليوجع خصمه ويشهر به يقول

ونجّى ابن بدر ركضُه من رماحنا بنضاحة الأعطاف ملهبة الحضر
إذا قات نالته العوالى تقاذفت به سوحق الرجلين سابحة الصدر
كأنهما والآل ينجاب عنهما إذا هبطا وعثا يعومان فى غمر
كأن بطبيها ومجرى حزامها أداوى تسح الماء من حور وفر
فظل يفديها وظلت كأنها عقاب دعاها جنح ليل إلى وكر
وظل يجيش الماء من متفصد على كل حال من هزائمه يجرى
يْسِر اليها والرماح تنوشه فدى لك أمى إن دأبت إلى العصر
وبالله لو أدركنه لاضطرنه إلى صعبة الأرجاء مظلمة القعر
فوسد فيها كفه أو لحجلت ضباع الصحارى حوله غير ذى قبر

وهذا شعر رائع من الناحية الفنية ، ووصف ممتاز ، ولكنه هجاء ضعيف لا يترك فى الخصم أثرا وأين هو من هجاء جرير فى بساطته الواقعية الموجعة وتهكمه اللاذع، حين يقول

حملت عليك حماة قيس خيلها شعثا عوابس تحمل الأبطالا
مازلت تحسب كل شىء بعدهم خيــلا تشد عليكم ورجالا
زفر الرئيس أبو الهذيل أبادكم فسبى النساء وأحرز الأموالا
قال الأخيطل إذ رأى راياتنا يامار سرجس لا نريد قتالا
هلا سألت غثاء دجلة عنكم والخامعات تجمع الأوصالا
ترك الأخيطل أمه وكأنها منحاة ساقية تدير محالا
ورجا الأخيطل من سفاهة رأيه ما لم يكن وأب له لينالا
خل الطريق فقد رأيت قرومنا تنفى القروم تخمطا وصيالا
إن حرموك لتحرمن على العدا أو حللوك لتؤكلن حلالا

والواقعية فى الهجاء تستند فى كثير من الأحيان إلى دقة الملاحظة، التى

تجعل أجزاء الموضوع واضحة ، وتعين الشاعر على اختيار الصور اللاذعة التى تؤذى خصمه، وتجعله أضحوكة بين الناس . فمن أمثلة هذا الشعر الهجائى الذى يقوم على دقة الملاحظة ، قول يحي بن نوفل

وأما بلال فــــذاك الذى … يميل الشراب به حيث مالا
يبيت يمص عتيق الشراب … كمص الوليد يخاف الفصالا
ويصبح مضطربا ناعســـا … تخال من السكر فيه احولالا
ويمشى ضعيفا كمشى النزيف … تخال به حين يمشى شكالا

هـذا هجاء يقوم على الملاحظة الدقيقة لحالات الثمل ، واستخراج الصور اللاذعة من هذه الملاحظة . فهو يصور ذلك السكير الذى يلصق كأس الخمر بفمه ، ولايزال يرشفها فى تؤدة ،ولا يطيق بعدها عنه ، كأنه الطفل الرضيع لا يطيق الفطام ثم يصوره فى اضطرابه إذا أصبح مدوخ الرأس مطرقا ، وقد أثقل الخمار أجفانه . فبدا وهو يقاوم النوم ويحاول فتح عينيه الثقيلتين وقد رنق فيهما النعاس، كأنه أحول وهو إذا مشى لم يكد يستطيع نقل رجليه فهو يمشى متئدآ كالذى ألح عليه النزيف فأضعفه ، تضطرب رجلاه وتتداخلان ، كأنه دابة قيدت رجلاها بشكال .

ومن هذا الشعر الذى يقوم على دقة الملاحظة قول شاعر الحماسة :

وإذا مررت به مررت بقانص … متشمس فى شرقة مقرور
للقمل حول أبى العلاء مصارع … من بين مقتول وبين عقير
وكأنهن لدى دروز قميصه … فذ وتوأم سمسم مقشـور
ضرج الأنامل من دماء قتيلها … حنق على أخرى العدو مغير

فقد استطاع الهجاء أن يرسم صورة هزلية حية لهذا الرجل القذر ،الذى جلس فى الشمس ينتفض من البرد ، وقد خلع عنه ملابسه ، وراح يطارد هذه الحشرات التى لا تكاد تنتهى ، وقد التصقت بمواضع الخياطة من ردائه فرادى وجماعات كأنهـا سمسم مقشور . وهو مستغرق فى عمله قد تضرجت

أنامله من دماء هذه الحشرات التى يفركها بينها ، ولـكنه حنق قد أصابه الملل لهـذا الجيش الضخم من الحشرات الذى لا يكاد يستطيع أن يفرغ منه ، فهو لا ينفك ينقض فى غيظ على ما تبقى منها .

ومن هذا النوع قول شاعر الحماسة :

لا تنكحن الدهر ماعشت أيمّاً   مجرمة قد مـلّ منها وملت
تحك قفاها من وراء خمارها   إذا فقدت شيئا من البيت جـُنّـت
تجود برجليها وتمنع درها   وإن طلبت منهـا المودة هرت

فقد صور هذه العجوز الدميمة الفـانية أدق تصوير وأبشعه فنحن نتصور اضطرابها حين تحاول أن تتذكر شيئاً أودعته فى هذا المكان أو ذاك من البيت . فلا تسعفها ذاكرتها التى أضعفتها الشيخوخة فيجن جنونها ، وتظل فى حيرتها واضطرابها تحك قفاها من خلف الخمار الذى يغطى رأسها المتهدج فيزيدها قبحاً على قبح ، ويضاعف ما كساها الهرم من بشاعة المنظر .

ويهجو المتنبي ابن كيغلغ فيقول :

وجفونه ما تسـتقر كأنها   مطروفة أو فـتّ فيهـا حصرم
وإذا أشار محـدثاً فـكأنه   قرد يقهقه أو عجـوز تلطم
وتراه أصـغر ما تراه ناطقاً   ويكون أكذب مايكون ويقسم

فقد صور هذا الرجل أبعد الناس عن الرزانة أو الوقار الذى ينبغى لمن فى مثل مقامه . فهو كثير الحركة فى غير موجب ، تضطرب عيناه فى حركة عصبية دائمة ، كأنهما مطروفتان ، أو كأنما أصابهما حصرم ، فهو جاهد فى تخليصهما منه بموالاة فتحهما وإغلاقهما . وهو كثير الإشارات ، لا يكاد يستقر فى مجلسه إذا تحدث . فإذا ضحك قام وقعد . وماج واضطرب ، مصوتا مغربا فى الضحك ، كأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم . وهو أصغر ما يكون فى نظر جليسه إذا تكلم ، لأن كلامه يكشف عن جهله وتفاهة عقله . وهو كثير الحلف ، وأكثر ما يحلف أبعد ما يكون عن الصدق .

كل هذه الصور تقوم على الملاحظة الدقيقة لأدق الحركات وألطفها وهى مستمدة من صميم الواقع ومن قلب الحياة الجارية .

ومن مظاهر هذه الواقعية فى فن الهجاء، أن المثل التى يقوم عليها ويستند إليها مستمدة من تقاليد العصر ، ومن العرف الجارى بين الناس . فالهجاء — والشخصى منه بنوع خاص ، وهو شطر كبير من شعر الهجاء فى الأدب العربى — لايبالى أن يخالف القيم الأخلاقية ، فيهجو بالدمامة والرثاثة والفقر، وأن يتورط فى الفحش والسباب ، ويهبط إلى التبذل فى المعانى والألفاظ . ذلك لأنه يقصد إلى الإيجاع والتشهير بالمهجو بين أهل عصره وهذا هو النجاشى يهجو تميم بن أبىّ بن مقبل، بما لا بأس عليه منه عند أصحاب الأخلاق فيقول

قبيّلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يرون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل

وأبعد منه فى المناقضة لأصحاب الأخلاق ما يهجو به قريط بن أنيف قومه حين يقول

لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا

واستناد الهجاء إلى قيم الحياة الواقعة يجعله عرضة لأن يفقد قيمته بتغير الزمن واختلاف الظروف ، فلا يخلد منه إلا ما يستند إلى عاطفة إنسانية عامة، أو نكتة مضحكة، أو دعابة ساخرة . ومن أمثلة ذلك الهجاء هجاء الحطيئة الذى يقوم على المفاضلة ، والذى هو فى معظمه تقرير لوقائع كانت معروفة فى ذلك العصر ، مثل قوله فى هجاء الزبرقان:

أتحصر قوما أن يجودوا بمالهم فهلا قتيل الهرمزان تحاصره
فلا المال إن جادوا به أنت مانع ولا العز من بنيانهم أنت عاقره

ولا هادم بنيان من شرفت له ... قريع بن عوف حلفه وأكابره
فإن تك ذا عز قديم فإنهم ... ذوو إرث مجد لم تخنهم زوافره
وإن تك ذا شاء كثير فإنهم ... ذوو جامل لا يهدأ الليل سامره
وإن تك ذا قرم أزب فإنهم ... يلاقى لهم قرم هجان أباعره
قروا جارك العيمان لما تركته ... وقلص عن برد الشراب مشافره
همو لاحمونى بعد فقر وفاقة ... كما لاحم العظم الكسير الجبائر

هذا شعر ليس فيه إلا تقرير الواقع والاستناد إلى القيم الاجتماعية التى كان يعيش عليها الناس فى ذلك الوقت . وهو شعر لانجد فيه اليوم من الروعة ما كان يجده فيه أهل عصره ومع ذلك فقد كان يوجع الزبرقان ويمضه ألما، حتى لقد استعدى على الحطيئة عمر فسجنه وكان موضع الإيلام فى هـذا الشعر أن الشاعر يستغل ما بين المهجو وبين بنى عمومته من تنافس فى الشرف فيفضلهم عليه، ويقرر أنهم خير منه، وأنهم آووه وأطعموه حين قصروا عن ذلك. وهذا هو مذهب الحطيئة الذى اشتهر به فى أهاجيه، والذى نهاه عنه عمر، وهو استغلال لما عرف به العرب من التنافس والتكاثر والتفاخر

ولما كان الهجاء الشخصى بعيداً جداً عن الاستناد إلى عاطفة إنسانية عامة، كان أخلده وأبقاه ما غلبت عليه الدعابة التى تغرى الناس بروايته والتندر به والدعابة شىء موهوب غير مكسوب . فهى مركبة فى طباع الهجائين الممتازين، الذين لاتكاد عينهم تقع على الشىء، حتى تتدفق عليهم ألوان من الصور الفكهة، والأخيلة الساخرة، التى تسعفهم بها البديهة . وهى خاصة لاتدر على التفكير وإعمال العقل وكد المخيلة فالصورة تلمح فى ذهن الهجّاء الساخر الفطن، فتسعفه بالنكتة الصائبة، بمجرد وقوع عينه على موضوع هجائه أو تخيله .وهذه الخاصة تصور ذكاءا لماحا، وهدوءا فى الطبع، وبروداً فى الأعصاب، يحتفظ بروح المرح بعيدة عن أن يطغى عليها الغضب فيفسدها ويذهب بها

يرد ابن الرومى على شاعر هجاه فيقول له : لماذا تهجونى ؟ أليس يكفيك

فى هجائى أن آدم يجمعنى وإياك ؟ ثم يزعم أن إبليس لم يمتنع عن السجود لآدم إلا لأن هذا المهجو كان فى صلبه

أبى وأبوك الشيخ آدم تلتقى مناسبنا فى ملتقى منه واحد
فلا تهجنى. حسبى من الخزى أننى وإياك ضمتنى ولادة والد
فلو لم تكن فى صلب آدم نطفة لخر له إبليس أول ساجد

ويهجو آل وهب لبخلهم فيزعم أنهم كثيرو الضراط ثم هو يعجب لتناقضهم . فهم يسمحون بالضراط ولا يشدون رباطه ، بينما يشحون بالمال فيشدون عليه الرباط . ثم هو يمضى فى دعابته الساخرة فيقول : هلا صررتم على الضراط وحبستموه كما تصرون على الدراهم وتحبسونها ! فان لم تفعلوا فاسمحوا بتلك كما سمحتم بهذى . ولكن هيهات فأنتم لاتنشطون للعطاء . وإنما تفرطون فى شىء واحد هو الضراط . فعدلاً فى الحكم وسوّوا بين الأشياء .

يا آل وهب حدثونى عنكم لم لاترون العدل والإقساطا
ما بال ضرطتكم يُحَل رباطها عفوا ودرهمكم يُشَدّ رباطا
صروا رباطكم المبدد صركم عند السؤال الفلس والقيراطا
أو فاسمحوا بنوالكم وضراطكم هيهات لستم للنوال نشاطا
لكنكم أفرطتم فى واحد وهو الضراط فعدلوا الأسقاطا

والمتنبى يهجو كافورا فيداعبه هازلا ، ويسخر منه متشمتا. فيقول :من أين يتعلم هذا الأسود المخصى المكارم ؟ أمن قومه البيض ؟ أم من آبائه الصيد ؟ أم من النخّاس تدمى أذنه فى يده إذ يعرضه للبيع طالبا فيه فلسين، فيستكثرهما المشترى. ولايراه أهلا لأن يدفع فيه مثل هذا القدر ؟ ويمضى فى هذه السخرية معتذرا عنه فيقول إن كويفيرا أولى الناس بعذر . فإن كرام الناس من البيض لتعجز عن الجميل وتقصر همتهم دونه ، فكيف نطالب به كافورا وهو عبد خصىّ !

من علم الأسود المخصىّ مكرمة أقومه البيض أم آباؤه الصيد

أم أذنه فى يد النخاس دامية	أم قدره وهو بالفلسين مردود
أولى اللئام كويفير بمعذرة	فى كل لؤم وبعض العذر تفنيد
وذاك أن الفحول البيض عاجزة	عن الجميل فكيف الخصية السود

ويذهب به هذا المذهب فى قصيدة أخرى فيقول : إنى لأداريك فأريك الرضا وفى النفس ما فيها من الحم ثم يعجب لهذا اللئيم، كيف جمع الله فيه الكذب وإخلاف الوعد والغدر والخسه والجبن ويقول : كل هذه المخازى فى واحد ! (أشخصا لحت لى أم مخازيا ؟) إنى لأبتسم فى حضرتك، فيخيل لك غباؤك أنى أضحك اغتباطا برؤياك ، وما أنا ضاحك إلا من نفسى إذ أرجو من مثلك الخير ! ويمضى فى التندر به فيقول ما أعجب رجليك فى سوادهما ! إنهما لتبدوان فى نعل وإن كانتا عاريتين وإن قبح كعبيهما ليذكرنى ماضيك يوم كنت عبدا يسخرك سيدك فى حمل الزيت . وكأنى أراك فى ثوبك الخلق، تحمل الزيت، وقد لطخ جسدك، وبدت رجلاك عاريتين مشققتين . فإن لم أكن قد استفدت بالرحلة إليك مالا . فقد استفدت التاهى بالنظر إلى مشفريك ! ومثلك حقيق أن يرحل إليه من بلاد بعيدة ! ومثلك حقيق أن يضحك البواكى من ربات الحداد الثاكلات !

أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا	وما أنا عن نفسى ولا عنك راضيا
أميناً وإخلافا وغدرا وخسة	وجبنا . أشخصا لحت لى أم مخازيا !
تظن ابتساماتى رجاء وغبطة	وما أنا إلا ضاحك من رجائيا
وتعجبنى رجلاك فى النعل إننى	رأيتك ذا نعل وإن كنت حافيا
ويذكرنى تخييط كعبك شقه	ومشيك فى ثوب من الزيت عاريا
فإن كنت لاخيراً أفدتُ فإننى	أفدت بلحظى مشفريك الملاهيا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة	ليضحك ربات الحداد البواكيا

ويهجو أبو نواس رجلا اسمه إسمعيل بالبخل، فيقول إن أحدا لا يستطيع أن يزعم أنه رأى خبز إسمعيل . فهو كآوى لا وجود له، وإنما يعرف الناس ابن آوى !

على خبز إسمعيل واقية البخل ... فقد حل فى دار الأمان من الأكل
وماخبزه إلا كآوى يرى ابنه ... ولم ير آوى فى حزون ولا سهل

ويتندر بهـذا الرجل فى موضع آخر، فيزعم أنه يجمع أنصاف الأرغفة وما يتبقى على المـائدة من كسر الخبز ، فيلفقها بعضها إلى بعض ويرفوها ، حتى تصبح أرغفة من جديد . وهو يعجب لبراعة الرفاء الذى رفاها ثم يزعم أن لهذا الرجل البخيل مذهباً جديداً فى الماء أيضاً فهو لا يسقى ضيفه المـاء العذب خالصاً كما يشرب به هو ولـكنه يقدمه له مخلوطا بماء البئر ، ويخص نفسه بالماء الصرف !

خـــبز إسماعيل كالوشـــــى إذا ما شُقّ يرفا
عجبـــاً من أثر الصنـــــعة فيه كيف يخفى
إن رفاءك هـــذا ألطف الأمة كفا
وله فى المـــاء أيضاً عمـــل أبدع ظرفا
مزجه العذب بماء البئـــــر كى يزداد ضـــعفا
فهو لا يعطيك منـه مثـــل ما يشرب صرفا

ومن مظاهر هذه الدعابة وصورها ، التلميح إلى المعنى والإشارة إليه ، فى رفق يكشف عن المقصـود دون التصريح به وهو أسلوب تظهر فيه هبة الفنان ولطف صناعته فى علاج موضوعاته . فجرير حين يتهم نساء مجاشع ، لا يسمى فعلهن باسمه ، ولـكنه يلمح إليه بما يكشف عنه . فهو يقول إنهن يقمن بعد أن ينام الناس فتنبحهن الكلاب . وليس قيامهن لصلاة الوتر .

إذا قامت لغير صـــلاة وتر ... بعيـد النوم أنبحت الـكلابا

و يتساءل : خبرونى ما شأن برزة إذ نذرت لله أن تصوم شهر محرم كله إن لم يطلع القمر ؟ وهى تتمنى غياب القمر — بالطبع — لأنه يفضحها ، ويكشف عما تفعل

ما بال برزة فى المنحاة إذ نذرت ... صوم المحرم إن لم يطلع القمر ؟

ويهجو شاعر الحماسة رجلا بالقصر ، فلا يصرح بذلك ، ولكنه يتصور أن بيضة قد خرجت منه فسقطت على الأرض ، ثم يزعم أن هذه البيضة لا تنكسر لقربها من الأرض :

وأقسم لو خرت من استك بيضة   لما انكسرت لقرب بعضك من بعض

ومن مظاهر هذه الموهبة أيضاً ، براعة الربط بين الصور لا يكاد ابن الرومى يرى رجلا ذا لحية طويلة حتى تستدعى إلى مخيلته صورة حمار قد ربطت فى رقبته مخلاة

إن تطل لحية عليك وتعرض   فالمخالى معروفة للحمير
علق الله فى عذاريك مخلا   ة ولكنها بغير شعير
لو غدا حكمها إلى لطارت   فى مهب الرياح كل مطير

ويتصور الأخطل طفلا من بنى العجلان يبكى فى طلب الطعام ، وقدملت أمه صياحه فألقته فى أقصى الخباء ، فراح يدلك عينيه وهو مستمر فى صياحه، فيذكره ذلك بمنظر خفاش قد انكمش فى ركن مظلم منطويا على نفسه :

وقد غبر العجلان حيناً إذا بكى   على الزاد ألقته الوليدة فى الكسر
فيصبح كالخفاش يدلك عينه   فقبح من وجه لئيم ومن حجر

وينظر جرير إلى الرجل القصير من بنى مجاشع، الممتلىء سمنا ، وقد ضخمت عجيزته حتى أثقلته عن السير ، فينفرج فمه عن ضحكة عريضة . إذ يذكره ذلك بمنظر برذون خصىّ ، قد تردّى فى الوحل ، فراح يقلع رجليه ويخلص نفسه منه جاهداً

يفيش ابن حمراء العجان كأنه   خصىّ براذين تقاعس فى الوحل

أو يستدعى إلى مخيلته صورة بغل ضخم قد جثم فوقه خرجان . وكأن هذا الرجل القصير المكتنز، فى عجيزته الكبيرة، بغل قد حمل خرجين، لا يكاد ينهض للسير بهما إلا فى مشقة.

من كل منتفخ الوريد كأنه　　بغل تقاعس فوقه خرجان

* * *

كل هذه الخصائص التى قدمناها تباعد من وجوه كثيرة بين الهجاء وبين الشعر عامة، فبينما يصدر الشعر عن الكد والإجهاد، فيزيده عمق الخيال جمالا فى الصور، وتضفى عليه الصناعة والملاءمات اللفظية حلاوة فى الموسيقى، نجد أن الهجاء يقوم على البساطة فى التعبير، تتلفه المعانى الغريبة والأخيلة البعيدة والصور المختارة والملاءمات اللفظية من جناس وطباق ومقابلة. وبينما تقوم الصناعة الشعرية على التأنى والروية، والترفع عن ألفاظ السوقة وعبارات الدهماء، نجد أن الهجاء يقوم على التصوير اللماح، ونقل الحياة الواقعية بغير تهذيب، وبلغتها الشعبية فى بعض الأحيان. وقد يحسن الغموض فى الشعر إذا كان ملهما مثيراً، كالذى نجده فى صور الشعر الرمزى. ولكن مثل هذا الغموض متلف للهجاء، لأنه يقوم على الوضوح الخلاب.

لذلك كله، كان طبيعياً أن يتحول هذا الفن — الذى يقوم على نقد الحياة كما قدمنا — شيئا فشيئا من الشعر إلى النثر، حتى ينتهى به الوضع إلى أن يصبح فنا نثريا خالصا فى هذا العصر. فيأخذ شكل المقالة حينا، وشكل القصة أو التمثيلية الكوميدية فى حين آخر

الهجـــاء والسحر

جاء فى دائرة المعارف الأسلامية فى مادة « الهجاء [1] »

«الهجاء فى أصله سحر أو لعنة، واشتقاق الكلمة غير معروف بالضبط. ولـكنها قد تعنى فى أصلها شيئا قريبا من الرقية. وأصول الهجاء مرتبطة بفكرة قديمة، تزعم أن بعض الأفرادالذين لهم نفوذ خاص،إذا تلفظوا بكلمات، كان لها من القداسة والسلطان ، ما يجعل لها تأثيرا دائما على الأفراد أو الأشياء التى تنصب عليها كلماتهم . وعلى ذلك فقد كان الشاعر فى أصل الهجاء. يطلع على الناس بقوة شعره السحرية ، التى يوحيها الجن إليه »

هذا رأى يربط بين الهجاء والسحر . ويقتضينا تحقيقه أن نتصور الظروف التى أحاطت بنشأة الشعر ، والأطوار المختلفة التى تناوبته .

مر الفن الكلامى فى أطوار مختلفة قبل أن يستوى شعراً كامل الأوزان، على الصورة التى وصلتنا قبيل الأسلام . وفق الأنسان فى زمن من الأزمنة لانكاد نعرفه . ولا نستطيع تحديده، إلى ضرب من ضروب القول، امتاز من بين سائر الـكلام ، بنوع من التنغيم والنظام، ترتاح له الأذن، وتهتز له النفس . ففرح به،ولهج بتـكريره ، وتناقله الناس ، فأغراه ذلك بتجويده وتثقيفه ، لا يخضع فى ذلك إلا لقانون الحس الفطرى والذوق البدائى ، والناس من ورائه يشجعونه، بما يرى من أثر كلامه فيهم، وتعلقهم به ،وترديده على ألسنتهم . ولم يكن ذلك عمل فرد أو أفراد ، ولـكنه كان عمل الأجيال على يد طائفة ممتازة موهوبة ، وجدت فى نفسها القـدرة على أن تصوغ تجاربها وعلمها بما يحيط بها ، ألحاناً فى حدود مدلولات الألفاظ ومعانيها التى تواضع عليها الناس

(١) اعتمدت هنا على النسخة الانجليزية

ولم يكن العربي فى هذه الأزمان يفهم من مدلول الشعر ما نفهم منه اليوم، بعد أن حددناه بحدود من الأوزان والقيود فقد كان مدلوله فى نفسه أعم وأشمل كان الشعر عندهم ضرباً من الكلام المنغم المثير ، تتعاطاه طائفة ممتازة من بينهم ، اصطلحوا على تسميتهم بالشعراء ، لأنهم علموا ما لا يعلمون ، وفطنوا إلى ما لا يفطنون . فقد كان كل علم شعراً — كما يقول صاحب القاموس — ولم تكن فتنتهم بهذا الضرب من ضروب القول الذى سموه شعراً لما فيه من وزن وتنغيم ، ولكنهم فتنوا أيضاً بما تميز به من النفاذ إلى حقائق الأشياء ، وأسرار الكون ، وحكمة الدهور فلم يكن عجيباً أن يسموا هذه الطائفة « شعراء » فقد كانوا هم العلماء حقاً فالحكيم الذى ينطق بالعبرة والأمثال شاعر والكاهن الذى ينفذ إلى حجب الغيب شاعر . والرجل الذى يصور ماخفى ودق من مواطن الجمال وخفايا النفوس شاعر أيضاً . وظل الناس يحفظون هذه الآثار ويتناقلونها معجبين بها ، حتى جاء عصر التدوين ، واكتشف الدارسون أن فى شعرهم نوعا من الوزن، حاولوا تحديده وضبطه ، فسموا ما استقام على هذه الموازين شعراً ، وأخرجوا ما لم يستقم عليها فسموه سجعا أو أمثالا ، وأصلحوا بعضه حتى يستقيم على ما عرفوا من أوزان.

فالأمثال كقولهم : « إن البغاث بأرضنا يستنسر » ، « إن البلاء موكل بالمنطق » ، « قطعت جهيزة كل خطيب » . والسجع مثل خطبة قس المشهورة.

أيها الناس

إسمعوا وعوا

أنظروا واذكروا

من عاش مات ، ومن مات فات وكل ما هو آت آت .

ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج .

ألا إن أبلغ العظات،السير فى الفلوات ، والنظر فى محل الأموات .

إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا
ما لى أرى الناس يذهبون ، فلا يرجعون
أرضوا هناك بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟
يا معشر إياد :
أين الآباء والاجداد ، وأين المريض والعواد ، وأين الفراعنة الشداد .
أين من بنى وشيد . وزخرف ونجد ، وغره المال والولد .
أين من طغى وبغى . وجمع فأعوى ، وقال أنا ربكم الأعلى .
ألم يكونوا أكثر منكم أمولا ؟ وأطول منكم آجالا ؟
فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر .
لما رأيت مواردأ للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها تمضى الأصاغر والأكابر .
لا يرجع الماضى إلىّ ولا من الباقين غابر .
أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر (١)

مثل هذا كان شعراً فى عرف العربى الجاهلى والقرآن أيضاً كان شعراً فى نظره وقد احتاج النبى إلى أن ينفى ذلك أكثر من مرة ، ونزل به القرآن فى أكثر من موضع مما يدل على تمكن هذا الوهم من نفوسهم .

ولم تكن أوزان الشعر الذى عرفه الجاهليون مستقيمة فى كل الأحيان على المقاييس التى وضعها أصحاب العروض فيما بعد . روى ابن إسحق فى بناء مسجد المدينة : وارتجز المسلمون وهم يبنونه : « لا عيش إلا عيش الآخرة . اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة » وليس هذا عند العروضيين بشعر ولا رجز . ولكنه كان شعراً فى عرف الجاهليين . ودليلنا على ذلك ما يروى صاحب السيرة من عدول النبى عنه — وقد كان لا يقول الشعر ولا يرويه — فكان

(١) راجع الملزمة الثانية من الروائع للبستانى فى كلامه عن الانشاد .

يقول معهم : « لاعيش إلا عيش الآخرة . اللهم ارحم المهاجرين والأنصار[2] »

وروى ابن إسحق فى السيرة قصيدة لأمية بن أبى الصلت يبكى زمعة بن الأسود وقتلى بدر ، ثم يقول ابن هشام « هذه الرواية لهذا الشعر مختلطة ليست بصحيحة البناء » . ثم يرويها مستقيمة الأوزان عن خلف ولعل الرواية الأولى هى الصحيحة والرواية الثانية قد أصلحها خلف .

ولا يزال لدينا مع ذلك آثار قليلة تصور بعض الشعر الذى لم تكتمل أوزانه مثل قول سويد بن أبى كاهل اليشكرى :

بسطت رابعة الحبـــل لنا فوصلنا الحبل منها ما اتسع

ومثل قول المرقش الأصغر

لابنة العجلان بالجو رسوم لم يتعفين والعهـــد قديم

ومثل قول امرىء القيس

رب طعنة مسحنفرة وطعنة مثعنجرة
وجفنة مستحيرة حلت بأرض أنقره

وقوله

تطاول الليل علينا دمون ، دمون إنا معشر يمانون .
وإننا لقومنا محبون

وكذلك قول الشماخ :

قالت ألا يدعى لهـذا عراف لم يبق إلا منطق وأطراف
وريطتان وقميص هفهاف وشعبتا ميس براها إسكاف

وليس هذا الذى يسميه العروضيون زحافات وعللا، إلا تفسيراً لشذوذ هذا الشعر فى بعض الأحيان، عن الأوزان التى استنبطها العروضيون فيما بعد .

وجد الناس السجع أولا فتغنوا به ورددوه فى حروبهم أفراداً وجماعات مصوراً لما يجيش فى صدورهم من حمية وحماس ، يشحذون به الهمم ويثيرون به النفوس ورددوه فى عملهم اليومى . وهم على الآبار

---

(٢) سيرة ابن هشام ٢ ١٤٢

يمتحون الماء ، أو فى الفلوات يسوقون الإبل ، يروحون به عن نفوسهم ، ويخففون بنغماته الحلوة ووقعه المريح ما يعالجون من نصب وتعب .

وأخذ هذا السجع يتطور نحو الكمال ، حتى استوت فقره رجزاً ، مثل قول الكاهن[1]

« مصباحه مصباح ، وقوله صلاح ، ودينه فلاح ، وأمره نجاح ، وقرنه نطاح ، ذلت له البطاح ، ماينفع الصياح ، لو وقع الذباح ، وسلت الصفاح ، ومُوّت الرماح » فكله من وزن مستفعلن مستفعل . وقد أعان السجع على هذا التطور عاملان العامل الأول ملاءمته لهذه الحركات المنتظمة ، التى يلازمها ويرتبط بها . والعامل الثانى الترفع الذى ينشأ عن طبيعة الموضوعات التى يعالجها ، وهى أسمى من الواقع المسف ، وأكثر تعلقا بالخيال السابح ، والطرب المستخف الراقص ، الذى يدفع إلى نوع من النظام الموسيقى ، فى أدنى صوره إلى الكمال .

وعند ذلك فطن الناس إلى أصل من أصول النظم أخذوا أنفسهم به ، وهو تساوى الفقر وتوازنها . ثم راحوا يتسابقون فى حدود هذا القيد الجديد ، كلما اهتدى أحدهم إلى ضرب من ضروب الوزن مضى فيه ، وسار الناس على أثره من بعده ، حتى استقرت الأوزان بحوراً مختلفة ، على الشكل الذى وصل إلينا قبيل الإسلام .

ولما تعقد الفن الكلامى ، ووصل إلى هذه الدرجة من الكمال ، لم يعد كل الناس قادرين عليه ، ولم يعد القادر عليه يستطيع أن يجمع بينه وبين عمله اليومى ، فاختصت بالشعر طائفة موهوبة ، وقفت عليه جهدها . وعرف الناس لهم مكانهم منه ، فأعظموا فيهم قدرتهم عليه وأصبح الشعر صناعة كسائر الصناعات ، يتتلمذ فيها الناشىء على الأستاذ ، فيلازمه ، ويروض أذنه وحسه بما يعى ويروى من شعر أستاذه ، حتى تنضج فيه الملكة الشعرية .

---

(١) نهاية الأرب ٣ ١٤٣

وغلب على شعرهم نوعان من الوزن ، اصطلحنا على تسميتها فيما بعد بالطويل والبسيط . وإنما غلب هذان البحران لاتساعهما لتصوير العواطف المختلفة ، والمواضيع المتباينة . التى يتنقل بينها الشاعر فى القصيدة الواحدة فالشاعر يصف فى القصيدة الواحدة حبه وحزنه ، وحماسته وغضبه ، ويتأسى فى حبه وحزنه بأخبار من مضى ، وأحداث من غبر ، فيقص أطرافا من أخبارهم ، ويسجل فى حماسته تاريخ قبيلته ومجدها بما يروى من وقائعها ، ويصف فى أثناء هذه الجولات مايقع تحت حسه من صحراء وحيوان . وهو يلتزم فى كل هذا لوناً واحدا من النظام والوزن لذلك كان البحر المتسع أكثر مايطاوعه ويلائم مايذهب إليه من سعة التصرف والتنقل بين القصص والغناء المختلف الألوان وهذان البحران شبيهان بالوزن السداسى ، الذى اصطنعه الشعراء القدماء عند اليونان واللاتين فى شعرهم القصصى والهجائى (hexameter [١]) فكل منها يتكون من اثنى عشر مقطعاً صوتياً طويلا .

---

(١) الـ hexameter هو بحر غلب استعماله فى الشعر القصصى عند اليونان وعليه نظم هومير ملاحمه ، وقد نقله إلى اللاتينية إينيوس Enius (٢٣٩ — ١٦٩ ق م) ولكنه لم ينضج إلا على يد فرجيل Virgil الذى نظم عليه ملحمته المشهورة الإنيادة Aeneid (٧٠ — ١٩ ق م) . ويتكون الـ Hexameter من ستة وحدات عروضية (6 feet) الأربعة الأولى dactyles يتكون كل منها من مقطعين قصيرين ومقطع طويل (uu —) أو spondees (— —) والخامس dactyle (— uu) أو spondee (— —) والسادس spondee (— —) أو trochee (— u) فيكون البحر فى مجموعه

— — — — — — — — uu — — —

أو

— uu — uu — uu — uu — — u

ومجموع المقاطع الصوتية فى هذا البحر إثنا عشر مقطعاً صوتيا طويلا (باعتبار أن كل مقطعين صوتيين قصيرين يعادلان مقطعا صوتياً طويلا كما هو معروف فى علم الأصوات)

ولو قابلنا هذا البحر بالبحر الطويل والبحر البسيط فى الشعر العربى لوجدنا أن كلا من البحرين يشتمل على نفس العدد من المقاطع الصوتية فالبحر الطويل (فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن) ينحل إلى المقاطع الآتية :

فـ عو لن ما عي لن فـ عو لن ما عي لن

u — — u — — — u — — u — — —

والبحر البسيط ينحل إلى المقاطع الآتية

مس تف ع لن فا ع لن مس تف ع لن فا ع لن

— — u — — u — — — u — — u —

كان الشاعر كما قلنا عالم القوم الذى ينفذ ببصيرته إلى مالا يرون ؛ ويصوغ بحكمته تجارب الأيام وموعظة الأزمان ، ويتسلط ببيانه على نفوسهم ومشاعرهم ، فيتصرف فيها ، ويذهب بها شتى المذاهب، غضبا وحماسة ، وصبابة وحزنا وكانت هـذه الطبقة تتميز عندهم بشىء من الغرابة تشذ به عن سائر الناس . كانوا يستعينون على الشعر بالتفرد والوحدة . وكان الليـــل أحب الأوقات إليهم يعالجون فيه الإنتاج وقد هدأ الليـل ، وسادته وحشة الظلام الرهيب وربما استجاب الشعر للشاعر وانثال عليه انثيالا عند أول نداء . وربمـا هاج وماج واضطرب اضطراب الوحش الجائع قد حبسه القفص . يلتمس إخراجه من نفسه . فلا يدرّ درّه . ولا يسيل سيله ذلك بأن فى الشعر قدرا من الإلهام غير منـكور والنفس الإنسانية غريبة فى ملكاتها ، غامضة فى حالاتها ، وفيما يطرأ عليها من صفاء وإظلام . وانطلاق وانقباض . فربمـا صفت النفس الإنسانية فانطلقت فى سخاء ، ونفذت إلى الحقائق فى سهولة ويسر . وربما انقبضت فإذا هى جدبة مظلمة لا تجود بشىء. وهذه حالات لا تجرى على نظام ثابت أو قانون معروف تستجاب به . فليس يتهيأ للشاعر أن يصفو ويسخو حين يريد ومتى شـاء ولا هو حين يصفو ويجود يكون صفاؤه بقدر واحد فى كل حال . وقديما قال الفرزدق أنا أشعر الناس عند الناس ، وقد يأتى على حين وقلع ضرس أهون عندى من قول بيت شعر [1] . لذلك دخل فى وهم هـذه الطائفة من الشعراء أن الشعر يأتى من مصدر خفى ، ويهبط من عالم بعيد . فتصوروا أن وراءهم شياطين يمدونهم بما يقولون . ورسخ هذا الوهم فى نفوسهم . واستقر فى أذهان الناس ، فأكسبهم عندهم رهبة وجلالا واختلط فى أذهانهم الشـاعر والساحر والكاهن ، فهم جميعا ينتمون إلى دولة الظلام الغامضة الرهيبة ، ومن وراء كل واحد منهم قوة خفية تمده وتعينه وأعان على هـذا الاضطراب والخلط

(١) العقد الفريد ٦ : ١٧٥

ما كان يجرى على ألسن السحرة والكهان من كلام شعرى منمق، يصوغون فيه أحكامهم ونبؤاتهم فالسحر يقوم أول مايقوم على التأثير فى النفوس واسترها بها والساحر يستعين على إلقاء الرهبة فى صدور الناس بالبخور، وبالتلاوات الغريبة التى يسمونها « التعاويذ » أو «العزائم »، يستغل بها مافى الكلام من خواص صوتية ، فيشغل بها الحواس ، ريثما ينفذ إلى النفوس ، فيقرفيها مايشاء [1] . وقد كان الشعر عندهم شبيها بهذا فى تأثيره ونفاذه .

والقارىء للقرآن وللنصوص العربية القديمة يجد الأدلة الكثيرة على صحة مانذهب إليه . فالعرب أولا لم يفرقوا بين القرآن والشعر وتعاويذ السحرة . فكان النبى فى وهمهم شاعرا وساحرا وكاهنا فى آن معا تشهد بذلك الآيات القرآنية الكثيرة :

« ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا لسحر مبين » (الأنعام ٧ مكية)

« أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ؟ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين »

(يونس ٢ مكية)

« نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا » (الإسراء ٤٧ مكية)

« ما يأتيهم من ذكر من ربهم إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم . وأسروا النجوى الذين ظلموا : هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون؟ قل ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم بل قالوا أضغاث أحلام . بل افتراه . بل هو شاعر . فيأتنا بآية كما أرسل الأولون » (الأنبياء ٢ — ٥ مكية)

« وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ! لولا أنزل

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٨٠ ، ٤٠٦ .

إليه ملك فيكون معه نذيرا؟ أو يلقى إليه كنز؟ أو تكون له جنة يأكل منها ؟ وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا » (الفرقان ٧—٨ مكية)

« وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون » (الشعراء ٢١٠—٢١٢ مكية)

ثم يجيء بعد ذلك ببضع آيات « قل أؤنبئكم على من تنزل الشياطين؟ تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » .

(الشعراء ٢٢١—٢٢٧ مكية) [1]

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم . وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين » (سبأ ٤٣ مكية)

« وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين » (يس ٦٩—٧٠ مكية)

« وإذا رأوا آية يستسخرون . وقالوا إن هذا إلا سحر مبين »

(الصافات ١٤—١٥ مكية)

« إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » (الصافات ٣٥—٣٦ مكية)

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم . وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشيء عجاب » (ص ٤—٥ مكية)

---

(١) تجب ملاحظة أن الآيات ٢٢٤ — ٢٢٧ مدنية والسابق لها مكي فالمكي ينتهي عند الآية « يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » والتالي لذلك مدني وهو يصور شعراء النبي الذين يدافعون عن الاسلام منتصرين من شعراء قريش الذين يهاجمون الدعوة والآية الأولى واضحة الدلالة في الاشارة إلى ما كانت تعتقد العرب من أن لكل شاعر شيطانا

« كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون .
أتواصوا به ! بل هم قوم طاغون » (الذاريات ٥٢ — ٥٣ مكية)

« يوم يدعّون الى نار جهنم دعا . هذه النار التى كنتم بها تكذّبون .
أفسحر هذا ؟ أم أنتم لا تبصرون » (الطور ١٣ — ١٥ مكية)

« فذكّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر
نتربص به ريب المنون. قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين »
(الطور ٢٨ — ٣١ مكية)

« اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر
مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم . وكل أمر مستقر »
(القمر ٢ — ٣ مكية)

« ن، والقلم وما يسطرون، ماأنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا
غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون »
(القلم ١ — ٦ مكية)

« إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون .
« ولا بقول كاهن قليلا ما تذكّرون . تنزيل من رب العالمين »
(الحاقة ٤٠ — ٤٣ مكية)

« إنه لقول رسول كريم. ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثَمّ أمين.
وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين .
وما هو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون ! إن هو إلا ذكر للعالمين »
(التكوير ١٩ — ٢٧ مكية)

*

كل هذه الآيات واضحة الدلالة فى اختلاط مفهوم الشعر والسحر فى
أوهام العرب ! وواضحة الدلالة أيضا فى أن العرب لم يفهموا من الشعر إلا أنه
كلام منمق. يؤثر فى المشاعر، ويهز النفوس ويحركها ولذلك سموا القرآن

شعراً. وسموه سحراً . والسحر لغة هو كل ما لطف مأخذه ودق . وسحر كمنع خدع فالملحوظ فى اشتقاق السحر اللغوى ، الخداع وقوة التأثير، وهو واضح فى الشعر . ويعين على ماذهب إليه قول لبيـــد ، وقد انقطع عن الشعر بعـد إسلامه (فى سورة البقرة وآل عمران غناء عن الشعر) والقارىء للسيرة يلاحظ أن النبى كان يتلو القرآن على الذين يعرض عليهم الإسـلام فيتأثرون به . فكان العرب يرون أن له من قوة التأثير ما للتعاويذ والسحر . وربما فرّوا من سماعه، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم، خشية التأثر به والوقوع تحت سلطانه وهـذا هو الطفيل بن عمرو السدوسى ، يقدم مكة ورسول الله فيهـا — وكان رجلا شريفا شـاعرا لبيبا — فتستقبله قريش وتصده عن لقاء النبى، وتحذره من سماعه قائلين «وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا فلا تكلمنه ،ولا تسمعنّ منه شيئا . ويستمع الرجل إلى نصيحة قريش، فيجعل فى أذنيه قطنا وقد غدا إلى المسجد ، حتى لا يبلغه شىء مما يقول ولـكنه لا يلبث أن يقبل على النبى، فلا يكاد يتلو عليه القرآن حتى يؤمن[١] وقد وصف العرب النبى بحلاوة المنطق، والغلبة على قلوب الرجال بما يأتى به[٢] ، ولم يفرقوا بين حالة الوحى التى ربما اعترته فيها الغيبوبة فتصبب وجهه عرقا ، وبين ما يصيب السحرة والـكهان من مثل هذه الحالات . وهذا هو عتبة بن ربيعة ،يلقى النبى فيقول له فيما يقول « وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه . وهذا هو الرسول يستمع إليه، حتى إذا فرغ من حديثه تلا عليه : (بسم الله الرحمن الرحيم .حم تنزيل من الرحمن الرحيم

---

(١) السيرة ٢ ٢٢

(٢) السيرة ٢ ١٢٦

كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) ويمضى فيها يقرأها، حتى إذا بلغ السجدة سجد . وعتبة ينصت إليه كالمأخوذ ، وقد ألقى يديه خلف ظهره ، معتمدا عليهما، يسمع منه . فإذا عاد إلى قومه قالوا له : « سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه[1] » .

وأمام ما ذهب إليه العرب من أن القرآن شعر ، اضطر النبى أن يعدل عن الشعر ، لا يقوله ولا يرويه . وإذا رواه خالف بينه ، وقدم فيه وأخر ، حتى يخل بوزنه . فهو إذا روى مثلا قول ابن عباس[2] :

فأصبح نهبي ونهب العبيد بين عيينه والأقرع

يقول : فأصبح نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينه

وإذا ترنم مع المسلمين فى بناء مسجد المدينة قال : « لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار » . وهم يقولون : « الأنصار والمهاجرة[3] » .

وقد كان فن الهجاء من أكثر الفنون الشعرية ارتباطا بالسحر فى أوهام العرب . ذلك لأن الخفاء والغموض اللذين لازما فن الشعر . كانا أليق بالشر ، وأدنى أن يبعثا الرهبة والخوف فى قلوب الناس . فقد كانت العرب تزعم أن لكل شاعر رئياً من الجن يسمونه تابعا أو هاجسا ، وذلك واضح فى قصصهم وفى شعرهم ، وواضح فى القرآن أيضا

قال عمرو بن كلثوم :

وقد هرت كلاب الجن منا وشذبنا قتادة من يلينا

وقال أبو النجم فى مراجزة العجاج من أرجوزته (تذكر القلب وجهلا ما ذكر) :

---

(١) السيرة ١ : ٣١٣ — ٣١٤ .

(٢) السيرة ٤ : ١٣٧

(٣) السيرة ٢ : ١٤٢

إنى وكل شاعر من البشر   شيطانه أنثى وشيطانى ذكر

وقال الأعشى، فى هجاء جهنام، يذكر (مسحلا) شيطانه . وما يهدى له من شعر :

فلما رأيت الناس بالشر أقبلوا   وثابوا إلينا من فصيح وأعجم
وصيح علينا بالسياط وبالقنا   إلى غاية مرفوعة عند موسم
دعوت خليلى مسحلا ودعوا له   جهنام جدعا للهجين المذمم
حبانى أخى الجنى نفسى فداؤه   بأفيح جياش العشيات خضرم

وقال فى موضع آخر يذكر شيطانه :

وما كنت شاحرداً ولكن حسبتنى   إذا مسحل سدّى لى القول أنطق
شريكان فيما بيننا من هوادة   صفيّان جنىٌّ وإنس موفق
يقول فلا أعيي لشيء أقوله   كفانى لا عى ولا هو أخرق

وقال سويد بن أبى كاهل اليشكرى

فر منّى هاربا شيطانه   حيث لا يعطى ولا شيئا منع
وأتانى صاحب ذو غيّث   زفيان عند إنفاد القرع
قال لبيك وما استصرختّه   حاقرا للناس قوال القذع
ذو عباب زبد آذيّه   خَمِط التيار يرمى بالقلع
زغربىٌّ مستعز بحره   ليس للماهر فيه مُطّلعَ

وجرير يهجو الراعى وابنه بالقصيدة المشهورة (أقلى اللوم عاذل والعتابا) التى يقول فيها

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فيرحل الراعى وابنه حتى إذا وصل إلى قومه . وجد الشعر قد سبقه إليهم فيما يقول الرواة . فيقسم الراعى ما بلّغها إنس . وإن لجرير لأشياعا من الجن . ويتشاءم قومه به وبابنه[1]

---

(١) خزانة الأدب ١ : ٥٠

ووجه الشبه بين السحر والهجاء واضح . فالسحر كلمات تقال فيصيب شرها المسحور، وينصب ما تضمنت من لعنة على المقصود بالإيذاء ، والهجاء كذلك كلمات تقال فيهـا معنى الشر واستمطار اللعنة . والساحر يتوسل إلى شياطينه وأرواحه الشريرة أن تعينه على إلحاق الأذى بالمسحور ، والهجّـاء يستلهم شيطانه الهجاء ويستعينها على المهجو . ولذلك غلب ذكر شياطين الشعر فى الهجاء بنوع خاص كما هو واضح فى الأمثلة التى قدمناها . ولأمر ما نسب الناس هذه القوة الخفية التى تمد الشاعر بالشعر للشر ولم ينسبوها للخير، فقالوا (شيطان الشعر) ولم يقولوا (ربة الشعر) كما تعود اليونان أن يقولوا

وقد كان الشاعر إذا هجا ربما خرج على الناس فى زى غريب غير مألوف، وبالغ فى مسخ شكله وتشويه خلقته . قال الرافعى فى تاريخ الأدب [١] نقلا عن أمالى المرتضى ١ : ١٣٥ (وكان القيسيون قد صدوا وجه النعمان عنهم. فأرادوا تقديم لبيد ليرجز بالربيع بن زياد رجزا مؤلما ممضا ــ وكان هو الذى صرف الملك بالطعن فيهم وذكر معايبهم ــ فحلقوا رأسه ، وتركوا له ذؤابتين ، وألبسوه حلة . وغدوا به معهم فدخلوا على النعمان . فقام وقد دهن أحد شقى رأسـه وأرخى إزاره وانتعل نعلا واحـدة . قال : وكذلك كانت الشعراء تفعل فى الجاهلية إذا أرادت الهجاء [٢] .

ونقل الرافعى كذلك عن الأغانى ج ٤ : ٣ : وكان زى حسان بن ثابت فى خضابه فكان يلوث شاربيه وعنفقته بالحناء دون سائر لحيته ، فيبدو لأول وهلة كأنه أسد والغ فى الدم . وروى الألوسى فى بلوغ الأرب [٣] (والشاعر منهم كان إذا أراد الهجاء دهن إحدى شقى رأسه وأرخى إزاره وانتعل نعلا واحدة).

لذلك كان العرب شديدى الخوف من الهجاء . وكانوا يرون بيت الهجاء متضمنا قوة خفية ، ولعنة تصيب من تحل به . يقول مزرد بن ضرار الذبيانى

---

(١) تاريخ الأدب للرافعى ٣ ٢٣

(٢) وقد نقل نكلسون نفس الخبر فى كتابه (تاريخ الأدب العربى).

(٣) بلوغ الأرب ٣ ٤٠٧

(أخو الشماخ بن ضرار) فى رجل من بنى عبد الله بن غطفان خدع غلاما من قومه فاشترى إبله بغنم ـ وهو هنا يندد بخدعة الرجل، طالبا إليه أن يرد الإبل، وقد صورها مصابة بالجرب وبمختلف الأدواء ،وكأنه يريدأن يشأمها وينزل بها اللعنة والبوار :

فيا آل ثوب إنما ذَوْدُ خالد ... كنار اللظى لاخير فى ذود خالد [١]

بهن دروء من نُحـاز وغدة ... لها ذربات كالثدى النواهد [٢]

جربن فما يُـهـنأن إلا بغَـلقـة ... عَطيـن وأبوال النساء القواعد [٣]

فلم أر رزءا مثله إذ أتاكم ... ولا مثل ما يهدى هدية شاكد [٤]

ويؤيد ذلك ما روى صاحب السيرة ،من أن أبا سفيان بن حرب ألقى ابنه معاوية أرضا. فرقا من دعوة خبيب ،حين قال وقد أخذوه ليصلبوه « اللهم أحصهم عددا . واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحـدا » وقد كانت العرب تزعم أن الرجل إذا دعى عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه [٥] . وشبيه بهذا ماروى ابن الأثير فى يوم الكلاب الثانى ، من أن بنى تميم أسروا أحد شعراء بلحارث ، فلما أخذوه ليقتلوه شدوا لسانه قبل قتله لئلا يهجوهم [٦] . وكان الشاعر ربما عجز عن دفع مظلمة، أورد حق غصب منه ، فلا يستعين على ذلك الا بلسانه. فيهاب الناس هجاءه أكثر مما يخافون سيف الفاتك الجبار . وهذا هو زهير تنهب إبله ، فلا يجد فى نفسه القوة على استردادها ، فيهدد بالهجاء ، وكأنه يهدد بشيء خطير

لئن حللت بجو من بنى أسـد ... فى دين عمرو وحالت بيننا فَـدَكُ

ليأتينك منى منطق قذع ... باق كما دنس القبطيةَ الودك

---

(١) الذود الجماعة القليلة من الابل.

(٢) الدروء جمع دره بفتح فسكون وهو النتوء . النحاز داء يأخذ الدواب والابل فى رئاتها فتسعل سعالا شديدا الغدة طاعون الابل الذربات جمع ذربة بفتح فكسر وهو رأس الخراج .

(٣) جربن أصابهن الجرب يهنأن يطلين . الغلقة شجر يدبغ به عطين معطون لأنها لا يدبغ بها إلا بعد عطنها.

(٤) الشاكد المهدى والشكد الاهداء.

(٥) السيرة ٣ ١٨٢

(٦) ابن الأثير ١ ٣٨٠

الشاعر والقبيـــلة

لم يزل أمر الشعراء يكبر في عيون الناس ويعظم في نفوسهم ، حتى احتلوا من قبائلهم مكاناً ممتازا ، وصار الناس يفدون على القبيلة مهنئين إذا نبغ فيها الشاعر وذهب صيته [1] . وأصبح الشعراء جزءا مهماً من النظام القبلى ، يتغنون بمفاخر القبيلة ، ويمجدون بطولتها في حروبها ، ومآثرها في سلمها ، ويصورون آمالها ومطامعها ، وما بينها وبين جيرانها من حلف أو عداء يهجمون هذه ويمجدون تلك . وأفراد القبيلة جميعاً من ورائهم يحفظون هذا الشعر ويذيعونه ، مفاخرين به ومكاثرين . وربما عظم أمر الشاعر في قومه ، حتى يصبح زعيمهم الذى يشير عليهم بالرأى فلا يخالفون ولا يشذون عنه . يقول ابن هشام في إسلام الأنصار[2] : « فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف — وتلك أوس الله ، وهم من الأوس بن حارثة — وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت — وهو صيفى — وكان شاعراً لهم قائداً ، يستمعون منه ويطيعونه ، فوقف بهم عن الإسلام » . ويقول ابن الأثير إن زهير بن جناب الكلبي كان أحد من اجتمعت عليه قضاعة ، وكان يدعى الكاهن لصحة رأيه ، ثم يروى له شعراً في الحماسة[3]. والشعراء الذين سادوا في قبائلهم كثير منهم الكلحبة العرنى كان أحد فرسان بنى تميم وساداتها ؛ والجميح أحد فرسان يوم جبلة ؛ وبشامة بن عمرو خال زهير بن أبى سلمى، كان أحزم الناس رأيا وكانت غطفان تستشيره إذا أرادت الغزو ؛ والحصين بن الحمام المرى، كان سيد قومه وذا رأيهم وقائدهم ورائدهم ، وهو من أوفياء

---

(١) العمدة ١ : ٤٩

(٢) السيرة : ٢ : ٨٠

(٣) ابن الأثير ١ : ٢٩٩

العرب ؛ وسلامة بن جندل . كان من فرسان العرب المعدودين ؛ وعمرو بن الأهتم السعدى ، كان من سادات قومه . وكان خطيباً شاعراً وفد على النبي فى وفد تميم ؛ وذو الإصبع العدوانى شاعر فارس ، وهو أحد الحكماء المشهورين ؛ وعبد يغوث بن وقاص الحارثى كان فارساً ، وكان سيد قومه بنى الحرث بن كعب وقائدهم فى يوم الكلاب الثانى إلى بنى تميم . وهو من أهل بيت معروف بالشعر فى الجاهلية والإسلام ؛ والحرث بن وعلة الجرمى، كان هو وأبوه وعلة من فرسان قضاعة وأنجادها وأعلامها وشعرائها ؛ وعوف بن الأحوص، كان أبوه الأحوص سيدا فى قومه ، وذا رأيهم ، شهد يوم جبلة وهو شيخ كبير ، فكان يدبر الناس ، وكان ابنه عوف من زعمائهم وقوادهم ؛ والمرقشان الأكبر والأصغر ، كان لهما موقع فى بكر بن وائل وحروبها مع بنى تغلب ؛ وأبو قيس بن الأسلت الأنصارى ، كانت الأوس قد أسندت أمرها إليه وجعلته رئيساً عليها ؛ والحرث بن ظالم المرى كان من أشراف بنى مرة وساداتهم ، وكان أفتك الناس وأشجعهم ؛ وضمرة بن ضمرة النشهلى كان خطيباً فارسا شاعراً شريفاً وسيدا ، وكان أحد حكام بنى تميم المشهورين ؛ وسنان بن أبى حارثة المرى كان فارسا شريفا ، وكان رأس غطفان وبنى مرة ، وابنه هرم من أجواد العرب ؛ وعامر بن الطفيل كان شاعرا سيدا وغير هؤلاء كثير ونحن لا نقصد إلى الاستقصاء ، وإنما أكثرنا لنزيل ما استقر فى أوهام كثير من الناس من أن الشعر كان يضع من قدر الأشراف ، كما يروى فى أخبار امرىء القيس والنابغة . فالواقع أن الشاعر كان عزيزا فى قومه منيعا، ما عاش مستغنيا كريما يضع لسانه فى خدمة قبيلته . وإنما كان يسقط قدره بينهم إذا احتاج لغيره . وقبل على شعره الهبات . شأنه فى ذلك شأن الناس جميعا إذا مدوا أيديهم للسؤال . ومعظم الشعراء الذين ذكرناهم فيمن سادوا مقلون[1].

---

(١) راجع الحماسة والمفضليات فى هؤلاء الشعراء .

لأن شعرهم محدود فى نطاق القبيلة وما يتصل بها روى الجاحظ عن أبي عمرو بن العلاء « كان الشاعر فى الجاهلية يقدَّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم . ويفخم شأنهم . ويهوّل على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم . ويخوف من كثرة عددهم ، فيهابهم شاعر غيرهم ويراقب شعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوقة ،وتسرعوا إلى أعراض الناس . صار الخطيب عندهم فوق الشاعر[1]. »وأصدق مايصور مكان الشاعر من القبيلة قول هدبة بن الخشرم:

وإنى من قضاعة من يكدها ... أكده وهى منى فى أمان
ولست بشاعر السفساف منهم ... ولكن مدره الحرب العوان
سأهجو من هجاهم من سواهم ... وأعرض منهم عمن هجانى

وقول عبيد بن الأبرص :

إذا كنتَ لم تعبأ برأى ولم تطع ... لنصح ولا تصغى إلى قول مرشد
فلا تتق ذم العشيرة كلها ... وتدفع عنها باللسان وباليد
وتصفح عن ذى جهلها وتحوطها ... وتقمع عنها نخوة المتهدد
وتنزل منها بالمكان الذى به ... يرى الفضلُ فى الدنيا على المتحمد
فلستَ وإن عللت نفسك بالمنى ... بذى سؤدد بادٍ ولا كَرْب سيّد

وكانت القبائل تعتمد فى حروبها على الشعر اعتمادها على السلاح ولم يكن الهجاء أخف وقعا على الأعداء من وقع الرماح ، كما يقول عبد القيس ابن خفاف البرجمى :

وأصبحت أعددت للنائبـــات عرضا بريئا و عضبا صقيلا[2]
ووقع لسان كحد السنان ورمحا طويل القناة عسولا[3]

(١) البيان والتبيين ١ ١٧٠

(٢) العضب السيف.

(٣) عسولا كثير الاضطراب جيئة وذهابا

العرب ؛ وسلامة بن جندل ، كان من فرسان العرب المعدودين ؛ وعمرو بن الأهتم السعدى ، كان من سادات قومه ، وكان خطيباً شاعراً وفد على النبي فى وفد تميم ؛ وذو الإصبع العدوانى شاعر فارس ، وهو أحد الحكماء المشهورين ؛ وعبد يغوث بن وقاص الحارثى كان فارساً ، وكان سيد قومه بنى الحرث بن كعب وقائدهم فى يوم الكلاب الثانى إلى بنى تميم ، وهو من أهل بيت معروف بالشعر فى الجاهلية والإسلام ؛ والحرث بن وعلة الجرمى، كان هو وأبوه وعلة من فرسان قضاعة وأنجادها وأعلامها وشعرائها ؛ وعوف بن الأحوص، كان أبوه الأحوص سيدا فى قومه ، وذا رأيهم ، شهد يوم جبلة وهو شيخ كبير ، فكان يدبر الناس ، وكان ابنه عوف من زعمائهم وقوادهم ؛ والمرقشان الأكبر والأصغر كان لهما موقع فى بكر بن وائل وحروبها مع بنى تغلب ؛ وأبو قيس بن الأسلت الأنصارى ، كانت الأوس قد أسندت أمرها إليه وجعلته رئيساً عليها والحرث بن ظالم المرى كان من أشراف بنى مرة وساداتهم وكان أفتك الناس وأشجعهم وضمرة بن ضمرة النشهلى كان خطيباً فارسا شاعراً شريفاً وسيدا ، وكان أحد حكام بنى تميم المشهورين ؛ وسنان بن أبى حارثة المرى كان فارسا شريفا ، وكان رأس غطفان وبنى مرة ، وابنه هرم من أجواد العرب ؛ وعامر بن الطفيل كان شاعرا سيدا وغير هؤلاء كثير ونحن لا نقصد إلى الاستقصاء ، وإنما أكثرنا لنزيل ما استقر فى أوهام كثير من الناس من أن الشعر كان يضع من قدر الأشراف ، كما يروى فى أخبار امرىء القيس والنابغة . فالواقع أن الشاعر كان عزيزا فى قومه منيعا، ما عاش مستغنيا كريما يتضع لسانه فى خدمة قبيلته . وإنما كان يسقط قدره بينهم إذا احتاج لغيره . وقبل على شعره الهبات . شأنه فى ذلك شأن الناس جميعا إذا مدوا أيديهم للسؤال . ومعظم الشعراء الذين ذكرناهم فيمن سادوا مقلون[1].

---

(١) راجع الحماسة والمفضليات فى هؤلاء الشعراء

لأن شعرهم محدود فى نطاق القبيلة وما يتصل بها روى الجاحظ عن أبى عمرو بن العلاء « كان الشاعر فى الجاهلية يقدَّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم . ويفخم شأنهم . ويهوّل على عدوهم ومن غزاهم . ويهيب من فرسانهم . ويخوف من كثرة عددهم ، فيهابهم شاعر غيرهم ويراقب شعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوقة ، وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر[1] . »وأصدق مايصور مكان الشاعر من القبيلة قول هدبة بن الخشرم:

وإنى من قضاعة من يكدها ... أكده وهى منى فى أمان
ولست بشاعر السفساف منهم ... ولكن مدره الحرب العوان
سأهجو من هجاهم من سواهم ... وأعرض منهم عمن هجانى

وقول عبيد بن الأبرص :

إذا كنتَ لم تعبأ برأى ولم تطع ... لنصح ولا تصغى إلى قول مرشد
فلا تتقى ذم العشيرة كلها ... وتدفع عنها باللسان وباليد
وتصفح عن ذى جهلها وتحوطه ... وتقمع عنها نخوة المتهدد
وتنزل منها بالمكان الذى به ... يرى الفضلُ فى الدنيا على المتحمد
فلستَ وإن عللت نفسك بالمنى ... بذى سؤدد بادٍ ولا كرْب سيّد

وكانت القبائل تعتمد فى حروبها على الشعر اعتمادها على السلاح ولم يكن الهجاء أخف وقعا على الأعداء من وقع الرماح ، كما يقول عبد القيس ابن خفاف البرجمى :

وأصبحت أعددت للنائبات ... عرضا بريئا وعضبا صقيلا[2]
ووقع لسان كحد السنان ... ورمحا طويل القناة عسولا[3]

(١) البيان والتبيين ١ ١٧٠

(٢) العضب السيف.

(٣) عسولا كثير الاضطراب جيئة وذهابا

القيم الأخلاقية والاجتماعية عند العرب
فى الجاهليــــة

لم تكن الصحراء العربية سخية ولا رحيمة بأهلها ، ولم يكن أهلها رحماء بينهم ولا متناصفين . فالحياة تقوم على التنافس الشديد ، والعنف الذى لاهوادة فيه ، والقسوة التى لاتلين . والقارىء لشعرهم وآثارهم يستطيع أن يرى بوضوح أن القوة فى كل صورها هى المثل الأعلى الوحيد الذى آمنوا به وحرصوا عليه . فكل مانالته يد القوى فهو حق له الفضيلة عندهم هى الرجولة ،والشجاعةوالإقدام، وركوب المخاطروالأهوال ، والتجليد للمكاره والخطوب . للقوى صفوة الحياة ومتاعها ، وللضعيف الفضل والعفو فالضعف فى كل مظاهره هى الجريرة الوحيدة التى يعير بها الرجل ، ويذوق من جرائها الهون والنكال . لم يكن للخيِّرين الوادعين مكان . وإنما كان المكان الأول للظالم الغاشم، الذى ينتزع نصيبه من معترك الحياة جريئامعتديا ، ويستخلصه عزيزاً مقتدرا

يقول زهير

ومن لايذُدْ عن حوضه بسلاحه ... يُهَدَّم ومن لايَظْلِم الناسَ يُظْلَم

ويقول طرفه

فلوكنتُ وَغْلاً فى الرجال لضَرَّنى ... عداوةُ ذى الأصحاب والمتَوَحِّد

ولكن نفى عنى الرجالَ جراءتى ... عليهم وإقدامى وصدقى ومَحتِدى

ويقول سعد بن ناشب

تفنِّدنى فيما ترى من شراستى ... وشدة نفسى أمُّ سعد وما تدرى

فقلت لها إن الكريم وإن حلا ... ليُلْفَى على حال أمر من الصبر

وفى اللين ضعف والشراسة هيبة ... ومن لم يُهَبْ يُحمَلُ على مركب وعر

وما بى على من لان لى من فظاظة ولكننى فظ أبىّ على القسر (١)
أقيم صغا ذى الميل حتى أرده وأخطمه حتى يعود إلى القدر (٢)
فإن تعذليى تعذلى بى مرزءا كريم ثنا الإعسار مشترك اليسر (٣)
إذا هم ألقى بين عينيه عزمة وصمم تصميم السريجى ذى الأثر (٤)

يغير النفر القوى على النفر الضعيف، فيجليه عن الماء، ويغصبه ماله وإبله ومتاعه، ويخلفه على نسائه. كما يقول معاوية بن مالك :

إذا نزل السحاب بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

ويقول مجمّع بن هلال :

وعاثرة يوم الهييمى (٥) رأيتها وقد ضمها من داخل القلب مفزع
لها غلل فى الصدر ليس يبارح شجى نشب والعين بالماء تدمع
تقول وقد أفردتها من حليلها تعست كما أتعستنى يا مجمّع
فقلت لها بل تعس أم مجاشع وقومك حتى خدك اليوم أضرع (٦)

وربما أعوزهم النهب، فأغاروا على إخوتهم وأبناء عمومتهم. كما يقول القطامى :

وكن إذا أغرن على جناب وأعوزهن نهب حيث كانا
أغرن من الضباب على حلول وضبة إنه من حان حانا
وأحيانا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

ويلقى الرجل الرجل، فيسلبه إبله ومتاعه ويرد القوى الماء فيشرب صفوه، وينتظر الضعيف خلو المورد، قانعاً بالطين والكدر. كما يقول عمرو بن كلثوم :

---

(١) القسر القهر على كره

(٢) أقيم صغا ذى الميل أى أقيم عوجه . خطم الدابة أمسكها بالخطام يقصد أنه يكبح جماحه

(٣) العذل اللوم والتعنيف الثنا الخبر يقول إن افتقرت حسنت سيرتى ولم ير الناس عنى إلا كل خير، وإن أثريت أشركت الناس فى ثروتى ولم أنفرد به

(٤) السريجى السيف الأثر فرند السيف .

(٥) الهييمى اسم اليوم الذى أسرت فيه هذه المرأة

(٦) يقول لها بل تعس قومك (مجاشع) وتعست الأم التى ولدتهم . لأنهم صيروك وتركوك سبية ذليلة

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كَدَراً وطينا

وكما يقول جرير

إن الزحام لغيركم فتحينوا وِرْدَ العشِىِّ إليه يخلو المنهل

ويقضى القوى الأمر ، والضعيف مخلف لا تصغى له أذن ، ولا يقام لرأيه وزن ، كما يقول الأخطل :

مخلفون ويقضى الناس أمرهم وهم بغيب وفى عمياء ما شعروا

وكما يقول جرير

الظاعنون على العمياء إن ظعنوا والسائلون بظهر الغيب ما الخبر

وهذا هو قُرَيْط بن أنَيْف ، لا يعير قومه إلا الحلم والإحسان ، وأنهم ليسوا أصحاب شر وعدوان

لكنّ قومى وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشَرِّ فى شىء وإن هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا

كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا

وإنما يريد قُرَيْط من قومه أن يكونوا كالذين وصفهم بقوله :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زَرَافاتٍ ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهانا

قال عبد الملك بن مروان لجعيل بن علقمة الثعلبى : ما مبلغ عزكم ؟ قال لا يُطْمَع فينا ولا نُؤْمَن . قال فما مبلغ حفاظكم ؟ قال يدفع الرجل منا عمن استجار به من غير قومه ، كدفاعه عن نفسه . قال عبد الملك مثلك من يصف قومه . وقال عبد الملك بن مروان لابن مُسْتَطاع العَنْبَرى أخبرنى عن مالك بن مسمع قال لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف سيف ، لا يسألونه فى أى شىء غضب [1]

---

(١) العقد الفريد ١ : ١٠٥

كان تميم بن أبيّ بن مقبل يهاجي النجاشي الشاعر، فهجاه النجاشي فأوجعه، فاستعدى عليه عمر بن الخطاب . فاستدعاه عمر فسأله : يانجاشي ما قلت له ؟ قال : ياأمير المؤمنين قلت مالا أرى فيه عليه بأساً . وأنشده :

إذا الله جازى أهل لؤم بذمة فجازى بني العجلان رهط ابن مقبل

فقال عمر : إن كان مظلوما استجيب له . وإن لم يكن مظلوما لم يستجب له

قالوا : وقد قال أيضاً

قُبَيِّلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر : ليت آل الخطاب كذلك .

قالوا فإنه قال :

ولا يردون الماء إلا عشيةً إذا صدر الوُرَّادُ عن كل منهل

قال عمر : ذلك أقل للزحام.

قالوا : فإنه قال :

تعاف الكلاب الضاريات لحومَهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فقال عمر : يكفي ضياعا من تأكل الكلاب لحمه .

قالوا : فإنه قال :

وما سمي العجلان إلا لقوله خذ القَعْب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر : كانا عبد ، وخير القوم خادمهم .

قال تميم : فسله يا أمير المؤمنين عن قوله :

أولئك إخوان اللعين وأسوة الهجين ورهط الواهن المتذلّل

فقال عمر : أما هذا فلا أعذرك عليه . وجلده ثم حبسه .

فالعربُ لا يحقرون الظالم لظلمه ، ولكنهم يعيرون المظلوم لضعفه . فهذا رجل ينتصر لجار له نهبت إبله ، ثم يضعف عن حمايته ، إذ يعدو عليه المغتصب بقومه ، ويسترد ما اغتصب ، فيعيره الشاعر قائلا :

أغرّكَ يوما أن يقال ابنُ دارم وتُقْصَى كما يُقصَى من البرك أجرب

قضى فيكم قيسٌ بما الحقُّ غيرُه كذلك يخزوك العزيز المُدرَّب

فأدّ إلى قيس بن حسان ذوْدَه وما نيل منك التمرُ بل هو أطيب
فإن لا تصل رحم ابن قيس ابن مرثد يعلَّمْك وصلَ الرحِم عضبٌ مجرَّب

هؤلاء قوم لا يسألون الضارب لم ضربت ، ولكنهم يسألون الباكى لم بكيت . وهم لا ينظرون إلى المغتصب هذه النظرة المهينة التى نرمق بها اللص وقاطع الطريق . ولكنهم ينظرون إليه نظرة البطولة والإعجاب ، ما دام يسعى جهرة ، ولا يدب دبيبا ، ويتستر متزاورا

ولم يكن يستغيث بالسلطان إلا الضعيف العاجز . أما القوى فهو كما يقول الشنفرى الحارثى :

فلسنا كمن كنتم تصيبون سَلّةً فنقبل ضيما أو نُحكِّمَ قاضيا (1)
ولكن حكم السيف فينا مُسلَّطٌ فنرضى إذا ما أصبح السيفُ راضيا

وكما يقول عروة المرادى

أرجّل جُمتى وأجر ذيلى وتحمل شكّتى أفُن كُمَيْت (2)
وأمشى فى سراة بنى غطيف إذا ما ساءنى أمر أبَيْت

وإن أحدهم ليرفض حكم الملوك . وهذا هو شبيب بن عوانه الطائى يقول :

قضى بيننا مروان أمْسِ قضية فما زادنا مروان إلا تنائيا
فلو كنت بالأرض الفضاء لعفتها ولكن أتت أبوابه من ورائيا

وقد صورت جماعة الصعاليك المثل العربية العليا فى ذلك الوقت أصدق تصوير . فعروة بن الورد لا يتصور الفضيلة والمجد إلا فى ركوب المخاطر والأهوال ، ولا يرى الحياة الهادئة الوادعة خليقة بالرجال .

لحى الله صعلوكا إذا جَنّ ليلهُ مضى فى المُشاش آلفاً كلَّ مجزَر (3)
يعد الغنى من دهره كل ليلة أصاب قِراها من صديق مُيَسَّر
ينام عشاء ثم يصبح ناعساً يحُتُّ الحصى عن جنبه المتعفر

---

(1) سلة أى سرقة فى تستر وخفاء . (2) الشكة السلاح

(3) المشاش الأرض الوعرة. يذم الرجل الذى كل همه الطعام، يركب الوعر باحثاً عن مواضع الذبح .

يعين نساء الحى ما يستعنَّـه   ويمسى طليحاً كالبعير المحسَّر [1]

ولـكنَّ صعلوكاً صحيفةُ وجهه   كضوء شهاب القابس المتنَـوِّر [2]

مُـطلاًّ على أعدائه يزجرونه   بساحتهم زجر المنيح المشهر [3]

إذا بعدوا لا يأمنون اقترابه   تشوُّفَ أهلِ الغائبِ المتنظَّر

فذلك إن يلق المنية يلقها   حميداً وإن يستغن يوما فأجدر

وليست حياة الرجال عند تأبط شراً إلا تلمساً للقتال والنزال، واضطرابا فى الصحارى والقفار، ويقظة مستمرة فى الليل والنهار. إن نامت العينان فالقلب يقظان. فالرجل العظيم:

قليل غرَارِ النوم أكبرُ هَمِّهِ   دمُ الثأر أو يلقى كَـمِـيًّا مسفَّـعاً [4]

يُمَاصِعُه كلٌ يشجع قومُه   وما ضربه هام العدا ليُشَجَّعا [5]

قليلَ ادخار الزاد إلا تَعِـلَّة   فقد نشز الشُّرْسوف والتصق المعا [6]

يبيت بمَغْنَى الوحش حتى ألِفْنَهَ   ويصبح لا يحمى لها الدهر مَرْتَعاً [7]

على غِرة أو نُهزة من مُكَانس   أطال نزال القوم حتى تسعسعا [8]

ومن يُغْر بالأعداء لا بد أنه   سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعاً

وإنى وإن عُمِّرْتُ أعلم أننى   سألقى سنان الموت يبرق أصلعا

---

(١) المحسر المعيى وكذلك الطليح. يقول إنه لا عمل له طول يوم إلا خدمة النساء والجلوس بجوارهن. فلا يأتى المساء إلا وقد أنهكه التعب.

(٢) القابس الذى يقتبس النار، والمتنور الذى يطلبها من بعيد. يصف وجهه بالتهلل والبريق الذى يصور المضاء والعزم

(٣) المنيح والسفيح والوغد أسماء قداح لا نصيب لها فى الميسر، وإنما توضع ليكثر بها القداح. وهو يشبه زجر الناس لهذا الصعلوك بزجر اللاعبين لهذا القدح الذى لا حظ له، لا يريد أحد أن يكون من نصيبه.

(٤) الكمى المتكمى بالسلاح أو المتستر به. المسفع المتغير لون الوجه من كثرة الأسفار.

(٥) يماصعه يجالده ويناز له

(٦) الشرسوف مقاطع الأضلاع التى تشرف على البطن. المعا الأمعاء. يصفه بالنحافة وبالتجلد على الجوع.

(٧) المغنى مكان الاقامة من غنى بالمكان أقام به. يقول إن الوحوش قد ألفته لطول صحبته لها.

(٨) الغرة الغفلة والنهزة الفرصة. وتسعسع ولى أى أنه قد نحل ومضى معظمه.

أما أبو النشناش فهو يفتخر باللصوصية ، ويعجب من الفتى يرضى بالفقر ، والمغانم مبذولة للمغامر ، ومن راكب ليل يخفق ، وفى سواده عون لكل فاتك .

ونائية الأرجاء طامسة الصُّوَى خَدَتْ بأبى النَّشناش فيها ركائبه[1]
ليكسب مجداً أو ليدرك مغنما جزيلا وهذا الدهر جَمٌّ عجائبه
وسائلة ، بالغيب عنى وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه؟
فلم أر مثل الفقر ضاجعه الفتى ولا كسواد الليل أخفق طالبه

فالعربى يعيش للنزال والقتال، ويحارب من أجل الحياة . المكان الأول للفارس المقاتل ، وللسوقة حياة الصناعة والزراعة المستقرة الآمنة ، التى لاتكلف صاحبها مغامرة ولا زحاما . وهذا هو الأعشى يعير إياداً أنهم أهل زرع فيقول :

لسنا كمن جعلت إيادٌ دارَها تكريت تنظرُ حبها أن يحصَدا
قوما يعالج قملا أبناؤهم وسلاسلا أجُداً وبابا مؤصدا

وعير جرير الفرزدق أن جده كان حداداً فى كل مكان من النقائص . وعير الفرزدق آل المهلب أنهم يمنية أصحاب سفن وتجارة .

وكم لك يا ابن دُحمة من قريب مع التُّبَّان يُنسَب والزيار[2]
يظل يدافع الأقلاع منها بملتزم السفينة والجِتار[3]
إذا نُسِبتْ عمان وجدتَ فيها مذاهب للسفين وللصرارى[4]
أولئكَ معشر أقعَوا جميعا على لؤم المناقب والنِّجار

---

(١) الصوى الأعلام من الأحجار توضع على الطريق فى الصحراء ليهتدى بها السالك إلى الطريق . يقول إن هذه الصحراء مخيفة لأن الرمال قد طمست أعلامها

(٢) دحمة أم يزيد بن المهلب . التبان سراويل قصيرة يلبسها النوتية لاتستر إلا العورة . الزيار القلس وهو حبل السفينة

(٣) الختار من كل شىء حرفه وما استدار به وحلقة الدبر . يقول إنه يدافع الأقلاع بهذا الموضع من جسمه .

(٤) الصرارى الملاح

وافتخر الأخنس بن شهاب التغلبي بأن قومه لا يركنون إلى المدن كما يفعل المستضعفون، ولكنهم يتنقلون في الصحراء، يفرضون أنفسهم على منازل الغيث بقوتهم، تحيط بهم خيلهم، يكرمونها فلا يسقونها إلا اللبن في الصباح وفي المساء.

ونحن أناس لا حجاز بأرضنا مع الغيث ما نُلْفَى ومن هو غالب
ترى رائدات الخيل حول بيوتنا كمِعْزَى الحجاز أعجزَتها الزرائب
فيُغْبَقْنَ أحلاباً ويُصْبَحْنَ مثلها فهنّ من التَعداء قُبٌّ شوازب[1]

وإنها لمفخرة للعربي أي مفخرة أن يموت على فرسه محارباً. وأبغض شيء إلى نفسه أن يموت على فراشه. يقول السموءل بن عاديا:

وما مات منا سيد حَتْفَ أنفه ولا طُلَّ منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظُبات نفوسنا وليست على غير الظُبات تسيل
وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

من أجل ذلك كان أعز شيء على العربي فرسه وسلاحه. وإن أحدهم ليطعم فرسه، ويجيع عياله. وهذا رجل من تميم يتحدث عن فرسه (سكاب) فيقول:

أبيت اللعن أن سكاب عِلق نفيس لا تعار ولا تباع
مُفَدَّاةٌ مكرمة علينا يجاع لها العيال ولا تجاع

بل لقد بلغ من إعزاز العربي لفرسه أن يفضلها على زوجه. فالأعرج المعنى يخاطب زوجته حين لامته في أن سقى فرسه (الورد) بعض اللبن، فيقول: إن فرسه يفضلها ساعة الفزع، فهي تجري نخيب الفؤاد، حاسر الرأس، قد أخذ منها الفزع. أما هو فيجده طوع أمره شديداً يجزيه ما أسلف عنده وما صنع له:

أرى أم سهل ما تزال تَفَجَّعُ تلوم وما أدري علام توَجَّعُ
تلوم على أن أمنح الورد لقحةً وما تستوي والورد ساعة تفزع[2]

(١) القب جمع أقب وهو دقيق الخصر. الشوازب جمع شازب وهو الضامر.

(٢) اللقحة الناقة التي بها لبن والورد إسم فرسه

إذا هي قامت حاسراً مشمعلة ... نخيب الفؤاد رأسها ما يقنع[1]
وقمت إليه باللجام ميسراً ... هنالك يجزيني بما كنت أصنع

ومن أجل ذلك أحب العرب كثرة النسل واعتزوا به ، فكانت المرأة أكرم ما تكون على زوجها إذا كثر نسلها من البنين . فهي في نظرهم مصنع حربي لإنتاج الذخائر. قال تعالى(اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر بالأموال والأولاد) :
ويقول أنيف بن زبان الطائي في وصف قومه .

أبى لهم أن يعرفوا الضيم أنهم ... بنو ناتق كانت كثيراً عيالها

وقد كانت هذه الحياة المضطربة الكثيرة الحركة تتطلب الخفة والنشاط، لذلك كرهت العرب في الرجل أن يكون سمينا مكتنزا ، ورأوا في السمن والاكتناز آثار النعمة والترف، والركون إلى الكسل والخمول. وأحبوا فيه أن يكون نحيلا خفيف اللحم ، من أثر السهر، واقتحام الأهوال، وطي الرمال ، والصبر على المكاره ساعة النزال . فالرجل ذو الخطر كما يقول تأبط شرا :

سباق غايات مجد في عشيرته ... مرجع الصوت هداً بين أرفاق[2]
عاري الظنابيب ممتد نواشره ... مدلاج أدهم واهي الماء غساق[3]

أو هو كما تقول زينب بنت الطثرية في رثاء أخيها يزيد بن الطثرية

فتى قد قد السيف لا متضائل ... ولا رهل لباته وأباجله[4]

ويقول شاعر الحماسة معتذرا عن سمنه

ألا قالت الخنساء يوم لقيتها ... عهدتك دهراً طاوي الكشح أهضما
فإما تريني اليوم أصبحت بادنا ... لديك فقد ألفى على البزل مرجما[5]

---

(١) مشمعلة مسرعة في الجرى . يصفها في فزعها وقد سقط الخمار عن رأسها وجدت في الهرب .
(٢) الأرفاق الرفاق يقول إن صوته يجلجل بينهم مدويا حين يأمر وينهى
(٣) الظنبوب عظم الساق يقول إن عظم ساقه عار من اللحم لنحوله النواشر عروق ظاهر الذراع . وهي ظاهرة لقلة لحمه الادلاج سير الليل كله يقول إنه كثير الأسفار في الليل الأدهم الليل المظلم واهي الماء شديد المطر غساق شديد الظلمة
(٤) الأباجل العروق
(٥) البازل الناقة التي ظهرت أنيابها والجمع بزل

ويقول الأعشى فى مدح قيس بن معد يكرب :

ولم تسع للحرب سَعْىَ امرىء إذا بِطنةٌ راجعته سكن
ترى همه نظراً خصرَه وهمك فى الغزو لا فى السمن[1]

قال عبد الملك بن مروان[2] ما كنت أحب أن أحدا ولدنى من العرب إلا عروة بن الورد لقوله :

أتهزأ منى أن سمنتَ وأن ترى بجسمى مسَّ الحق والحقُّ جاهد
لأنى إمرؤ عافى إنائى شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد[3]
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

وعكس هذه الصورة التى يحبونها فى الرجل كان يستحب فى المرأة . كانوا يصورونها وقد تراكم عليها الشحم ، فهى لا تكاد تقوى على حمل جسمها . وكانوا يرون هذا السمن مظهر الترف والنعمة . فالمرأة المترفه يحميها رجل قوى ، يستطيع أن يدفع عنها كل عدوان ، ويكفيها أن تمتهن وتهان ، ويجلب لها الثروة والمال من كل مكان

يقول المُرَارُ بن مُنقِذ فى وصف النساء

قُطُفُ المشى قريبات الخطى بُدَّناً مثل الغمام المُزْجَر[4]
يتزاورن كتقطاء القطا وطعمن العيش حلوا غير مر[5]
فهى هيفاء هضيم كشحها فخمة حيث يُشدُّ المؤتزَر
يَبهَظُ المِفْضَلَ مِن أردافها ضفِر أردِفَ أنقاءَ ضفِر[6]

---

(١) يقول : حين يكون هم الخامل أن ينظر فى خصره ليرى هل سمن أم لا ، لا يكون همك إلا الغزو .

(٢) العقد الفريد ١ : ١٨١

(٣) يقول إن هذا الرجل المعجب بسمنه إنما امتلأ لحما لأنه يأكل وحده . أما أنا فأشرك الناس فى طعامى .

(٤) القطوف المتقاربة الخطو المزجر المرتفع . والغمام إذا ارتفع رق وصفا

(٥) القطو تقارب الخطو

(٦) يبهظه يملؤه المفضل الثوب الذى تلبسه المرأة وحده فى خلوتها

وإذا تمشى إلى جاراتها ... لم تكد تبلغ حتى تنبهر
يُضرَب السبعون فى خلخالها ... فإذا ما أكرَهتْه ينكسر
ناعَمَتها أم صدق بَرَّةٌ ... وأب بَرُّبها غيرُ حكِر
فهى خَذْواء بعيش ناعم ... بَرَدَ العيش عليها وقُصِر

ويقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيض حسان ... نحاذر أن تفارق أو تهونا
أخذن على فوارسهن عهداً ... إذا لاقوا فوارس معلَمينا
لَيَستلِبُنَّ أبدانا وَبيْضاً ... وأسرى فى الحديد مقرنينا [1]
إذا ما رُحْنَ يمشين الهوينا ... كما أضطربت متون الشاربينا
يقُتْن جيادنا ويقلن لستم ... بعولتنا إذا لم تمنعونا
إذا لم نحمهن فلا بقينا ... لشيء بعدهن ولا حيينا
وما منع الظعائنَ مثلُ ضرب ... ترى منه السواعد كالقُلِيا [2]

ولقد بلغ من تمكن صورة الشراسة والعُنف فى نفس العرب ، أنهم كانوا يزعمون أن المرأة إذا حملت ، وهى مكرهة على ذلك غير مدفوعة بالشهوة العنيفة ، كان ابنها أنجب . وكان الرجل منهم إذا أراد أن ينجب من زوجته أغضبها . ويقولون (إن ولد المذعورة لايطاق) . وقد وصفت أم تأبط شرا ابنها فقالت أما والله إنه لشيطان ما رأيته قط مستنقلا ولاضاحكا ، ولاهم بشيء مذ كان صبيا إلا فعله ، ولقدحملت به فى ليلة ظلماء ، وإن نطاقى لمشدود[3] . وفى هذا يقول أبو كبير الهذلى :

حملت به فى ليلة مزءُودة ... كرها وعقد نطاقها لم يحْلل [4]
فأتت به حُوشَ الفؤاد مُبَطَّناً ... سُهُدا إذا مانام ليل الهوْجَل [5]

---

(١) الأبدان الدروع ، والبيض الخوذات
(٢) القلون جمع قلة وهى خشبة يلعب بها الصبيان
(٣) شرح الحماسة ١ ٨٤ ، ٨٥ (٤) الزؤد الذعر والمزءود المذعور
(٥) حوش الفؤاد وحشيه لحدته وتوقده مبطن ضامر البطن سهد كثير السهر . الهوجل الثقيل الكسلان أو الأحمق

فإذا نبذت به الحصاة رأيته ينزو لوقعتها طُمُور الأخيل(١)
وإذا يهب من المنام رأيته كرُتُوب كعب الساق ليس بِمِزْمل(٢)
وإذا رميت به الفجاج رأيته يهوى مخارمها هُوِىّ الأجدل(٣)
صعب الكريهة لا يرام جنابه ماضى العزيمة كالحُسام المصقل
يحمى الصحاب إذا تكون كريهة وإذا هُمُ نزلوا فمأوَى العُيَّل(٤)

وكانت العرب تمدح فى الرجل أن يكون جلدا صبورا على المصيبة ، لأن الجلد من آثار القوة والتماسك ومغالبة الزمن . فالاستسلام للجزع والحزن ضعف لا يجمل بالرجل القوى . يقول بعض بنى قيس بن ثعلبة فى وصف قومه بالتجلد .

ولا تراهم وإن جَلت مصيبتهم مع البكاة على من مات يبكونا

ويقول عمرو بن معديكرب :

كم من أخ لى صالح بَوَّأته بيدَى لحدا
ما إن جزعت ولا هلعـ ـت ولا يرد بكاى زَنْدا
ألبسته أثوابه وخُلقتُ يوم خلقت جَلدا
أغنِى غناء الذاهبيـ ـن أُعَدُّ للأعداء عدا
ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا

ويقول ابراهيم بن كُنَيف النبهانى :

فإن تكن الأيام فينا تبدلت بنُعمَى وبؤسَى والحوادثُ تفعل
فما لينَت منا قناة صليبة ولا ذللتنا للتى ليس تجمل

---

(١) الطمور الوثب وفرس طمر وثاب . الأخيل المتكبر المعجب بنفسه
(٢) رتب رتوبا قام وانتصب . مزمل ضعيف سمى بذلك لتزمله فى ثوبه وقعوده عن الحرب .
(٣) الأجدل الصقر.
(٤) العيل جمع عائل وهو الفقير.

ولكن رحلناها نفوساً كريمة ... تُحَمل مالا يستطاع فتحمل
وقَيْنَا بحسن الصبر منا نفوسنا ... فصحت لنا الأعراض والناس هُزَّل

وإنا لنجد الجاهلى يتغزل ، فيصور صاحبته ولها زوج قد غلبه عليها ، أو يصورها وحولها حراس غلاظ شداد ، لايخلص إليها إلا بعد إعمال حيلة وجهاد . حتى الحب لم يكن إلا نوعا من المقاتلة والصراع ، ورغبة فى الظفر والامتلاك .

يقول الأعشى :

وَمصَاب غادية كأن تجَارَها ... نشرَتْ عليه برُودَها ورحالها
قد بتُّ رائدهاً وشاة محاذر ... حذَراً يُقِلُّ بعينه أغفالها
فظلَلت أرعاها وظل يحوطها ... حتى دنوت إذا الظلام دنالها
فرميت غفلة عينه عن شاته ... فأصبتُ حَبَّة قلبها وطحالها

لم يكن التمدح بالخمر والميسر والنساء لما فيها من متع الجسم ، ولكنه كان عندهم مظهرا من مظاهر الفتوة والشباب — والشباب قوة ، ولامتلاك اللذة نشوة — كان العربى يتمدح بالخمر لأنها ، كما يقول عمرو بن كلثوم

تجور بذى اللُّبانة عن هواه ... إذا ماذاقها حتى يلينا
ترى اللحِز الشحيح إذا أُمرَّت ... عليه لماله فيها مُهينا
إذا صَمَدَتْ حُمياها أريبا ... من الفتيانِ خلْتَ به جنونا

أو كما يقول حسان

ونشربها فتتركنا ملوكا ... وأُسداً ماينهنهنا اللقاء

فالعربى إذا تحدث عن لذاته ونغى بها ، رأيت فى حديثه حماسة وقوة ، هى حماسة الفاتك القادر ، وقوة المنتصر الظافر . يقول مجمع بن هلال

وخيل كأسراب القطا قدوَزعتها ... لهاسَبَل فيه المنَيَّةُ تلمع
شهدتُ وغُنمٍ قد حَوَيْتُ ولذة ... أصبتُ .وماذا العيش إلا التمتع

ويقول الأعشى

ولقد لبست العيش أجمع وارتديتُ من الإبارة
وأصبتُ لذات الشباب مُرفَّلا ونَعِمْتُ ناره
ولقد شربت الراح أُسْقَ من إناء الطَهْرَ جَارَهْ

ويقول طرفة :

ألا أيهذا اللائمى أحضُرَ الوَغَى — وأنْأشْهدَ اللذات هل أنت مُخلدِى
فإن كنتَ لاتسطيع دفع منيتى — فدعنى أبادِرْها بما ملَكتْ يدى
فلولا ثلاث هن من حاجة الفتى — وجدِّك لم أحفل متى قام عودى (١)
فنهن سبقُ العاذلات بشَربة — كُمَيْت متى ماتُعْلَ بالماء تُزبدِ
وكرى إذا نادى المُضافُ مُحَنَّبا — كسيد الغضا نبهته المتورِّدِ (٢)
وتقصير يوم الدجن والدجْنُ مُعجِب — ببهكَنَةٍ تحت الطِراف المعمَّد (٣)

ويقول حسان بن ثابت

وممسك بصداع الرأس من سُكُر — ناديته وهو مغلوب فَفَدّانى (٤)
لما صحا وتراخى العيش قلت له — إن الحياة وإن الموت مثلان
فاشرب من الخمر ما آتاك مَشْرَبُه — واعلم بأن كلُّ عيش صالح فان

ويقول المرقش الأكبر

ياخولُ مايدريك رُبَّتَ خَرَّةٍ — خَوْد كريمة حَيها ونسائها
قد بِتّ مالكها وشاربَ رَيَّةٍ — قبل الصباح كريمة بسِبابها

---

(١) العود من يعوده فى مرضه أو يحضره عند موته يقول إنه لايبالى متى يموت لولا حرصه على ثلاث خصال، فصلها فى الأبيات التالية . وهى الخمر وإغاثة المستغيث والنساء . وهذه الخصال الثلاث هى عنده لوازم الفارس وهمّ الفتى .

(٢) المضاف الذى أضافته الهموم يناديه مستغيثا به المحنب الفرس المعوجة الساقين . السيد الذئب والغضا شجر المتورد الذى يرد الماء .

(٣) الدجن الغيم . البهكنة الضخمة التامة الخلق فهو فى هذا اليوم الخيل يمثل هذه الحسناء ، يقطع الوقت بمغازلتها تحت خباء مرفوع بالعمد . وكلما ارتفع عمود الخباء كان ذلك أضخم له وأدل على شرف صاحبه ، لأن بيوت السوقة والفقراء قصيرة العمد لاصقة بالأرض .

(٤) مغلوب غلبته الخمر فدانى جعل نفسه فداء لى مجاملة وتأدبا فقال جعلت فداك

لم يكن العربى يرى فى اللذات محرما ومباحا . كل لذة فهى مبذولة للفائز ، وإنما يفوز باللذة الجسور . فالفرق الأصيل بين حديث الجاهلى عن لذته ، وحديث العباسى عنها ، أنا نرى فى الأول صورة الرجل المالك لها ، المتصرف فيها . بينما نرى فى الثانى صورة الرجل الذى تملكه اللذة ، فيستسلم لها منقاداً .

فبينما يتسلى الجاهلى عن حبه كما يقول المسيب بن علس:

فَتسلَّ حاجتها إذا هى أعرضت بخَميصة سُرُحِ اليدَيْن وَسَاعِ

وكما يقول الأعشى

فمِطى تميطى بُصلب الفؤاد وَصُول حبال وكَنَّادِها

نجد العباسى وقد ذل وهان ، وكست حديثه ضراعة من لم يعد يملك أمره ، كما يقول العباس بن الأحنف :

خذوا لى منها جرعة فى زجاجة ألا إنها لو تعلمون طبيبى
وسيروا فإن أدركتم بى حُشاشة لها فى نواحى الصدر وَجسْ دبيب
فرشُّوا على وجهى أفق من بليتى يثيبكم ذو العرش خيرُ مثيب
وإن أنتم جئتم وقد حيل بينكم وبينى بيوم للمنون عصيب
وصرت من الدنيا إلى قعر حفرة حليفَ صفيح مُطبَق وكثيب
فرُشُّوا على قبرى من الماء واندبوا قتيلَ كعَابٍ لا قتيلَ حروب

ولم يكن الكرم ممدوحا لأنه من آثار الرحمة والعطف ، ولكن لأنه مظهر السيادة والتفضل ، والقوة والاستعلاء . فالكريم هو القوى الذى يجود بما تجدى عليه السيوف والرماح . وهو لا يدخر المال ، لأنه لا يخشى الفقر ، ولا يشفق من المستقبل، ما دام يستطيع أن ينتزع الثروة حيث كانت ظالماً ومقتدراً

يقول الأعشى فى مدح هوذة :

وفى كل عام أنتَ جاشمُ غزوةٍ تشد لأقصاها عـــزيمَ عزائكا
مورِّثة مالاً وفى المجد رفعةً لما ضاع فيها من قُروء نسائكا (١)

ويقول فى مدح إياس بن قبيصة :

وفى الحرب منـــه بلاء إذا عَوانٌ توقَّدَ أجـــذالهُا (٢)
فــآب له أُصُلاً جامل وأســلاب قتلى وأنفالهـــا
إلى بيت من يعتريه الندى إذا النفس أعجبهـــا مالُهـــا

ويقول فى مدح قيس بن معد يكرب :

وأبيض كالسيف يعطى الجزيل يجود ويغزو إذا ما عَدِم
تضيفْتُ يوماً على ناره من الجود فى ماله أحتكم

ويقول المرقش الأكبر :

أموالنا نقى النفوس بهـا من كل ما يدنى إلى الذّم
لا يُبعِد الله التلبُّب والغــــارات إذ قال الخميس نَعَم (٣)

وقال سبرة (٤) :

أعيرتَنا ألبانها ولحومهـا وذلك عار يا ابن رَيْطَة ظاهر
نُحابى بها أكفاءنا ونهينها ونشرب من أثمانهـا ونقامر
ونكسبها فى غير غدر أكفّنا إذا عُقِدت يوم الحفاظ الدوائر (٥)

---

(١) القرء الحيض أو المدة بين الحيضين . يقول إن الغزو يورثك مالا ومجداً يعوضك عن هجرانك نساءك فى الحرب

(٢) العوان من الحروب التى قوتل فيها مرة . أجذال جمع جذل بكسر الجيم وهو ما عظم من أصول الشجر

(٣) يقول إن قيمة المال فى أن ينفقه صاحبه فيما يكسبه الحمد ثم يقول بارك الله لنا فى الحروب والغزوات التى نكسب منها هذا المال . النعم الجمال . يصيح الجيش حين يراها هذه نعم . فيغيرون عليها .

(٤) بلوغ الأرب ١ ٣٠٠

(٥) يقول إنه يكسب هـــذه الجمال من الغارات — فى غير غدر — وينفقها فى الهبات وفى إكرام الضيف وفى الخمر والقمار .

ولذلك كان قبول الهبة مظهراً من مظاهر الضعف. فالقوى لا يستجدى رزقه، ولـكنه يغتصبه اغتصاباً. وهـذا هو الأعشى يعير يزيد بن مسهر ما يجرى عليه ملوك العراق من رزق فيقول:

وذرنا وقوماً إن هم عمدوا لنا   أبا ثابت واقعد فإنك ناعم

طعامُ العراق المستفيضُ الذى ترى   وفى كل عام حُلةٌ ودراهم

وكانت قوة البيان نظير قوة السنان. فالعربى يدفع بالهجاء، كما يدفع بالطعنة النجلاء.

يقول طرفه:

ويصد عنك مَخيلة الرجل العِرِّيض مُوضِحَةٌ من الوثام[1]

بحسام سيفك أو لسانك والـكلِمُ الأصيل كأرغب الـكلم

ولم يزل الشاعر العربى عزيزاً فى قومه منيعاً ما تغنى بالقوة. فإذا سأل بشعره وقبل الهبات، سقط عن منزلة السادة والرؤساء. وإنما كان يمدح الرجل بسيادة الآباء، وتالد الثراء، لأن ذلك دليل القوة العريقة فى دمه. فليس يسود فى قومه إلا الفاتك الشجاع.

وكل ما يهجى به العربى فهو راجع إلى الضعف والخور: يهجى بخمول النسب، وبالبخل، وبالفقر — يرعى المعز والشاء، ولا يرعى الإبل. ويركب الحمير. ولا يركب الخيل. ويمتهن نساءه فى الرعى والـكد خارج البيت — ويهجى بالجبن والقعود عن الغزو، وبذهاب الهيبة بين الناس — يجلس فى نادى القوم، فلا يسمع صوته ولا يعتد برأيه — وبالقعود عن الثأر وقبول الدية، وبالعجز عن حماية الجار، والتخلص إلى نسائه فى السلم أو الحرب، والاعتماد على حماية الأقربين من أبناء عمه وعشيرته، والاشتغال بما ليس من شأن القوى كالصناعة والزراعة والتجارة.

---

(١) موضحة عن العظم طعنة عميقة نافذة تقطع اللحم حتى تصل إلى العظم.

فالحياة الجاهلية كانت تقوم على الكفاح الدائم ، والتنافس والتنازع ، والمكاثرة بكل شيء حتى المصائب . وقد صور القرآن ذلك فى أكثر من موضع (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) (أعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر بالأموال والأولاد) .

كانت الحياة فى ذلك الوقت صريحة واضحة ، تعترف بذلك القانون الأزلى (البقاء للأصلح) . كانوا يمجدون القوة ، لأنها السبيل الوحيد للحياة والكمال ، ويحتقرون الضعف ، لأنه مظهر الانحلال ، وسبيل الموت والفناء . ولم يكن فى شعرهم وقوانينهم الأخلاقية هذا الرياء والخداع الذى نصطنعه اليوم فى حياتنا ، فنحن نملأ الدنيا غناء بالرحمة والعدالة ، وحق الضعيف فى الحياة . نملأ الدنيا ضجيجاً بهذا النفاق المخدر فى شعرنا ونثرنا وخطبنا وصحفنا ، بينما تسير الحياة فى طريقها الأزلى القديم ، لا تتحول عنه ولا تحيد . فالواقع يكذب آدابنا ، ويسخر من قوانيننا الأخلاقية . أما الجاهليون ، فقد كان شعرهم وقوانينهم الأخلاقية ومثلهم العليا صوراً صريحة للحياة ، ليس فيها غش أو خداع .

أقدم صور الهجاء

المنافرات هى أقدم مانعرف من صور هذا الفن عند العرب . والمنافرة المحاكمة من النفر ، لأن العرب كانوا إذا تنازع الرجلان منهم ، وادعى كل واحد أنه أعز من صاحبه، تحاكما إلى عالم، فمن فضل منهما قدم نفره عليه،أى فضل نفره على نفره [١] . وقيل إنها سميت منافرة ، لأنهم كانوا يقولون عند المنافرة أنا أعز نفراً

وربما وقعت المنافرة بين رجلين من أبناء القبيلة الواحدة ، يتنازعان الشرف والرياسة ، كمنافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة ، ومنافرة هاشم ابن عبد مناف وأمية بن عبد شمس ، وربما كانت بين رجلين من قبيلتين يمثل كل منهما قبيلته، فأيهما نفر على صاحبه كانت قبيلته أفضل ، كمنافرة جرير بن عبد الله البَجلى وخالد بن أرطاة الكلبى .

وكان الرجلان إذا لج بينهما الخصام ، وادعى كل منهما أنه أشرف من صاحبه،تحدى أحدهما الآخر للمنافرة، كما كان يفعل الناس فى العصور الوسطى. حين يتحدى الرجل خصمه للمبارزة   وقد يقوم الرجل التياه بحسبه ونسبه فى مجمع من القوم، فيزعم أنه أشرفهم وأعزهم بيتا، داعيا من ينكر عليه ذلك للمنافرة . روى صاحب العقد أن وفود العرب اجتمعت عند النعمان، فأخرج إليهم بُرْدَىْ مُحَرِّق، وقال ليقم أعز العرب قبيلة فيلبسهما. فقام عامر بن أحيمر ابن بهدلة فاتزر بأحدهما وتردى الآخر . فقال النعمان أنت أعز العرب قبيلة ؟ قال : العزة والعدد من العرب فى معد، ثم فى نزار، ثم فى مضر، ثم فى خندف، ثم فى تميم، ثم فى سعد، ثم فى كعب، ثم فى عوف، ثم فى بهدلة. فمن أنكر هذا من العرب فلينافرنى . فسكت الناس [٣]

---

(١) بلوغ الأرب ١ : ٣٠١

(٢) بلوغ الأرب ١ : ٢٨٨

(٣) العقد الفريد ٦ : ٨

وقعد رجل من بنى غفار يقال له أبو معشر بن مكرز ، وكان غازيا منيعا فى نفسه ، وكان بسوق عكاظ ، فمد رجله ثم قال :

نحن بنو مدركة بن خندف   من يطعنوا فى عينه لا يطرف
ومن يكونوا قومه يُغَطْرِف   كأنه لجة بحـــر مشرف

أنا والله أعز العرب . فمن زعم أنه أعز منى فليضربها بالسيف[1].

وكان المتنافران يضربان للمنافرة موعدا ، ويتراضيان بينهما حكما من كهان العرب ، أو أشرافها المسنين المعروفين بالفصاحة والحكمة والعلم بأخبار العرب وأنسابهم. وكانا يضعان بين يدى الحكم جُعْلاً يخاطران عليه ، من إبل أو غيره، يئول بعد الحكم إلى النافر . وربما نحر النافر الإبل فأطعم الناس أنفة واستكبارا . وقد يكون فى شرط المنافرة شىء آخر غير المال، كما حدث فى منافرة هاشم وأمية ، فقد تنافرا على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة وعلى جلاء عشر سنين. فلما نفر هاشم خرج أمية إلى الشام ، فأقام بها عشر سنين[2] . وكانوا يضعون بين يدى الحكم رهنا من رجالهم وأبنائهم ، ضمانا للوفاء بمثل هذه الشروط .

فإذا كان يوم المنافرة، وافى كل منهم فى قومه ، معهم شعراؤهم، وقد خرجوا فى أحسن زى ، وبدوا فى أفخر مظهر وأملئه للعين، مكاثرين بخيلهم وإبلهم وسلاحهم، ينحرون ويطعمون ، وربما استعان أحدهما أو كلاهما ببعض مشاهير الشعراء من غير قومه . ويجلس الحكم فى قبة قد ضربت عليه يسمع ويرى . فيبدأ أحدهما بتعديد مناقبه ومفاخر قومه، وما لهم من مواقف مشهورة ، مهاجما خصمه، مشهرا بعيوبه ، معيرا بمثالب قومه ، فى كلام مسجوع . ربما استحال بعد قليل إلى رجز . فإذا انتهى ، وقف خصمه فرد عليه ، ونقض ما قال . ثم يتداول الشعراء الإنشاد متبادلين ، شاعر من هذا الطرف، وشاعر من ذاك،

(١) ابن الأثير ١ : ٣٥٩

(٢) النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم للمقريزى ص ٢١ .

يتملقون الحكم بمدحه ، ويظهرون مفاخر صاحبهم ومآثر قومه .

وقد اشتهرت عكاظ بمثل هذه المحافل . قال صاحب لسان العرب (قال الليث : سمى عكاظ عكاظا لأن العرب كانت تجتمع فيه فيعكظ بعضهم بعضاً بالفخار، أى يدعك ، وعكظ فلان خصمه باللدد والحجج عكظا ... وقال غيره : عكظ الرجل دابته يعكظها عكظا إذا حبسها . وتعكظ القوم تعكظاً إذا تحبسوا ينظرون فى أمورهم . قال وبه سميت عكاظ ... وحكى السهيلى كانوا يتفاخرون فى سوق عكاظ إذا اجتمعوا ،ويقال عاكظ الرجل صاحبه إذا فاخره وغلبه بالمفاخرة . فسميت عكاظ بذلك . وعكاظ اسم سوق من أسواق العرب فى الجاهلية . وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ فى كل سنة ، ويتفاخرون فيها ، ويحضرها شعراؤهم، ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر، ثم يتفرقون ... وقال الأصمعى عكاظ نخل فى واد، بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وبه كانت تقام سوق العرب، بموضع منه يقال له الأثيداء).

المنافرة خليط من النثر والشعر كما رأينا . ولكنه نثر منمق، يكاد يصل فى جماله وموسيقاه وتوازى فقره وجمال صوره إلى درجة الشعر . بل هو فى حقيقته شعر، على ماينا من مفهوم الشعر عند الجاهلين . وكانت الناحية البلاغية هى أبرز ظاهرة فى هذه المجتمعات . فالحكم الأخير يتوقف إلى حد كبير على حسن العرض ، وبلاغة الصياغة ، وقدرة المنافر ومن فى جانبه من الشعراء على التأثير فى الحكم وفى جمهور النظارة .

فالمنافرة هى الصورة البدائيه الساذجة لفن الهجاء . والجانب الهجائى منها يعتمد على المثالب الشخصية، ويدور حول الفرد ، ولكنه لايرتفع إلى الحياة فى أفقها الواسع،ودائرتها الكبيرة. وقد اعتبرناها صورة بدائية ساذجة، لأنها لاتسمو من ناحيتها الأدبية إلى الخلق والابتكار،ولكنها تعتمد على تقرير الواقع، وصياغته فى عبارة منقمة، فهى هجاء شخصى فى أحط صورة وأدنى درجاته. ثم هى لمافيها من عنصر الارتجال، لاتسمو إلى مرتبة الفن الرفيع، وليس فيها أثر

الجهد والحرص على التجويد . ولكنها تعتمد فى معظم الأحيان على حضور البديهة وسرعه الرد ، وتصيدكل شاردة، وانتهاز كل فرصة تبدر من الخصم . فهى تأخذ شكلها من الظروف المحيطة بها ، فى هذا الحوار العنيف ، والنقاش الحاد القصير . ومعظم قيمتها الأدبية راجعة إلى ماتشتمل عليه من تصوير للقيم الأخلاقية والاجتماعية عند العرب فى وضوح وفى صراحة .

وكان يحكم بين الناس فى هذه المنافرات طائفة من سادة العرب يسمونهم الحكام. وكان لكل قبيلة حكم يرجعون إليه فيما ينشب بينهم من خلاف ، وما يعوزهم من رأى ، فى الحرب والسلم [١].

وقد اشتهرت هذه الطائفة برجاحة العقل وفصاحة اللسان والشجاعه والنجدة . ورويت عنهم الأمثال والشعر الحكمى . وكانوا أعلم أهل زمانهم بأنساب الناس ومنازلهم . يقول خُرَيثُ بن عَتاب النبهانى

تعالوا أفاخركم أأعيا وَفَقْعَس	إلى المجد أدنى أم عشيرة حاتم
إلى حَكَمٍ من قيس عيلان فيصَلٍ	وآخر من حىٍّ ربيعة عالم [٢]

ويقول مسكين الدرامى [٣] :

كلانا شاعر من حى صدق	ولكن الرَّحىَ فوق الثِّفال
وحَكَمٌ دَغفَلاً وارحلْ إليه	ولا ترح المطى من الكلال
تعال إلى بنى الكوّاء يقضوا	بعلمهم بأنساب الرجال
تعال إلى ابن مذعور شهاب	يُنَبِّى بالسوافل والعوالى
وعند الكيِّس النمَرى علمٌ	ولو أضحى بمنخرق الشمال

واشتهرت تميم وقيس بحكامها ، فكانت العرب تلجأ إليهم فى منازعاتها . فمن حكام تميم الأقرع بن حابس ، الذى قضى فى منافرة جرير بن عبد الله

---

(١) بلوغ الأرب ١ ٣٠٨ .

(٢) يقصد هرم بن قطبة ودغفلا

(٣) البيان والتبيين ١ : ٢٢٦ .

البجلى وخالد بن أرطاة الكلبي . وقد أدرك النبي وأسلم ، وهو من المؤلفة قلوبهم . ومنهم أكثم بن صيفى ، وهو مشهور بأمثاله ، منها « ويل للشجِّى من الخلى » ومنها « مقتل الرجل بين فكيه » ومنها « لم يهلك من مالك ما وعظك » ومنهم حاجب بن زرارة ، الذى رهن كسرى قوسه . ومن حكام قيس المشهورين هرم بن سنان الفزارى ، ممدوح زهير ، وهو الذى أنتهى إليه الحكم فى منافرة علقمة وعامر . ومنهم عامر بن الظرب العدوانى ، يروى من أمثاله قوله « رب أكلة حرمت أكلات » وقوله « الرأى نائم والهوى يقظان » وقوله « رب زارع حاصد سواه » ومنهم غيلان بن سلمة الثقفى ، زعموا أنه كان يقسم نفسه بين ثلاثة أيام ، يوم يحكم بين الناس ، ويوم ينشد فيه شعره ، ويوم ينظر فى جماله . وقد لجأ إليه عامر وعلقمة فى منافرتهما فيمن لجآ إليه من الحكام .

وكان المتنافرون يلجئون فى بعض الأحيان إلى الكهان ، فيقضون بينهم بكلام مسجوع ، مثل قول الكاهن الخزاعى فى منافرة هاشم وعبد شمس « والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر »[1] .

ونحن ننقل هنا مثلين للمنافرة ، أحدهما يصور المنافرة بين رجلين من قبيلة واحدة ، يتنازعان الشرف والرياسة ، وقد اخترنا لتصوير هذا النوع منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة . والمثل الآخر يصور المنافسة بين قبيلتين ، ممثلتين فى رجلين من ساداتها ، وقد أخترنا له منافرة جرير بن عبد الله البجلى وخالد بن أرطاة الكلبي .

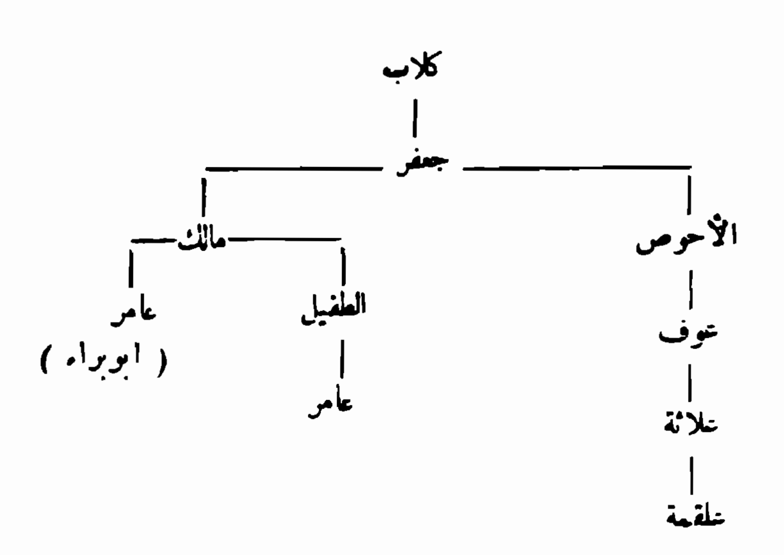
منافرة عامر وعلقمة :[2]

عامر وعلقمة كلاهما من كلاب بن عامر بن صعصعة . وهما يلتقيان عند الجد الثالث لعلقمة والجد الثانى لعامر . وقد كانت السيادة فى بنى كلاب خاصة ،

---

(١) بلوغ الادب ١ ٣٠٨

(٢) الاغانى ٥ ٥٥ – ثعلب (شرح ديوان الاعشى) ص ١٦٥ – بلوغ الادب ١ : ٢٨٧ .



وفى عامر بن صعصعة عامه، للأحوص جد علقمة. فلما مات الأحوص انتقلت السيادة إلى ابن أخيه عامر بن مالك، وهو أبو براء ملاعب الأسنة . فلما أسن أبو براء تنازع عامر وعلقمة الرياسة ، عامر يرى أنها يجب أن تنتقل إليه لأنها فى عمه، ثم هو يرى نفسه أحسن بلاء فى الحرب من علقمة . وعلقمة يرى أنها كانت فى جده الأحوص، وأنها انتقلت إلى أبى براء بسببه، لأنه ابن أخيه . وشرى الشر بينهما حتى صار إلى المنافرة .تراجعا أول الأمر متفاخرين بنثر مسجوع ، ثم تنافرا بخيرهما وأقربهما للخيرات على مائة من الإبل . وانحاز الأعشى ولبيد إلى عامر ، والحطيئة وبعض بنى الأحوص ، وفيهم السندرى، إلى علقمة . واحتكموا إلى خزيمة بن عمرو بن الرجيد ، ثم إلى أبى سفيان بن حرب، ثم إلى أبى جهل بن هشام بن المغيرة ، ثم إلى غيلان بن سلمة الثقفى ،ثم حرملة بن الأشعر المرىء ، وكلهم يتحرج من الحكم فلا يقول بينهما شيئاً ، إلى أن صار الأمر إلى هرم بن سنان ، فاحتال للأمر ، واستدعى كلا من الخصمين على حدة ، فكان يصور لكل واحد منها أن خصمه أفضل منه. فيتخيل أحدهما أنه سيفضل صاحبه ويرجوه أن لا يفعل، وأن يكتفى بالتسوية بينهما . فلما كان يوم الحكم قام هرم فسوى بينهما قائلا (أنتما كركبتى البعير الأدرم الفحل ، يقعان الأرض معاً ، وليس فيكما واحد إلا وفيه ما ليس فى صاحبه ، وكلا كما سيد كريم) . وعمد بنو هرم وبنو أخيه إلى جزر كان قد

أوصاهم أن ينحروها إذا نطق بحكمه، فنحر بعضهم عشرة عن علقمة ، ونحر بعضهم عشرة عن عامر ، وفرقوا بين الناس .

بدأت المنافرة حوارا عنيفاً بين عامر وعلقمة .

قال عامر : والله لأنا أكرم منك حسباً، وأثبت منك نسباً، وأطول منك قصباً.

قال علقمة : والله لأنا خير منك ليلا ونهارا

قال عامر : والله لأنا أحب إلى نسائك أن أصبح فيهن منك .

قال علقمة : أنا فرك أنى لبر وأنك لفاجر ، وأنى لولود وأنك لعاقر وأنى لعف وأنك لعاهر ، وأنى لواف وأنك لغادر .

قال عامر : أنت رجل ولود وأنا رجل عقيم ، وقد وفيت لبنى عمرو ابن تميم، وقد زعموا أنى غدرت بهم ، وهم كاذبون . ولكنى أنافرك أنى أنحر منك للقاح ، وخير منك فى الصباح ، وأطعم منك فى سنة الشياح .

قال علقمة : أنت رجل تقاتل والناس يزعمون أنى جبان ، ولأن تلقى العدو وأنا أمامك ، أعزلك من أن تلقاهم وأنا خلفك . وأنت رجل جواد والناس يزعمون أنى بخيل ، ولست كذلك . وأنت تعطى العشيرة إذا لمت . ولكنى أنافرك أنى خير منك أثراً ، وأحد منك بصراً ، وأعز منك نفراً ، وأشرج منك ذكراً

قال عامر أنت رجل ثار . وليس لبنى الأحوص فضل على بنى مالك فى العدد . وبصرى ناقص وبصرك صحيح . ولكنى أنافرك أنى أسن منك سنة ، وأطول منك قمة ، وأحسن منك لمة ، وأجعد منك جُمَّة، وأسرع منك جَمة ، وأبعد منك همة .

قال علقمة : أنت رجل جسيم وأنا رجل قصيف . وأنت جميل وأنا قبيح . ولكنى أنافرك بآبائى وأعمامى

قال عامر آباؤك أعمامى ولم أكن أنافرك بهم ولا بمن ذكرت ولكنى أنافرك أنى خير منك عقباً ، وأطعم منك جدبا

قال علقمة : قد عرفت أن لك عقباً فى العشيرة ، وقد أطعمت طيباً . ولـكنى أنافرك أنى خير منك وأولى بالخيرات .

فنافره عامر على خيرهما وأقربهما للخيرات .

وقد عظم أمر هذه المنافرة ، فكانت أشهر ماجرى فى الجاهلية من منافرات، لـكثرة من اشترك فيها من الشعراء والحكام .

قال أحد بنى الأحوص يؤيد علقمه، موجهاً خطابه إلى أبى جهل بن هشام ابن المغيرة حين احتكموا إليه :

يالقريش بينوا الكلاما
إنا رضينا منكم الأحكاما
فبينوا إن كنتم حُكاما
كان أبونا لهم إماما
وعبد عمرو منع النشاما
فى يوم فخر معلم إعلاما
يحسن فيه الكر والإقداما
ودعلجاً أقدمه إقداما
لولا الذى أجشمهم إجشاما
لاتخذتهم مذحج أنعاما

وقال لبيد حين احتكموا إلى هرم مؤيداً عامراً :

ياهرم وأنت أهل عدل
هل ينزعن حسبى وفضلى
هل يذهبن فضلهم بفضلى
أن نفر الأحوص يوماً قبلى
ليذهبن أهله بأهلى
لا تجمعن شكلهم وشكلى

ونسـل آبائهم ونسـلى
قد علموا أنا كرام الطبـل

وكان مما أجاب به قحافة بن عوف بن الأحوص :

نهنه إليك الشعر بالبيـد
واصدد فقد ينفعك الصدود
ساد أبونا قبل أن تسودوا
سوددكم صغـيرة زهيد

وبرز السَّنْدَرَى متصديا لتأييد علقمه، فقيل « من ذا » ، فقال :

أنا لمن أنـكر صوتى السندرى

فإذا حمى الوطيس واحتدم النقاش، انتقلوا من الرجز إلى الشعر ، فينشد لبيد قصيدة من الطويل

بلى إننـا ماكان شرًّا لمالك فلا زال فى الدنيا ملوما ولائما

ثم ينشد الحطيئة قصيدتين، إحداهما من الطويل، والأخرى من البسيط.وهما

ألا آل ليلى أزمعوا بقفول ولم ينظروا ذا حاجة لرحيل
؟ ياعام قد كنت ذا باع ومكرمة لو أن مَسْعَاة من جاريته أَمَمُ

ويقبل الأعشى وقد انفض الناس، بعد أن سوى هرم بين المتنافرين، فيجدد المعركة بقصيدتين، يزعم فيهما أن عامرا قد نفر على علقمة . إحداهما من الطويل:

لعمرى لئن أمسى من الحى شاخصا لقد نال خيصا من عُفَيرة خائصا

والأخرى من السريع :

شاقك من قتـلة أطلالها بالشط فالوتر إلى حاجر

وهو بحر نادر من الشعر الجاهلى بل هو غريب على شعر الأعشى نفسه، لم يرو له فيه غير هذه القصيدة . ويروى صاحب الخزانة أن النبى قد نهى عن روايتها [1]. وقد نسى الناس حكم هرم، وشاع بينهم قضاء الأعشى ، وعظم وقعه على علقمة، حتى بكى من قوله :

---

(١) خزانة الأدب ٣ : ٣٦٦

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

فكان يقول « قاتله الله ؟ أنحن كذلك ؟ ! »

منافرة جرير البجلى وخالد الكلبى (١).

كان سبب المنافرة أن كلبا أصابت رجلا من بجيلة ، فوافوا به عكاظا . فمر بالبجلى رجل من قومه يأكل تمرا ، فتناول الأسير من ذلك التمر شيئا ليتحرم به ، فجذبه الكلبى ، فكان بينه وبين البَجَلِىّ نقاش حاد ، انطلق على أثره يتنقل بين أحياء من قومه ، يستنفرهم لفك صاحبهم فلا ينهضون ، حتى انتهى إلى جرير بن عبد الله البجلى ، من سراة قومه ووجهائهم المترفين — كان يتخذ الثياب المصبغة والقباب الحمر — فثار لنصرة الرجل ومعه رهطه ، حتى هجم على منازل كلب بعكاظ ، فانتزع منهم الأسير .

قال جرير زعمتم أن قومه لا يمنعونه .

قالت كلب إن رجالنا خلوف .

قال جرير لو كانوا لم يدفعوا عنكم شيئا

قالوا كأنك تستطيل على قضاعة . إن شئت قايسناكم المجد .

قال : ميعادنا من قابل سوق عكاظ

فجمعت كلب وعلى رأسهم زعيمهم خالد بن أرطاة . وجمعت قسر وعلى رأسهم سيدهم جرير بن عبدالله . ثم قام خالد فقال لجرير : ما تجعل ؟

قال جرير : الخطر فى يدك

قال خالد : ألف ناقة حمراء فى ألف ناقة حمراء .

قال جرير : ألف قينة عذراء فى ألف قينة عذراء وإن شئت فألف أوقية صفراء لألف أوقية صفراء

قال خالد : من لى بالوفاء ؟

قال جرير : كفيلك اللات والعزى وأساف نائلة ويعوق وذو الخلصة ونسر فمن عليك بالوفاء ؟

قال خالد : وَدّ ومناة وقلس ورضا

---

(١) بلوغ الأدب ١ ٣٠١

قال جرير : لك بالوفاء سبعون غلاماً مُعمماً مُخْولا ، يوضعون على أيدى الأكفاء من أهل الله .

فوضعوا الرهن من بجيلة ومن كلب بين يدى عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، من أشراف قريش ، وحكموا الأقرع بن حابس .

قال الأقرع : ما عندك ياخالد ؟

قال : ننزل البراح ، ونطعن بالرماح ، ونحن فتيان الصباح

قال الأقرع : ما عندك ياجرير ؟

قال : نحن أهل الذهب الأصفر ، والأحمر المعتصر ، نخيف ولا نخاف ، ونطعم ولا نستطعم . ونحن حى لقاح ، نطعم ما هبت الرياح نطعم الشهر ، ونضمن الدهر ونحن الملوك لقسر

وقام شاعر بجيلة يشيد بقومه ويتوسل إلى الحكم بما بين بجيلة ونزار من قرابة ، فكان مما قال :

ياأقرع بن حابس ياأقرع
إنى أخوك فانظرن ما تصنع
إنك إن يصرع أخوك تصرع
إنى أنا الداعى نزارا فاسمعوا
إلى باذخ من عزة ومفزع
به يضر قادر وينفع
وأدفع الضيم غداً وأمنع
عز ألد شامخ لا يقمع
يتبعه الناس ولا يستتبَع
هل هو إلا ذَنَب وأكرُعُ
وزَمَع مؤشَب مجمَعُ
وحَسَبٌ وَغَلٌ وأنف أجدع

ولا يزالون فى أخذ ورد ، وجذب وشد، حتى تنتهى المنافرة بحكم الأقرع لجرير، حيث يقول : واللات والعزى، لو فاخرت قيصر ملك الروم،وكسرى عظيم الفرس، والنعمان ملك العرب، لنفرتك عليهم .

الهجاء الشخصى

إلى جانب هذا اللون الساذج من ألوان الهجاء، عرف الجاهليون ألوانا أخرى من الهجاء، هى الهجاء الشخصى والهجاء السياسى. ثم عرفوا بعد ذلك لونا آخر ظهر بظهور الإسلام، وما صحبه من حركة فكرية، يمكن أن نسميه الهجاء الدينى.

أما الهجاء الشخصى فقد كان مثاره هذه المنازعات الفردية والخلافات التى لابد أن تنشأ من احتكاك الناس وتعارض مصالحهم، فى بيئة تقوم على القتال والنزاع فى سبيل الحياة. ويميل الكثير من النقاد إلى الغض من قيمة هذا الفن فى جملته، واعتباره أحط أنواع الهجاء.

وربما لم يكن ذلك صحيحاً على إطلاقه. فقد استطاع كثير من الهجائين المتأخرين فى الأدب العربى، أن يفتنوا فى الهجاء الشخصى. ويبلغوا به درجه ممتازة. ولكننا نلاحظ أن هذا الفن فى معظمه كان متخلفاً عند الجاهليين، على كثرة ما أنتج الشعراء فيه. فقد غلبت عليه العجلة التى أبعدته عن الروية والجهدا لذى يبذله الفنان فى فنه، فكان تصويراً سريعاً حاراً لعاطفة الغضب، التى تنحرف بطبعها عما ينبغى للفن من أناة. وكان لذلك صورة خشنة مهوشة للتجربة، لم يختزنها الحس الفنى، ليعيد عرضها بعد أن يستثيرها من مكمنها، وقد أضفى عليها من خياله وسحره.

وربما كان لهذا الشعر قيمته الكبيرة عند مؤرخى الأدب. لما فيه من تصوير للقيم الأخلاقية والاجتماعية فى ذلك العصر. ولكنه مع ذلك قليل الغناء عند طالبى اللذة الفنية. لايجدون فيه ماينشدون من متعة. فالمشاركة فى الشعور بين القارىء والشاعر ضعيفه أو مفقودة، وهى من أكبر العناصر التى تقوم عليها المتعة الفنية. ثم هو بعد ذلك صورة مضطربة هائجة غير مهذبة للغضب، قليل الحظ من الخيال. فقير فى الصور، محدود المعانى.

فالهجاء هنا سجل ساذج لمعركة بين فردين يتشاتمان، ترى فيه كل ألوان

العنف الذى يصحب مثل هذه الظاهرة. فيه الاستعلاء على الخصم بكل شىء — بالمال وبالأهل والحسب — وفيه السباب — المقذع فى كثير من الأحيان ، والذى يتعرض لأغلظ العورات دون احتشام — وفيه التعيير والتهديد وأكثر مانجد فيه فخراً كثيراً ، وتهويلا من القدرة على البطش بالسيف ، وبالشعر الذى يبقى ميسمه، ويجرى على كل لسان. وحيثما قرأنا لم نجد إلا إعادة وتكراراً لهذه المعانى، لايخرج الشعر عنها ولا يتجاوزها .

يقول المزرد بن ضرار الذبيانى (أخو الشماخ)

يهزون عرضى بالمغيب ودونه ... لقَـرْمهم مندوحة ومآكل [1]
على حين أن جُـرِّبتُ واشتد جانبى ... وأنبحَ منى رهبة من أناضل [2]
وجاوزت رأس الأربعين فأصبحت ... قناتى لايُلْـفِى لها الدهرَ عادل
فقد علموا من سالف الدهر أننى ... معَـن إذا جد الجرّاء ونابل [3]
زعيم لمن قاذفتـه بأوابد ... يَغنىِّ بها السارى وتحْـدى الرواحل [4]
مذكرة تـأْـنَىَ كثيراً رواتهـا ... ضَـوَاح لها فى كل أرض أزَامل [5]
تَـكَـرُّ فلا تزداد إلا استنارة ... إذا رازت الشعرَ الشفاهُ العوامل [6]
فمن أرمه منها ببيت يلُـح به ... كشامة وجه ليس للشام غاسل
كذاك جزائى فى الهَـدِىِّ وإن أقل ... فلا البحر منزوح ولا الصوت صاحل [7]

ومع ذلك. نعثر فى بعض الأحيان بشعر من هذا الباب، لايخلو من بعض المتعة الفنية ، مثل قول ذى الأصبع العدوانى فى هجاء ابن عم له :

---

(١) القرم الأكل بمقدم الفم . يقول قد كان لهم مندوحه ومنصرف عن أكل عرضى فى غيابى .

(٢) أنبح منه الذين يناضلوه صيرهم إلى أن ينبحوا كالكلاب .

(٣) المعن المعترض فى كل شىء . والجراء الجرى والنابل الحاذق بالنبل . يصف نفسه باللدد فى الخصومة والحذق باصابة الخصم .

(٤) الأوابد الوحوش وغرائب الكلام ، لأنه يشرد فى كل مكان .

(٥) أزامل جمع أزمل ، وهو كل صوت مختلط .

(٦) رازت الشفاه الشعر جربته . العوامل النواطق بالشعر .

(٧) الهدى التهادى بالشعر، يقصد المهاجاة . الصحل بحة الصوت . يقول إنه لا يكل ولا ينضب معينه.

ولى ابن عم على ما كان من خلق … مختلفان فاقليه ويقلينى [١]

أزرى بنا أننا شالت نعامتنا … فخالنى دونه بل خلته دونى

ياعمرو إن لاتدع شتمى ومنقصتى … أضربْك حتى تقول الهامة اسقونى [٢]

لاه ابن عمك لاأفضلت فى حسب … عنى ولا أنت دَيّانى فتخزونى

ولا تقوت عيالى يوم مَسْغَبَة … ولا بنفسك فى العَزَّاء تكفينى

إنى لعمرك مابابى بذى غَلَق … عن الصديق ولا خيرى بممنون

ولا لسانى على الأدنى بمنطلق … بالفاحشات ولا فتكى بمأمون

عنى تَذُودُ إذا ماخفت من بلد … هوناً فلست بوقاف على الهُون

عنى إليك فما أمى براعية … ترعى المخاض وما رأيى بمغبون

كل امرىء راجع يوما لشيمته … وإن تخالق أخلاقاً إلى حين

إنى أبىٌّ أبىٌّ ذو محافظة … وابن أبىٍّ أبىٍّ من أبيين

لا يُخرج القسر منى غيرَ مأبِيَة … ولا ألين لمن لا يبتغى لينى

وأنتم معشر زَيْدٌ على مائة … فأجمعوا أمركم كُلاًّ فكيدونى

فإن عرفتم سبيل الرشد فانطلقوا … وإن جهلتم سبيل الرشد فأتونى

ماذا على وإن كنتم ذوى كرم … أن لا أحبكم إن لم تحبونى

لو تشربون دمى لم يَرْوَ شاربُكم … ولا دماؤكم جمعا تُرَوّينى

ياعمرو لو لنت لى ألفيتنى بشراً … سمحاً كريماً أجازى من يجازينى

والله لو كرهت كفى مصاحبتى … لقلت إذ كرهت قربى لها بينى

---

(١) أقليه أكرهه وأتقى الكراهة

(٢) الهامة طائر كانت تزعم العرب فى أساطيرها أنه لا يزال يصيح من رأس المقتول [illegible] اسقونى اسقونى) حتى [illegible] [illegible] أن يضربه حتى يقتله .

وربما أعوزت المعايب الشاعر فاختلق الكذبة الغليظة والفرية المندية، ثم لم يزل يكررها فى شعره حتى تروج عند الناس وتسمر بها نواديهم. وذلك شر ما يخافه الناس من الشعراء .

أغار رجل من بنى أسد على بنى عبدالله بن غطفان، فأخذ فيما غنم إبل زهير وراعيها يساراً ، فتهدده زهير فى شعر يقول فيه :

ياحار لا أرمَيَنْ منكم بداهية	لم يَلقَها سوقه قبلى ولا ملك[١]
اردد يساراً ولا تَعْنُفْ عليه ولا	تمْعكْ بعرضك إن الغادر المَعِكُ[٢]
ولا تكونن كأقوام علمتهم	يَلْوُون ماعندهم حتى إذا نُهِكوا
طابت نفوسهم عن حق خصمهم	مخافة الشر فارتدوا لما تركوا[٣]
تَعَلَّمَنْ ها لعمرُ الله ذا قسما	فاقدر بذرعك وانظر أين تنسلك[٤]
لئن حللت بجَوٍّ من بنى أسد	فى دين عمرو وحالت بيننا فَدَكُ
ليأتينك منى منطق قذع	باق كما دَنَّس القبطية الودك[٥]

فلم يلتفت الرجل لقول زهير ولم يبال به . فاتهم زهير بنى أسد بأنهم إنما يضنون بيسار راعى إبله لأن لنسائهم حاجة فيه، مفصلا فى تصوير مايكون بينه وبينهن من أدق الحركات الفاضحة ، وختم شعره بقوله[٦] :

فأبلغ إن عرضت لهم رسولا	بنى الصيداء إن نفع الجوار
بأن الشعر ليس له مَرَدٌّ	إذا ورد المياهَ به التجار

---

(١) ياحار يريد الحارث بن ورقاء الذى يهجوه ويتهدده .

(٢) المعك المطل . يقول له اردد هذا الراعى ولا تمطل فالمطل غدر

(٣) يقول له لا تكن كأقوام يمطلون ثم لا يستطيعون المضى فى المطل فهم يرتدون لما تركوا إذا نهكهم الهجاء

(٤) المدرع قدر الخطو يقول له قدر خطوك ولا تكلف نفسك منى مالا تطيق .

(٥) يقول له لئن حللت فى هذا المكان فى ملك عمرو بن هند ولم تستطع يدى أن تنالك ليدركنك هجائى . القبطية ثياب بيض من الكتان كانت تصنع فى مصر الودك الدهن وهو أظهر فى الثياب البيضاء .

(٦) راجع الشعر فى ديوان زهير ص ٣٠٠ ط دار الكتب المصرية .

فجزع الرجل وردالإبل على زهير مخافة أن يذهب شعره فى الناس .

وبعض هذا الهجاء الشخصى يتصل بالقبائل ومابينها من خصومات، فيكون الهجاء فى ظاهره موجهاً لشخص،وهو فى حقيقته موجه للقبيلة ممثلة فى هذا الفرد الذى هو زعيمها أو شاعرها . وهنايختلط الشتم والسباب بالتلميح إلى أسباب الخصومة بين القبيلتين، فيجدالهجّاء بين يديه مادة خصبه تعينه على المضى فى قصيدته حتى تبلغ عشرات الأبيات . فنحن نعرف قصيدة للأعشى يهجو فيها جهنام تزيد على الستين بيتاً [1] . وكلا الشاعرين من قيس بن ثعلبة البكرى . وقد اشتدت الخصومه بينهما فكان كل شاعر منهما يدافع عن قومه، ثم اتصل الهجاء بينهما فانتقل إلى شخصيهما،ولكنه ظل مع ذلك يحمل آثار الخصومة الأولى

يقدم الأعشى لقصيدته بغزل يشير فيه إلى صاحبة غير مقصودة مشيرا إليها ؛ (تَيَّا) .

ألا قُلْ لتَيَّا قبل مِرتها اسلمى   تحيَّةَ مُشتاق إليها مُتيـم

ولا يكاد يذهب فى هذا الغزل إلى أكثر من خمسة أبيات . ينتقل منها إلى وصف الناقة ، فيشبهها بحمار وحشى ، يمضى فى تصوير نشاطه على طريقة الجاهليين ، فيطيل ، حتى تصل المقدمة إلى أربعة وعشرين بيتا فإذا فرغ منها تخلص إلى الهجاء بقوله :

فدَعْ ذا ولكن ما ترى رَأْىَ كاشِح   يَرَى بيننَـامن جَهْلِه دَقُّ مَنْشِـمِ

ثم هو يتجه إلى خصمه قائلا : لستُ أعرف لنفسى ذنباً عند غُـمَيْـرِ ورهطه .

إذا ما رآنى مدبرا شـام نَبْلَه   ويرمى إذا أدبرت ظهرى بأسهم

---

(١) ديوان الأعشى ص ٩١ طبع أوروبا .

وإنما هى عداوة قد استخفتك (فاستأخِرْ لها أو تَقدَّمِ)

وكنتُ إذا نفسُ الغوىّ نَزَتْ به صقعتُ على العِرْنينِ منه بميسَم

ويقول مخاطبا جهنام — لئن خرقت الأرض فكنت فى جُبٍّ ثمانين قامة (ورُقِّيتَ أسبابَ السماء بسلم) .

ليستدرجنْك القولُ حتى تَهِرَّه وتعلمَ أنى عنك لستُ بمُلْجَم

وتَشرقَ بالقول الذى قد أذعتَه كما شَرِقتْ صدرُ القناة من الدَّم

وهو يعجب لسعد بن قيس أهل جهنام ، ولأهل الحرقتين سعد وتيم ، فهم ينفون عنه العلا والحسب ، كأنه ليس منهم ، وكأنه (نَفِىٌ من إياد وتَرْخُم) .

وقد رأى الأعشى أن الناس أقبلوا للشر هائجين .

وصِيحَ علينا بالسياط وبالقنا إلى غايةٍ مرفوعةٍ عند مَوْسِم

فدعا خليلة الجنى مِسْحَلاً ، أما خصومه فقد دعوا جَهَنَّام — جَدْعاً للهَجِينِ المُذمَّم — وهو يتهدد جهنام، وينذره بالهزيمة ، قائلا : كيف تغلبنى وأنت لا تفوقنى حسبا ، ولا تبزنى بيانا ؟

لئن جدَّ أسبابُ العداوة بيننا لتَرتحِلَنْ منى على ظهر شَيْهَم

وتركَبَ منى أن بلوتَ نَكيثَتى على نشَزٍ قد شاب ليس بتوأم

فما حسبى إن قِستَه بمُقَصّر ولا أنا إن جد الهجاء بمُفْحَم

ثم يشير إلى احتدام الشر بينهما ، وإلى مهاجاة كانت بينهما فى حفل كبير ، يدافع كل منهما عن قومه ويحتمى بهم فى آن واحد .

وما زال إهداءُ الهَزاجِرِ بيننا وتَرْقِيَتُ أقوام لحِينٍ ومأتَم

وأمرُ السنَى حتى التقينا غُدَيَّةً كلانا يُحامِى عن ذِمارٍ ويَحْتَمِى

تُركْنا وخَلىَ ذو الهَوادَةِ بيننا بأثْقَبِ نيران العداوةِ تَرتَمِى

ويقول إن هذه المهاجاة قد انتهت بسبقه ، بفضل ما حباه به صاحبه الجنى ، فولى خصمه ، وقد استحال لونه ، وكبا وجهه ، كأنما طلى الورس أو خضب بعظلم [1] — ثم يفخر بقومه ، ويذكر نعمهم وأياديهم على قوم جهنام . فهم أصحاب يوم فطيمة ، منعوا بنى شيبان أن يشربوا من العين ، وجبهوهم بالطعن حتى تولوا مدبرين . وهم أصحاب أيام حجر ، إذ يحرقون النخيل فتظل قائمة كأنها مآتم سود . وهم المنعمون على قوم جهنام بفك سيديهم ، إذ تلافاهما بشر من الموت بعد أن أسلما شر مسلم . ويختم القصيدة بقوله:

فذلك من أيامنا وبلائنا ونعمى عليكم إن شكرتم لأنعم
فإن أنتم لم تعرفوا ذاك فاسألوا أبا مالك أو سائلوا رهط أشيم
وكائن لنا فضلا عليكم ومنة قديماً فما تدرون ما من منعم

---

(١) شجر يخضب به الشيب

الحطيئـــة

ظل هذا الفن فى معظمه قليل الخطر من الناحية الفنية كما قدمنا حتى نبغ فيه شاعر كبير هو الحطيئة ، فارتفعت قيمته وعظم خطره ، فقد احترف هذا الشاعر الهجاء كما احترف المدح . ارتزق بالمدح عند الكريم الذى تهزه الأريحية ، وبالهجاء عند البخيل الذى يضن بماله ، ولا يبذله للمادح . فأصبح الهجاء على يديه صناعة ، يقف عليها الشاعر جهده ، ويفتن فيها ما يجعل لها الأثر المرجو فى الناس

أحاطت بنشأة الحطيئه ظروف لا تحبب إليه الحياة ، ولا تعطف قلبه على الناس . فقد ولد لأ َمـة ، حملت به من سيدها أوس بن مالك العبسى ، واضطرت أن تـكتم ذلك عن سيدتها — وهى من بنى ذهل بن شيبان — فزعمت لها أنها إنما حملت به من أخيها الأفقم ، ثم مات سيدها ، وأعتقتها سيدتها بعد أن زوجتها رجلا من بنى عبس . وعند ذلك اعترفت بأنها إنما حملت من سيدها . فالحطيئة قد خرج إلى الدنيا يحمل أوزاراً لايد له فيها ، وقذف به إلى الحياة ملعونا من الناس ، لا يجد عندهم حنانا ، ولا يلقى منهم إحسانا . وجه قبيح ، وجسم رث قمىء ، ونسب مغموز . ينتسب لذُهـْل مطالباً بميراثه من الأفقم ، فـيردُّ مذموما مدحوراً . فاذا انقلب إلى بنى عبس ، وطالب بميراثه من أوس ، لم يكن نصيبه إلا السخرية والاستهزاء . فأى شىء ينتظر من رجل هذا شأنه إلا أن يكون كارهاً للدنيا ، ناقماً عن كل من فيها ، ؟ هو ناقم على أمه التى حملته شهوة ، ولفظته لعنة . وهو ناقم على هذا الأب المجهول ، الذى لم يورثه إلا عاراً باقياً ، ووصمة لازبة . وهو ناقم على الظروف ، التى جمعت عليه إلى كل هذا ، قبح المنظر ودمامة الخلقة ورجل هذا شأنه ، لامخرج له من ورطته إلا بأن يواجه الحياة فى جرأة صفيقة،

لا يبالى معها ما كان من أمره، وأن يلق الناس بوجه جامد قد أعده لما يقولون، وأن يكف عن نفسه أذى الناس بإيذائهم، ويدفع تهجمهم عليه بسلاطته عليهم.

ليس عجيباً أن يكون الحطيئة مع هذا لئيما كثير الشر، بل العجب كل العجب أن يأتى خيراً فاضلا، ففضل الدنيا وإحسان الدهر، لا يستطيع أن يغسل عاره، أو يمحو وصمته. فهو رجل قد رسم له طريقة، بين قوم لا يثنيهم عن الظلم إلا الظلم، ولا يردهم عن العدوان إلا العدوان.

انصرف منذ نشأته إلى الشعر، فكان راوية لزهير، ولابنه كعب من بعده، حتى نبغ فيه. فكان جنته التى يستر بها عيوبه، وسلاحه الذى يرهب به مهاجميه. وعدا على الناس بالشتم، ينال منهم قبل أن ينالوا منه، لايفرق بين أحد منهم — شريفهم ووضيعهم، ومحسنهم وجاهلهم — وانتزع منهم رزقه بلسان سليط لا يبالى ما يقول، فليس وراءه عرض برىء فيلوث، أو حسب رفيع فيهدم. فخافه الناس، واتقوا أذاه بالإحسان، وجعلوا أموالهم من دون شره.

احترف الحطيئة الهجاء، واتخذه تجارة ومعاشاً. ولم ير فى الدنيا رجلا حقيقاً بحبه وولائه. فهو يهجوهم جميعاً، حتى يحسنوا اليه فيكف. فإن عظم عطاء الكريم وأغرقه فيضه، مدحه فى شعر يجود ويسف بمقدار ما قدم من أجر. إن قل العطاء، قال مثل شعره فى عُـيَيْـنَـةَ بن الـنَهّاس العـِجْلى، وهو من وجوه بكر بن وائل:

سُئِلْتَ فلم تبخل ولم تُعطِ طائلاً فسيان لاذَمٌ عليكَ ولا حَمْدُ
وأنتَ امرؤٌ لاالجودمنك َسجيةٌ فتعطىوقديُـعدِى على النائل الوُجدُ[1]

(١) الوجد اليسار. يقول إن اليسار قد يعين البخيل على أن يعطى الناس. فهذا الرجل لم يعط لأن الكرم طبع فيه وسجية، ولكن هان عليه أن يعطى لأن ماله كثير

وإن غمره الإحسان فأرضاه ، قال مثل قوله فى آل شَمّاس بن لأْى :

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها	وإن غضبوا جاء الحفيظة والجِدُّ
أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم	من اللوم أو سُدّوا المكان الذى سَدّوا
أولئك قوم إن بَنَوا أحسنوا البنا	وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا اشَدّوا
وإن كانت النُّعمى عليهم جَزَوا بها	وإن أنعموا لا كدَّروها ولا كدُّوا
وإن قال مولاهم على جلّ حادث	من الدهر رُدّوا فضلَ أحلامكم ردوا

لما استعطف الحطيئة عمر ، بعد أن سجنه فى هجاء الزبرقان ، عفا عنه . ثم قال له : إياك وهجاء الناس . قال : إذاً يموت عيالى جوعا ، هذا مكسبى ومنه معاشى ولـه فى عمر قصيدة تصور ضيقه بهذا الحكم الصارم ، الذى حرمه مرتزقه ، وأذهب هيبته بين الناس ، وقد اطمأنوا من شره ، وأمنوا هجاءه . وهو يسخر فيها من نظام بيت المال . يحرم عمر الشعراء ، ولا زرع لهم ولا مال إلا ما يرتزقون به من شعر ، فهو أشأم عليهم من البسوس ، ويغدق على العلج النازح . والعبد الأوكع ، والكاذب المحتال ، الذى يزعم له أن أمه ماتت . وقد صدق ، ولكنها ماتت من عهد عاد ! وهو يسمى عمر ملكا ، لأنه لا يرى النبوة والخلافة إلا ملكا ، ولا يفهم من الدين إلا أنه وسيلة للسيطرة والسلطان ، كما سرى :

يا أيها الملكُ الذى أمست له	بُصْرَى وغَزَّةُ سهلُها والأجرعُ
ومليكُها وقسيمُها عن أمره	يعطى بأمرك ما تشاء ويمنع
أشكو إليك فأشتكى ذرّيّةً	لا يشبعون وأمُّهم لا تشبع
كثُروا علىّ فما يموت كبيرُهم	حتى الحساب ولا الصغيرُ المُرْضَعُ
وجفاءَ مولاى الضنينَ بماله	وولوع نفسٍ همُّها بى مُودَع
والحِرْفةَ القِدْمَى وأنّ عشيرنا	زرعوا الحروث وأننا لا نزرع
فبُعِثتَ للشعراء مَبعثَ داحسٍ	أو كالبسوس عتالها تتكرّع
ومنعتنى شتمَ البخيل فلم يخفْ	شتمى وأصبح آمناً لا يفزع

وأخذتَ أطرافَ الكلام فلم تدَعْ   شتماً يضُر ولا مديحاً ينفع
وبُعِثْتَ للدنيا تُجمِّعُ مالَها   ونضُرُّ جزْيتَها وَدأباً تجْمَع
ومنعتَ نفسك فضلَها ومَنحْتَها   أهلَ الفَعَالِ فأنتَ خيرُ مولَعِ !
حتى يجىءَ إليكَ عِلجٌ نازحٌ   فيُصيبَ عفوتَها وعبدٌ أوكَعُ
والعَيْلةَ الضُعَفا ومن لا خيْرَهُ   خَيْرٍ ومثلُهمُ غُثاءٌ أجمعُ
أمْ زعمتَ لهم ! وماتتْ أمُّهم   فى عهد عاد حين مات التُبَّعُ
فلتوشِكَن وأنتَ تزعمُ أمهم   أن يركبوك بثقلِهم أو يرْضَعوا

سارعت القبائل والأشراف إلى إغداق النعم على الحطيئه، والتلطف إليه، قبل أن يسبقهم هجاؤه. نزل ببنى مقلد بن يربوع وقد أقحمته السنة، فمشى بعضهم إلى بعض، وقالوا: إن هذا الرجل لايسلم أحد من لسانه، فتعالوا حتى نسأله عما يحب فنفعله، وعما يكره فنتجنبه. وقدم المدينة فى سنة مجدبة، فجمعوا له مالا على أن ينصرف عنهم. وأقبل فى ركب بنى عبس حتى قدم المدينة، فأقام مدة، ثم دخل على خالد بن سعيد بن العاص، فسأله فاعتذر إليه، وقال ماعندى شىء. فلم يعد عليه الكلام، وخرج من عنده. فارتاب خالد، فبعث يسأل عنه. فأخبرَ أنه الحطيئة. فرده. فأقبل الحطيئة فقعد لايتكلم، فأراد خالد أن يستفتحه الكلام، فقال. من أشعر الناس؟ قال: الذى يقول:

ومن يجعَلِ المعروفَ من دونِ عِرضِه   يَفِرْهُ ومَن لا يَتقِ الشَتمَ يُشتمِ [1]

فقال خالد لبعض جلسائه: هذه بعض عقاربه، وأمر له بكسوة وحملان. فخرج بذلك من عنده.

وعظم شر الحطيئة، وذهب صيته فى الهجاء، حتى اتقاه الشعراء. وقف مرة على حسان بن ثابت وهو ينشد — وحسان لا يعرفه — فقال حسان:

---

(١) البيت لزهير بن أبى سلمى والحطيئة يصيب برده غرضين، فهو مجيب على سؤال الأمير بتفضيل زهير، ثم هو يخوفه ويعرض به

كيف تسمع يا أعرابى ؟ قال : ما أسْمَعُ بأسا

قال حسان : أما تسمعون إلى الأعرابى ؟ ما كنيتك أيها الرجل ؟ قال : أبو مليكة . قال : ما كنتَ أهونَ علىّ منك حين أكتنيت بامرأة ، فما اسمك ؟ قال : الحطيئة . فوقع اسمه من حسان موقع الصاعقة ، فأطرق برأسه ، ثم قال له : امض بسلام .

كان الحطيئة أعرابيا غليظا ، كما تصوره هذه القصة ، وكما يصوره شعره . وقد وصف القرآن الأعراب بقوله (الأعرابُ أشَدُّ كُفْراً ونِفَاقا ، وأجدَرُ أن لا يَعلَمُوا حُدُودَ ما أنزَلَ الله) وقد كان الحطيئة كذلك . كان فظا لم يرق قلبه لشيء ، ولم يشرح صدرَه هذا الدينُ الجديد ، لأنه يدعو إلى قانون أخلاقى لا يعرفه ، ولا يستطيع أن يسيغه . فهو لا يعرف من الحياة إلا القسوة والغلظة والعدوان . قست عليه الظروف ، فقسا على الناس . وكان منافقا ، لأنه يبيع نفسه لرغبة أو رهبة ، كما وصف نفسه عند سعيد ابن العاص ، حين سأله عن أشعر الناس ، فقال : والله لحَسْبُكَ بى فى رغبة أو رهبة ، إذا رفعتُ إحدى رجلَىَّ على الأخرى ، ثم عويت فى أثر القوافى ، كما يعوى الفصيل وراء الإبل الصادرة .

كان هذا الرجل ملحدا بطبعه ، وبحكم الظروف القاسية التى أحاطت به . فهو لا يستطيع أن يفهم أن فى السماء عدلا ، وأن فى الأرض بشراً أطهاراً . فهو غليظ القلب ، لا يفهم من النبوة إلا أنها وسيلة الملك ، يرثه الأبناء عن الآباء ، ولا يرى الزكاة إلا مالا مفروضا لهؤلاء الملوك ، يؤديه رعاياهم كارهين .

ولكنه منافق ، يظهر الخضوع إذا لم يكن منه بد . وقد تعود دائما أن يخضع للقوة . فسكت حين قوى أمر النبى ، ودخل فيما دخل فيه الناس . فلما مات النبى ، وارتدت العرب ، جهر بكفره ، وراح يحرض الناس على الامتناع عن الزكاة ، ويذم هذه القبائل التى ذلت بإعطائها من عبس وطىء

ودودان ، ويدعو الناس للخروج على أبي بكر . يقول : زعم محمد أنه نبي ، وقد أطعناه ، وأدينا له الزكاة ، فما بال أبي بكر ؟ أي طاعة له علينا ؟ وكأنما توهم الحطيئة أن لأبي بكر ابنا اسمه بكر ، فزعم أنه سيورثه الملك من بعده ، (وتلك لعَمْرُ الله قاصِمَة الظَّهْر !)

ألا كلُّ أرْمَاحٍ قِصَارٍ أذِلَّةٍ
فِدَاءٌ لأرْمَاحٍ رُكِزْنَ على الغَمْر [١]
فإن الذى أعطيتُمُو أو منعتُمُو
لكالتَّمر أو أحْلَى لحلْفِ بني فِهْر [٢]
فباسْتِ بني عَبْس وأفْنَاءِ طَيِّءٍ
وباسْتِ بني ذُودَان حاشا بني نَصْر [٣]
أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننا
فيا عجبا ما بالُ دِينِ أبي بَكْر؟ [٤]
ليورثَها بَكْراً إذا مات بعده؟
فتلك وبيت الله قاصِمة الظهر
فِدى لابنَي ذبيان أمي وخالتي
عشيةَ يحذى بالرمح أبو بكر
أبَوا غيرَ ضربٍ يجْشِمُ الهَامَ وسْطَه
وطعناً كأفواهِ المُرقَّقَةِ الحُمْر [٥]
فقوموا ولا تعطوا اللئامَ مَقَادَةً
وقوموا وإن كان القيامُ على الجمْر

---

(١) ماء معروف

(٢) بنو فهر هم قريش . وفهر هو قريش نفسه جدهم الأكبر

(٣) هؤلاء قد أعطوا الزكاة نصر بن قعين من بني أسد وهم من المانعين الزكاة .

(٤) الدين الطاعة

(٥) المرققة الحمر يقصد بها القرب يشبه الطعن بها لشدة تدفق الدم منه .

وقد دخل الحطيئة بعد ذلك فى الإسلام ، حين استتب الأمر فى الجزيرة، ولكنه ظل فى قرارته كافراً بعيداً عن الإيمان ، فهو يصر على رأيه فى الخلافة ولا يراها إلا ملكا . وهو يحسد عمر هذا الملك العريض ، الذى تجبى إليه ثمراته وأمواله ، فيتصرف فيها كيف شاء .

يا أيها الملك الذى أمسَت له　　بصرَى وغزةُ سهلُها والأجرَعُ
ومليكها وقَسيمها عن أمره　　يُعطِى بأمرك ما تشاء ويَمنَعُ

وهو إذا مدح عمر لم ير فيه إلا ما يرى الجاهلى فى ممدوحه ، فهو أوفى قريش حبالا

وأطولهم فى الندَى بسطةً　　وأفضلهم حين عدُّوا مَقالا

يمدحه بشعر غث ، ليس عليه مسحة من الصدق ، بيد أنه صريح فى الضيق بهذا العهد ، الذى حرم الشعراء ما كانوا يتمتعون به من حرية فى القول ، ونفوذ بين الناس .

فبعثتَ للشعراء منبعَثاً حَسٍ　　أو كالبَسُوس عِقالُها تتكوَّعُ
وبعثتَ للدنيا تجمِّعُ مالَها　　وتَضُرُّ جزيَتَها وداباً تجمَعُ

والحطيئة يدافع عن الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط حين حده عثمان فى الخمر وعزله ، وقد شهدوا عليه أنه صلى بالناس ثملا ، ثم التفت إليهم وقد تمت الصلاة ، فقال : أأزيدكم ؟ وهو لا يرى عليه فى ذلك بأساً ، فإنما أراد أن يستكثر لهم من الخير ، وهو إن عزل ، فليس عليه فى ذلك من ضير ، ما دام لم يُردَدْ إلى عوَز أو فقر .

شَهِدَ الحطيئةُ يومَ يلقى ربَّه　　أنَّ الوليدَ أحقُّ بالعُذْرِ
نادى وقد تَمَّتْ صلاتُهمُ　　أأزيدكم ؟ ثَمِلاً وما يدرى
ليزيدَهم خيراً ، ولو قبلوا　　لقَرَنْتَ بين الشَّفْعِ والوتر
فأبَوا أبا وَهْبٍ ولو فعلوا　　زادتْ صلاتُهمُ على العَشْرِ
خلعوا عِنانَك إذ جريْتَ ولو　　تركوا عِنانَك لم تَزَلْ تجرى

ورأوا شمائل ماجدٍ أنفٍ يُعطى على الميسور والعسر
فنزعتَ مكذوباً عليكَ ولم تردد إلى عوز ولا فقر

وقد ظل هجاء الحطيئة يحمل بعض آثار المنافرة، فهو يعتمد على التفضيل والمقارنة. يدخل بين الرجلين المتنافسين، فيمدح أحدهما ويعرض بالآخر. فيمتلىء الأول زهواً، ويغلى الآخر حقداً فتثور الفتنة بين الرجلين وتَغرى العداوة بين الحيين. وهذا أسلوب بالغ الأثر فى نفس العربى، لأنه بطبعه مفاخر مكاثر، ولأنه يبذل أثمن ما عنده لحسن الأحدوثة وطيب الذكر، ولأن الشعر يؤلمه من وجهين. وهو فى نفس الوقت شديد الخطر فى بث الشر، وإيقاظ الفتن بين الناس. لذلك نهى عنه عمر، وسماه الإقذاع. قال للحطيئة حين أخرجه من السجن: إياك وهجاءَ الناس. قال: إذاً تموت عيالى جوعاً، هذا مكسبي ومنه معاشى. قال فإياك والمقذع من القول. قال: وما المقذع؟ قال: أن تخاير بين الناس، فتقول فلان خير من فلان، وآل فلان خير من آل فلان. قال: فأنت والله أهجى منى.

كان بين بَغيض بن شمَّاس بن لأى، وبين الزبرقان بن بدر، ما يكون بين أبناء العم من تحاسد وتنافس. فلقى الزبرقانُ الحطيئة وقد خرج بأهله فى سنة مجدبة، فبعث به إلى بيته ليقيم فيه ريثما يعود، وكان فى طريقه إلى عمر، ليؤدى إليه صدقات قومه، فأقام الحطيئة فى بيته حيناً وهو غائب، لا يجد من زوجته كبير عناية، فقد هان عليها ولم تكترث به، لما رأت من رثاثته وسوء حاله. فلما سمع بذلك بنو أنف الناقة — وهم بيت سَعد قوم بَغيض — اغتنموا الفرصة، فأرسلوا إليه يغرونه بجوارهم، ولم يزالوا به يطمعونه، حتى رحل إليهم، فأغدقوا عليه حتى مال إليهم، ومدحهم معرِّضاً بالزبرقان. فلما عاد هذا من سفرته، ووجد الحطيئة قد انتقل إلى جوار بغيض، ولم يجد إلى عودته سبيلا، شكاهم إلى عمر، فخير الحطيئة بين الحيين، فاختار بنى أنف الناقة. وتتابعت قصائده فيهم، مشيراً إلى غصب الزبرقان وقومه،

متعجباً من أمرهم ، فهو لم يبدأهم العدوان ، وإنما مدح ناساً أكرموه ، فرأوا ذلك هجاء .

ولما أن مَدحتُ القوم قلتم هَجَوْتَ ما يَحِلُّ لكَ الهجاء
فلم أشتِمْ لكم نسباً ولكن حَدَوْتُ بحيثُ يستمعُ الحداءُ

ولم يزل يشتد على الزبرقان ، حتى شكاه إلى عمر ، فسجنه لإغرائه العداوة بين الحيين . وكانت القصيدة التي سجنه فيها :

عَلامَ كلَّفتَني مَجْدَ ابنِ عمكمُ والعِيسُ تَخرُجُ من أعلامِ أوطاس

وهو يقول فيها للزبرقان : ما ذنب بَغيض فى بائس لجأ إليه فأغاثه ؟ لقد توددت إليكم متلطفاً ، كما يتلطف الحالب إلى الناقة ، يمسح ضرعها مهدئاً روعها بإبساسه ، فلم تَدِرُّوا . وانتظرت خيركم ، كما ينتظر الضيفُ مجيءَ الإبل الصادرة عن الماء إلى الخِمْس ، فطال ما انتظرت ، ولم أجد إلا زهداً فيما أردت أن أكسوكم من مدح ، فأنا كالمقيم بين أرماس ، تهرنى كلابكم وتجرحنى بأنياب وأضراس ، ليس لجراحى منكم آسى ، فأرحتُ نفسى باليأس من نوالكم (ولا ترى طارداً للحرِّ كالياس) ، ثم هو يفتخر بإحاطته بأنساب القوم

أنا ابنُ بَجْدَتِها عِلماً وتجربةً فسَلْ بِسَعْدٍ تَجِدْنى أعلمَ الناس

ويأتى بعد ذلك البيت المشهور ، الذى عظم وقعه على الزبرقان

دَعِ المكارمَ لا تَرْحَلْ لبغيتها واقعُدْ فإنك أنتَ الطَّاعمُ الكاسى

ثم يمضى فى المفاضلة بين الحيين

سِيرى أمامُ فإنَّ الأكثرينَ حصىً والأكرمين أباً من آل شماس
مَنْ يفعَلِ الخيرَ لا يعدَمْ جوازيَه لا يَذْهَبُ العُرفُ بين اللهِ والناس
ما كان ذنبي إذا فَلَّتْ مَعاوِلَكمُ من آلِ لأيٍ صَفاةٌ أصلُها راسى
قد ناضلوك فأبدَوْا من كنانتهم مَجْداً تليداً ونَبْلاً غيرَ أنكاس

وسكت الحطيئة على مضض . ثم استأنف شعره فى بغيض وفى الزبرقان ، على هذا الأسلوب فى المفاضلة ، بعد موت عمر . وهو يعير الزبرقانَ قتلَ عمر ، ويقول زعمت أنك عزيز ، تريد أن تمنع الناس أن يجودوا بما لهم ، فقد كان أولى بك أن تمنع صاحبك أن يُقتَل . . .

أتَحضُرُ قوماً أن يَجُودُوا بمالهم؟ فهلاَّ قتيلَ الهُرمُزانِ تحاصِرُهْ؟

ثم يمضى فى المفاضلة بين الحيين على أساوبه القديم :

فإن تك ذا عزٍّ حديث فإنهم ذوو إرثِ مَجدٍ لم تخُنْهُم زَوَافِره[1]

وإن تك ذا شَاء كثيرٍ فإنهم دوو جَامِلٍ لا يهدأ الليلَ سامرُه

وإن تك ذا قَرْم أزَبَّ فإنهم يلاقى لهم قَرْمٌ هِجانٌ أباعره[2]

قَرَوا جارك العَيْمانَ لما تركتَه وقَلَّص عن بَرْدِ الشَّراب مَشَافرُه[3]

وخصلة أخرى . أتاحت لهجاء الحطيئة قوة وذيوعا ، وهى براعته فى خلق الصور وابتكارها . وهذه موهبة نبغ فيها جرير من بعد ، وامتاز فيها امتيازاً ظاهرا . فالحطيئة له بصيرة الهجاء الأصيل ، فى الاهتداء إلى وجه الشبه بين موضوع هجائه ، وبين أشنع الصور ، وأبعثها على الضحك ، وأدعاها للزراية . انظر إلى هذا الرجل العبسى الكالح ، قبح وجهه ، حتى كأنه القرد ، تروم عنده الحاجة ، فيكلح ويعبس ليزيد وجهه قبحا على قبح ، ثم هو يعطى آخر الأمر عن يَد صاغرا

أبلغ بنى عَبسٍ بأن نِجَارهم لؤم وأن أباهم كالهِجرِس

يعدو إلى الخسيسة راغباً من رامها بالضيم بعد تَكَلُّحٍ وتَعَبس

---

(١) الزافرة من البيت ركنه ومن الرجل عشيرته وأنصاره الذين يعتز بهم

(٢) الزبب فى الإبل كثرة شعر الوجه والعثنون وهو لا يكون فى كرامها . إبل هجان وهجائن بيض كرام

(٣) العيمة بفتح العين شهوة اللبن والعطش . قلص عن برد الشراب مشافره يقول يصفه هؤلاء الناس وهو فى أسوأ حال من شدة البرد حتى تقلصت شفتاه والعرب تتمدح بالكرم فى الشتاء خاصة لأنه وقت الجدب ، يحرص فيه الناس على ما عندهم

ثم انظر إليه، كيف صورهم بعد ذلك فى قصيدة أخرى. رجال كالتيوس، ونساء مماجين، كأنهن الأتن دخل فى أنفها الذباب، فهى تلوى رءوسها، وتذهب لوجهها نافرة، تنعر نعيراً قبيحاً

لهم نَفَرٌ مثلُ التُيُوس ونسوة   مَمَاجِينُ مثل الآتُنِ النَّعِرات

وانظر إلى وصفه لهذين الرجلين البخيلين، كيف يهربان ممن يبغيهما، كأن أحدهما ضب عجوز، قد اتخذ جحرا فى أرض صلبة، فإذا أحس الحارش أتقاه بذنبه [١]

حَمَدت إلهى أنَّنِى لم أجِدكما
من الجوع مَأوىً أو من الخوف مَهرَبا
ضُبَيْبَانِ حِجْايَّان فى آمِنِ الكُدَى
إذا ما أحَسَّا حارِشَ الليل ذَنبَا

ثم انظر إلى هذا العبسى الذى يسوِّده قومه عليهم، وكأنه خصيا كبش ضخم، أُطلق هاملا لا راعى له، ثم يقول إن أمه غلبت أباه عليه، فأشبهها دونه، ومن يدرى من أين أتت به، فقد تجىء الأم بولدها من كل وجه.

لقد ذَهَبَتْ خيراتُ قومٍ يسودهم
قُدامةُ خَصيا فَنْبَلِىٍّ مُهَمل [٢]
مَنَعْتَ قَلُوصاً بالمَطَالى ولم يَكُنْ
بِنَابَيْكَ منها غيرُ تِرْبٍ وجَنْدَل [٣]
وعَزَّتْ عليك الفحلَ سوداءُ جَوْنَةٌ [٤]
وقد تَنْجُلُ الأرحامُ من كل مَنْجَلِ

---

(١) الحارش هو الذى يحترش الضباب أى يصيدها وذلك بأن يحرك شيئا عند فم جحر الضب فيظنه الضب أفعى تدخل عليه فيخرج بذنبه فيمتلخه الحارش وإنما يخرج بذنبه قبل رأسه

(٢) الفنبلى الكبش الضخم   (٣) المطالى موضع القلوص الناقة الصغيرة

(٤) الفحل الذكر يقصد أباه. عزه غلبه. يقول إن أمه — وهى أمة سوداء — قد غلبت عليه فاشبهها من دون أبيه. ومن يدرى من أبوه ؟

والحطيئة بعد هذا من أكثر الناس توفقا لاختيار ألفاظه فى أهاجيه ، لها رنين يوحى بالسخرية ، ويستفز للضحك فى بعض الأحيان . انظر إلى ألفاظه فى الأبيات السابقة ، يشبه العبسى بالقرد ، فيختار للقرد لفظ (مجرس) ويشبهه تارة أخرى بالكبش، فيختار له لفظ (فَنْبَلى)وانظر إلى الألفاظ مجتمعة فى هذا البيت (قدَامَةُ خَصْيَا فَنْبَلِىٌّ مُهَمَّلِ)كيف تتصور من رنين الألفاظ وحدها شيئاً هائلا ، ولكن لا غناء فيه ، جعجعة ولا طحن . ثم انظر أخيراً إلى هذه الغنم المخصية ، قد نبت الشعر على لحيتها ، فهى قميئة هزيلة ، كأن أحدها السهم الصغير يُجْعَلُ على رأسه الطين، فيلعب به الصبيان ، يأخذها الرجل الذليل دية أخيه القتيل انظر إلى هذه الصورة كيف كساها الحطيئة لفظا ساخرا ، يملأ الاستخفاف رنين ألفاظه .

أخو المَرْءِ يُؤْتَى دونه ثم يُتَّقَى
بزُبٍّ اللِحَى جُرْد الخُصَى كالجَمَامِح

الهجاء السياسى

نقصد بالهجاء السياسى ، الهجاء الذى يقوم على العصبية للوطن ، فيهاجم كل مايؤذيه أو يهدد كيانه ، فالشاعر هنا يعبر عن جماعة هو أحدها ، ولا يكاد يحس شخصيته إلا فى حدود هذه المجموعة ، التى يرتبط مصيره بها كل الارتباط ، فهو يفنى فيها وجوده ، ويتجرد من نزعاته وأهوائه ، ليحس بأحساسهم ، ويرى بأعينهم ، ويسمع بآذانهم . فشخصية الفرد هنا ضئيلة نحيلة ، لا تكاد تحس لها أثرا . والدولة أو الوطن شىء حى ، له وجود قوى ، وكيان ظاهر ملموس .

والوطن عند الجاهليين لا يصور حدوداً جغرافية معينة ، كما نتصور اليوم من هذه الكلمة . ولكنه يصور جماعة من الناس ، تربطهم أواصر من النسب ، صحيحة أو مزعومة ، قد انبنت عليها حياتهم ، فعاشوا فى حدود هذا التصور الصحيح أو المزعوم ، وقد ارتبطت مصالحهم ، متضامنين فى الخير والشر ، يداً واحدة على كل من عاداهم . وعلى هذه الأنساب قامت أحلافهم وحروبهم منذ عهد بعيد ، فاستقرت فى نفوسهم على مر الأيام ، وازدادوا بها إيمانا ، وقد صيرها الدم المسفوك والجهد المبذول شيئا واقعا ، وحقيقة مقررة .

كان الوطن إذن هو العصبية . وهذه العصبية هى القانون الوحيد الذى انبنت عليه حياتهم . ينصر الرجل منهم أخاه ويتعصب له ، ظالما أو مظلوما .

لا يسألون أخاهم حين يَنْدُبُهم ... فى النائبات على ما قال برهانا

الرجل وأخوه يدٌ واحدة على ابن العم ، وأبناء العم الأدنون يَدٌ واحدة على ابن العم البعيد ، وأبناء العمومة جميعاً يدٌ على المهاجم من الغرباء .

من أجل ذلك ، كان مفهوم العصبية مرنا يتغير بتغير الظروف . فقد يضيق حتى لا يشمل إلا البيت من البيوت ، أو البطن من البطون . وقد يتسع حتى

يضم القبيلة أو الشعب . فالأعشى مثلا شاعر بكرى. إذا وقع بأس بكر بينهم فهو يمثل بيته من بنى سعد بن ضبيعة ، ثم بنى قيس بن ثعلبة ، يهاجم من آذاهم بمكروه ، ويتغنى بمدحهم والإشادة بفضلهم . فإذا جمعت المحنة بين هذه البطون فى حرب كبيرة ، كحرب ذى قار ، حين يهاجم الفرس بكرا ، كان الصوت المعبر عن بكر بل عن وائل جميعاً ، متناسيا ما كان بين بطونهم من حزازات وأحقاد. وقد تأخذ العصبية بعد هذا شكلا أعم ، فتكون بين اليمنية والعدنانية، كالذى كان فى يوم خَزَاز ، حين اجتمعت مَعَدّ كلها على كليب وائل ، واجتمعت اليمنية إلى سَلَمَة بن الحرث بن عمرو بن آكل المُرَار ، فسار إلى جموع نزار ، ثائرا لأخوته حجر وشراحيل ومُحَرِّق وشرحبيل .

ولدينا من هذا الهجاء السياسى صور شتى ، من هجاء يصور ما بين القبائل من منازعات ومنافسات ، إلى هجاء يصور ما بين هذه القبائل ، وبين الملوك الذين يحاولون بين الحين والحين بسط نفوذهم ، فيفرضون عليهم الإتاوات ، مثل بنى آكل المرار، وبنى الحارث بن معاوية، الذين ساد منهم قيس بن معديكرب أبو الأشعث ، ومثل المناذرة والغساسنة . ولون ثالث من هذا الهجاء ، يصور ما صحب نشأة الدين الجديد الذى ظهر فى الجزيرة ، من قتال وكفاح فى سبيل نشره وإقراره .

وهذه الأنواع على اختلافها ، تشترك فى معظم مظاهرها. فالغضب والحماسة يختلطان فيها ويتداخلان ، حتى يصعب تخليص أحدهما من الآخر ، فلا يستطيع قارىء هذا الهجاء أن يقول ها هنا حماسة ، وها هنا غضب ، ولكنه واجد شعرا يفيض كل بيت من أبياته ، بل كل كلمة من كلماته ، بالغضب والحماسة أقوى ما يكونان .

فالشاعر إذا تعرض لتصوير العداء بين حزبه وبين عدوه ، صوره من جانبيه ، الجانب القوى ، والجانب الضعيف ، فتطغى عليه الحماسة حين يصور قوة حزبه مفتخراً ، ثم يغلبه الغضب حين يتجه إلى عدوّه ناقما متهددا .ولكنه

فى حماسته لا يبرأ من الغضب ، ولا هو فى غضبه يخلو من حماسة .

والقارىء لهذه الألوان من الهجاء ، لا يجد فيها الحقد الدفين ، والقرص الخفى . ولكنه يجد غضبا صريحا غير مقنع ، هو صورة من صحرائهم السافرة ، ومثلهم الصريحة الواضحة .

انظر إلى هذا الشاعر الضبى — عبد الله بن عَنَمة — كيف صور ما بين قومه بنى السيد (وهم مالك الضبى) وبين أبناء عمومتهم بنى زيد (وهم من ذُهل بن مالك الضبى) . يبدأ الشاعر مستخفا بالقوم ، فيقول :

إن بدا زيد فى نفوس أبناء عمومته من بنى كوز ومرهوب شيئا خطيرا ، فما نراه نحن خطيراً ثم يلتفت إليهم قائلا : إن تسألوا الحق نعطكم ما تسألون غير مكابرين ، والدرع فى حقيبته ، والسيف فى قرابه . فإن أبيتم ، فإنا لا نقبل الذل ، ولا نرضى الضيم ، فدونه شرب السم . فانتهوا يا بنى زيد خيرا لكم ، ولا تخوضوا فينا . ازجروا حماركم أن يرتع بروضتنا . فنحن جديرون أن نردّه مضَبَّقاً عليه ، مفتول القيد ، أشدَّ ما يكون الفتل ، وإنه إذن لأشأم عليكم من داحس . فإن دعوتم قومكم من ذهل أن يغضبوا لكم ، فنحن نغضب لزرعة . وإنكم لتعلمون أننا أكثر عددا وأعز نفرا

ما إنْ تَرَى السِيدُ زيداً فى نفوسهم
كما يراه بَنُو كُوزٍ ومَرْهُوب

إن تسألوا الحقَّ نُعطِ الحقَّ سائلَه
والدرعُ مُحْقَبَةٌ والسيفُ مقْرُوبُ

وإن أبَيْتُمْ فإنا مَعْشر أُنُف
لا نَطْعَمُ الذُّلَّ إن السُّمَّ مَشْرُوب

فازجُر حمارك أن يَرْتَعْ برَوْضَتِنا
إذاً يُرَدُّ وقَيْدُ العَيْرِ مَكْرُوب

ولا يكونَنَّ كمَجْرَى دَاحِسٍ لـكم
في غطفان غداةَ الشعب عُرقوبُ [1]

إنْ يَدعُ زيد بني ذُهْلٍ لمَغضبةٍ
نَغضَبُ لزُرعةَ إنَّ القِبصَ مَحسوب

وظاهرة أخرى يتميز بها هذا الضرب من الهجاء ، هى الاعتماد الكبير على التاريخ والأنساب . فترى الشاعر هنا أشبه بالمؤرخ . لأنه يصور مجد قبيلته ، معدداً أيامهم ، بما يبعث فيهم الزهو والحماسة . ويؤرخ ضعف أعدائهم ، معيرا هزائمهم ، بما يوقع فى نفوسهم الخزى والصغار . ويجمع إلى هذا وذاك ، تاريخ الرجال من القبيلتين ، بما يلبس قبيلته الفخر . ويكسو أعداءهم العار . ولذلك كان لابد للشاعر المتصدى لهذا القصد ، أن يلم بالأخبار والأنساب إلماما حسنا . وهذا هو حسان ، يتصدى للدفاع عن الإسلام ، فيدله النبي على أبي بكر ، يستعين به فيما يحتاج إليه منها ومما يصور قيمة الأنساب وخطرها وشدة اهتمام الناس بها ، هذه القصة التى يرويها صاحب العقد فى لقاء أبي بكر لدغفل ، وما كان بينهما من ملاحاة فى الأنساب . وهى قصة طريفة ، تقدم لنا لونا جديداً من الهجاء الذى يعتمد على الأنساب ، وهو قريب الشبه بما رأيناه فى المنافرة [3] . قال صاحب العقد ، بعد أن روى سنده عن على بن أبي طالب : لما أُمِرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على القبائل ، خرج مرة وأنا معه وأبو بكر ، حتى رُفِعنا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدم أبو بكر فسلم — وكان أبو بكر مقدما فى كل [4] خَبَر ، وكان رجلا نسابة .

---

(١) كان النزاع بين عبس وذبيان بسبب رهان على الخيل . راهن قيس بن زهير العبسى على داحس والغبراء وراهن حذيفة بن بدر الفزارى (من ذبيان) على الخطار والحنفاء . ثم إن حذيفة خدع قيسا فأرصد فى طريق خيله من صدها وبذلك كسب الرهان فكان ذلك سبب الحرب . الشعب هو شعب الجيس . عرقوب اسم فرس .

(٢) القبص بكسر القاف وسكون الباء العدد الكثير . يقصد أنهم أكثر منهم عددا

(٣) العقد الفريد ٣ : ٢٧٤ (٤) يقصد أنه كان عالما بالأنساب وأخبار الناس .

فقال ممن القوم ؟

قالوا من ربيعة .

قال وأى ربيعه أنتم ؟ أمن هامتها أم من لهازمها ؟

قالوا من هامتها العظمى .

قال وأى هامتها العظمى أنتم ؟

قالوا ذهل الأكبر

قال أبو بكر : فمنكم عوف بن محلم الذى يقال فيه لا حرّ إلا بوادى عوف ؟

قالوا لا

قال فمنكم بسطام ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟

قالوا لا

قال فمنكم جساس بن مرة الحامى الذمار ، والمانع الجار ؟

قالوا لا

قال فمنكم الحوافزان قاتل الملوك وسالبها أنفسها ؟

قالوا لا

قال فمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردية ؟

قالوا لا

قال فمنكم أخوال الملوك من كندة ؟

قالوا لا

قال فمنكم أصهار الملوك من لخم ؟

قالوا لا

قال أبو بكر فلستم ذهلا الأكبر أنتم ذهل الأصغر .

فقام إليه غلام من شيبان ، حين بَقَلَ وجهه ، يقال له دغفل ، فقال :

إنّ على سائلنا أن نَسْأله والعِبْءُ لا تَعْرِفُه أو تَحْمِلَه

ياهذا إنك قد سألتنا فأخبرناك ، ولم نكتمك شيئا ، فمن الرجل ؟

قال أبو بكر .من قريش .

قال : بخ . بخ أهلُ الشرف والرياسة . فمن أى قريش أنت ؟

قال : من ولد تَيْم بن مُرَّة

قال : أمكنت والله الرامى من صفا الثغرة . أفنكم قصى بن كلاب، الذى جمع القبائل فسمى مُجَمِّعا ؟

قال : لا

قال : أفنكم هاشم الذى هشم الثريد لقومه ،ورجال مكة مُسْنِتُون عجاف ؟

قال : لا

قال : فنكم شَيْبَةُ الحَمْد عبد المطلب ، مطعم طير السماء ، الذى وجهه كالقمر فى الليلة الظلماء ؟

قال : لا

قال : فمن أهل الإفاضة بالناس أنت ؟

قال : لا

قال : فمن أهل الندوة أنت ؟

قال : لا

قال : فمن أهل الرفادة أنت ؟

قال : لا

قال : فمن أهل الحجابة أنت ؟

قال : لا

قال : فمن أهل السقاية أنت ؟

قال : لا

فاجتذب أبو بكر زمام الناقة ، ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الغلام .

صادَفَ دَرْءُ السَّيْلِ دَرْءاً يَدْفَعُه يَهِيضُه حِيناً وحِيناً يَصْدَعُه

فتبسم النبي عليه السلام .

قال علي : وقعت ياأبا بكر من الأعرابي على بَاقِعَة .

قال : أجل .

قال : مامن طامة إلا وفوقها أخرى ، والبلاء موكل بالمنطق ، والحديث ذو شجون

ومن أجمل الشعر الذي يصور هذه الظاهرة فى الهجاء السياسى الذي يعتمد على التاريخ والأنساب مطولة الحارث بن حلزة ، التى أنشدها بين يدى عمرو ابن هند ، حين رُفع إليه مابين تغلب وبكر من خلاف . ونحن نلخص هذه القصيدة الرائعة ، ونترك للقارىء الرجوع إلى النص فى مصادره .

يبدأ الحارث قصيدته بذكر صاحبته أسماء ، فقد آذنته بالبين ، بعد عهد لها ببرقه شماء ، وما كان مقامها مملولا ، ولا مرغوبا عنه . يذكرها الشاعر فى أسى هادىء ، متنقلا بين الأماكن التى كانت تحل بها ، فإذا هاجته الذكرى بكى ، وإن كان يعلم أن البكاء لايرد فائتا ، ثم لايلبث أن ينصرف إلى ناقته ، يستعين بها على الهم ، فيشبهها وهى تسرع به فى الصحراء بالنعامة قد أفزعها القناص ، والظلام مقبل عليها ، ويصف الغبار الذى تثيره خلفها ، وقد ارتفع فى الفضاء لسرعتها ، ثم بدأ يتساقط على الأرض إذ بعدت عنه . وهو يستغرق فى هذه المقدمة أربعة عشر بيتا ، ينتقل بعدها إلى غرض قصيدته ، وما بين قومه وبين الأراقم — وهم بعض بطون تغلب — من عداء .

وهو لايهاجم الأراقم بادىء الأمر . بل يتلطف فى شبه عتاب ، ثم يشتد ذلك العتاب فيصبح تقريعا ، ثم تعييرا ، ثم مهاجمة عنيفة .

يقول : إنكم تخلطون البرىء منا بذى الذنب حتى ماينفع البرىء براءته وكأن كل صاحب جريرة مَوْلى لنـا نحن عنه مسئولون . ثم يصفهم وقد استعدوا للقتال ، فأجمعوا أمرهم بلَيْـل ، ثم أصبحوا ولهم جلبة وضوضاء .

مِنْ مُـنَادٍ ومن مُجِيبٍ ومن تَصْهَـالِ خَيْـلٍ خلالَ ذاك رُغَاءُ

ثم هم لايزالون يغرون بهم الملك عمروا ، ويظنون أنهم غافلون . ومن قَبْلُ ماقد وشى بهم الأعداء ، فلم يضرهم ذلك شيئا ، وظلوا على الشَّنَاءَةِ والبغض ، تمنعهم حصون وعزة قعساء ، لايبالون أن تَبْيَضَّ عيونُ الناس غيظا وحسدا . فهم كالجبل الراسخ الضارب فى السماء ، تنشق عنه السحب ، وقد بدا مكفهرا ، لاتنال منه أحداث الدهر وإن جلت وعظمت .

ويتجه بعد ذلك إلى تغلب قائلا : أَيُّمَا خُطَّةٍ أردتم فأدُّوها إلينا ، يتشاوَرْ فيها أشرافنا وأشرافكم ، فنحن معكم فيما تريدون . إن نبشتم ما بين « ملْحَةَ » و « الصاقبِ » ، حيث كانت المعارك ، وجدتم من قتلانا أحياء أخذ بثأرهم ، ووجدتم من قتلاكم أمواتا لم يثأر لهم . أو استقصيتم أمرنا وأمركم ، فكنتم كالنَّاقِشِ الذى يستخرج الشَّوْك ، فقد يَجْشَمُ الناس النَّقْش [1] على مافيه من ألم ، بغيةَ الشفاء. أو سكتم عنا، فكنا كمن أغمض عينا فى جفنها أقذاء . .

أو منعتم أن تجيبوا إلى شيء مما تُسألون، فمن فيما تعلمون له علينا فضل أو علاء؟

ويعرض الشاعر بعد هذا قوة قومه ، فيصورهم فى تاريخهم الطويل ، وأيامهم المظفرة ، أروع تصوير . يقول :

هل علمتمْ أيام يُنتَهَبُ النا	سُ غِواراً لكل حَىّ عُواء
إذ رفعنا الجِمَالَ من سَعَفِ ال	بَحْرَيْنِ حتى نهاها الحِسَاءُ
ثم مِلْنا على تَمِيم فأحْرَمْ	نا وفينا بَنَاتُ قَوْمٍ إمَاءُ
لايُقِيمُ العزيزُ بالبَلَدِ السَّهْ	لِ ولا يَنفَعُ الذليلَ النَّجَاءُ
ليس يُنْجِى الذى يُوائلُ مِنَّا	رأسُ طَوْدٍ وحَرَّةٌ رَجْلاء

ويختم ذلك الفخر القوى بقوله

فلَكْنا بذلك الناسَ حتى	مَلَكَ المُنْذِرُ بن مَاءِ السَّماء

ولم يشأ الشاعر أن يمر بالمنذر ، من غير أن يستميل إليه ابنه عمرو بن

(١) النقش استخراج الشوكة من الجسم إذا دخلت فيه .

هند ، بالثناء عليه ، فوصفه بأنه (مَلِكٌ أضرَعُ البَرِيَّةِ لا يوجَدُ فيها لما لَدَيه كِفَاءُ) .

ثم عاد الشاعر إلى التغلبيين ، يهددهم وينذرهم سوء عاقبة طَيْخِهِم وعدوانهم ، وتناسيهم ما تعاقدوا عليه فى ذى المجاز ، وما قُدِّم فيه من عقود وكُفَلاءَ ، حذر الجور والتعدى. ثم هم بعد ذلك ينقضون ما عاهدوا عليه . ومن عَجَبٍ أن تنقض الأهواءُ ما سُجِّل فى الصحف !

وجرى الحارث بعد هذا على تعييرهم . فسلك لذلك طريقاً يسلكه كثير من الناس حين يتلاحَوْن ويغير بعضهم بعضا . فهو يقول لهم : أتلزموننا ذنوب قوم كذا أم قوم كذا ... أم كذا . ؟ ويمضى معدداً القبائل التى قهرتهم ، وهو يقول : ما ذنبنا فيما فعل هؤلاء .. يلطمونكم فلا تستطيعون لأنفسكم دفعا ، ولا أنتم تنتصرون ، ثم تتجنون علينا ، كأن لهم الغُنْم وعلينا الجزاء . إن تلزمونا هذه الذنوب فعَنَتاً ما تفعلون وظلماً ، كما يُذبَحُ الظبي عَتيرةً [1] بدل الشاة وما هو بالمنذور .

ويعود إلى سابق تعييره ، فيذكرهم هزيمة تميم لهم ، ويصف الوقعة ، ويضبط مكانها ، ويحدد عدد المغيرين، وما كان من محاولة تغلب نيل ثأرهم ، ورجوعهم خائبين ، ثم إطلالِ الغَلاقِ دماءَهم وإهدارها

وثمانون من تميم بأيديهم رماحٌ صدورهن القضاء
لم يحلوا بنى رِزاحٍ ببرقاء نَطاعٍ لهم عليهم دُعاء [2]
تركوهم مُلَحَّبين وآبوا بنِهابٍ يَصَمُّ منه الحُداء
ثم جاءوا يَسترجِعون فلم ترجِعْ لهم شامةٌ ولا زَهْراء
ثم فاءوا منهم بقاصمة الظَّهْر ولا يَبرُدُ الغليلَ الماءُ

---

(١) العتيرة ذبيحة تذبح للاصنام فى رجب . وقد كان الرجل ينذر إن بلغ الله غنم مائة أن يذبح منها واحدة للاصنام . ثم ربما ضنت نفسه بها ، فأخذ ظبيا فذبحه مكان الشاة الواجبة عليه

(٢) برقاء نطاع اسم مكان يعيرهم أنهم أحلوا محارم هؤلاء القوم بذلك المكان

ثم خيلٌ من بعد ذلك مع الغَـــلاّق لا رأفةٌ ولا إبقاءُ

ما أصابوا من تغلبي فَمَطْلُو لٌ عليه إذا أُصِيبَ العَفاءُ

ويختم الحارث قصيدته بمحاولة ناجحة لاستمالة الملك إلى جانب قومه، فيتجه إلى بنى تغلب قائلا: يا مبلغا عنا الوشاية عمرا ! كفاك فعمرو يعرفنا، ولنا عنده من المكرمات وحسن السيرة مايملأ نفسه اطمئنانا إلينا ثم يذكر الملك بوفاء قومه له ولأجداده، فيقول إن لنا عنده من الخير آيات ثلاثاً فى كلهن القضاء

أولها — مساعدتنا للملك الحيرى عند غارة اليمن. إذ جَبَهْناهم بطعن يندفع الدم من آثاره اندفاع الماء من أفواه القرب، حتى ولوا هاربين، تَدْمَى كلُومُهم على أعقابهم.

وقد وصف جيش اليمن بأنه كان يجمع طوائف مختلفة، (لكل حىّ لواء)، أحاطت كلها برئيس يَمَنِى، برز من بينهم كأنه هضبة عالية، ومع الجيش جمع من النساء الكريمات، اللائى لا يأمرهن رجل. وإنما تحكم فيهن كريمة من بينهن — ومن بعد ذلك هزمنا حُجْر بن أم قَطَام الكندى، حين سار لغزو امرىء القيس الثانى — جد عمرو بن هند — يقود كتيبة فارسية قد علا دروعها الصدأ، فأنهلنا الرماح من أجسامهم، كما تتحرك الدلاء فى البئر صاعدة هابطة

وثانى هذه الآيات فَكُّنا أغلال امرىء القيس (أخى الملك)، وإنقاذه بعد أن طال حبسه والعناء. وقتلنا ملك غسان قَوَداً بالمنذر بن ماء السماء، وأسرنا من بنى آكل المُرَار تسعة أملاك أسلابهم أغلاء، وهزيمتنا الجَوْن حين خف لإنقاذهم يقود جيشا من الأوس

وثالث هذه الآيات ما بيننا وبين الملك من قرابة. فنحن ولدنا الملك عمرا من أم أناس الشيبانية جدته لأمه. وهذه القرابة حقيقة أن توجب له علينا الإخلاص والوفاء

وبهذه الخاتمة الرائعة يختم الحارث قصيدته ، وقد ضمن أنه ترك فى الملك أثراً عظيما ، وعطفه على قومه .

وللشاعر هنا صفتان بارزتان . فهو محام يتولى الدفاع عن قومه ، فى أسلوب خطابى رائع ، يجمع بين التأثير والإقناع . ثم هو مؤرخ قصاص ، قد وعى التاريخ والأنساب ، وأحاط بهما أدق إحاطة .

وأروع ما فى القصيدة سهولتها التى تصور طبعا شعريا سمحا صافيا ، وألفاظها التى تجمع بين قوة التعبير والإيجاز المثير ، وترتيبُها الذى يصور إلى جانب القدرة الشعرية موهبة خطابية ممتازة

وأقوى ما يكون هذا اللون من الهجاء ، حين يهاجم الملوك والدول الكبيرة ، التى تحاول بسط سلطانها على من جاورها من القبائل لأن الشعر يبدو فى مثل هذه المواطن ، معبرا عن عاطفة إنسانية ، أعم وأشمل مما نجد فى ذلك الهجاء ، الذى يصور نزاعا بين القبائل ، هو قريب من النزاع الفردى . فهو شعر يصور الحرية ومقاومة الطغيان ، ويستند إلى عاطفة إنسانية دائمة ، تجد من يتجاوب معها ويتأثر بها فى كل عصر ومكان. أما ذاك ، فشعر يقوم على منفعة الفرد ، وكل ما يستند إليه من المثل . هو القوة المطلقة ، التى تجعل صاحبها محقا فى كل ما يأتى وما تنال يده

ومعظم هذا الهجاء فى القبائل القريبة من العراق . وهو شعر ثائر ، يصور إباء هذه الجماعات لظلم المناذرة ، وما يفرضون عليهم من إتاوات غير عادلة . والعربى بطبعه ينفر من السلطان المنظم ، ويأبى أن ينزل على حكم المُحتَكِم ونحن نقدم بعض مختارات من هذا الشعر

قال جابر بن حُنَىّ التغلبى ، يصور ما آل إليه قومه من ذل ، وقد فرق بينهم الشر ، بعد أن كانوا يدا واحدة ، وهدم بنيانهم ، بعد أن كان متينا مشيدا. صاروا إلى قبول الديات ، وكانوا ينزلون الثغر المَخوف ، فتتواضع لهم مَخَارِمُه . وهو يصور فيما يصور من الذل الذى لحق قومه ، هذه الإتاوات

التى يؤدونها كارهين لجباة المناذرة ، ويتهددهم مبينا قوة قومه وجلدهم على الحروب :

لِتَغلب أبكى إذ أثارتْ رماحُها
غَوَائلَ شَرٍّ بينها مُتَثَلِّمُ

وكانوا هم البانين قبل اختلافهم
ومَنْ لا يَشِدْ بنيانه يتهدم

بحى ككوثلِ السفينة أمرُهم
إلى سَلَفٍ عادٍ إذا احتل مُرزِمُ (١)

إذا نزلوا الثَّغْرَ المَخُوفَ تواضعَتْ
مَخارِمُه واحتله ذو المقدم (٢)

أنِفتُ لهم من عَقْل قيْسٍ ومَرْثَد
إذا وَرَدُوا ماءً ورمحُ ابنِ هَرْثَمَ (٣)

ويومًا لدى الحَشَّار من يَلْوِ حَقَّه
يُبَزْبَزْ ويُنزَعْ ثوبهُ ويُلطَّمُ (٤)

وفى كل أسواق العراق إتاوة
وفى كل ما باع امرؤٌ مَكْسُ دِرْهَمَ

وقَيْظِ العراق من أفاع وغُدَّة (٥)
ورعى إذا ما أكلوا مُوَخِّمُ

---

(١) كوثل السفينة ذنبها الذى توجه به (الدفة) يقول إنهم يقيمون أمور الناس كما يقيم السكان السفينة . مرزم على صيغة اسم الفاعل من الرزمة بثلاث فتحات وهى الجلبة والضجة

(٢) المخارم جمع مخرم وهى الطرق الوعرة فى الجبال

(٣) رمح بن هرثم رجل من قومه والعقل الدية . يتألم لأن قومه صاروا من الذل بحيث لا يأخذون ثأر قتلاهم ولكنهم يقبلون دياتهم من الابل فيعيرون بها حين ترد الماء

(٤) الحشار الجابى الذى يجمع الضرائب يلوى يمطل . البزبزة السوق الشديد والدفع العنيف

(٥) الغدة طاعون الابل . أكلوا كثر كلؤهم . موخم وبيل غير مرىء

ألا تستحى منا ملوك وتتّقِى محارِمَنا لا يَبُوْءُ الدمُ بالدم
نُعاطِى الملوكَ السِلمَ ما قصدوا بنا وليس علينا قتلهم بمُحَرَّمِ
وكائن أزرنا الموتَ من ذى تحية إذا ما ازدرانا أو أَسفَّ لمَأْثَمَ[١]
وقد زَعَمَتْ بَهْرَاءُ أن رماحنا رماحُ نصارى لا تخوض إلى الدم
فيومَ الكُلاب قد أزالتْ رماحُنا شُرَحْبِيلَ إذ آلى أَلِيّة مقسِمِ
ليَنْزِعَن أرماحنا فأزاله أبو حنشٍ عن ظهر شَقّاء صلدم[٢]
تَنَاوَلَه بالرمح ثم انّثَنَى له فخَرَّ صريعاً لليدَيْن وللفم
وكان مُعادِينا تَهِرُّ كلابُه مخافةَ جيشٍ ذى زُهاءٍ عَرَمْرَمَ
وعمروُ بن هندٍ قد صقعنا جبينَه بشنعاء تَشفِى سَوْرَةَ المُتَظلِّم
يَرَى الناسُ منا جِلدَ أسودَ سالخٍ وفروةَ ضرغامٍ من الأسد ضيغم[٣]

وقال يزيد بن الخَذاق الشَّنّىّ — وهو شاعر من عبد القيس — يتهدد النعمان ، ويتهمه بالخيانة والخداع ، وبأنه يضمر لهم الشر . ويقول إنه قد ركب أنوفهم جهلا منه وغرورا . ويستخف به قائلا ها نحن أولاء ننتظر ما تستطيع أن تفعل بنا

أعدَدْتُ سَبْحَةَ بعد ما قَرِحَتْ ولبِستُ شِكَّةَ حازمٍ جَلْد[٤]
لن تجمعوا وُدّى ومَعْتَبتى أو يُجْمَع السَّيْفان فى غِمْد[٥]
نُعْمَانُ إنكَ خائنٌ خَدِعٌ يُخفِى ضميرُك غير ما تبْدى
فإذا بدا لك نَحْتُ أَثْلَتِنا فعليكَها إن كُنتَ ذا حَرْد[٦]

---

(١) أسف دنا مأثم إثم .
(٢) الشقاء الطويلة من الخيل الصلدم الصلبة
(٣) الأسود العظيم من الحيات . الضرغام والضيغم الأسد .
(٤) سبحة اسم فرسة . قرحت تمت أسنانها فى الخامسة من عمرها . الشكة السلاح
(٥) المعتبة الموجدة والمعاداة . (٦) الحرد القصد والتعمد .

يأبى لنـــا أنّا ذَوُو أنَفٍ وأُصُولُنا من مُحْتِدِ المَجْدِ
إنْ تَغْزُ بالخـــرقاء أُسرَتَنا تلقَ الـكتائب دوننا تَرْدِى[1]
أَحَسِبْتَنا لحمــاً على وَضَمٍ أم خِلْتَنَا فى البأسِ لانُجْدى
ومَكَرْتَ مُغتَلِياً تَخَنُتَنا والمكرُ منكَ علامةُ العَمْدِ[2]
وهزَزْتَ سيفَك كى تحاربنا فانظرْ بسيفك مَنْ به تُرْدِى
وأرَدْتَ خُطَّةَ حازِمٍ بَطَلٍ حَيرَانَ أَوْبَقَةُ الذى يُسْدِى
ولقد أضاءلك الطريقُ وأنهَجَتْ سُبلُ المسالكِ والهَدى يُعدى[3]

وقال أيضاً يهجو النعمان ، وقد آلى أن يغزوهم يقول له تحلل من قسمك ، فما أظنك قادراً على البر به . ثم يتهدده قائلا : أقيموا عنا صدوركم ، فلسنا ملاحين أذلاء ، نعطى المَشْكُوسَ من يطلبها ، وإن لنا من القوة ما يردك عما تريد بنا من ظلم

ألا هل أتاها أن شِكَّةَ حازِمٍ لَدَىَّ وأنّى قد صَنَعْتُ الشَّمُوسا[4]
وداوَيْتُها حتى شَتَتْ حَبَشِيَّةً كأنَّ عليها سُنْدساً وسُدُسا[5]
قَصَرْنا عليها بالمقيظِ لقاحَنا رَباعيَة وبازِلاً وسَدِيسا[6]
فآضت كتيس الرَّبْل تَنزو إذا نزت على رَبِذات يَغْتَلين خُنُوسا[7]

---

(١) أراد بالخرقاء الخطة الخرقاء أو الصفة الخرقاء يقصد الجهل والتهور الرديان أسرع من المشى وأقل من الجرى

(٢) المخنة الأنف

(٣) أنهجت وضحت . يعدى يعين ويقوى يقول هد وصحت لك حقيقتنا فاتبع الحق يعدك على طريقك

(٤) الشموس اسم فرس آخر له وصنعه أحسن القيام عليه .

(٥) مداواة الفرس علاجها وتضميرها

(٦) اللقاح جمع لقوح وهى الناقة الحلوب يقول انه كان يكرم هده الفرس لأنه كان يعدها للقتال . فكان يسقيها لبن هذه الأبل . الرباعية والبازل والسديس اسماء للابل فى أطوارها المختلفة

(٧) آضت رجعت يقصد بالتيس هنا ذكر الظباء والربل نبت يرعاه . تنزو تثب . ربذات خفيفات يعنى قوائم الفرس خنوسا تخنس بعض جريها أى تخفية فلا تبذل كل جهدها

نُعِدُّ ليوم الرَّوْع زَغفاً مُفَاضَةً
دِلاصاً وذا غرْب أحذَّ ضروسا (١)

نجيدُ عليها البَزَّ فى كل مَأْزِقٍ
إذا شَهِد الجمْعُ الكثيفُ خميسا (٢)

تَحِلُّ أبيتَ اللعْن من قولِ آثم
عَلى مالِنا ليُقسَمْن خُمُوسا

إذا ما قطعنا رَملَةً وعدابَها
فإن لنا أمراً أحَذَّ غَمُوسا (٣)

أقيموا بنى النعمان عَنَّا صُدورَكم
وإن لا تُقيموا كارهين الرُّؤوسا

أكُلُّ لئيم منكم ومُعَلْهَج
يَعُدُّ علينا غارة فخُبُوسا (٤)

ألا ابنَ المُعَلَّى خلتَنا وحسِبْتَنا
صَرَارِىَ نُعطى الماكِسينَ مُكُوسا (٥)

فإن تَبعثوا عَيناً تَمَنَّى لقاءَنا
تَجِدْ حول أبياتى الجميعَ جُلُوسا

---

(١) الزغف الدرع اللينة مفاضة واسعة . دلاص ملساء غرب كل شيء حده ويقصد بذى غرب السيف الأحذ الخفيف الضروس الشرس السيء الخلق يصف السيف بذلك .

(٢) البز السلب

(٣) العداب الحبل من الرمل أحذ شديد غموس غامض

(٤) العلج الأعجمى الذى ليس عربيا . والمعلهج مشتقة منها يعنى ليس خالص العروبة . يتهم المناذرة بأنهم ليسوا عربا خلصا لما هو معروف من ولائهم للفرس الخبوس بضم الخاء الظلم

(٥) صرارى ملاحون الماكس الخائن . المكوس الضرائب

وقال المُتَلَمِّس يهجو المناذرة — وهو من ضبيعة بن ربيعة —
يبدأ قصيدته بذكر الموت، وأنه حتم على كل حى، فمن العجز أن يقبل الناس الضيم مخافةَ موتٍ هم صائرون إليه على كل حال . وهو يتهكم بالنعمان، قائلا: هلمَّ فقد ترعرعت زروعنا، وأخصبت أرضنا، للذباب والزنابير فيها طنين . هلم إن استطعت فاغزنا . إنك إذن واجد من يردك . فنحن نقابل الود بالود، ولكن فينا إباء وشماساً على الظالم الغاشم .

ألم ترَ أن المرء رَهْنُ مَنيَّة
صريعٌ لعَافى الطيرِ أو سوفَ يُرمَسُ [١]
فلا تَقْبَلَنْ ضَيْماً مَخافةَ مِيتَةٍ
ومُوتَنْ بها حُرًّا وجِلْدُكَ أملَسُ [٢]
فمِنْ طَلَبِ الأوْتارِ ما حَزَّ أنفَهُ
قَصيرٌ وخاضَ الموْتَ بالسيفِ بَيْهسُ [٣]
نَعامةُ لما صَرَّعَ القومُ رهْطَه
تَبَيَّنَ فى أثوابه كيف يَلْبَسُ
وما الناسُ إلا ما رأَوا وتحدثوا
وما العجزُ إلا أن يُضَاموا فيَجْلِسوا
ألم تَرَ أن الجَوْنَ أصبح راسياً
تُطيفُ به الأيامُ مايتأَيَّسُ [٤]

---

(١) صريع لعافى الطير يموت فى معركة فتترك جثته للطيور والسباع

(٢) جلدك أملس أراد وأنت برىء من العار . ولم يرد بالطبع أنه برىء من الجراح

(٣) قصير هو صاحب جذيمة الأبرش يشير إلى قصته مع الزباء الرومية . وكان قد جدع أنفه وتوصل إلى خدمتها حتى أخذ بثأره . بيهس رجل من بنى فزارة كان يحمق وكان يلقب (نعامة) قتل له سبعة إخوة فجعل يلبس القميص مكان السراويل والسراويل مكان القميص حتى توصل إلى أن طلب بدماء إخوته .

(٤) الجون حصن باليمامة يقال إنه من بناء طسم وجديس وهم من العرب البائدة . مايتأيس لايلين. يقول إن قومه فى حصن حصين . ويقول إن هذا الحصن قد استعصى على تبع لما غزى المدن والقرى والصفيح الحجارة العراض .

عَصَى تُبَّعاً أيامَ أهلكت القُرى
يُطانُ عليه بالصفيح ويُكلَس

هُمُ إليها قد أثيرتْ زُروعُها
وعادتْ عليها المَنْجَنونُ تَكَدَّس (١)

وذاك أوانُ العِرْضِ جُنَّ ذُبَابُهُ
زَنابيرُهُ والأزرقُ المُتَلَمِّس (٢)

يكون نذير من ورائى جُنَّة
ويَنصرنى منه جُلَىٌّ وأحْمَسُ (٣)

وجَمْعُ بنى قُرانَ فاعرض عليهم
فإنْ يقبلوا هاتا التى نحن نوبَسُ (٤)

فإن تُقْبلوا بالوُدِّ نُقبِل بمثله
وإلا فإنا نحن آبَى وأشْمَسُ

وإن يك عنا فى حَبيبٍ تثاقُلٌ
فقد كان منا مِقْنَبٌ ما يُعَرِّسُ (٥)

وقال أيضا يتهدد عمرو بن هند، ويسخر مما يزعم لنفسه من حقوق على الناس :

ألكَ السَّديرُ وبارقٌ ومَرابِضٌ ولك الخَوَرْنَقُ (٦)
والقَصْرُ ذو الشُّرُفاتِ مِنْ سِنْدادَ والنَّخْلُ المُبَسَّقُ

---

(١) المنجنون الدولاب الذى يستعمل فى رى الأرض . تكدس يركب بعضها بعضا فى الدوران .

(٢) العرض من أودية اليمامة . جن ذبابه كثر ونشط . وزنابيره بدل من الذباب وكذلك الأزرق المتلمس وهو يشير به إلى نوع آخر من الذباب .

(٣) جلى وأحمس بطون من قومه ضبيعة بن ربيعة . ونذير هو ابن جثة بن وهب .

(٤) الأبس القهر . يقول اعرض هذه الخطة التى تكرهها أن تسومنا إياها على بنى قران وانظر هل يقبلونها

(٥) المقنب زهاء ثلاثمائة من الخيل . التعريس نزول آخر الليل . يقول إنهم لا يستريحون حتى يدركوا ثأرهم .

(٦) السدير وبارق والخورنق بنايات مشهورة . ومرابض موضع بنواحى الحيرة كان مكانا للتنزه .

وَالغَمْرُ ذو الأحْسَاءِ وَاللَّذَّاتُ مِنْ صاعٍ وَدَيْسَقْ[١]

والتغلبيةُ كلها والبَدْوُ من عانٍ ومُطْلَقْ

وتَظَلُّ في دَوَّامةِ المولودِ يُظْلَمُها تَحَرَّقْ[٢]

فلئن نَعِشْ فلتَبْلُغَنْ أرماحُنا منك المُخَنَّقْ

أبقَتْ لنا الأيامُ والـ لزَباتُ والعاني المُرَهَّقْ

جُرْداً بأطنابِ البيو تِ تُعَلُّ من حَلَبٍ وتُغْبَقْ

ومُثَقَّفَاتٍ ذُبَّلاً خُضْداً أسِنَّتُها تَأَلَّقْ

والبَيْضَ والزَّغْفَ المُضَا عَفَ سَرْدُهُ حَلَقٌ مُوَثَّقْ[٣]

وصوارماً نَعْصَى بها فيها لنا حِصْنٌ ومَلْزَقْ[٤]

ومَحَلَّةً زَوراءَ في حافاتها العِقْبانُ تَخْفِقْ

وإذا فزعت رأيتنا حَلَقاً وعاديةً وَزَرْدَقْ[٥]

ما للبيوت وأنتَ جا مِعُها برأيكَ لا تُفَرَّقْ

والظُّلْمُ مربوطٌ بأَفْنِيَةِ البيوتِ أغَرُّ أبْلَقْ

وقال أيضا ، وقد طرده عمرو ونذر دمه :

أطرَدْتَني حَذَرَ الهجاءِ ولا واللاتِ والأنصابِ لا تَئِلُ[٦]

ورَهَنْتَني هِنْداً وعِرْضُكَ في صُحُفٍ تَلُوحُ كأنها خِلَلُ[٧]

---

(١) الغمر موضع الحسى الأرض السهلة التي يستنقع فيها الماء الدسق بعض الآنية

(٢) الدوامة لعبة لصبيان العرب يرمون بها على الأرض بالخيط فتدوم أي تدور وهي التي نسميها اليوم (النحلة) تتحرق تلتهب غيظا يقول لعمرو . لك كل هذا الملك العريض ويلهبك الغضب في أنفه شيء ؟

(٣) الزغف الدروع اللينة . السرد المتتابع النسج حلقتين. حلقتين

(٤) نعصى بها نتخذها بمنزلة العصى ملزق ملجأ

(٥) العادية قوم يعدون على أرجلهم ، يقول لنا فرسان ورجالة الزردق بالفارسية صف وصف ها هنا

(٦) طردتني صيرتني طريدا لاتئل لا تنجو والماضي وأل نجا .

(٧) هند أم الملك عمرو . الخلل جمع خلة بكسر الخاء وهو نقش يكون في بطانة السيف

شَرُّ الملوك وشرها حَسَباً ... فى الناس من علموا ومن جهلوا
الغدرُ والآفاتُ شيمتُه ... فافهم فعُرقوبٌ له مثل
بئس الفحولةُ حين جُدتَهم ... عُرُكُ الرِّهانِ وبئس ما بخلوا
أعنى الخُؤولةَ والعمومَ فهم ... كالطِّبْن ليس لبَيْتِه حُوَل[1]

وقال طرفة بن العبد، وهو من شيبان البكرى

فلَيْت لنا مكانَ المَلْكِ عَمْرو ... رَغُوثاً حَوْل قُبَّتنا تَخُور[2]
من الزمرات أسبلَ قادِمَاها ... وضَرَّتُها مُرَكَّنَةٌ تدور[3]
يُشارِكُنا لنا رَخلان فيها ... وتعلوها الكباشُ فما تَنُور[4]
لعَمرُكَ إنَّ قابوسَ بنَ هِنْد ... ليَخْلِطُ ملكه نَوْكٌ كثير[5]
قسمتَ الدهرَ فى زَمَنٍ رَخِيٍّ ... كذاك الحُكْمُ يَقصِدُ أو يَجُور
لنا يوم وللكروان يوم ... تطير البائساتُ ولا نطير
فأما يومهن فيوم نَحْس ... تطاردهن بالحَدَب الصقور[6]
وأما يومنا فنظل رَكْباً ... وقُوفاً ما نَحُلُّ وما نسير

وقال الحارث بن ظالم الذبيانى، وهو من أشراف بنى مرة وساداتهم. وكان فاتكا شجاعا، فتك بخالد بن جعفر بن كلاب بن ربيعة وهو نازل على

---

(١) الطبن بكسر الطاء وفتحها لعبة للعرب

(٢) الرغوث كل مرضعة يقصد هنا النعجة كما يظهر ذلك من الأبيات التالية. يقول ليت لنا مكان عمرو بن هند نعجة تحكم علينا

(٣) الزمر بوزن كتف القليل الشعر والصوف. الضرة الضرع أو أصل الثدى. القادم من الأطباء والضروع الخلفان المتقدمان وأصله للناقة جعله للشاة. أسبل طال وكل

(٤) الرخل على وزن كتف الأنثى من أولاد الضأن تشاركنا فى لبنها. نارت نفرت من الفحل: يصف فى هذا البيت وفى البيت السابق النعجة التى تصور أنها ستقوم مقام عمرو بن هند فى ملكه. يقول إن نعجة هذه صفتها تغنى عنه بل هى خير منه.

(٥) النوك الحمق

(٦) الحدب الموج والرمل والغلظ المرتفع من الأرض.

النعمان ، وفتك بابن النعمان ، وكان فى حجر أخته سلمى بنت ظالم المرى . وهو هنا يخاطب النعمان ، متشمتا فى قتل ابنه ، مهدداً بقتله هو نفسه ، ويذكر أنه قد فعل ذلك ثائراً لجيران له ، أصابهم منه شر فى إبلهم وفى أنفسهم .

قِفَا فاسْمَعَا أُخْبِرْكما إذ سألتُمَا
مُحارِبُ مولاه وثَكْلانُ نادمُ (١)

فأُقسمُ لولا من تَعَرَّض دونه
لخالطه صافى الحديدة صارمُ (٢)

حَسِبْتَ أبا قابوس أنك سالمٌ
ولَمَّا تُصِبْ ذُلاً وأنفُكَ راغِم

فإن تك أذوادٌ أُصِبْنَ وصِبيَةٌ
فهذا ابن سلمى رأسه مُتَفَاقِم (٣)

عَلَوْتُ بذى الحيَات مَفْرِقَ رأسه
وهل يَرْكَبُ المكروهَ إلا الأكارِم

فتكتُ به كما فتكتُ بخالد
وكان سلاحى تَجْتَوِيه الجَمَاجِم

أَخُصْيَىْ حِمَارٍ باتَ يكْدِمُ نَجْمَةً !
أتأكُلُ جيرانى وجارُكَ سالمٌ ؟

بدأتُ بهذى ثم أُثْنِى بهذه
وثالثةٍ تَبْيَضُّ منها المَقَادِمُ

(١) محارب مولاه يقصد نفسه لأنه قتل ابن الملك . وثكلان نادم يعنى الملك لأنه فقد ولده

(٢) يقول لولا ما يتحجب به الملك من حرس لقتلته

(٣) الذود الجماعة من الابل يشير إلى ما كان من انتهاب إبل جارة له متفاقم غير ملتئم . ابن سلمى يعنى به ابن الملك لأنه كان فى حجر سنان بن أبى حارثة وسلمى زوجة سنان .

(٤) يكدم يعض نجمة واحدة النجم وهو النبت الذى لا ساق له - يخاطب النعمان ياخصى حمار ! أتأكل مال جيرانى ثم أترك جارك سالما ؟

الأعشى

شهرة الاعشى فى عالم الشعر والنقد تقوم على تفوقه فى الخمر . وجملتهم المشهورة فى ذلك « امرؤ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا طرب » . ولكننا نتحدث عنه هنا بوصفه أكبر هجاء سياسى ظهر فى العصر الجاهلى

صور القدماء الأعشى فى قصصهم رحالة يجوب بشعره الآفاق باحثا عمن يشترى مديحه . وقالوا إنه أول من تكسب بشعره . قال صاحب العمدة : وكانت العرب لا تتكسب بالشعر وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة ، ومكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاما لها حتى نشأ النابغة الذبيانى ، فمدح الملوك ، وقبل الصلة على الشعر ، وتكسب زهير بن أبى سلمى يسيرا مع هرم بن سنان ، فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجرا يتجر به نحو البلدان ، وقصد حتى ملك العجم ، فأثابه وأجزل عطيته ، علما بقدر ما يقول عند العرب ، واقتداء بهم فيه . على أن شعره لم يحسن عنده حين فسر له ، بل استهجنه واستخف به ، ولكن احتذى فعل الملوك ملوك العرب — وأكثر العلماء يقولون إنه أول من مدح بشعره .) وهذه صورة ، على ما فيها من صدق ، تضلل الباحث فى تصور هذا الشاعر الكبير على حقيقته . فمن الحق أن الأعشى كان صاحب لذة وخمر ، ولكنه كان يذهب فى ذلك مذهب فتيان العرب ، الذين يهجمون على اللذة قبل أن يهجم عليهم الموت ، لا يرون فيها محرما ومباحا ، وإنما هى عندهم مبذولة لمن يستطيع أن ينالها ، وليس ينالها إلا القوى الجرىء . ومن الحق أن الأعشى قد مدح بعض الأشراف من غير قومه ونال عطاءهم — مدح قيس بن معد يكرب ، وهو أبو الأشعث بن قيس ، وكان من أشراف كنده وملوكها ؛ ومدح إياس بن قبيصة الطائى . وكان عامل كسرى على عين التمر وما والاها إلى الحيرة ، وقد

ملك الحيرة بين وفاة المنذر وملك ابنه النعمان ، ثم عاد إلى ملكها بعد النعمان ، إلى أن قدم عليه خالد بن الوليد سنة ١٢ هـ — وأم أياس ربيعة من شيبان بن ثعلبة ؛ ومدح سلامة ذا فائش ، وهو من سادة اليمن ؛ ومدح الأسود بن المنذر ، أخا النعمان ، فى مطولته المشهورة « ما بكاء الكبير بالأطلال ». ولكن كل ذلك لم يفقده صفته السياسية الأصيلة فى الدفاع عن قومه ، فكان صوتهم القوى الذى خلد يوم ذى قار . وكان بعد ذلك لسان قومه فيما ينشب بينهم وبين جيرانهم من منازعات .

لم يحفظ لنا التاريخ شيئا عن نشأة الأعشى أو شبابه . وكل ما نعرفه أن أباه يسمى قتيل الجوع ، سمى بذلك لأنه دخل غارا يستظل فيه من الحر ، فوقعت صخرة عظيمة من الجبل فسدت فم الغار ، فمات فيه جوعا . ونحن لا نعرف متى مات أبوه ، وهل تركه ناشئا أم رجلا ، ولكن نعرف أن قبيلة الأعشى — قيس من ثَعلبة البكرى — كانت مشهورة بكثرة شعرها وشعرائها يروى عن حسان أنه سئل : من أشعر الناس ؟ فقال . أشاعر بعينه أم قبيلة ؟ قالوا بل قبيلة . قال — الزُّرْقُ من بنى قيس بن ثعلبة ويروى هذا الحديث عن غير حسان وكان عبد الملك بن مروان يقول : إذا أردتم الشعر الجيد ، فعليكم بالزُّرق من بنى قيس بن ثعلبة ، وبأصحاب النخل من يثرب ، وأصحاب السعف من هذيل . ونعرف أن الأعشى قد اتصل بخاله المسيَّب بن علس — وهو معدود فى الشعراء المُقِلين — يروى شعره حتى نبغ ، واحتل من قبيلته مكانا ممتازا ، ثم ذاع صيته فى أنحاء الجزيرة العربية حتى أصبح مسموع الصوت ، مرهوب الجانب ، من الذين يحسب الناس لشعرهم حسابا ، حتى لقد فزعت قريش حين علموا بمقدمه على النبى فى المدينة — وهم متهادنون فى صلح الحديبية سنة ٦ هـ — فجمعوا له من مالهم مائة ناقة حمراء ، على أن يعود من عامه .

كانت خلائق الأعشى خلائق الفتيان فى الجاهلية . رووا أن بعض ولاة اليمامة مر بمنزله فى منفوحة ، وزار قبره فرآه رطبا . فلما سأل عن علة ذلك ، أُخبرَ أن الفتيان ينادمونه ، فيجعلون قبره مجلسَ رجلٍ منهم ، فإذا صار إليه القَدح صبوه عليه ، وذلك لقوله « أرجعُ إلى اليمامة فأشبع من الأطيبين الزنا والخمر » وكان صاحب لذة يرى القعود عنها عجزاً لا يليق بالفاتك الجرىء. ومن أجل ذلك نراه فى غزلة لا يقيم على صاحبة ، بل يغلب عليه أن يكتفى بالإشارة إلى هذه الصاحبة أو الحليلة بقوله « تيا » أو « جارتنا » . وهو ولوع بتصوير هذه الصاحبة محفوفة بالمصاعب والأخطار ، وكأنه يرى الكفاح فى سبيل الوصول إليها ، والظفر بها آخر الأمر ، جزءا أصيلا من لذته . فهو لا يرى العيش إلا مغامرة فى سبيل الظفر باللذة ، تغتصب من الدهر اغتصابا .

أَلم تَنْهَ نفسك عما بها ... بلى عادها بعضُ أطْرابها[١]
لجَارتِنا إذ رأت لِمتى ... تقول لكَ الويلُ أنَّى بها
فإن تعهدينى ولى لِمةٌ ... فإن الحوادث ألْوىَ بها[٢]
وقبلَك ساعَيْتُ فى رَبْرَب ... إذا نام سامرُ رُقَّابها[٣]
تُنازِعُنى إذ خلَت بُردَها ... مفضَّلةً غيرَ جلبابها[٤]
فلما التقينا على بابها ... ومدت إلىّ بأسبابها
بذلنا لها حُكمَها عندنا ... وجادَت بحُكمى لأنْهَى بها
فطوراً تكون مهاداً لنا ... وطوراً أكونُ فيُعلَى بها
على كل حال لها حالةٌ ... وكلٌّ إلا جَارىٍ يُجْرَى بها
وكأس شربتُ على لذة ... وأخرى تداويتُ منها بها

---

(١) أطرابها أحزانها

(٢) اللمة ما جاوز شحمة الأذن من الشعر ألوى بها ذهب بها

(٣) الربرب القطيع من بقر الوحش يشبه به النساء المساعاة الفجور ، وكان الإماء يساعين فى الجاهلية وفلان يساعى الاماء يزانيهن .

(٤) مفضلة مبتذلة لابسة جلبابها مباشرا لجسمها لاشىء تحته.

لكى يعلم الناس أنى امرؤٌ　　أتيتُ المعيشة من بابها

ويقول :

فقد أشرب الراح قد تعلميـ　　ـن يوم المُقام ويوم الظَّعَنْ

وأشرب بالريف حتى يقا　　لَ قد طال بالريف ما قد دَجَنْ(١)

وأقررت عينى من الغانيا　　ت إمّا نكاحاً وإمّا أُزَنْ

ويقول :

وقد غدوتُ إلى الحانوت يتبعنى
شاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلشُلٌ شَوِلُ(٢)

فى فِتية كسيوف الهند قد علموا
أن ليس يَدفَع عن ذى الحيلة الحِيَلُ

نازعتهم قُضُبَ الريحان متكئا
وقهوةً مُزَّةً رَاوُوقُها خَضِلُ(٣)

لا يستفيقون منها وهى راهنة
إلا بِهَاتِ وإن عَلُّوا وإن نَهِلوا(٤)

يسعى بها ذو زجاجات له نُطَف
مُقَلِّصٌ أسفلَ السِّربال مُعتَمِلُ(٥)

ومستجيب تخالُ الصنجَ يَسمَعُه
إذا تُرَجِّع فيه القَينَةُ الفُضُلُ(٦)

---

(١) دجن ورجن ثبت وأقام

(٢) شاوٍ شواء يشوى اللحم مشل سواق من شل الابل طردها وساقها شلول نشول ينشل اللحم من القدر إلى القوم حاذق لذلك شلشل خفيف. شول يحمل الشيء

(٣) القهوة الخمر. الراووق الوعاء الذى تروق فيه الخمر خضل دائم الندى لكثرة استعمالها.

(٤) النهل الشرب الأول والعلل الشرب الثانى يقول إنهم لا يتوقفون عن الشراب مهما شربوا إلا ريثما يقولون للساقى «هات !»

(٥) النطفة اللؤلؤة العظيمة معتمل يخدم ويعمل فى نشاط.

(٦) المستجيب العود يجيب الصنج أى يشاكله. الصنج دوائر رقاق من نحاس يصفق باحداها على الأخرى وهى كالتى تكون بأيدى الراقصات (الساجات). الفضل التى تتفضل أى تتبذل فتلبس ثوبا واحدا كما تكون فى خلوتها

من كل ذلك يوم قد لهوت به
وفى التجارب طولُ اللهو والغزل

وهذا الحرص على اللذة ، قد جعل الأعشى فى حاجة دائمة إلى المال ، يستجلبه من كل وجه . فلم يكن المال فى نظره إلا طاقة مختزنة — على حد تعبير العلماء — يمكن تحويلها إلى ألوان من اللذة فالحرص على جمعه يصور حرصا على اللذة . لايكاد يجتمع إليه شىء منه ، حتى يستنزفه فى لذته ، ولذة من يجتمع إليه من صحبه ورفاقه ثم يعاود الرحلة فى سبيل الحصول عليه من جديد

رحل الأعشى إلى الأشراف يمدحهم، وألحف عليهم بالسؤال ، وصرح بذلك فى شعره تصريحا حمل مؤرخى الأدب على أن يعتبروه أول من سأل بشعره فهو يقول لقيس بن معد يكرب فى أول قصيدة مدحه بها

فهذا الثناء وإنى أمرُؤ — إليكَ بعَمْد قطعتُ القَرَنْ
وكنتُ امرء زمناً بالعراق — عفيفَ المُنَاخ طويلَ التَغَنْ
وحولَ بَكْرٌ وأشياعُها — ولست خَلاةَ لمن أوعَدَنْ
ونُبّئتُ قيسا ولم أبلُه — كما زعموا خيرَ أهل اليَمَن
فجئتُكَ مُرتاد ماخَبَّرُوا — ولولا الذى خبروا لم تَرَنْ
فلا تَحْرِمَنِّى نداك الجزيل — فإنى أمرء قبلكم لم أُهَنْ

وهو يعترف فى شعره بهذا الحرص على جمع المال ، ولا يرى فيه بأسا :

وقد طُفْتُ للمال آفاقَه — عُمان فحمْص فأُورِيشلِم
أتيتُ النجاشىَّ فى أرضه — وأرضَ النبيط وأرضَ العَجَمْ
فنجرانَ فالسروَ من حِمْيَرٍ — فأى مَرامٍ له لم أرُمْ

ولكن كل هذه الخصال ، لم تفقد الأعشى إخلاصه لقومه وعشيرته ، ولم تغلب على صفته الأصيلة ، التى جعلت منه شاعر بكر ، بل شاعر ربيعة، فظل أولا وآخرا شاعر السياسة ، الذى يعبر عن رأى القبيلة الرسمى ؛

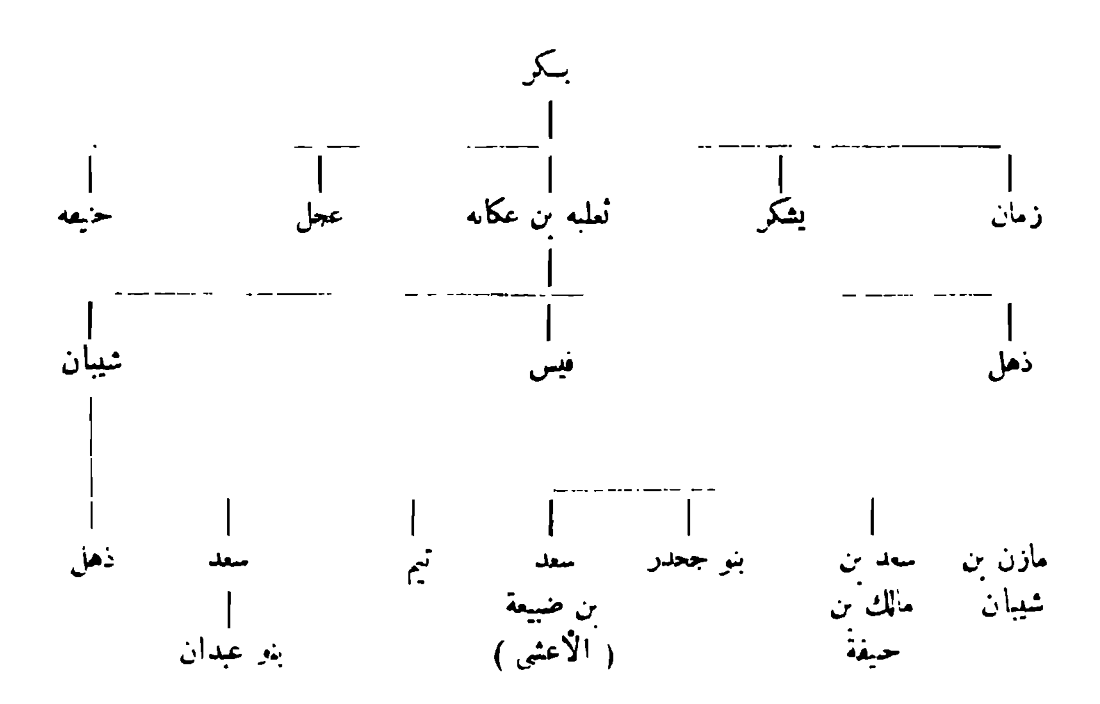
يسجل ما بينها وبين جيرانها من حلف ، منميا روابط الود والإخاء، ويؤرخ وقائعها ، مخلدا مجدها وبطولتها فى شعر رائع ، ويهاجم من تحدثه نفسه بالنيل منها أو مهاجمتها ، مصغرا من شأنه ، مهددا بقوة قومه .

وقد عد النقاد الأعشى فيمن رفع بشعره ووضع. والواقع أن الدارس لمدائحه وحماسته ، يجدها من أروع الشعر الجاهلى تصويرا للمُثُل العربية ، فى دقة واضحة ، وقوة صادقة . والدارس لأهاجيه ، يجدها من أشد الشعر وقعا على العدو ، لما فيها من سلب لهذه المثل وكل أهاجى الأعشى متصلة بسياسة القبيلة ومصالحها فهو يمدح للكسب ، حين لا يتعارض ذلك مع وفائه لعصبيته ، ولكنه يهجو مخلصا بدافع من الوطنية . ومن هنا كان وجه الخلاف الكبير بينه وبين الحطيئة ، الذى كان يتكسب بالمدح والهجاء كليهما، ولا يصدر فيهما إلا عن الشره فى جمع المال ، وكأنه ينتقم لنفسه من المجتمع الذى ظلمه . فبينما يبدو الأعشى فى هجائه بطلا سياسيا ، وزعيما وطنيا ، يبدو الحطيئة ساخطا على الدنيا ، ناقما على الناس ، ساخرا بكل القيم الإنسانية والمعايير الأخلاقية .

لم يكن الأعشى موتورا ولا ساخطا على الناس كالحطيئة . فهو رجل قد أمتع نفسه من اللذات ، ورضى عن الدنيا ، وعن مكانه منها، فأخذ بأحسن مافيها ، وقد علم أن الموت نهاية كل حى . وكانت له شخصية قوية واضحة ، جعلت منه شاعرا ممتازا فى التغنى بلذته ، ومحاميا ناجحا يحتل المكان الأول فى الدفاع عن قبيلته . وكان فيه وفاء لقومه وعصبيته ، وسم شعره السياسى بروح وطنية صادقة .

ويبلغ الأعشى قمة مجده السياسى ، حين يقف للدفاع عن بكر ، بل عن وائل جميعا ، فى يوم ذى قار . وذو قار موضع قرب الكوفة — بينها وبين واسط — كانت فيه واقعة مشهورة بين الفرس وبكر حوالى سنة ٢ هـ .وقد انتصرت فيه بكر . وكان هذا النصر عظيما ملأ العرب زهوا ، فأنشئوا فيه

الشعر الكثير . وقد اختلف الرواة فى سبب هذا اليوم . فقيل إن كسرى لما حبس النعمان بساباط ، حتى مات قبيل الإسلام ، غضب له العرب، وكان قتله سبب ذى قار. وقالوا إنه كان لحبس قيس بن مسعود الشيبانى ، وكان قد ضمن قومه عند كسرى — بعد قتل النعمان — أن لا يغيروا على السواد ، فنكثوا بعهدهم ، فحنق كسرى عليه ، واستدعاه فقال له غررتنى من قومك، وأمر به فحبس بساباط . وقالوا إنه كان لوديعة أودعها النعمان قبل موته عند هانىء بن مسعود الشيبانى ، فلما طلبها منه كسرى امتنع عليه .[1]



ومن أروع ما قال الأعشى فى هذا اليوم قصيدة أنشأها قبل الحرب، يتهدد فيها الفرس ، ويستفز قومه للقتال وإباء الضيم

أَثْوَى وقصّر ليلة ليُزَوَّدا ومضى وأخلف من قُتَيلة موعدا

والقصيدة فى جملتها اثنان وأربعون بيتا بدأها الشاعر بذكر صاحبته . فهو قد تخلف ليلة ليزود منها فأخلفته ، ومضت الليلة ، ومضى هو لحاجته .

(١) راجع فى ذلك الأغانى ٢٠ : ١٣٢ ، نقائض جرير والفرزدق (طبع أوروبا) ص ٦٣٨ ، العقد الفريد ٦ : ١١١

وأصبح حبلها خلقا ، وكان يظن أن ما بينه وبينها لن ينقطع . وهو قد شاب فهجرته الغوانى ، لأنهن لا يصلن من فقد الشباب ، وقد يصان الأمرد . ثم هو يتحسر على شبابه الضائع ، أيام كانت لِمَّتُه سوداء ، وأيام كان يعيش فى لهو وعبث لا ينقطع ، إذ يسعى إلى صواحبه فى الليل ، يبتغى عندهن دَيْنَه ، وقد مَطَلنَه فى النهار . وقد ألم الفقر بالأعشى حتى ساء حاله .

فسألته صاحبته : مالجسمك يسوء من رآه ؟ وما لثيابك قد بليت ؟

أَذَلَلْتَ نفسك بعد تَكْرِمَةٍ لها   أم كنتَ ذا عَوَزٍ ومنتظرا غدا ؟

أم غاب رَبُّك فاعترتك خَصَاصة   فلعل ربك أن يعود مؤيدا ؟

فيجيبها

ربِّى كريم لا يكدِّر نعمة   وإذا يُنَاشَدُ بالمَهَارِقِ أنشدا[1]

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الناقة . فيشبهها بحمار الوحش ، وبالنعامة ، وبالبرج فإذا فرغ منها ، بدأ الجزء الذى يهمنا من القصيدة بقوله :

من مُبلغٌ كسرى إذا ماجاءه   عنى مآلِكَ مُخْمِشَاتٍ شُرَّدا[2]

ونفهم من هذا الجزء أن كسرى قد سجن الأسود أخا الحوفزان (وأبو عبيدة يقول إنه كان فى يد كسرى فى رُهُنٍ قيس بن مسعود) ، وأنه كان لا يزال يطلب إلى بكر الرُهُن ، حتى يَكُفَّهم بذلك عن مهاجمة السواد . والأعشى يخاطبه قائلا إنهم لن يعطوه رُهْنا ليفسدهم كمن قد أفسد . ولأن يرهنه نَعْشٌ بنيه ، ولأن ترهنه السماء الفرقد ، أقرب إليه من أن يرهنوه أبناءهم . وهو يطلب إليه أن ينزل إليهم الأسود من سجنه — وكأنه كان مسجونا فى جبل أو هضبة عالية — فإن لم يفعل ، فليس بينهم إلا الحرب ،

---

(١) المهارق جمع مهرق بضم الميم وفتح الراء وهو الصحيفة . أى إذا نوشد بما فى الكتب أجاب . وكأن الأعشى نصرانى أو كأن صاحبه الذى يسأله نصرانى أو متدين باحدى الكتب السماوية .

(٢) المآلك جمع مألكة بضم اللام وهى الرسالة . مخمشات مغضبات . شرد تأتى كل مكان .

يضرمونها بين عانة والفرات ، لمن بغى وتمردا ، كأنما حشَّ الغُواة بها حريقا مُوقَدا .

ثم يهاجم الأعشى قبيلة إياد ، التى كان يضطرها موقعها من الحدود إلى ممالأة الفرس ، فهو يقول خربت بيوت هؤلاء الأنباط ! لكأنهم لا يلقون بعدك من يقيم أمرهم ويتعهدهم ويعمر أرضهم ! ثم يتجه إلى كسرى قائلا : أظننتنا كإياد حرّاثين ، قد اتخذوا (تكريت) دارا ، فهم ينتظرون حبها أن يُحصَد ، خاملين لا عمل لهم ، فهم يقطعون وقتهم فى معالجة قُمّل قد انتشر فى أجسادهم ، وقد أُوثقوا فى السلاسل ، وغُلِّقتْ دونهم الأبواب ؟ ليس هذا شأن بكر . فإنما نحن بَدْو ، لنا نَعَمْ كالهضاب ، لايطردها مُرَوِّعْ من مغير أو مهاجم ولكنها رهن سيوفنا ، ضمنت أعجازها قُدُورَنا أن تفرغ ، وضمنت ضروعها لنا اللبن صريحا خالصا

فإذا وصل الشاعر إلى هذا الحد فقارب الانتهاء . اتجه إلى كسرى وقد بلغ منه الهياج أشده ، ختم قصيدته بقوله

فاقْعُدْ عليك التاجُ مُعتَصِباً به	لا تَطْلُبَنّ سَوَامَنا فتَعَبَّدا
فلعمْرِ جَدِّك لو رأيت مُقامَنا	لرأيتَ منا مَنْظَراً ومُؤيَّدا
فى عارِضٍ من وائلٍ إن تلقه	يومَ الهياج يَكُنْ مسيرُك أنكدا
وترى الجياد الجُرْدَ حول بيوتنا	مَوْقُوفةً وترى الوشيجَ مُسَنَّدا (١)

وللأعشى بعد ذلك جولات سياسية، فيما كان ينشأ بين فروع بكر وقبائلها من منازعات . وهو يسير فى ذلك على مبدأ عربى واضح : ينصر أخاه ، ثم أبناء عمه ، الأدنى فالأبعد . فهو يشيد بشيبان ، ويخلد مجدها فى يوم ذى قار

(١) الوشيج شجر الرماح .

فإذا وقع خلاف بين بعض بطونها ، وبعض بطون قيس بن ثعلبة ، تعصب يزيد بن مسهر الشيبانى — أحد زعماء بكر يوم ذى قار — لقومه من شيبان، وأخذ الأعشى جانب قيس بن ثعلبة ، وهاجم يزيد فى قصيدته المشهورة

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إن الرَّكب مُرتَحِلُ
وهل تُطِيقُ وَداعاً أيها الرجل

وقصة هذه القصيدة أن رجلا من بنى كعب بن سعد (أحد بيوت قيس بن ثعلبة) اسمه ضُبَيْع ، قتل رجلا من بنى همام (أحد بيوت ذهل بن شيبان) اسمه زاهر بن سيار ، فلما نهض بنو سيار للأخذ بثأر زاهر، تعصب لهم يزيد بن مسهر الشيبانى ، ونهاهم أن يقتلوا به ضبيعا لأنه لا يعد له. وحضهم على أن يأخذوا به أحد أشراف بنى سعد . فلما بلغ ذلك الأعشى حمى لقومه ، وهجا يزيد طالبا إليه أن يخلى بين الحيين ، فإنه إن أعان بنى سيار ، لم يكن لبنى قيس بن ثعلبة بدّ من التدخل لنصرة بنى كعب

يبدأ الأعشى قصيدته بوصف صاحبته هريرة، فهى بيضاء،غزيرة الشعر، دقيقة الخصر ، ثقيلة الأرداف ، ضخمة الخلق ، لينة القوام ، كأنها السحابة فى بطء سيرها ووقارها ، عَفَّة لا تسترق السمع للجار ، وَهْنَانة يكاد يصرعها — لولا تشددها — إذا تقوم إلى جارتها الكسل،وهى عبقة يضوع المسك منها فيملأ المكان . وليست روضة من رياض الحَزْن[1] مُعشِبة جاد عليها المطر ، وأشرقت عليها الشمس ، فانعكست على جداولها المحفوفة بالنبات ، بأطيب منها نشر رائحة ، ولا بأحسن منها إذ دنا الأُصُل . [2]

وقد صدّت عنه صاحبته جهلا بقدره ، فهو يعجب لذلك ، ويقول : حَبْلَ مَنْ تصلين إن قطعتنى ؟ ومن أحق منى بهذا الوصل ؟

---

(١) الحزن بفتح الحاء الأرض الغليظة . والرياض بها أنضر وأحسن رونقا

(٢) الأصل جمع أصيل وهو وقت غروب الشمس . وإنما تفوح رائحة الأزهار ويهدأ الكون فتكون الرياض أجمل ما تكون فى مثل هذا الوقت، حين تخف حرارة الشمس المحرقة ويداعب النسيم الأزهار.

أأنْ رأت رجــلاً أعشى أضرَّ به
رَيبُ المَنُونِ ودَهرٌ مفنِدٌ خَبِلُ (١)

إن ترينا حُفاةً لا نعال لنا، فكذلك ما نحفى وننتعل. ومع ما ترين بى من أثر الضُّر

فقد أُخالِسُ رَب البيت غفلته وقد يُحاذِرُ منى ثم ما يَئِلُ
وقد أقود الصبىَ يوماً فيَتبَعُنى وقد يصاحبنى ذو الشِّرَّة الغَزِلُ

ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف السحاب وقد امتلأ بالمـــاء، واتصلت أجزاؤه، ولمع البرق فى حافاته كأنه الشُّعَل، فيقول إن اللهو والخمر لم يلهياه عن مراقبة هذا العارض، وعن لَفْت صحبه من الشَّرْب إليه. إذ يناديهم قائلا: شيموا! ثم يعود فيعجب لأمره وأمرهم قائلا: وكيف يَشيمُ الشاربُ الثمِلُ؟ وهم لا يزالون فى حَدْس وتخمين، كلٌ يذكر الأرض التى يتوقع أن هذا العارض سيصيبها بمائه، وكأنه قد أصابها، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى وصف مجلس الخمر. فقد يغدو إلى الحانوت يتبعه غلام خفيف نشط، وقد يجلس إلى فتية كسيوف الهند مضاء، قد أرساوا أنفسهم فى لذاتها، لأنهم يعلمون أنْ لَيْسَ يَدْفَعُ عن ذى الحِيلَة الحِيلُ، يطوف عليهم ساق نشيط، شمّر أسفل قميصه، وعلق بأذنيه النُّطَف، وقد تناثرت قُضُب الريحان، يتنازعها الشَّرب، وهم يتناقلون كئوساً لا تجف، لأنهم لا يتوقفون عن الشرب إلا ريثما ينادون: هات! وقد ماجت الحانة بنساء ضخام، كأن على أردافهن قِرَباً ترتج بما فيها، يجرون ذيول الرَّيط، ونشط القيــــان للغناء على نغمات العود وجَرْس الصَّنْج.

فإذا فرغ الشاعر من هذه المقدمة الطويلة، التى تستغرق أربعة وأربعين بيتاً، اتجه إلى خصمه فبدأه بقوله:

---

(١) الفند بفتحتين ضعف الرأى

أبلِغْ يزيدَ بنى شيبان مَألُكَةً   أما ثُبَيْتٍ أما تَنفَكُّ تأتَكِلُ

وهو يقول له أقصر عن نحت أثلتنا ، فلست ضائرها أبد الدهر ، واربَعْ على نفسك ، فلست إلا كوعل أحمق ، ينطح صخرة ليفلقها ، فلم يضرها وأوهى قرنه . على أنك تثير رهط مسعود وإخوته ، وتغريهم بنا ، وما أظنك تغضب لهم أو تخوض معهم قتالا إن جد الجد ، وشبت الحرب ، والتُمس عندك النصر . فأنت تلقيهم طعاما لرماحنا ، فترديهم ثم تعتزل .

لا تَقْعُدَنَّ وقد أكَّلتَها حَطَباً   تَعُوذُ من شرِّها يوما وتبتهل

ويعدد له بعد ذلك القبائل التى عادوها من قبل فقهروها ، فيذكر أهل كهف من بنى سعد بن مالك ، والجاشِريَّة من إياد ، وأسد بن ربيعة ، وقشير بن كعب بن ربيعة فيقول له سَلْهُمْ يخبروك كيف وجدوا بلاءنا فى القتال .

إنَّا نقاتلهم ثُمَّتَ نُقتِّلُهم   عند اللقاء . وهم جاروا . وهم جهلوا

ثم يتجه إلى شيبان (قبيلة يزيد) ، وقد تزايد غضبه ، فيقول : زعمتم أنَّا لسنا لكم بأكفاء ، وأننا لا ننهض لقتالكم ! بل نحن نقتلكم حتى يخر عميد القوم ، فلا تجد حوله غير نساء قد ثكلن أبناءهن ، يدفعن عنه بأكفهن ولن ينهاكم عما أنتم فيه من بَغْيٍ كالطعن الجائف ، يغور فى علاجه الزيتُ والفُتُل .

ويشير الأعشى إلى ما كان من إغراء يزيد لهذا البيت من شيبان . ونهيهم عن قتل ضبيع بزاهر ، فيقول : لئن قتلتم سيدا لم يكن مقاربا لقتيلكم (لَنَقْتُلَنْ مثلَهُ منكم فنَمْتَثِلُ) ، ويختم القصيدة بقوله :

قد نَطْعَنُ العَيرَ فى مَكنُونِ فائِلِه
وقد يَشِيطُ على أرماحنا البَطَلُ (١)

---

(١) العير حمار الوحش والفائل عرق يجرى من الجوف إلى الفخذ يشيط يهلك يقول إنهم بصراء بمواضع الطعن . يضربون العير فى هذا الموضع الخفى الدقيق فلا يخطئون الاصابة .

ثم يتفاقم الشر بين شيبان وقيس بن ثعلبة ، فينشىء الأعشى قصيدة أخرى أعنف من السابقة ، يبدأها بقوله

هُرَيْرَةَ ودِّعْها وإن لام لائم غداةَ غدٍ أم أنت للبَينِ واجمُ

وهو يقول بعد أن يتغزل فى ستة أبيات :

رأيتُ بنى شيبان يظهر منهم لقومى عَمْداً نِغْضَةٌ ومَظَالم

ثم يذكرهم بمن ذاق عداوتهم من القبائل فلم يصبر عليها ، معددا أسماءهم ، ويقول : إنا على عهدكم بنا لم نتغير ولم نضعف، ففيم الطمع ؟ ثم يهددهم قائلا : إنكم لن تنتهوا حتى تَتَكَسَّر بيننا (رِمَاح بأيدى شُجْعة وقوائمُ) ، وحتى يبيت القوم وقوفاً وراء الظُّعْن ، والخيل تحتهم ، يقولون « نَوِّرْ صبحُ ! » والليل عَاتِمٌ لن تنتهوا حتى يكون بيننا مثل هذا القتال العنيف ، أو تَتَكَسِرُونَ من حِدتِكُم (فإنما بِهِمُ لعَينَيْه من الشرِّ هائمُ)

ثم يصف شجاعة قومه ، فيقول ليزيد إنك إن لقيتنا لقيتَ بنا قوماً لا يجبنون ، حين تكون الجماجمُ أهدافَ السيوف . إن أبناءنا ليَغتَدُونَ البأس ، كما يعتدى الماء الظماءُ . ويصف نفور يزيد منه حين يلقاه ، وما يجد فى وجهه من بغض ، قائلا

يزيدُ يغُضُّ الطَرْفَ عنى كأنما
زَوَى بين عَينَيه عَلَىَّ المَحَاجِمُ
فلا يَنْبَسِط من بين عينيك ما انزوى
ولا تَلْقَنِى إلا وأنفُك راغم

ثم يخاطبه قائلا لئن جد بيننا التقاطع ، لتُقتَلن مخافا أموالك ، وليندبنك النساء نائحات معولات ، (يَقُلْنَ حَرَامٌ ما أُحِلَّ بِرَبِّنَا) . وهذا الشطر أبلغ ما يكون فى حكاية تحسر النساء ، وتصوير حزنهن العاجز الضعيف . ويبلغ هجاء الأعشى ليزيد غايته حين يقول :

أبا ثابتٍ لا تَعْلَقَنْكَ رماحُنا   أبا ثابت أقْصِرْ وعِرْضُكَ سالم

وذرنا وقوماً إن هم عَمَدوا لنا   أبا ثابت واقْعُدْ فإنك ناعم

طَعامَ العِراقِ المُسْتفيضِ الذى ترى   وفى كلِ عامٍ خُلَّةٌ ودراهم

ويختم قصيدته بإعادة التهديد ، متهماً يزيد بأنه يغرى بهم رهط سيار ، ثم يزعم بعد ذلك أنه برىء ويقول إن هذا الصنيع لا ينتهى إلا بقتال شديد عنيف ، تسبى فيه النساء فيكُنَّ عند بنات عمهن من رهط قيس كالناسفات الخوادم

* * *

فإذا وقع الخلاف بين بطون قومه — قيس بن ثعلبة — كان الشاعر رفيقا ، يحاول أن يذكرهم الرحم وحقوق القرابة ، وما ينبغى لهم من وفاء .

يختلف بنو عبدان مع قومه (سعد بن ضبيعه) فيعاتبهم مبقيا عليهم فى قصيدته :

كفى بالذى تُولِيِنَهُ لو تَجَنَّبا   شِفَاءً لسُقْمٍ بعد ما كان أشْيَبا

نرى الشاعر حريصا على صداقتهم حين يقول

فأبلغْ بنى سعد بن قيس بأننى   عَتَبْتُ فلما لم أجدْ لى مَعْتَبا

صَرَمْتُ ولم أصْرِمْكُمْ وكَصَارِمٍ   أخٌ قد طوى كَشْحاً وأبَّ ليذهبا

وهو يبكتهم لتناسيهم ما بينهم وبين قومه من نسب :

إلى مَعْشَرٍ لا يُعرَفُ الوُدُّ بينهم   ولا النَّسَبُ المعروف إلا تَنَسُّبا

ولكنهم مهما يخطئوا فهم قومه ، لا يكون مع عدوهم عليهم أبدا . فإخلاصه لعصبيته يأبى إلا أن يدفع عنهم بيده وبلسانه :

فإن أنأ عنكم لا أصالح عدوَّكم   ولا أُعْطِه إلا جِدَالاً ومِحْرَبا

وإن أدْنُ منكم لا أكُنْ ذا تَميمةٍ   يرى بينكم منها الأجالدُ مُثْقَبا[1]

---

(١) التميمة المقراض الذى يقطع به الحديد والفضة . يقول إن بعدت عنكم لم أصالح عدوكم ولم يجد منى إلا الخصومة وإن دنوت منكم لم أثقب جلدكم بقارص الكلام

سَيَنْبَحُ كلبي جَهْدَهُ من ورائكم وأغنى عيالى عنكم أن أؤنَّبا

وأدفع عن أعراضكم وأعيركم لساناً كمقراض الخفاجيّ مِلْحَبا

هنالك لا تجزوننى عند ذاكُمُ ولكن سيجزينى الإلهُ فيُعْقبا

ثنائى عليكم بالمَغِيب وإننى أرانى إذا صار الوَلاءُ تحزّبا

أكون أمرءاً منكم على ما ينوبكم ولن يَرَنى أعداؤكم قَرْنَ أعضبا

* * *

فإذا تمادى بنو عبدان ، وأغروا جهنام بهجاء بنى سعد بن ضبيعة ، كان الأعشى أكثر عنفا فى قصيدته

يالَقَيْسٍ لِمَا لقينا العاما ألِعبْدٍ أعْراضنا أم على ما

ليس عن بِغْضَةٍ حُذاف ولكن كان جَهْلا بذلكم وعُراما

وهو يبدأ قصيدته بقوله : يالقيس ، فكأنه يَنْشُدُهم الجد الذى يجمعهم وإياهم فى النسب ، ثم يحاول أن يصور لهم بغيهم على قومه ، الذين لم يهتكوا لهم حجابا ، ولم يُحِلّوا لهم حراما

لم نَطأْكُمْ يوماً بظلم ولم نَهْتِك حجاباً ولم نُحِلّ حراما

يا بنى المنذر بن عَبْدان والبِطْنةُ يوماً قدتَا فِنُ الأحلاما

لِمْ أمَرْتُمْ عَبْداً ليهجو قوماً ظالميهم من غير جُرْمٍ كِراما

يقول لهم : قد ذهبت البِطْنَةُ بأحلامكم ، حتى أبحتم أعراضنا لعبد . ثم يمضى بعد ذلك معدّدا نِعَم قومه على بنى عبدان ، بما أسدوا إليهم يوم حَجْر من نعمى ، إذ يُضرّمون النار ، فانحنى النخلُ الباسق ، وصار أسودَ كالنوق العجاف ، بين قائم ومُصرَع . ويوم العين — وهو يوم قُطَيْمة — إذ أغار عليهم بنو شيبان ، فغدا عليهم قوم الأعشى مهطعين ، إسراعَ العطاش إلى الماء

بِرِجَالٍ كالأُسْدِ حَرَّبها الزَجْـــر وخَيْلٍ ما تُنْكِرُ الإقداما

فقتلوهم أول النهار ، ولم يكونوا إلا كما يجمع الراعى أغنامه ، وقد تخيل المطر مقبلا ، فخاف عليها أن يفرقها ثم وَلَّوا (كما يَطْحَرُ الجَنوبُ الجَهَامَا) . ويختم ذلك بقوله

ذاك من جَبْلِكم لنا وعليكم نِعمةٌ لو شَكَرْتُم الإنعاما

ثم ينتقل إلى الفخر بقومه فهم مَسَامِيح يتيهون على السيد الذى يتفوّق على صحبه ويبذهم بالإطعام فى الشتاء القارس البرد ، حين يقع الدخان من الأنف موقع البخور ، إذ يضرب قومه القِدَاح على النِّيب حين يكره يَسْرُهُنّ وهم أصحاب القباب كأنها الهضاب ، والخيل والصِعَاد ، المطاردون عن أُخْرَى الحى إذا اشتدت الحرب ، وكشفت العذارى عن الساق والخلخال .

° °

وخير ما يمثل هذا اللون الذى يتراوح بين العنف واللين ، ويجمع بين الغضب والحنين ، والإباء والوفاء ، قصيدته فى بنى جَحدرِ بن قيس بن ثعلبة :

لمَيْثَاء دار قد تَعفّت رُسومُها عَفَتْها نضيضاتُ الصبا فَسِيلُها

يقدم للقصيده بأربعة أبيات يقف فيها بأطلال صاحبته ميثاء ، ثم يتخلص إلى غرضه . متعجبا من أمر هؤلاء القوم الذين يفتخرون عليهم ، وكأنهم ليسوا منهم :

وإنّى عَـــدَانى عنكِ لو تعلمينه مَوَازىُ لم يُنزِلْ سواى جَليلُها

مَصَارِعُ إخوانٍ وفَخْرُ قبيلة علينـــا كأنا ليس منا قبيلها

ثم يمضى مناقشا فى رفق ، قائلا : تعالو نتعاط الحق بيننا ، حتى تعرفوا أينا الملوم ، فالعلم عند ذوى النهى (كالبَلْقَاءِ بادٍ حُجُولها) . ولا يلبث أن يثور فتدركه الشدة ، ويقول : فإن لم تقبلوا فشأنكم وما تريدون ، ولِتَمُدكم

الهُجَيْم ومازن ، فعندنا شَيْبان ، وهم سادة العشيرة وحُكّامها إن دعوتهم يوما أنجدونى بكَرَادِيسَ ورِعَالٍ كأنها الجراد ، لها جَلَبة حين تنقض على العدو مثيرة عجَاجا ويعود الشاعر إلى هدوئه ، مناقشا نقاش الذى يريد أن يلزم خصمه الحجة ، فيقول أتُحِلّون لأنفسكم ما تحرمون علينا ؟ جارتكم حرام علينا ، وجارتنا حِلٌ لكم ! !

فإن كان هذا حُكْمُكُمْ فى قبيلة   فإن رَضيتُ هذا فقَلّ قليلها

ويعود الشاعر إلى شدته ، فيحلف برب الساجدين عشية ، وما صك ناقوس النصارى أبيلُها (١) ، أنه لا يصالحهم حتى يبوءوا بمثل جنايتهم وبغيهم ، ويصرخوا (صَرْخَةَ حُبْلَى يسرتَها قَبُولها) . ويقول : إن ذلك الذى يسعى للقتل ظلما ، تحدثه نفسه أنا لسنا بذى عز ، ولسنا بأكفاء له ، ليبد جَهلَةَ لا تُغتَفَر أيخبركم حُمْرَانُ أن بناتنا سيهزلن إن لم ترفع العير إلينا الميرة ؟ فعيركم أذل وأرضكم على ما تعلمون من الجَدْب والمَحْل ! ! فإن تمنعوا منا المُشَقّرَ والصَّفَا ، فنخيل الخَطّ جَم ، وخمر دَرْنَى يُحَطّ إلينا كل عشية وإنكم لتأكلون دم الفَصِيد ، وإنا لنغذو أولادنا الشحم واللبن . ويختم قصيدته بقوله :

أبِالمَوْتِ خشَّتْنِى عِبَاد وإنما   رأيتُ منايا الناس يَسعَى دليلُها
فما ميتَةٌ إن مِتُّها غيرَ عاجزٍ   بعارٍ إذا ما غالت النفسَ غولُها

* * *

ولعل من الخير ، أن أثبت النص الكامل للقصائد التى لخصتها فى حديثى السابق عن الأعشى ، لأن الديوان بطبعته الكاملة المروية عن ثعلب بشرحه غير ميسرة لكثير من القراء .

---

(١) الأبيل الذى يضرب بها الناقوس فى الكنائس

قصيدة الأعشى فى هجاء كسرى والفرس قبيل يوم ذى قار

أثوى وقصر ليلة ليزودا	ومضى وأخلف من قتيلة موعدا
ومضى لحاجته وأصبح حبلها	خلقاً وكان يظن أن لن ينكدا [١]
وأرى الغوانى حين شبت هجرننى	أن لا أكون لهن مثلى أمردا
إن الغوانى لا يواصلن امرءا	فقد الشباب وقد يصلن الأمردا
بل ليت شعرى هل أعودن ناشئاً	مثلى زمين أحل برقة أنقدا [٢]
إذ لمتى سوداء أتبع ظلها	دَدَناً قعود غواية أجرى دَداً [٣]
يلويننى دينى النهار وأقتضى	دينى إذا وقذ النعاس الرقدا [٤]
هل تذكرين العهد يابنة مالك	أيام نرتبع الستار فثهمدا [٥]
أيام أمنحك المودة كلها	منى وأرعى بالمغت المعهدا
قالت قتيلة ما لجسمك سايئاً	وأرى ثيابك باليات همدا [٦]
أذللت نفسك بعد تكرمة لها	أم كنت ذا عوز ومنتظرا غدا
أم غاب ربك فاعترتك خصاصة	فلعل ربك أن يعود مؤيدا [٧]

---

(١) نكد الماء على البناء للمجهول نزف . وناقة نكداء لا لبن فيها

(٢) يطلق العرب البرقة بضم الباء على كل أرض غليظة وبرقة أنقد إحدى برق وهى كثيرة العرب تنيف على المائة .

(٣) الددن والدد اللهو واللعب والعبث .

(٤) يلويننى يمطلننى . يقول إن له حقا على صاحباته بما بينه وبينهن من ود ومن صلات . ولكنهن يمطلنه حقه إذا طالب به نهاراً ولا يقبلن أداءه والوفاء به إلا ليلا حين ينام الناس . وقذ النعاس الرقدا صرعهم وأسكتهم وأثقلهم

(٥) الستار وثهمد مواضع ارتبع وتربع أقام فى المكان وقت الربيع يرعى إبله ما أنبتت الأرض من كلأ وعشب .

(٦) سايئه يسوء من رآه (٧) الخصاصة الفقر . ربه ولى نعمته .

ربى كريم لا يكدِّرُ نعمَةً ... وإذا يُناشَدُ بالمَهارِق أنشدا[١]

وشِملة حَرْفٍ كأن قُتُودها ... جلَّلتَه جَوْنَ السَّراة حَفيددا[٢]

وكأنها ذو جُدَّة غِب السُّرى ... أوقارحٌ يتلو نَحائِصَ جُدَّدا[٣]

أو صَعَلةٌ بالقَارَتين تَرَوَّحتْ ... رَبْدَاءُ تَتَّبع الظَّلِيم الأرْبَدا[٤]

يتجاريان ويحسبان إضاعَةً ... مُكْثَ العَشَاءِ وإن يُغبا يَفْقِدا

طوراً تكون أمامه فتفوتُه ... ويفوتها طوراً إذا ما خَوَّدا

وعُذَافِرٍ سَدَسٍ تَخَال مَحَاله ... بُرجاً تشيِّده النبيطُ القَرَمَدا[٥]

وإذا يَلُوثُ لُغَامه بسَدِيسه ... ثَنَّى فهب حِبَابَه وتزيدا[٦]

وكأنه هِقْل يبارى هِقْلةً ... رَمداء فى خيطٍ نقَانِقَ أرْمَدَا[٧]

أمسى بذى العجْلان يَقْرو روضة ... خضراء أنضَرَ نَبتُها فترأدا[٨]

أذهَبْتُه بمَهامِه مجهولةٍ ... لايهتدى بُرْت بها أن يَقْصِدا[٩]

---

(١) المهارق الصحف وربما كان فى هذا ما يشير إلى أن ممدوحة متدين بدين من الأديان السماوية. لا يكدر نعمة بالمن والأذى فنعمته صافية لا يشوبها كدر .

(٢) شملة خفيفة . حرف صلبة القتود عيدان الرحل الخفيدد السريع والظليم وهو فرخ النعام . وهو هنا يصف ناقته .

(٣) جدة سمن وبدانه وذو جدة يقصد به حمار الوحش . القارح من ذى الحافر بمنزلة البازل. من الابل وهو البعير إذا بزل نابه وذلك فى سن التاسعة النحائص جمع نحوص وهى من الأتن مالا ولد لها ولا لبن وهى أوفر نشاطا واكثر اكتنازا يشبه ناقته بحمار وحش هذه صفته

(٤) صعلة صغيرة الرأس يقصد النعامة يشبه ناقته بهـا الأربد الأبيض المشوب بسواد . الظليم ولد النعامة .

(٥) عدافر شديد السدس قبل البزول . المحالة الفقرة من فقر البعير . القرمد الجص والحجارة. الآجر والخزف المطبوخ . يشبه ناقته فى ضخامتها ببرج شيده النبيط من القرمد .

(٦) اللغام الزبد . الحباب النفاط . التزيد سير فوق العنق .

(٧) الهقل بكسر الهاء ذكر النعام الخيط بكسر الخاء الجماعة من النعام .

(٨) ذى العجلان شجر . القرو القصد والتتبع ، ترأد وارتأد اهتز واضطرب وأخذته رعدة .

(٩) المهامة جمع مهمه وهى الصحراء . البرت بضم الباء الدليل يقول إن ناقته تهتدى فى هذا الطريق المخيف الذى يخطىء فيه الدليل الخبير بمسالك الصحراء

من مبلغ كسرى إذا ما جاءه   عنى مآلك مخمشات شُرَّدا
آليتُ لا نعطيه من أبنائنا   رُهُناً فيفسدهم كمن قد أفسدا
حتى يُفيدك من بنيه رهينة   نَعْش ويرتهنك السماكُ الفرقدا
إلا كخارجة المكلف نفسه   وابنَىْ قبيصة أن أغيب ويشهدا
أن يأتياك برُهْنهم فهما إذن   جُهِدا وحُقّ لخائف أن يُجهدا
كلا يمينَ الله حتى تُنزلوا   من رأس شاهقة إلينا الأسودا
لنقاتلنكم على ما خيلت   ولنجعلن لمن بغى وتمردا
ما بين عانة والفرات كأنما   حَشّ الغُواةُ بها حريقاً موقدا
خُربت بيوتُ نُبيطة فكأنما   لم تلق بعدك عامراً متعهدا
لسنا كمن جعلت إيادُ دارها   تكريت تنظر حبها أن يُحصدا
قوماً يعالج قُمّلاً أبناؤهم   وسلاسلاً أُجُداً وباباً مؤصدا
جعل الإلهُ طعامنا فى مالنا   رزقاً تضمنه لنا لن ينفدا
مثل الهضاب جَزارةً لسيوفنا   فإذا تُراع فإنها لن تُطردا
ضمنتْ لنا أعجازُهن قدورنا   وضروعهن لنا الصريح الأجردا
فاقعد عليك التاجَ معتصباً به   لا تطلبنّ سوامنا فتعبدا
لا تحسبنا غافلين عن الـ
فلعمرُ جدك لو رأيت مقامنا   لرأيت منا منظراً ومؤيدا
فى عارض من وائل إن تلقه   يوم الهياج يكن مسيرك أنكدا
وترى الجياد الجُرد حول بيوتنا   موقوفة وترى الوشيج مسنّدا (١)

---

(١) الوشيج شجر الرماح

قصيدته فى هجاء بنى شيبان وزعيمهم يزيد بن مسهر

هُرَيْرَةَ ودعها وإن لام لائم ... غداة غدٍ أم أنتَ للبَيْن واجمُ
لقد كان فى حَوْلٍ ثواءٍ ثويتُه ... تَقَضّى لُبانات ويَسأمْ سائم (١)
مبتلةٌ هيفاءُ رودٌ شبابُها ... لها مقلتا رِئمٍ وأسودُ فاحم (٢)
ووجه نقىُّ اللون صاف يزينه ... مع الجيد لَبّات لها ومعاصم
وتضحك عن غُرِّ الثنايا كأنه ... ذُرَى أقحوان نَبْتُه مُتناعم
هى الهَمُّ لا تدنو ولا يستطيعها ... من العِيس إلا الناجياتُ الرَّوَاسِمُ
يُغنيك واعمِد لغيرها
بشِعرك واعلُب أنفَ من أنت واسِمُ (٣)
رأيتُ بنى شيبان يظهر منهم ... لقومى عمداً نغصَةٌ ومظالم
فإن تُصبحوا أدنى العَدُوِّ فقبلَكم ... من الدهر عادَتْنا الرِّباب ودارم
وسَعد وكَعب والعِبادُ وطىٌّ ... وذُودَانُ فى ألفافِها والأراقم
فما فَضّنا من صانِعٍ بعد عهدكم ... فتَطْمَعَ فينا زاهر والأصارم (٤)
ولن تنتهوا حتى تَكَسَّر بيننا ... رماح بأيدى شُجعةٍ وقوائم
وحتى يبيتَ القومُ فى الصّفِ ليلةً ... يقولون نَوِّر صُبحُ والليلُ عاتم

---

(١) ثوى أقام يقول لقد كان فى سنة كاملة أقتها ما يتسع لقضاء حاجاتى وما يكفى لأن تمل الصحبة لطولها

(٢) مبتلة لم يتراكب لحمها بعضه فوق بعض هيفاء خميصة البطن . رود ناعمة الرئم الظبى الأبيض الخالص البياض أسود فاحم يقصد الشعر

(٣) العلب الأثر

(٤) لم يفضنا أحد الفض الكسر . الصانع الحاذق أى لم يغيرنا عن أخلاقنا فكيف يطمع فينا هؤلاء القوم من زاهر والأصارم

وقوفاً وراء الطعن والخيل تحتهم ... تُشَدّ على أكتافهن القوادم

إذا ما سمعن الزجرَ يممنَ مُقدَماً ... عليها أسود الزارتَين الضراغم

أبا ثابت أو تَنْتَهون فإنما ... يَهِيمْ لعينَيهِ من الشر هائم

متى تلقنا والخيلُ تحمل بَزَّنا ... خَنَاذِيذُ منها جِلَّةٌ وصلادِم[1]

فتلق أناساً لا يَخِيمْ سلاحُهم ... إذا كان حَمًّا للصفيح الجماجم[2]

وإنا أناس يعتدى البأسَ خُلْقُنا ... كما يعتدى الماءَ الظِماءُ الحوائم

فهان علينا ما يقول ابنُ مُسْهِر ... برغمك إذ حالَّت علينا اللهازمْ[3]

يزيد يغُضُّ الطرفَ دونى كأنما ... زَوَى بين عينيه على المَحاجمْ

فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى ... ولا تلقنى إلا وأنفُك راغم

فأقسم إن جد التقاطع بيننا ... لتَصطَفِقَن يوماً عليك المآتم[4]

يقُلنَ حرام ما أُحِل بربنا ... وتَتْرُكُ أموالا عليها الخواتم

أبا ثابت لا تعلقنك رماحنا ... أبا ثابت أقصِر وعِرضُك سالم

وذرنا وقوما إن هُمُو عمَدوا لنا ... أبا ثابت واقعد فإنك ناعم

طعامُ العراق المستفيضُ الذى ترى ... وفى كل عام حُلَّة ودراهم

أفى كل عام تقتلون وتَتَّدِى ... فتلك التى تبيض منها المَقادمْ

أتأمر سيارا بقتل سَراتنا ... وتزعم بعد القتل أنك سالم؟

أبا ثابت إنا إذا تسبِقَنَّنَا ... سيرعَدُ سرح أو ينبَّه نائم[5]

---

(١) البز السلاح . خناذيذ كرام قوم حلة عظاء سادة . صلادم علاظ شداد .

(٢) يخيم يجبن . إدا كان حما أى قصدا يعنى إذا كانت الجماجم والرءوس أهداما السيوف وذلك فى الحرب .

(٣) اللهازم هم قيس بن ثعلبة قبيلة الأعشى وحلفاؤها عنزة وعجل وحنيفة . ابن مسهر هو يزيد بن مسهر أحد زعماء شيبان

(٤) الريح تصفق الأشجار فتصطفق أى تضطرب : والنساء يصطفقن على الميت

(٥) السرح المال السائم .

بمشعلةٍ يغشَى الفراشَ رشاشُها　　يبيت لها ضوءٌ من النار جاحم(١)

تَقَرُّ به عينُ الذى كان شامتا　　وتُبتَلُ منها سُرَّة ومآكم

وتُلفَى حَصَانٌ تخدم ابنة عمها　　كما كان يُلفَى الناصفاتُ الخوادم(٢)

إذا اتصلت قالت أبَكْرَ بن وائل　　وبَكرٌ سَبَتها والأنوفُ رواغم(٣)

قصيدته فى هجاء بنى المنذر بن عبدان بن حذافة بن سعد ابن قيس بن ثعلبة وشاعرهم جهنام

(١)

كفى بالذى تولينه لو تجنَّبا　　شفاءً لسُقمٍ بعد ماعاد أشيَبا(٤)

على أنها كانت تأوَّلُ حُبَّها　　تأوّلَ رِبعِيِّ السِقَابِ فأصحَبا(٥)

فتَمّ على معشوقةٍ لا يزيدُها　　إليه بلاءُ الشوق إلا تحبُّبا

وإنى أمرؤ قد بات همى قريبَتى　　تأوبنى عند الفراش تأوُّبا

سأوصى بصيراً إن دنَوتُ من البِلى　　وصاة امرىءٍ قاسى الأمور وجربا

بأن لا تَبَغّ الوُدَّ من متباعد　　ولا تنأَ عن ذى بِغضةٍ إن تقربا

---

(١) مشعلة طعنة واسعة يتفرق دمها منبثقا جاحم موقد. وكانوا يوقدون عند المطعون ليعرفوا حاله فى كل ساعة.

(٢) الحصان بفتح الحاء والحصناء والمحصنة بوزن اسم المفعول العفيفة أو المتزوجة التى أحصنها زوجها

(٣) إذا اتصلت أى أرادت أن تتوسل إلى أبناء عمها الذين سبوها بصلة النسب التى بينهم تصيح «أبكر بن وائل»، وبكر هو الجد الأكبر الذى يجمع هذه القبائل جميعاً

(٤) يقول كفى بالذى توليني من الهجر والجفاء شفاء لما أنا مريض به من حبك لو أنى عقلت فتجنبت طلابك بعد أن شبت

(٥) الربعى بكسر الراء ماولد فى الربيع ابتكرت أمه بولادته. السقاب جمع سقب بفتح السين وهو ولد الناقة أصحب انقاد

فإن القريب من يُقرّب نفسه   لعَمْرُ أبيك الخيرِ لا من تنسَّبا (١)
وإن امرءً فى حِقبة الناس هذه   وإن
متى يغترب عن قومه لا يَجِدْ له   على من له رهطٌ حواليه مُغْضبا
ويُحطَم بظلمْ لا يزال يرى له   مَصَارِعَ مظلومٍ مَجَراً ومَسْحبا
وتُدْفَنُ منه الصالحاتُ وإن يُسِئ   يكن ما أساء النار فى رأس كبْكبا (٢)
وليس مُجيرا إن أتى الحىَّ خائفٌ   ولا قائلا إلا هو المتَعَيَّبا
أرى الناس هَرُّونى وشُهِّر مَدْخلى   وفى كل مَمْشىً أرصد الناس عقربا
فأبلغ بنى سعد بن قيس بأننى   عَتَبْتُ فلما لم أجد لى مَعْتَبا
صرمتُ ولم أصرمكم وكصَارِمٍ   أخٌ قد طوى كشحا وأبَّ ليذهبا (٣)
ومثلُ الذى تولوننى فى بيوتكم   يُقَنِّى سِناناً كالقُدامى وثعْلبا
ويَبعُدُ بيتُ المرء من دار قومه   فلن يعلموا مُمساه إلا تَحسبا (٤)
إلى معشر لا يَعرفُ الوُدُّ بينهم   ولا النسبُ المعروف إلا تَنَسُّبا
أرانى لَدُنْ أن غاب قومى كأنما   يرانى فيهم طالبُ الحق أرنبا
دعا قومَه حولى فجاءوا لنصرة   وناديت قوما بالمُسَنَّاة غُيَّبا (٥)
فأرضوه أن أعطوه منى ظُلامةً   وما كنت قُلاّ قبل ذلك أزْيبا (٦)
ورُبَّ بقيع لو هتفتُ بجَوِّه   أتانى كريم ينفض الرأس مغضبا
أرى رجلاً منكم أسيفاً كأنما   يضم إلى كَشْحيه كفَّا مخضبا
وما عنده مجد تليد ولا له   من الريح فضل لا الجَنوب ولا الصبا

---

(١) يقول ليس القريب هو الذى تجمعك به صلة نسب ولكن القريب حقاً هو الذى يمنحك من الود والاخلاص ما يقربه منك .

(٢) كبكب اسم جبل .

(٣) أب ليذهبا تهيأ للذهاب

(٤) التحسب السؤال عن الخبر

(٥) المسناة ماء لبنى شيبان

(٦) أزيب غريب من حى آخر

وإني وما كلفتموني وربكم — ليعلم من أمسى أعق وأحربا
لكالثور والجني يضرب ظهره — وما ذنبه إن عافت الماء مشربا
وما ذنبه أن عافت الماء باقر — وما إن تعاف الماء إلا ليضربا[١]
فإن أنا عنكم لا أصالح عدوكم — ولا أعطه إلا جدالا ومحربا
وإن أدن منكم لا أكن ذا تميمة — يرى بينكم منها الأجالد مثقبا[٢]
سينبح كلبي جاهداً ومن ورائكم — وأغني عيالي عنكم أن أؤنبا
وأدفع عن أعراضكم وأعيركم — لسانا لمقراض الخفاجي ملحبا[٣]
هنالك لا تجزونني عند ذاكم — ولكن سيجزيني الإله فيعقبا
ثنائي عليكم بالمغيب وإنني — أراني إذا صار الولاء تحزبا
أكون امرء منكم على ما ينوبكم — ولن يرني أعداؤكم قرن أعضبا[٤]
أراني وعمراً بيننا دق منشم — فلم يبق إلا أن أجن ويكلبا[٥]
كلانا يرائي أنه غير ظالم — فأعزبت حلمي أو هو اليوم أعزبا
ومن يطع الواشين لا يتركوا له — صديقا وإن كان الحبيب المقربا
وكنت إذا ما القرن دام ظلامتي — علقت فلم أغفر لخصمي فيدربا
كما التمس الرومي منشب قفلة — إذا اجتنه مفتاحه أخطأ الشبا
فما ظنكم بالليث يحمي عرينه — نفى الأسد عن أوطانه فتهيبا

---

(١) الجني الراعي وكانوا إذا أرادوا أن يوردوا البقر الماء فعافته عمدوا ثورا فضربوه فورد. فاذا فعلوا ذلك وردت البقر يقول أنتم قد ألزمتموني ما لا ذنب لي فيه كما يضرب الثور لأن البقر تعاف الماء.

(٢) التميمة المقراض الذي يقطع به الحديد والفضة

(٣) الخفاجي نسبة إلى خفاجة بن معاوية بن عقيل ملحب قاطع

(٤) الأعضب المكسور القرن . يقول سأكون برغم إساءتكم إلي عنيفاً على أعدائكم .

(٥) منشم امرأة جعلت عطرا لها فكان صديق لها يأتيها فتطيبه فوجد زوجها ريح عطرها من صديقها فقتلها فاقتتلوا فيه حتى تفانوا . وعمرو هو جهنام شاعر بني عبد الله .

يُكِنُّ حداداً مُوجَدَاتٍ إذ مشى ... ويُخرجُها يوماً إذا ما تحرّبا
له السَّوْرَةُ الأولى على القِرْنِ إذ غدا ... ولا يستطيع القِرنُ منه تغيُّبا
علوتُكُم والشيبُ لم يَعْلُ مفرقى ... وهادَيْتُمُونى الشِّعرَ كهلا مجرِّبا

قصيدته فى هجاء بنى عبدان
وشاعرهم جهنام

يالَقَيس لما لقينا العاما ... ألِعَبْدٍ أعراضُنا أم على ما (١)
ليس عن بِغْضَةٍ حُذافَ ولكن ... كانَ جَهْلا بِذَا كُمْ وغَرَاما (٢)
لم نطأكم يوما بظلم ولم نهتك حجاباً ولم نُحِل حَراما
يا بنى منذر بن عبدان والبِطْنَةُ يوماً قد تأفِنُ الأحلاما (٣)
لمْ أمرتُم عبداً ليهجُوَ قوماً ... ظالِمِيهم من غير جُرْمٍ كراما
وابتعثتم
يومَنا بالمَسِيل فى سيِّدَيهم ... حيثُ جئتم واد
والتى تُلبِثُ الرءوسَ من النُّعمى ويأتى إسماعُها الأقواما
يومَ حَجْرٍ بما أُزِلّ إليكم ... إذ تُذَكّى فى حافتيه الضِراما (٤)
جار فيه نَافى العُقاب فأضحى ... آئِدُ النخل يفضَحُ الجُرّاما
فتراها كالخُشُنِ تسفَحُها النيرانُ سوداً مُصَّرعا وقياما (٥)

---

(١) قيس بن ثعلبة هو الجد الذى يجتمع عنده قوم الأعشى بأبناء عمهم بنى عبد الله . يناشدهم القرابة.

(٢) حذافة جد بنى المنذر بن عبد الله . وجهنام هو عمير بن عبد الله بن المنذر بن عبد الله بن حذافة ابن حبيب بن ثعلبة بن سعد بن قيس بن ثعلبة . الغرام الشراسة والشر .

(٣) تأفن الأحلام تذهب بها وتضعفها . ورجل مأفون ضعيف العقل

(٤) أزل اليه نعمة أسداها إليه . يذكرهم بما قدموا لهم من عون فى هذا اليوم حين أحرقت النخيل .

(٥) الخشناء الناقة العجفاء .

ثم بالعين عُرّةٌ تكشفُ الشمسَ ويوماً ما ينجلى إظلاما

إذ أتتكم شيبانُ فى شارق الصُّبح بكبشٍ ترى له قُدَّاما

فقَدَوْنا عليهم بَكَرَ الورْدِ كما تورد النَّضيحَ الهِيَاما [1]

برجال كالأسْد حرَّبها الزجرُ وخيلٍ ما تُنكر الإقداما

لا نقيها حدَّ السيوف ولا نأ لم جوعا ولا نبالى السهاما

ساعةَ أكبرَ النهارُ كما شدَّ مُخيل لنوئه أغناما [2]

من شباب تراهمُ غير ميلٍ وكهولا مَراجحا أحلاما

ثم ولوا عند الحفيظة والصبرِ كما يطحر الجَنُوب الجَهاما [3]

ذاك من جَبْلكم لنا وعليكم نعمةٌ لو شكرتم الإنعاما

وإذا ما القُتَارُ شبه بالآ نف يوما بشتوة أهضاما [4]

فلقد تَصلُقُ القداحَ على النِّيب إذا كان صلقهن غراما

بمساميح فى الشتاء يَخالو ن على كل فالجٍ إطعاما

وقبابٍ مثلِ الهضابِ وخيلٍ وصعادٍ حُمرٍ يَقين السماما [5]

فى محل من الثغور غُزاة فإذا خالط الغوارُ السَّواما

كان منا المطاردون عن الأخرى إذا أبدت العذارى الخِدَاما [6]

---

(١) النضيح الماء لأنه ينضح العطش والناضح المستقى عليه والهيام بكسر الهاء العطاش

(٢) مخيل راع تخيل أن فى السحاب مطراً مقبلا خشى على بهمه أن يغرقها المطر

(٣) يطحر يقل ويطرد الجنوب الريح التى تهب من الجنوب الجهام السحاب .

(٤) الهضم البخور واحدها أهضام . القتار رائحة الطعام . والشتاء وقت الجدب فى بلاد العرب ولذلك فهم يفتخرون بالجود والكرم فيه خاصة يقول إن الطبخ يقل فى الشتاء حتى إن الناس ليشمون رائحته كما يشمون البخور يقول فى ذلك الوقت تجدنا نضرب القداح على النيب وهى كبار الإبل حين يكره ذلك لشدة الحاجة إليها .

(٥) الصعاد جمع صعدة وهى القناة التى تنبت مستقيمة فتصلح لأن تكون رمحا .

(٦) الخدام جمع خدمة بثلاث فتحات وهو الخلخال والساق . يكنى بانكشاف سوق العذارى عن شدة القتال

قصيدة فى هجاء بنى جحدر بن قيس بن ثعلبه

لـمَـيْشَـاءَ دارٌ قد تَـعَفَّتْ طُـلُـولها عفتها نَـضِيضَـاتُ الصبَـا فمَسِيلُـها

لما قد تَـعَفَّى من رَمادٍ وَعرْضةٍ بكيتُ وهل يبكى إليك مُحيلُـها

لميثاء إذ كانت وأهلُـك جِـيرَة رِئَاء وإذ يُفْضِى إليكَ رسولُـها

وإذتَحسِبُ الحبَّ الدخيلَ لَـجَاجَة من الدهر لا تُـمنىَ بشىء يزيلها

وإنى عدانى عنكِ لو تعلمينه مَوازِئُ لم يُـنزل سواى جليلُـها[(١)]

مصارعُ أخوانٍ ونخرُ قبيــلةٍ علينا كأنا ليس منَّا قبيلُـها

تعالوا فإن العِـلْمَ عند ذوى النُّهَى من الناس كالبلقاء باد حُـجُولُـها

نعاطيـكم بالحق حتى تَـبَيَّنوا على أيِّنا تؤدى الحقوقَ فضولُـها

وإلا فعودوا بالـهُجَيم ومازنٍ وشيبانُ عندى جَمها وحَفيلُـها

متى أدْعُ يوماً ناصرى تأت منهم كَـرادِيسُ مأمونٌ على خُذُولها

رعالاً كأمثال الجرادِ لخيلهم عُكوبٌ إذا ثابَتْ سريعٌ نزولها[(٢)]

فإنى بحمــد الله لم أفتقدكم إذا ضم هـمَّاماً إلى حُـلُـوها

أجارَتُـكم بَسْلٌ علينا مُحَـرَّمٌ وجارتنا حِل لـكم وحليلُـها

فإن كان هذا حكمُـكُـم فى قبيــلةٍ فإن رضَيتْ هذا فقلَّ قليلها

فإنى ورب الساجدين عشية وما صكَّ ناقوسَ النصارى أبيلُـها

أصالحُـكم حتى تبوءوا بمثلها كصرخة حبلى يسرَتْها قَـبولُـها

---

(١) وزأ القوم دفع بعضهم عن بعض ووزأت الناقة به صرعته . والوزأ محركة الشديد الخلق

(٢) الرعال جمع رعلة ورعيل وهى القطعة من الخيل القليلة قدر العشرين أو الخمسة والعشرين .عكوب غبار وأصوات .

. . . . أما يحيلها

تناهيتم عنا وقد كان فيكم أساود صرعى لم يوسد قتيلها[1]

وإن امرأ يسعى ليقتل قاتلا عداء معد جهلة لا يقيلها

ولسنا بذى عزة ولسنا بكفئه كما حدثته نفسها ودخيلها

ويخبركم حمران أن بناتنا سيهزلن إن لم يرفع العير ميلها[2]

فعيركم كانت أذل وأرضكم كما قد علمتم جدبها ومحولها

فإن تمنعوا منا المشقر والصفا فإنا وجدنا الخط جما نخيلها[3]

وإن لنا درنى فكل عشية يحط إلينا خمرها وخميلها[4]

فإنا وجدنا النيب إن تفصدونها يعيش بيننا سيئها وجميلها[5]

أبا لموت خشتنى عباد وإنما رأيت منايا الناس يسعى دليلها

فما ميتة إن متها غير عاجز بعار إذا ما غالت النفس غولها

---

(١) الأساود الجماعة من الناس

(٢) يقصد إن لم يرفع أميال الطريق الينا العير بالميرة

(٣) المشقر مدينة هجر وهى مشهورة بالتمر الصفا بالبحرين الخط أرض عبد القيس واليها تنسب الرماح . يقول إنهم يستغنون عن تمر هجر والصفا بالخط فنخيلها كثير

(٤) درنى باليمامة مشهورة بالخمر الخميل الثريد والطعام

(٥) السيء اللبن ينزل قبل الدرة ويكون فى أطراف الأخلاف . الجميل ذوب الشحم . يقول إذا أكلتم دم الفصيد فنحن نغذو أولادنا اللبن والشحم

الهجـــاء الديني

هذا قسم من أقسام الهجاء السياسى ، صاحب الحركة الإصلاحية الخطيرة ، التى بدأت فى الجزيرة بظهور النبى صلى الله عليه وسلم ، ودعوته إلى دين جديد . فقد كان للإسلام إلى جانب صفته الدينية صفة سياسية ، تهدف إلى توحيد الجزيرة ، وخلق دولة كبيرة منها ، تخضع لسلطة مركزية واحدة . والمتتبع لهذه الحركة منذ نشأتها ، يعجب للمقدرة الفذة التى نظمتها وأدارت دفتها ، حتى بلغت بها فى أقصر وقت ، إلى هذه الدرجة من النجاح الكامل والفوز المحقق . وليس من شك فى أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان من أنضج العقليات السياسية التى عرفها التاريخ ، رحل عن مكة حين وجد المعارضة الشديدة ، إلى حيث استطاع أن يأمن على نفسه وصحبه . وكان همه الأول أن يوحد صفوف حزبه ، ويجعل منهم كتلة متماسكة . فهو يؤاخى بين المهاجرين والأنصار ، وينهى عن العصبية ، ويصلح بين الأوس الخزرج ، فيزيل آثار الثارات والعداوات . فإذا تم له توحيد الصفوف بدأ نشاطه السياسى ، واحتال لأعداء الدعوة ، يتخلص منهم واحدا وحدا

كان اليهود كثرة فى المدينة ، فهو يهادنهم ، ثم يتخلصُ منهم دفعة بعد دفعة . كلما نقض فريق منهم عهده أجلاه فلما تم له توحيد المدينة ، وأصبحت كتلة مسلمة ليس بينها دخيل ، بدأ سياسته الخارجية ، وكانت مكة أول هدف يرمى إليه . فهو يريد أن يستولى على عاصمة عدوه ، ويضع يده على أقدس البقاع عند العرب ، وقد علم ما سيكون لذلك من أثر أدبى كبير فى كل أنحاء الجزيرة . وهو يحتال لأمره ، فلا يندفع مهاجما ، ولكنه يعجم عود عدوه ، فيزور مكة معتمرا ، ويقرر أنه لا يريد حربا ، وأنه لم يأت إلا زائرا لهذا البيت معظما له ، ويقنع فى هذه المرة بعقد صلح الحديبية ، وهو كسب سياسى

محقق ، أقل مافيه الاعتراف الصريح بالدولة الإسلامية الناشئة .

وهو لا يشغل نفسه بالحرب مع عدوين فى وقت واحد ، فهو يهادن مكة ، ريثما يتخلص من اليهود الذين أجلاهم عن المدينة فاستقروا فى خيبر يتربصون به الدوائر . فإذا تم له إخضاعهم وأمن شرهم ، ظل يترقب مكة لأول فرصة تنقض فيها العهد ، وهو يعلم أن ذلك واقع لامحالة ، فى حياة تعتمد على الغارة والغزو فإذا نجح فى الغزو تحقق تقديره ، وأقبلت وفود العرب تترى مبايعة

وهو يصطنع الأحزاب السياسية ، ويختار دعاتها من الشعراء ، فقد علم أنه لا ينهض للرد على شعر المشركين أمام الجماهير إلا شعر مثله . فهم يردون على الكفار بنفس أسلوبهم فى التعيير بالأنساب والأيام . فإذا تمت للمسلمين الغلبة نهى عن رواية الشعر القديم . الذى تبادلوه مع أعداء الأمس وأصدقاء اليوم . وعفى على الضغائن القديمة بالصفح الجميل ، لا غالب ولا مغلوب ، فهم جميعا إخوان فى الدين ، وعفا الله عما سلف .

وقد علم بثاقب فكره وبعيد نظره . أن لا ثبات للإسلام فى هذه الجزيرة القاحلة الفقيرة ، إلا أن يزيل الدولتين الكبيرتين الغنيتين على أطرافها ، الفرس والروم . ولكنه لا يتعجل ، فهو يستجم سنتين بعد فتح مكة ، يتهيأ لهذه المهمة الكبيرة بتوحيد كتلة المسلمين ، وقد اتسعت رقعتها حتى شملت معظم الجزيرة . فهو لا يجبر أصحاب الديانات السماوية القديمة على اعتناق الإسلام كما يفعل بالكفار ، ولا يضطهدهم ، ولكنه يبدلهم بأرضهم أرضا فى أطراف الجزيرة ، حتى يجعل من الجزيرة كتلة متماسكة متحدة ، تدين بدين واحد ثم هو لا يفرض على المسلمين عقائد الدين فقط ، ولكنه يوحد بينهم فى القوانين المدنية التى تحكمهم ، فهى جزء لا يتجزأ من الدين ، وهى حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . وبذلك أصبحت هذه القبائل

المبعثرة المتفرقة ، تدين لسلطة مركزية واحدة ، ويحكمها لأول مرة فى التاريخ قانون واحد فى العقوبات والمعاملات .

وقد حرص النبى صلى الله عليه وسلم على أن لا يفجأ قومه بالتشريع دفعة واحدة . فهو يعتمد على تقاليدهم القديمة، ولكنه يحتال فى توجيهها وتهذيبها، ويتلطف فى قيادتها للخير . فالكعبة هى هى ذلك المكان المقدس ، ولكنه يزيل منها الأصنام ، ويقر سدانتها فى الجاهلية على سدانتها فى الإسلام . والرق هو هو لا يلغيه ، ولكنه يخففه ، ويضع له القيود ، ويرد على صاحبه إنسانيته ، فهو أخ فى الله . والثأر يتركه كما كان من حق صاحبه ، ولكنه ينهى عن الغلو فيه ، ولا يزال يحبب إليهم العفو . حتى يصير العفو أحب إلى أحدهم من القصاص . والحياة البدوية التى تقوم على الغزو والنهب باقية كما هى ، بتقاليدها فى السبى والغنائم ، ولكنه يوجهها نحو العدو ، وينتفع بها فى نشر الرسالة

فالإسلام — وهو الدين العربى — كان متأثرا بالمثل الجاهلية إلى حد بعيد . وتأثره بهذه المثل واضح من عدة نواح . فهو دين واقعى . يعرف أن الناس لا يستطيعون أن يتخلصوا من بشريتهم ليعيشوا فى عالم المثل وفى آفاق الكمال ، فيقرر أن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة . ولازمة من لوازمها ، لا يتم بدونها العمران (ولولا دَفعُ الله بَعضَهُمْ بَبعض لفَسَدَت الأرض . ولكنَّ اللهَ ذو فَضلٍ على العَالمين — بقرة ٢٥١) (وآتَينَا عيسى بنَ مريمَ البَيِّنَات وأيدنَاهُ بِرُوحِ القُدُس ولو شاء الله ما اقتَتَلَ الذين من بَعدِهِم مِن بَعْدِ ما جاءَتهُم البَيِّنَات. ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كَفَر . ولو شاء الله ما اقتتلُوا ولكنَّ اللهَ يَفعَلُ ما يزيد — بقرة ٢٥٣) . ولذلك فهو يطلب إلى المسلم أن يكون قويا مستعدا للقتال (فإذا لقيتمُ الذين كفَروا فَضَربَ الرِّقَاب. حتى إذا أثخَنتُمُوهُم فشُدُّوا الوثَاق . فإما مَنًّا

بَعدُ وإما فِداءً حتى تَضَعَ الحربُ أوزارَها ، ذلك ولو يشاءُ اللهْ لانتَصرَ منهم . ولكنْ لِيَبلُوَ بعضَكم ببعض . والذين قُتِلوا فى سبيل الله فلن يُضِلَّ أعمالَهم — محمد ٤) (فإما تَثْقَفَنَّهُم فى الحرب فَشرِّدْ بهم من خلفَهُم لعلَّهم يَذَّكرون . — الأنفال ٥٧) (وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرْهِبون به عدُو الله وعدو كم — الأنفال ٦٠) (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحرِّمُون ما حرَّمَ اللهْ ورسولُه ولا يَدِينُونَ دِينَ الحقِّ من الذين أُوتُوا الكتابَ حتى يُعطوا الجزْيَةَ عن يَدٍ وهُم صاغرون — التوبة ٢٩) فالإسلام حريص على أن يكون لكل مسلم صفة المقاتل ، حتى إنه ليكفر من دعى للجهاد فلم يلب (ليَعْلَمَ الذينَ نافقوا وقيل لهم تَعالَوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفَعُوا قالوا لو نَعلَمْ قِتالا لاتَّبَعْناكُمْ هم للكفر يومئذٍ أقربُ منهم للإيمان — آل عمران ١٦٧) .

وليس من شك فى أن الإسلام قد حث على الرحمة والإحسان والعفو فى أكثر من موضع ، ولكنه طلب من المسلم أن يكون قويا أولا ، قادرا على أن يدفع عن نفسه أو يقتص ممن يعتدى عليه ، وله بعد ذلك أن يعفو إن شاء . فالرحمة لا تعرف الطريق إلى قلب الضعيف الخائر ، والعفو والإحسان لا تحتويهما نفس الجبان فرحمة الضعيف ذلة ومهانة ، وعفوه وإحسانه ضراعة واستكانة .

(فما أُوتِيتُمْ من شىءٍ فمتاعُ الحياة الدنيا . وما عِندَ الله خَيْرٌ وأبْقَى للذين آمنوا وعلى ربهم يَتوكَّلون ، والذين يَجتَنِبُون كبائرَ الإثْم والفَواحِش وإذا ما غَضِبُوا هم يَغفِرُون ، والذين إذا أصابَهُم البَغْىُ هم يَنْتَصِرُون وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها . فمن عفا وأصلحَ فأجْرُهُ على الله . إنه لا يُحِبُّ الظالمين . ولَمَن انتَصَرَ من

بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق . أولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور — شورى ٣٦ إلى ٤٣) وقد أعلى الإسلام من قدر الذين يموتون فى الحروب دفاعا عن الدعوة ، فسماهم الشهداء ، وقال فيهم (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) قال صاحب العقد : وكانوا يتمادحون بالموت قطعا ، ويتهاجون بالموت على الفراش ، ويقولون (مات فلان حتف أنفه) ، وأول من قال ذلك النبى صلى الله عليه وسلم [١] ويروى صاحب العقد أن النابغة الجعدى أنشد بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم قصيدته .

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا   وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فلما وصل إلى قوله :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له   بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

قال له النبى صلى الله عليه وسلم (لا يفضض الله فاك) [٢]

كل ذلك يصور بجلاء أن المثل الأسلامية قد ظلت — إلى حد كبير — تعتمد على القوة كما كانت فى الجاهلية ، ونستطيع أن نقول إن الإسلام لم يكن له أثر كبير فى تطور فن الهجاء أو غيره من فنون الشعر فالعرب — فى معظمهم — لم يدخلوا فى الإسلام عن إيمان واقتناع ، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، فدانوا للغالب كارهين . وقد صور القرآن حال البدو منهم — وهم الكثرة الغالبة — (قالت الأعراب آمنا . قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) وما هو إلا

---

(١) العقد الفريد ١ ٨١ .

(٢) العقد الفريد ١ ٨٦ . الفض الكسر يدعو له بأن تسلم له أسنانه ، ليسلم له النطق ويظل على براعته فى الخطابة . وهو دعاء شبيه بما نقوله الآن إذا أعجبنا كلام (يسلم فمك)

أن مات النبي . حتى ارتد العرب ، ونزعوا الإسلام من أعناقهم ، حتى احتاج أبو بكر إلى أن يجاهد فى نشر الدعوة من جديد .

ونحن لا نغض من الإسلام أو تعاليمه ، حين نقرر هذه الحقيقة . فذلك شأن حركات الإصلاح الكبيرة التى تسبق زمانها ، وشأن العباقرة الأفذاذ من المصلحين الذين يعظم الفارق بينهم وبين أهل عصرهم وليس على المصلح من حرج فى أن يحمل الناس على مذهبه حملا ، ويسوقهم إليه سوقا . بل إن واجبه ، وإيمانه العميق برسالته ليقتضيه ذلك ويوجبه عليه . فالمجتمع فى حال جهله سفيه محدود النظر والتفكير ، والمصلح كالأب الذى يقسو بدافع من الرحمة ، ويزجر ليحمل على الصواب وإن الناس ليقاومون المصلحين فى أول أمرهم ، فإذا مضت الأعوام . وتهيأت عقولهم لفهم دعوتهم . وأشربتها قلوبهم ، فتنوا بها وبصاحبها ، وعجبوا لموقفهم فى حال جهلهم وضلالتهم

لم يفهم العرب من النبوة إلا أنها نوع من الملك ، ومحاولة بسط السلطان ، وفرض الطاعة على الناس . ولم يفرقوا بين الزكاة التى كان يجمعها النبي من المسلمين ، وبين الإتاوة التى كان يجبيها ولاة اليمن أو الفرس . فقد كان أول مظهر من مظاهر الإسلام أن يرسل النبي مع الوفد الذى يقدم للمبايعة عاملا لجمع الزكاة . وكان أول مظهر من مظاهر الارتداد عن الإسلام بعد وفاة النبي امتناع العرب عن أداء الزكاة . وقد ظل عبد الله بن أبيّ طول حياته على بغض النبي ، والكيد له ، والحسد لما نال من مكان فى قلوب الناس ، لأنه كان يراه ملكا غلبه على قومه ، وسلبه مكانه منهم ، وكانوا قد هموا — فيما يروى الرواة — أن يتوجوه قبل مقدم النبي [١] وكان اليهود يسمون النبي ملك الحجاز [٢] وأبو سفيان بن حرب يقول للعباس ، وقد عرضت عليه جيوش المسلمين يوم الفتح : والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك

---

(١) السيرة ٢ ٢٣٤

(٢) السيرة ٣ ٣٥١

ابن أخيك الغَدَاةَ عظيما . فيراجعه العباس قائلا : إنها النبوة يا أبا سفيان . فيجيب ممارياً "فنعَمْ إذَنْ"[1] وقد بعثه الرسول بعد ذلك مع المغيرة بن شعبة ليهدم اللات ، فهاب أن يفعل ذلك بيده ، وقدم المغيرة قائلا : ادخل أنت على قومك[2] ولم يكن إسلام ثقيف اقتناعا بصحة الإسلام ولا حبا فيه ، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، ورأوا أن الدعوة قد انتشرت فى الجزيرة ، وأخذتهم من كل مكان ، فلم يعد لهم طاقة بدفعها أو جهادها . وهم إذا قدموا على النبي أبوا أن يحيوه إلا بتحية الجاهلية . ثم هم يقيمون فى قبة بعيدا عن النبي ، ويمشى بينهم خالد بن سعيد بن العاص حتى يكتبوا كتابهم . وهم لا يأكلون من طعام يُقَدَّمُ إليهم حتى يأكل منه خالد وهم يسألون الرسول أن يدع لهم الطاغيه — وهى اللات — لا يهدمها ثلاث سنين ، فيأبى الرسول عليهم ذلك . ويستعفونه من كسر أوثانهم بأيديهم ومن الصلاة . فلا يقبل منهم شيئا من ذلك . حتى إذا ضاقت بهم السبل ، ولم يروا إلا النزول على ما يريد ، قالوا له : يا محمد ! سنؤتيكها وإن كانت دناءة .[3] ولما قدم وفد بنى عامر على النبي ، اشترطوا لنصرته أن يكون لهم الأمر من بعده[4]. ولم تكن تميم أصلح حالا من ثقيف أو بنى عامر . فقد قدم وفدهم على النبي مفاخرا منافرا ، ثم أسلموا حين نفر عليهم النبي بشاعره وخطيبه .[5] ولم تكن قصيدة حسان التى نفر عليهم بها إلا مدحا على طريقة الجاهليين :

قومٌ إذا حاربوا ضَرُّوا عدُوَّهُـمُ ... أوحاولوا النفعَ من أشياعِهم نفعوا

لا يَرْقَعُ الناسُ ما أوْهَتْ أكفُّهُمُ ... عند الدِّفاعِ ولا يُوهُونَ ما رَقَعُوا

إن سابقوا الناسَ يوماً فازَ سَبْقُهُمْ ... أو وازَنُوا أهلَ مَجْدٍ بالنَّدَى مَنَعُوا

(١) السيرة ٤ ٤٧ — (٢) السيرة ٤ ١٨٦

(٣) السيرة ٤ ١٨٤ — (٤) السيرة ٢ ٦٦

(٥) السيرة ٤ ٢١٠ ، ابن الأثير ٢ ١٩٥

لا يَبْخَلُون على جار بفضلهم ولا يمسّهم فى مَطمع طَبَعُ

وقد كانت الشعراء تمدح النبي بما تمدح به الملوك والسادة ، من الشجاعة والوفاء، والبطش بالأعداء ، وسعة العطاء . يمدحه أنس بن زنيم بن مالك فيقول [١].

وما حملَتْ من ناقةٍ فوق رَحْلها أبرَّ وأوفى ذِمّة من محمد
أَحثَّ على خير وأسبَغَ نائلاً إذا راح كالسيف الصقيل المُهنَّد
وأكسى لبُرد الخال قبل ابتذاله وأعطى لرأس السابح المُتجرِّد

ويمدحه مالك بن عوف فيقول [٢] :

ما إن رأيتُ ولا سمعت بمثله فى الناس كلِّهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ومتى تشا يُخبرْك عما فى غد
وإذا الكتيبةُ عردَتْ أنيابها بالسمهرى وضرب كل مهنّد
فكأنه ليث على أشباله وسط الهباءة خادر فى مَرصد

فالإخبار عما فى غد هو كل ما يفهمه من النبوة .

وقصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) لاتختلف كثيراً عن قصائد النابغة فى الاعتذار . يقول فيها :

لقد أقوم مَقاماً لو يقوم به أرى وأسمع ما لو يسمَعُ الفيل
لظل يُرعَدُ إلا أن يكونَ له من الرسول بإذن الله تَنْوِيلُ [٣]
حتى وَضعتُ يمينى لا أُنازعه فى كفّ ذى نَقِمات قِيلُه القِيل
فلهو أخوَفُ عندى إذ أكلّمه وقيل إنك مَنسُوب ومسئول [٤]

---

(١) السيرة ٤ ٦٩ (٢) السيرة ٤ ١٣٤

(٣) يقول إن الفيل على ضخامته لو قام مقامه لظل يرتعد خوفا حتى يكون له بإذن الله تأمين من الرسول يسكن روعه .

(٤) منسوب إلى أمور صدرت منه ومسئول عنها

من ضيغمٍ بضراء الأرض مُخدرُه ... ببطن عثَّر غيلٌ دونه غيلُ [١]

يغدو فيلحم ضرغامين عيشُهما ... لحمٌ من الناس معفورٌ خراديل [٢]

إذا يُساور قِرناً لا يحلُّ له ... أن يترك القرن إلا وهو مفلول [٣]

منه تظل سباعُ الجو نافرةً ... ولا تمشي بواديه الأراجيل [٤]

ولا يزال بواديه أخو ثقةٍ ... مُضرَّجُ البز والدرسان مأكول [٥]

فى عصبةٍ من قريشٍ قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا

وليس صحيحا ما يقال من أن العصبية الجاهلية قد سكنت فى حياة النبي إلى حين ، ثم استؤنفت بعد موته ، فالواقع أن العصبية قد استمرت حادة عنيفة فى حياة النبي وبعد موته ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم ، قد استطاع بحكمته وحسن تدبيره ، أن يتفادى شرورها ، ويحسن استغلالها لصالح الدعوة ، ويحولها فى بعض الأحيان إلى تنافس فى السبق إلى تدعيم الدين الجديد ونصرته ، والأدلة على ذلك كثيرة فى كتب السيرة

نهى النبي أصحابه فى وقعة أحد أن يقتلوا بنى هاشم ، ونهاهم أن يقتلوا عمه العباس ، فقال رجل من الانصار اسمه أبو حذيفة أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواتنا وعشيرتنا ونترك العباس ؟ والله لئن لقيته لألحمنَّه السيف . وبلغ قوله النبي ، فدعا إليه عمر وقال : يا أبا حفص ! أيُضرَبُ وجهُ عم رسول الله بالسيف ؟ فقال عمر يارسول الله دعنى فلأضرب عنقه بالسيف

---

(١) ضيغم أسد . ضراء الأرض التى فيها شجر المخدر غابة الأسد . عثر مكان مشهور بكثرة السباع . الغيل الشجر الملتف

(٢) يغدو يخرج أول النهار فى طلب الصيد يلحم يطعم أشباله اللحم . الضرغامين يقصد بها شبلية . معفور ملقى فى التراب . وصفه بذلك لكثرته وعدم اكتراثه به لشبعه خراديل قطع صغار .

(٣) يساور يواثب . مفلول مكسور مظلوم

(٤) الأراجيل الجماعة من الرجال . وهى جمع أرجال . وأرجال جمع رجل ورجل اسم جمع لراجل .

(٥) أخو ثقة الشجاع الواثق بشجاعته . البز السلاح الدرسان بضم الدال أخلاق الثياب جمع دريس.

فقد نافق [١] والعباس عم النبي قد حزن واكتأب حين أشاع الناس فى مكة أن النبي غُلِبَ فى فتح خُنَيْد وأسر ، وإنما حزن عصبية لابن أخيه ، لأنه كان وقتذاك على شركه لم يسلم [٢] . ثم هو بعد ذلك يجير أباسفيان يوم الفتح ، ويغضب له ، حين يلح عمر فى قتله ، فيرد عليه قائلا : مهلاً يا عمر ! فوالله لو كان من بنى عَدِىّ بن كعبٍ ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف [٣] وأجار كثير من المسلمين بعض أقربائهم من أهل مكة يوم الفتح [٤] . واحتمى معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بعثمان ابن عفان فى المدينة بعد وقعة أحد ، فجهزه بعد أن سأل رسول الله فيه [٥] . ولقى ضرار بن الخطاب يوم أحد عمر بن الخطاب ، فى الجولة التى جالها المسلمون ، وكان قد آلى أن لا يقتل يومئذ قرشياً ، فضربه بعارضة سيفه وقال انج يابن الخطاب لاأقتلنك [٦]

وأمر النبي سعد بن عبادة فى فتح مكة أن يدخل ببعض الناس فى كداء ، فسمعه بعض المهاجرين يقول وقد مضى لوجهه : اليومَ يومُ المَلْحمَة . اليَوْمَ تُستَحَلُّ الحُرْمَة . ! فذهب بها إلى رسول الله ، وشكا إليه خوفه على أهل مكة منه ، فعزل النبي سعد بن عبادة ، وولى مكانه عليا [٧] ودخل خالد بن الوليد على بنى جذيمة (من كنانة) بعد الفتح ، فنال منهم بغير إذن النبي ، وكان قد بعثه داعيا للإسلام ، ولم يأمره بقتال . وإنما قتلهم بثأر قديم لعمه الفاكه بن المغيرة . وقد برىء رسول الله من عمله ، واستقبل القبلة قائما شاهرا يديه يقول : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد . وأرسل عليا لتلافى الأمر ، ومعه ديات القتلى ، وقال له : اخرج إلى هؤلاء القوم ، وانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك [٨]

---

(١) السيرة ٢ ٢٨١
(٢) السيرة ٢ ٣٦١
(٣) السيرة ٤ ٤٥
(٤) السيرة ٤ ٥٣
(٥) إمتاع الأسماع ١ ١٦٦
(٦) ابن سلام : ٩٨
(٧) السيرة ٤ ٤٩
(٨) السيرة ٤ ٧٢

وقد ظل التنافس قائما بين المهاجرين والأنصار قبل الفتح وبعده . ولم يزل حسان يفتخر فى شعره بقومه ، وبنصرهم الرسول ، وبأيامهم معه ، وبمجدهم قبل ذلك فى جاهليتهم ، فلما نال من قريش حين قال

أمسىَ الجَلاَبيبُ قد عَزُّوا وقد كَثُرُوا
وابنُ الفُرَيْعَة أضحى بَيْضةَ البَلَد

انطلق إليه صفوان بن المُعَطَّل وجُعَيْلُ بن سُراقة ، فضربه صفوان حتى كاد يقتله . واشتكى حسان إلى النبى ، فأمر بحبس صفوان ، وأن يُقاد بحسان إن مات . ثم مشى سعد بن عبادة بين قومه حتى عفوا عنه ، تقربا إلى النبى[١] وخاصم المسلمون كعب بن مالك حين تخلف عن غزوة تبوك ، فظل خمسين يوما لا يكلمه منهم أحد فلما تاب الله عليه ورُد إليه اعتباره ، لم يقم إليه من المهاجرين مهنئا إلا طلحة بن عبيد الله [٢] وظهرت آثار هذا التنافس واضحة بعد موت النبى ، فى انحياز الأنصار إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة ، وانحياز المهاجرين إلى أبى بكر[٥] . وأرسل ضرار بن الخطاب وعبد الله بن الزبعرى فى طلب حسان ليناشداه ويذاكراه ، فظلا ينشدانه . حتى إذا غلا كالمرجل ، قعدا على رواحهما فشكاهما حسان إلى عمر ، فردهما عليه ، وأمره أن ينشدهما مثل ما أنشداه [٦] . وروى صاحب العقد أن رجلا من اليمن دخل الكوفة ، فأتى المسجد ، فإذا عَمار بن ياسر ، ورجل ينشده هجاء معاوية وعمرو بن العاص ، وهو يقول — ألصِقْ بالعَجُوزَيْن فقال له اليمنى سبحان الله ! أتقول هذا وأنتم أصحاب الرسول ؟ قال إن شئت فاجلس ، وإن شئت فاذهب . فجلس الرجل . فقال : أتدرى ما كان يقول لنا رسول الله لما هجانا أهل مكة ؟ فقال : لا أدرى . قال : كان يقول لنا « قولوا لهم مثل ما يقولون لكم » [٧] .

---

(٣) إمتاع الأسماع ١ ٢١١
(٤) السيرة ٤ : ١٨٠
(٥) السيرة ٤ ٣٠٦
(٦) ابن سلام ٩٤
(٧) العقد الفريد ٦ ١٤٦

كل هذا يثبت بشكل قاطع ، أن النزعة العصبية لم تفتر بظهور الإسلام ولم تضعف ، بل استمرت حاده عنيفة ، وإنما ضبطها ومنعها أن تشذ فتفسد الدعوة ، شخصية النبي القوية ، وبعد نظره ، وحسن تدبيره للأمور .

وقد أثار الإسلام فى العرب حركة فكرية عنيفة لا عهد لهم بمثلها ، وصور القرآن جانبا منها فيما روى من حِجَاج الكفار ورده عليهم كان النضر بن الحارث إذا جلس رسول الله فى مجلس ، فذكَّر فيه بالله ، وحذَّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه فى مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه ، فهلم إلى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه . ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسبنديار — وكان قد قدم الحيرة فتعلمها بها — ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا منى ؟ (١) وجلس رسول الله يوما مع الوليد بن المغيرة فى المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم فى المجلس ، وفى المجلس غير واحد من قريش ، فتكلم رسول الله . فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله حتى أفحمه ثم تلا عليه وعليهم (إنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُون . لو كان هؤلاء آلِهَةً ما وَرَدُوهَا وكُلٌ فيها خالدون . لهم فيها زَفِير وهُمْ فيها لايسمعون) ثم قام رسول الله ، وأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمى حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعرى : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً ولا قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال عبد الله بن الزبعرى : أما والله لو وجدته لخصمته ، فسلوا محمدا ، أكُلُّ مايعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد عيسى بن مريم ! فعجب الوليد ومن كان فى المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم (٢)

---

(١) السيرة ١ ٣٢١ (٢) السيرة ١ ٣٨٤

وقد أدرك النبي قيمة هذه الحرب الكلامية ، وما تترك من أثر فى نفوس الناس ، فنظم الدعاية حول الدين ، وعنى بالرد على شعراء قريش ، نادبا لذلك بعض الشعراء من المسلمين ، فكان الهجاء والقتال متلازمين فى نشر الدعوة ، كما يقول حسان :

لنـا فى كل يوم من مَعَـدٍّ سِبابٌ أو قتالٌ أو هجـاء
فنُحكِم بالقوافى من هجانا ونَضرِب حين تختلِط الدماء

كان النبي يختار الشعراء الذين يذودون عن الدعوة بنفسه . نادى عبد الله ابن رواحة فقال له : كيف تقول الشعر إذا قلت ؟ قال : أنظر فى ذلك ثم أقول . قال : فعليك بالمشركين ! فقال قصيدته (١).

فخَبِّرُونِيَ أثمانَ العَبَاءِ متى كُنتُم بَطارِيقَ أو دانت لكم مُضَرُ ؟

ولما انهزم المشركون يوم الأحزاب ، قال رسول الله صلى عليه وسلم . إن المشركين لن يغزوكم بعد اليوم ، ولكنكم تغزونهم ، وتسمعون منهم أذى، ويهجونكم، فمن يحمى أعراض المسلمين ؟ فقام عبد الله بن رواحة فقال: أنا.فقال: إنك لحسن الشعر . ثم قام كعب فقال :أنا . فقال : وإنك لحسن الشعر (٢) . وروى عن النبي أنه قال أمرت عبد الله بن رواحة فقال : وأحسن ، وأمرت حسان فشَفَى واشْتَفَى (٣) . ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بباب كعب بن مالك ، فخرج فأنشده ، ثم قال : إيه ! فأنشده . ثم قال : إيه ! فأنشدة . ثلاث مرات . فقال رسول الله : هـذا أشدُّ عليهم من وقع النبل (٤)

وقد قام النبي بنفسه على الشعر يشرف عليه ويصلحه . قال لكعب بن مالك فى قصيدته (مُجَالَدُنا عَنْ جِذْمِنا كُلَّ فَخْمَةٍ) أيصلح أن

(١) ابن سلام ٨٧
(٢) الأغانى ١٥ ٣٠
(٣) الأغانى ١٥ : ٢٩٠
(٤) الأغانى ٥ ٣٠

تقول (مُجَالَدُنا عن دِينِنا) قال : نعم . فقال الرسول : فهو أحسن [١].
وعلم ما يحدث شعر الكفار من أثر فى نفوس المسلمين إذا تكرر سماعهم
له، فنهاهم عن الجلوس إليهم والاستماع لقولهم (وإذا رأيتَ الذين يَخُوضُونَ
فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يَخُوضُوا فى حديثٍ غيرِه . وإمّا
يُنسِيَنَّكَ الشيطانُ فلا تَقعُدْ بعد الذكرى مع القومِ الظالمين —
الأنعام ٦٨) وأبطل رواية بعض الشعر قال صاحب الخزانة إن النبي نهى
عن رواية قصيدة أمية بن أبى الصلت

(ماذا بِبَدرٍ فالعَقَنقَلِ من مرَازِبَة جحَاجِح)

التى يحرض فيها قريشا بعد وقعة بدر [٢]. وقد رواها ابن هشام ، وأولها.

ألا بَكَيْتَ على الكِرَام بنى الكِرَام أولى المَمادِح

وقال فى آخرها تركنا منها بيتين ، نال فيهما من أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم [٣] ونهى عن رواية الشعر الذى هُجِى به أصحابهُ .
قال صاحب الخزانة بعد أن روى أبياتا من قصيدة الأعشى :

شاقتك من قَتْلَةَ أطلالها بالشَطِّ فالوِترِ إلى حاجِرِ

وهى التى يهجو فيها علقمة بن علاثة ، ويمدح ابن عمه عامر بن الطفيل ،
فى المنافرة المشهورة التى كانت بينهما . قال بعد أن روى من القصيدة أبياتا :
وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن رواية هذه القصيدة ، ولهذا لم أذكرها
كلها [٤] وأهدر النبى صلى الله عليه وسلم دم بعض الهجائين من المشركين ،
فمن أمر بقتله عصماء بنت مروان من بنى أمية بن زيد ، كانت تعيب الإسلام
وتحرض على النبى ، وتقول فى ذلك شعرا ، قتلها عمير بن عدى بن

(١) السيرة ٣ : ١٤٣ ، الأغانى ١٥ ٣٠
(٢) خزانة الأدب ١ ١٨٢ .
(٣) السيرة ٣ ٢١
(٤) خزانة الأدب ٢ ٣٦٦

خرشة (١) وكذلك أبو عفك اليهودى ، قتله سالم بن عمير بن ثابت (٢) ، وكعب بن الأشرف اليهودى ، كان يهجو النبي وأصحابه ، ويحرض عليهم كفار قريش فى شعره ، ثم خرج إلى مكة بعد بدر ، لجعل يرثى قتلى بدر ، ويحرض قريشا ، وعاد إلى المدينة ، فقال النبي : اللهم اكفنى ابن الأشرف بما شئت ، فى إعلانه الشر ، وقوله الأشعار ثم قال : من لى با ابن الأشرف ، فقد آذانى ؟ فقال محمد بن مسلمة أنا به يا رسول الله ، وأنا أقتله . قال : فافعل (٣) . ولما جاءت اليهود للنبي تشكو قتله . قال لهم ، لو قر كما قد قر غيره ممن هو على مثـــل رأيه ما اغتيل ، ولـكنه نال منا الأذى ، وهجانا بالشعر ، ولم يفعل ذلك أحد منكم إلا كان السيف (٤)

وكان ممن أمر الرسول بقتله عند الفتح عبد الله بن خطل وكانت له قينتان تغنيان بهجاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأمر بقتلهما معا ، فقتلت إحداهما ، وفرت الأخرى حتى استؤمن لها النبي فأمنها (٥) . ولم يقف تشجيع النبي للحركة الأدبية عند الشعراء ، بل تعداهم إلى الخطباء قال الجاحظ يُعَدّ من الخطباء من الأنصار ثابت بن قيس بن شماس خطيب النبي (٦) وهو الذى تولى الرد على خطيب تميم حين قدموا على النبي يفاخرونه (٧)

وقد كان أثر هذه العناية بالدعاية للدين واضحا فى نمو فن الهجاء وعنفه ، ولـكنه لم يترك أثرا واضحا فى أسلوب هذا الفن ، فقد ظل كما كان جاهليا فى صميمه ، معتمدا على الأنساب ، والتعيير يضعف العصبية ، وخمول الذكر ، والعجز عن حماية الجار ، والاستسلام للمهاجمين من الأعداء ، والقعود عن

---

(١) إمتاع الأسماع ١ : ١٠٢ ، السيرة ٤ : ٢٨٦
(٢) إمتاع الأسماع ١ : ١٠٣
(٣) إمتاع الأسماع ١ : ١٠٨
(٤) إمتاع الأسماع ١ : ١١٠
(٥) السيرة ٤ : ٥٢ ، العمدة ١ : ١٠
(٦) البيان والتبين ١ : ٢٣
(٧) السيرة ٤ : ٢٠٧

الثأر ، إلى أمثال هذه الخصال التي تصور المثل الجاهلية ، ولم يتأثر بالمثل الدينية الجديدة فى قليل أو كثير . ولم يحرص النبي على توجيه الهجاء هذه الوجهة الجديدة ، فهو يدل حسان على أبي بكر ، ليعينه فى أنساب قريش ، ويدله على عوراتهم . وهو يقول لشعراء المسلمين : قولوا لهم مثل مايقولون لكم . [1] ذلك لأنه قصد إلى التأثير فى الجماهير ، ولم يكن التعيير بالشرك ، وعبادة مالا يعقل ، ومخالفة الخلق القويم ، ليصنع فى هذا المقام شيئا ، فالهجاء فن يعتمد على الواقع ، وعلى القيم الأخلاقية والاجتماعية كما يتصورها العصر . قال صاحب الأغانى . كان يهجو قريشا ثلاثة نفر من الأنصار يجيبونهم ، حسان بن ثابت ، وكعب من مالك ، وعبد الله بن رواحة وكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب . وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم الكفر ، ويعلم أنه ليس فيهم شر من الكفر . فكانوا فى ذلك الزمان أشد شيء عليهم قول ابن رواحة . فلما أسلموا وفقهوا الإسلام . كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة . [2] والواقع أننا لا نظفر بالهجاء الديني بالمعنى الدقيق إلا فى القرآن .

ونحن لا نأتى بجديد ولا ندعى شيئا خطيرا ، حين نقول إن فى القرآن هجاء . فالعرب أنفسهم نظروا للآيات التى تعرضت لهم ولآلهتهم بالتسفيه على أنها هجاء . روى صاحب السيرة أن أم جميل بنت حرب بن أمية قصدت إلى رسول الله ، حين نزل قوله تعالى (تَبَّت يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . ما أَغْنَى عنهُ مَالُهُ وما كَسَبَ . سَيَصْلَى نَاراً ذاتَ لَهَبٍ . وامرأَتُهُ حَمالةَ الحَطَب ، فى جِيدِهَا حَبْلٌ من مَسَدٍ) فقالت لأبى بكر : يا أبا بكر ! أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه .

---

(١) العقد الفريد ٦ : ١٤٥

(٢) الأغانى ١٥ ٢٩

أما والله إنى لشاعرة ، ثم قالت : مذمماً عصَينا . وأمَره أبَينا ودينَه قَليْنا . ثم أنصرفت [١]

وقال صاحب العقد : قال الله تبارك وتعالى فى هجو المشركين(والشُعَراءُ يتَّبِعُهُم الغاوون .ألم تَرَ أنَّهُمْ فى كلِّ وادٍ يَهيمون ،وأنَّهم يقولون مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات،وذكروا الله كثيرا ، وانتَصَروا من بعدماظُلِموا.وسَيعْلَمُ الذين ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون.) فأرخص الله للشعراء بهذه الآية فى هجائهم لمن تعرض لهم [٢] .

وروى صاحب السيرة أن سورة براءة، كانت تسمى فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم وبعده المُبَعْثِرَة ، لما كشفت من سرائر الناس

نقول إن الهجاء الذى لازم الدعوة قد ظل معتمدا على المثل الجاهلية ، وأن الهجاء فى القرآن هو وحده الذى يقوم على مثل دينية إسلامية . فهو لا يهدد الكفار بغارة تسيل فيها الدماء ، وتسبى فيها النساء .ولايخوفهم بشعر شرود ، يتحدث به الركبان ، ويذيع فى كل مكان ، ولكنه ينذرهم نارا وسعيرا ، وعذابا أليما ، وألوانا من النكال ، تنتظرهم حين ينقلبون إلى ربهم . وهو لا يعيرهم الضعف والفقر وخمول الأحساب ، ولكنه يعيرهم الكفر والضلال وقصر النظر وانطماس البصيرة .

فمما هُجِيَ به عبد الله بن أبى بن سلول وصحبه من المنافقين . وكان رأسهم إليه يجتمعون ، وكانوا يدسون إلى بنى النضير حين حاصرهم رسول الله ، أن اثبتوا وتمنعوا فإنَّا لا نُسْلِمكم

(إذا جاءَكَ المنافقون قالوا نَشْهَد إنَكَ لرَسول الله ، واللهُ يعلم إنك لرَسولهُ ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيْمانَهم جُنَّة

(١) السيرة ١ ٣٨١

(٢) العقد الفريد ٦ ١٤٥

(٣) السيرة ٤ ١٩٩

فَصَدُّوا عن سبيل الله [١] ، إنهم سَاءَ ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كَفَرُوا فَطُبِعَ على قلوبهم فهم لا يفقهون [٢] . وإذا رأيتهم تُعْجِبُكَ أجسامُهُمْ ، وإن يقولوا تَسْمَعْ لقولهم كأنهم خُشُبٌ مُسَنَّدَة ، يَحْسَبُونَ كلَّ صَيْحَة عليهم ، هم العَدُوُّ فاحذَرْهُم ، قاتَلَهُم اللهُ أنَّى يُؤْفَكُون . وإذا قيل لهم تَعَالَوا يستغفر لكم رسولُ الله لَوَّوْا رءوسهم ، ورأيتهم يَصُدُّون وهم مستكبرون . سَوَاءٌ عليهم أَسْتَغْفَرْتَ لهم أم لم تستغفر لهم ، لَنْ يغفرَ اللهُ لَهُمْ ، إنَّ اللهَ لا يَهْدى القومَ الفاسقين . هم الذين يقولون لا تُنْفِقوا على مَنْ عِنْدَ رسولِ الله حتى يَنْفَضُّوا ، ولله خزائنُ السماوات والأرض ، ولكنَّ المنافقين لا يفقهون يقولون لئِنْ رَجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذل [٣] ، ولله العِزةُ ولِرَسُولِه ولِلْمُؤمنين ، ولكنَّ المنافقين لا يعلمون (سورة المنافقون ١ — ٨) .

* * *

ومما هُجِى به المنافقون من الأوس والخزرج :

(ومِنَ الناس من يقول آمَنَّا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين يُخَادعون اللهَ والذين آمنوا وما يَخْدَعون إلا أنفسهم وما يشعرون فى قلوبهم مَرَضٌ فزادهم اللهُ مرضا [٤] ، ولهم عَذَابٌ أليمٌ بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تُفْسِدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ،

---

(١) أى اتخذوا شهادتهم للرسول بالرسالة وقاية لهم من القتل والأسر . يحلفون لك لتصدقهم .

(٢) الطبع الختم . طبع على قلوبهم أى ختم عليها يصور قلوبهم فى عدم قبولها للنصح كأنها قد أغلقت وختم عليها ، حتى ما ينفذ إليها شىء .

(٣) قال ذلك عبد الله بن أبى بن سلول فى غزوة بنى المصطلق .

(٤) فى قلوبهم مرض . صور الشك الذى فى قلوبهم مرضاً

ألآ إنَّهُمْ هم المُفسِدون ولكنْ لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمِنُوا كما آمَنَ الناسُ ، قالوا أنؤمنُ كما آمَنَ السُّفَهَاء ؟ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لَقوْا الذين آمنوا قالوا آمنَّا ، وإذا خلَوا إلى شياطينهم قالوا إنَّا معكم إنما نحن مستهزئون [١] الله يَسْتَهْزِىءُ بهم ويَمُدُّهُمْ فى طُغْيانهم يَعْمَهون [٢] أولئك الذين اشتَروْا الضلالةَ بالهُدَى فما رَبِحَتْ تجارتُهم وما كانوا مهتدين مَثَلهم كَمَثَل الذى استَوْقَدَ نارًا فلما أضاءَت ما حولَه ذهَبَ اللهُ بنورِهم وتَرَكَهُمْ فى ظُلُمات لا يبصِرون [٣] ، صُم بُكمٌ عُمى فهم لا يَرجعُون [٤] ، أو كصَيبٍ من السَّماء فيه ظُلُمَات ورَعد وبَرْقٌ ، يَجْعَلُونَ أصَابِعَهُمْ فى آذانهم من الصواعِقِ حَذَرَ المَوت ، واللهُ مُحيطٌ بالكافرين يكاد البَرْقُ يَخْطَفُ أبصارَهُمْ ، كُلَّما أضاءَ لهم مَشَوا فيه ، وإذا أظْلَمَ عليهم قاموا [٥] . ولَوْ شاء الله لذَهبَ بسمعِهِمْ وأبصَارهم ، إنَّ اللهَ على كُلِ شيءٍ قدير — بقرة ٨ — ٢٠) .

* *

ومما هجى به أهل النفاق فى يوم الخندق

---

(١) وإذا خلوا إلى شياطينهم يقصد بالشياطين أنصار هؤلاء المنافقين من اليهود .

(٢) يعمهون أى يتحيرون والعمه الحيرة

(٣) أى لا يبصرون الحق يشبههم بالذى يوقد النار ليهتدى بها ، فلما أضاءت النار عمى هو ، فلم يستفد من ضوئها وإنما يهتدى بها المبصرون

(٤) صم بكم عمى عن الخير . فهم لا يرجعون إلى الهدى

(٥) الصيب المطر من صاب يصوب مثل السيد من ساد يسود والميت من مات يموت . هذا مثل آخر صور به حالهم فى كفرهم وحيرتهم وخوفهم من أن ينكشف أمرهم للمسلمين فيقتلوهم . فهم كالذى يخبط فى هذا الجو المخيف وقد أظلمت السماء وأرعدت وأبرقت . فانكمش واضعاً أصابعه فى أذنيه لا يدرى أين يذهب ، لايكاد يلمع البرق فيسير فى ضوئه خطوة أو خطوتين ، حتى يعود الجو إلى حلكته الشديدة وظلامه المطبق ، فيقف فى مكانه حائراً متخوفا

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم ، إذ جاءتكم جُنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنودًا لم تَروْها ، وكان اللهُ بما تعملون بصيرا [١] . إذ جاءوكم من فَوْقِكمْ ومن أسفَلَ منكم [٢] ، وإذْ زاغَت الأبصار ، وبلغت القلوبُ الحناجرَ ، وتَظُنّونَ بالله الظُّنُونا . هنالك ابْتُلِيَ المؤمنون وزُلزِلوا زِلْزَالاً شديدا [٣] وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مَرَضٌ : ما وَعدَنا اللهُ ورسوله إلا غُروراً . وإذ قالت طائفةٌ منهم يا أهل يَثْرِبَ لامُقَامَ لكم فارجعوا . ويَستأْذِنُ فريقٌ منهم النبى ، يقولون إن بيوتنا عَورةٌ ، وماهى بعَورَة ، إنْ يُريدُونَ إلا فِرَارا [٤] . ولو دُخلَتْ عليهم مِن أقطارِها ثمّ سُئِلوا الفتنةَ لأتَوْها ، وما تَلبَّثُوا بها إلا يسيرا [٥] . ولقد كانوا عاهدوا الله من قَبلُ لا يُوَلُّونَ الأدْبَار ، وكان عهدُ اللهِ مَسئولا . قل لن يَنفَعَكمُ الفِرَارُ إنْ فَرَرْتم من المَوْت أو القَتْل ، وإذًا لا تُمَتَّعُونَ إلا قليلا . قلْ مَن ذا الذى يَعصِمُكم من الله إن أرادَ بكم سوءاً أو أرَادَ بكم رحمة ؟ ولا يَجِدون

---

(١) الجنود قريش وغطفان وبنو قريظه . قريش وغطفان ومن تبعهم من أهل نجد يهاجمون المدينة من جهة ، ويهود بنى قريظة وقد نقضوا عهدهم مع الرسول يريدون اغتنام الفرصة للقضاء عليه يهاجمونه من جهة أخرى .

(٢) الذين جاءوهم من فوقهم بنو قريظة ، والذين جاءوهم من أسفل منهم قريش وغطفان .

(٣) ابتلى المؤمنون امتحن صبرهم وثباتهم . وذلك أن الأمر قد أشتد على المسلمين بخيانة اليهود لهم وحصار عدوهم لبلدهم ، ووقوعهم بذلك بين بلاءين ، عدو من الخارج وعدو من الداخل ، وهم الرسول أن يصالح بنى غطفان على ثلث ثمار المدينة لولا اعتراض سعد بن معاذ . وعظم بذلك البلاء ، واشتد الخوف ، وتزعزع إيمان الناس . وظهر النفاق ، حتى قال بعضهم (كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر . وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب للغائط) .

(٤) يصور ذلك تزعزع الإيمان فى قلوب المنافقين والمرتابين ، الذين أخذوا يثبطون الناس ، ويستأذنون النبى فى الرجوع إلى بيوتهم لحمايتها . زاعمين أن أهلهم معرضون للعدو

(٥) الأقطار الجوانب واحدها قطر ولو سئلوا الفتنة أى الرجوع إلى الشرك

لهم من دون الله وَلِيًّا ولا نصيرا . قد يَعلَمُ اللهُ المُعَوِّقين منكم ، والقائلين لإخوانهم هَلُمَّ إلينا ، ولا يَأتُونَ البَأسَ إلا قليلا [1] أشحَّةً عليكم ، فإذا جاءَ الخوفُ رأيتَهم يَنظُرونَ إليك تَدُورُ أعيُنُهم كالذى يُغشَى عليه من الموت [2] فإذا ذهَبَ الخَوفُ سَلَقُوكم بألسِنَةٍ حِدادٍ ، أشحةً على الخَيرِ . أولئك لم يُؤمِنُوا فأحبط الله أعمالَهم ، وكان ذلك على الله يسيرا ، يَحسَبون الأحزاب لم يذهبوا [3] ، وإن يَأتِ الأحزابُ يَوَدُّوا لو أنهم بَادُونَ فى الأعرَابِ يَسألُون عن أنبائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا — الأحزاب ٩ إلى ٢٠) .

* * *

ومما هجى به اليهود فى إعراضهم عن النبى ، وكانوا يتحدثون قبل ذلك بأن نبيا يُبعَث ، قد حان وقته ، فلما جاء كفروا به . وهم هنا يُعيرون عبادتهم العجل بعد أن جاءهم نبيهم موسى بالبينات ، ثم قتلهم عيسى بعد ذلك ، ثم مخالفتهم دينهم ، فى تَحَزُّبِ فريقٍ منهم للأوس ، وتحزب فريق آخر للخزرج . فهم يقاتلون معهم فى حروبهم ، فيسفكون بينهم دماءهم ، ويخرج بعضهم البعض من ديارهم ، وقد حُرِّم عليهم ذلك فى كتابهم

(أفتَطمَعُون أن يُؤمِنوا لكم ، وقد كان فَرِيق منهم يَسمَعُون كلامَ الله ، ثم يحرفونه من بَعدِ ما عَقَلُوه . وهُمْ يَعلَمُون [4] ! وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمَنَّا ، وإذا خلا بعضُهم إلى بَعض ، قالوا

---

(١) البأس القتال . لا يأتون البأس إلا قليلا يحاربون بغير نية صادقة ، إقامة للعذر عند من يراهم .

(٢) يخافون الموت لضعف إيمانهم ولأنهم لا يوقنون بالجنة وبثواب الشهداء

(٣) الأحزاب هم المهاجمون من قريش وغطفان . انهزموا وتفرق شملهم ، ولكن هؤلاء المنافقين يتصورون أنهم لا يزالون قائمين لشدة ذعرهم . وشبيه بذلك قول جرير

مازلت تحسب كل شىء بعدهم حيلا تكر عليكم ورجالا

(٤) يسمعون كلام الله ثم يحرفونه يعنى التوراة التى نزلت على قوم موسى

أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلا تعقلون ؟ أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون ، وما يعلنون ! ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا امانى ، وإن هم إلا يظنون (١) . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون . وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة . قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ؟ أم تقولون على الله مالا تعلمون (٢) ؟ بلى ! من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون. والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة ، هم فيها خالدون

وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل ، لا تعبدون إلا الله ، وبالوالدين إحساناً ، وذى القربى واليتامى والمساكين ، وقولوا للناس حسناً ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون. وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم . أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون

---

(١) لا يعلمون الكتاب إلى أمانى إلا قراءة يقول إنهم لا يعلمون الكتاب الا أنهم يقرءونه. فعلمهم به ظن وليس يقينا

(٢) كان اليهود يقولون إن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة . وإنما يعذب الله الناس بكل ألف سنة من. أيام الدنيا يوماً واحدا فى النار من أيام الآخرة ، وانما هى سبعة أيام ثم ينقطع العذاب

بِبَعْض[١]؟ فما جزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلك منكم إلا خِزْىٌ فى الحَيَاةِ الدُّنْيَا، ويَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّون إلى أشَدِّ العَذَاب ، وما اللهُ بغافلٍ عما تعملون . أولئك الذين اشتَرَوا الحياةَ الدنيا بالآخرة فلا يُخَفَّفُ عنهم العذابُ ولا هم يُنْصَرون . ولقد آتَيْنَا موسى الكتاب ، وَقَفَّيْنَا من بَعْدِه بالرُّسل، وآتينا عيسى بنَ مريم البيِّنات ، وأيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُس[٢] أفكُلَّما جاءكم رَسولٌ بما لا تَهْوَى أنفُسُكم استكبرتم ؟ فَفَرِيقاً كذبتم ؟ وفريقاً تَقْتُلُون ؟ وقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْف[٣]. بَلْ لَعَنَهم اللهُ بكُفْرِهِمْ ، فَقَلِيلاً ما يؤمنون ولما جاءهم كتاب مِنْ عندِ اللهِ مُصدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ، وكانوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُون على الذين كَفَرُوا[٤]. فلما جاءهم ما عَرَفوا كفَروا به ، فَلَعْنَةُ اللهِ على الكافرين .

بِئْسَ ما اشتَرَوا به أنفسهم ، أنْ يَكْفُروا بما أَنْزَلَ اللهُ ، بَغْياً أن يُنَزِّلَ اللهُ من فضله على من يشاء من عباده[٥] ، فَبَاؤُوا بغَضَبٍ على غَضَب ، ولِلْكافِرِينَ عَذَاب مُهين . وإذا قِيلَ لهم آمِنُوا بما أنزَلَ

---

(١) حرم الله على اليهود فى التوراة أن يقتل بعضهم بعضا ، وافترض عليهم فداء أسراهم ، ولكنهم خالفوا أمر التوراة ، فحالف فريق منهم الخزرج وحالف فريق آخر الأوس ، فكانوا إذا اقتتل الأوس والخزرج قاتلوا معهم ، فتسافكوا دماءهم بينهم ، مخالفين كتابهم ، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم عملا بما فى التوراة . والقرآن يبكتهم ويعجب لتناقضهم قائلا (أتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟) تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان أى تعينون عليهم من يشرك بالله ويعبد الأوثان ممن ليسوا بأهل كتاب ولا أصحاب دين ، وهم الأوس والخزرج .

(٢) وآتينا عيسى بن مريم البينات من إحياء الموتى ، وخلقه من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً باذن الله ، وإبراء الأسقام ، والخبر بكثير من الغيوب ما يدخرون فى بيوتهم .

(٣) قلوبنا غلف أى فى غلاف محجبة

(٤) يستفتحون أى يستنصرون . كان الأوس والخزرج ظاهرين على اليهود فى المدينة . فكان اليهود يقولون لهم : إن نبيا سيظهر فنكون معه ونذلكم . فلما تبع الأوس والخزرج النبي كفرت به اليهود

(٥) كان اليهود يرجون أن يكون النبي منهم لأنهم أصحاب كتاب . فلما ظهر من غيرهم كفروا به وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

اللهُ ، قالوا نُؤْمِنُ بِما أُنزِلَ علينا ، ويَكفُرُونَ بِما وَرَاءَه ، وهو الحق مُصَدِّقاً لِما معهم . قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أنبِياءَ الله من قَبْلُ إن كنتم مؤمنين [١] ؟ ولقد جاءكُمْ موسى بالبَيِّنَاتِ . ثُمَّ اتَّخَذْتُم العِجْلَ مِن بَعدِهِ وأنتُمْ ظالمون [٢]. وإذْ أخذْنا مِيثَاقَكُمْ ورَفَعْنا فوقَكُمُ الطُّورَ ، خُذُوا ما آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ واسْمَعُوا قالوا سَمِعْنا وعَصَيْنا . وأُشْرِبُوا فى قُلُوبِهِم العِجْلَ بكفرهم . قُلْ بئس ما يأمُرُكم به إيمَانُكم إن كُنْتم مؤمنين .

قل إن كانَتْ لكم الدارُ الآخِرَةُ عندَ الله خَالِصَةً من دُونِ النَّاسِ فتَمَنَّوا المَوتَ إن كنتم صادقين [٣] . ولن يتمنَّوه أبَداً بِما قَدَّمت أيديهم ، والله عليمٌ بالظالمين . ولَتَجِدَنَّهم أحرَصَ الناسِ على حياةٍ ، ومن الذين أشركوا ، يَوَدُّ أحَدُهُم لو يُعَمَّرُ ألفَ سنة ، وما هو بِمُزَحزِحِه من العذاب أن يُعَمَّر ، والله بَصيرٌ بِما يعملون. قُلْ مَنْ كان عَدُوّاً لجِبْرِيلَ فإنه نَزَّلَهُ على قَلْبِك بإذْنِ الله ، مُصَدِّقاً لِمَا بين يَدَيه ، وهُدى وبُشْرَى للمؤمنين [٤] . مَنْ كان عَدُوًّا لله وملائكته ورسلِه وجِبْريلَ وميكالَ فإن اللهَ عدو للكافرين . ولقد أنزلنا إليكَ آياتٍ بَيِّناتٍ ، وما يَكْفُرُ بها إلا الفاسِقون . أوَكُلَّما عَاهَدُوا

---

(١) يشير إلى قتل اليهود عيسى من قبل . ويبين أنهم أهل شقاق ومكابرة دائما

(٢) يشير إلى مافعلوا بعد انصراف موسى عنهم من عبادة العجل ، حين صنع لهم السامرى من الحلى عجلا من الذهب وأغراهم بعبادته فاتبعوه مرتدين إلى الكفر . والقصة مذكورة فى سورة طه فى الآيات ٩٢ — ٩٨ .

(٣) فتمنوا الموت : أى ادعوا بالموت على أى الفريقين هو أكذب عند الله . ولن يفعلوا ذلك لأنهم يعلمون أنهم كاذبون .

(٤) كان اليهود يقولون للنبى إن جبريل لنا عدو ، فهو ملك إنما يأتى بالشدة وسفك الدماء . ولولا ذلك لاتبعناك

عهْداً نَبَذَهُ فريقٌ منهم ؟ بَلْ أكثرُهم لا يؤمنون . ولما جاءَهُمْ رَسولٌ من عند الله مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهم نَبَذَ فريقٌ من الذين أُوتوا الكتابَ كتابَ اللهِ وراءَ ظُهورِهِم كأنهم لا يعلمون . واتَّبَعُوا ماتَتْلُو الشياطينُ على مُلْكِ سليمان ، وما كَفَرَ سليمانُ [1]، ولكنَّ الشَّياطينَ كَفَرُوا ، يعلّمون الناسَ السّحْرَ وما أُنزِلَ على المَلَكَيْنِ ببابِلَ هارُوتَ ومارُوتَ [2]. وما يُعَلِّمان من أَحدٍ حتى يَقُولا إنما نحنُ فِتْنَةٌ فلا تَكْفُرْ . فيتَعَلَّمون منهما مايُفَرِّقون به بين المَرْءِ وزوجِه ، وما هم بِضارِّين به من أَحدٍ إلا بإذن الله . ويتعلمون مايَضرُّهم ولا ينفعهم . ولقد عَلِموا لَمَنِ اشتَرَاه مالَهُ فى الآخرة من خَلاَق . ولَبِئْسَ ماشَرَوا به أنفُسَهم لو كانوا يعلمون — البقرة ٧٥ الى ١٠٢) .

* * *

ومما هجى به يهود بنى قَيْنُقَاع . وعبدُ الله بنُ أُبَيّ ، فى ولائه لهم ، ووقوفه دونهم ، حين حاصرهم الرسول ، لأنهم حلفاؤه فى الجاهلية :

(يا أيها الذين آمنوا لا تَتَّخِذوا اليهودَ والنصارى أولياء ، بعضهم أولياءُ بَعْض ، ومَن يَتَوَلَّهم منكم ، فإنه منهم ، إن الله لا يَهْدِى القومَ الظالمين . فَتَرى الذين فى قلوبهم مَرَضٌ يُسَارِعون فيهم ، يقولون نَخْشَى أن تُصيبَنا دائرةٌ ، [3] فَعَسَى اللهُ أن يأتِيَ بالفَتْحِ أو أمرٍ من عنده ، فيُصْبِحُوا على ما أَسَرُّوا فى أنفُسِهم نادمين . ويقول الذين آمَنُوا أهؤلاء

---

(١) كان أحبار اليهود يقولون حين ذكر النبي سليمان فى المرسلين : ألا تعجبون من محمد ؟ يزعم أن سليمان بن داود كان نبيا ! والله ما كان إلا ساحرا

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن هاروت وماروت ملكان عصيا الله تعالى ، فعذبهما بأن علقهما من شعورهما فى بئر ببابل . فجعلا يعلمان الناس السحر .

(٣) دائرة أى حادثة تنقلب بها الحال وتدور . فيصيرون إلى الذل والهزيمة

الذين أقسموا بالله جهدَ أيمانهم إنهم لمعكم؟ حبطت أعمالهم. فأصبحوا خاسرين [١].

يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي اللهُ بقومٍ يُحبهم ويُحبونه، أذلةٍ على المؤمنين، أعزةٍ على الكافرين، يُجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومةَ لائم. ذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء، والله واسع عليم إنما وليكم اللهُ ورسولُه، والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاةَ ويؤتون الزكاةَ وهم راكعون. ومن يتولَّ اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فإن حزبَ الله هم الغالبون.

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتابَ من قبلكم والكفارَ أولياءَ. واتقوا اللهَ إن كنتم مؤمنين. وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعبا، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون.

قل يا أهل الكتاب هل تنقمون [٢] منَّا إلا أنْ آمنَّا بالله وما أنزلَ من قبلُ وأن أكثرَكم فاسقون؟ قل هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك مثوبةً عند الله [٣]؟ مَنْ لعنَهُ اللهُ وغضبَ عليه، وجعلَ منهم القردةَ والخنازيرَ وعبدَ الطاغوت [٤] أولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ عن سواء السبيل. وإذا جاءوكم قالوا آمنَّا، وقد دخلوا بالكفر، وهُم قد خرجوا به والله أعلمُ بما كانوا يكتمون وترى كثيراً منهم

---

(١) حبطت أعمالهم طلت (٢) تنقمون تكرهون.

(٣) بشر من ذلك مثوبة أى ثواباً. والمثوبة فى أصل استعمالها للاحسان، ولكنها مستعملة هنا فى معنى العقوبة. وذلك مثل استعمال التبشير فى موضع آخر من القرآن حيث يقول (فبشرهم بعذاب أليم).

(٤) الطاغوت كل رأس فى الكفر.

يُسَارِعون فى الإثْمِ والعُدوان وأكلِهم السُّحْت (١) ، لَبِئْسَ ما كانوا يعملون . لولا ينهاهم الرّبانيُّون والأحبارُ (٢) عن قولِهم الإثم وأكلِهم السُّحت ! لَبِئْسَ ما كانوا يَصْنَعُون . وقالت اليهودُ يَدُ الله مَغْلُولة ، غُلَّتْ أيديهم ولُعِنُوا بما قالوا (٣) ! بَلْ يَدَاهُ مَبْسوطَتان يُنْفِقُ كيف يشاء ولَيَزِيدَنَّ كثيراً منهم ما أُنزِلَ إليكَ من ربك طُغْياناً وكفرا . وألقينا بينهم العداوةَ والبغضاءَ إلى يوم القيامة . كُلَّمَا أوقَدوا ناراً للحرب أطفأها الله . ويسعَوْن فى الأرض فساداً ، والله لا يحب المُفْسِدين . ولو أن أهل الكتاب آمَنُوا واتقَوا لكفرنا عنهم سَيِّئَاتِهم ولأدخلنَاهم جَنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومِنْ تحتِ أرجلِهم منهم أُمةٌ مُقْتَصِدَة ، وكثيرٌ منهم ساءَ ما يَعْمَلُون — المائدة ٥١ الى ٦٦)

* *

هذا أسلوب جديد فى الهجاء ، يتميز مما سبق تميزاً واضحا . فيه أولا هذا النقاش الذى يحاول إقامة الحجة ، ويلزم الخصم الدليل ، ويظهره بمظهر السفيه اللئيم ، أو المكابر المتعجرف ، أو المنافق المتلون .

وهو يسلك فى هذا النقاش سبيلين يختلفان فى أسلوبهما ، وإن كانا ينتهيان إلى غاية واحدة . يناقش حجتهم تارة بالدليل العقلى وبالمنطق ، فيورد أقوالهم ثم ينقضها عليهم ، مبينا تفاهتها ، وضعف ما تستند إليه . فيروى مثلا مايزعم اليهود من أن الله لا يعذب الناس إلا أياما معدودة ، بمقدار يوم عن كل ألف سنة ، ثم يسخر منهم ، ويستخف بزعمهم قائلا من أين لكم هذا ؟

(١) السحت الحرام والرشوة

(٢) الربانيون الزهاد ، والأحبار هم العلماء

(٣) وقالت اليهود يد الله مغلولة أى شحيحة بخيلة

(أتخذتم عند الله عهداً ؟ أم تقولونَ على الله ما لا تعلمون ؟) .
ومن أمثلة هذا الأسلوب ما يصور من تناقضهم . فقد حرم عليهم دينهم أن يقاتل بعضهم بعضا ، وفرض عليهم أن يتعاونوا فى افتداء أسراهم . ومن عجب أنهم يتقاتلون ويتنابذون ، وقد حرمت عليهم التوراة ذلك ، ثم يفتدون أسراهم ، إقامة لما أمروا به . ويعقب القرآن على ذلك متعجبا من أمرهم فيقول (أفتؤمنونَ ببعض الكتاب وتكفرونَ ببعض ؟ فما جزاءُ من يَفعَل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ؟ ويوم القيامة يردون إلى أشدّ العذاب ؟) ومن أمثلته أيضاً ما يروى عن زعمهم أن الدار الآخرة لهم من دون سائر الناس . ثم يتحداهم أن يسألوا الله إنزال الموت على أى الفريقين هو أكذب وأضل ، إن كانوا واثقين من أنهم سينقلبون إلى الجنة بعد الموت . ويعقب على ذلك قائلا (ولن يتمنوه أبداً بما قدَمت أيديهم والله عليم بالظالمين)

هذا أسلوب من النقاش يعتمد على المنطق والعقل وهناك أساوب آخر يعتمد على التاريخ ، يروى منه ما يكسو خصومه العار ، ويصور أن ضلالتهم وعنادهم ليس بالشيء الجديد . يقول لهم تارة ألم يأخذ عليكم الله ميثاقا أن لا تعبدوا غيره ، وبالوالدين إحسانا ، وذى القُربَى واليتامى والمساكين ، وقولوا للناس حسنا ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ؟ ثم توليتم إلا قليلا منكم ؟ وتارة يقول لهم : ليس تكذيبكم محمدا ومعاندته بالشى الجديد فقد أرسلنا لكم النبيين من قبل فقتلتموهم ثم يعقب على ذلك قائلا (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ؟ ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون ؟) بل هو يقص عليهم من تاريخهم ما يثبت خلافهم لنبيهم نفسه ، حين انصرف عنهم إلى حين ، فلما عاد رآهم عاكفين على عبادة عجل من ذهب اتخذوه إلها . ثم يقول : فهل كان ذلك مما يأمركم به ما تزعمون لأنفسكم من الإيمان ؟ (قل بئس ما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين)

ويعود إلى التاريخ ، ليستخرج منه فضيحة أخرى لهؤلاء الفسقة المكابرين ، فيروى ما كان من انصرافهم عن كتابهم إلى السحر يتعلمونه ، وقد علموا أنه ضلالة لايقصد به إلا الشر والإيذاء

وهذا الأسلوب التاريخي شبيه بما رأينا من اعتماد الهجاء السياسى فى فى ذلك العصر على التاريخ ولكن القيم التى يعتمد عليها ، تختلف تماما عن القيم التى كان يعتمد عليها ذلك الهجاء . فهذا الهجاء يستخلص من التاريخ ما يصور به سفه هؤلاء القوم ومكابرتهم وضلالهم القديم أما ذاك ، فهو يستخلص منه ما يصور به الضعف وخمول الآباء والأجداد .

وأحيانا يعتمد القرآن على تصوير الحال ، وإبرازه واضحا مجسما . وله فى ذلك مسلكان فهو تارة يعمد إلى التمثيل ، فيقدمهم فى صور ساخرة مضحكة ، وتارة أخرى يلقى الضوء على ما يتآمرون به فى الظلام ، ويكشف الستر عما يدبرون فى الخفاء ، فيربكهم بإظهار حقيقتهم التى يحرصون على كتمانها ، ويفضح دسائسهم التى يلقون عليها حجبا كثيفة من الرياءوالنفاق

فمن التصوير الساخر قوله تعالى (وإذا رأيتَهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خُشُبٌ مُسَنَّدَة ، يَحْسَبُون كل صَيحَة عليهم ، هم العدوّ ، فاحذرهم قاتَلَهُم اللهُ أنّى يُؤفَكُون !) إذا مر القارىء بصدر الآية تفاءل خيرا ، ولم ير بأسا . ولكنه لا يكاد يمضى ، حتى تأخذه المفاجاة القاسية ، بعدهذا الثناء على الأجسام . فالقرآن لايرضى أن ينزل بهم إلى مرتبة الحيوان بل هو يسلبهم أدنى قدر من العقل ، فهم جماد لا يحس ولا يعقل . وهم لا يقومون على أرجلهم إلا كما تقوم هذه الخُشُب ، قد صُفَّتْ صفا ، وأسندت إلى جدار . وهم مريبون ، يتوقعون فى كل لحظة أن ينكشف عنهم الستر فيؤخذوا بذنوبهم . لا يصيح صائح إلا أخذ الرعب قلوبهم ، فكأنهم هم المقصودون ثم يوالى القرآن

لطمهم بهذه الجمل القصيرة المتداركة فيقول (هم العدو . فاحذرهم) وتهدأ الآية بعد هذه العاصفة ، وبعد هذه اللطمات المتتالية ، لتختم تلك الصور ، ولتجمل ما فصلت ، بما يشبه حديث المتحدث إلى نفسه (قاتَلَهُم الله أنىَّ يُؤفكون !) .

ولعل حسان قد نظر إلى صدر الآية حين قال :

لا بأس بالقوم من طول ومن عرض جسم البغال وأحلام العصافير

ولعل ابن الرومى قد تأثر بها وببيت حسان حين قال :

طول وعرض بلا عقل ولا أدب فليس يَحْسُنُ إلا وهو مصلوب

ومن قول القرآن (يحسبون كل صيحة عليهم) أخذ جرير قوله

حملت عليك حماة قيس خيلها شعثا عوابس تحمل الأبطالا

تركوك تحسب كل شىء بعدهم خيلا تكر عليكم ورجالا

ومنه أخذ الشاعر قوله :

كأن بلاد الله وهى عريضة على الخائف المطلوب كفة حابل

يُؤدَّى إليه أن كل ثَنِيَّةٍ تَيَمَّمَهَا تَرمى إليه بقاتل

ومن هذا التصوير الساخر تشبيه القرآن المنافقين من الأوس والخزرج ، وقد أضاء لهم نور الحق فى ظلمة الضلال فلم يهتدوا به ، بالذى يلتمس النار ليهتدى بها ، فلا تكاد تضىء حتى ينطمس بصره ، فلا يدركها ولا يستطيع الاستفادة منها . (مَثَلُهم كمثل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب اللهُ بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ، فهم لا يَرْجِعُونْ .) ولا يكاد القرآن ينتهى من هذه الصورة ، حتى يقدم صورة جديدة لما هم فيه من الحيرة والضلال ، وشدة الخوف من أن ينكشف أمرهم فيأخذهم المسلمون . فهم كالذى يخبط فى جو عاصف ، اشتد فيه المطر ، وأظلمت جوانب الأرض ، وتجاوبت الرعود عاصفة ، فهو يسد آذانه بأطراف أصابعه . متوقعا أن تأخذه الصواعق بين لحظة وأخرى . بل هو

هو يود لو جعل كل أصابعه فى آذانه ، حتى لا يصل إليه دوى الرعود المخيف... ويسطع البرق بين الحين والحين ، فينخلع له قلبه ، ويبهر عينيه ضَوْؤُه الخلاّب . ولكنه فى حيرته وذهوله ، يخطو متثاقلا فى هذه اللحظات القصيرة من الضوء ، كالذى يبغى الخلاص مما هو فيه من البلاء ، ولكنه لا يدرى إلى أين . ولا يكاد هذا الضالُّ المذعور يخطو خطوة أو خطوتين ، حتى يعود الجو إلى ظلامه الرهيب ، فيظل فى حيرته قائما . (أو كصَيِّبٍ من السماء ، فيه ظلمات ورعد وبرق . يَجْعَلون أصابعَم فى آذانهم من الصواعق حَذَرَ الموت . والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا . ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم . إن الله على كل شيء قدير .) .

أما كشف الستر عن دسائسهم ، وما يدبرون فى الظلام ، فسبيل القرآن فيه أن يهتك أسرارهم وما يخفون فى أنفسهم ، فيذيع أقوالهم التى يرددونها فى مجالسهم الخاصة من وراء ظهور المسلمين ، ليبين لهم أنه عالم بكيدهم وما يضمرون . ثم يعقب على أقوالهم بإجابة قصيرة ، تبين جهلهم وانطماس بصائرهم . ومن أمثلته ما يقول القرآن فى عبد الله بن أُبىّ ، وفى أصحابه من المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) ثم يعقب على ذلك بقوله (ولله خزائن السماوات والأرض . ولكن المنافقين لا يفقهون) ومنه قوله فيهم (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلّ .) ويعقب على ذلك بقوله (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكنّ المنافقين لا يعلمون .) ومنه قوله فيهم (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . وإذا خلَوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم ، إنما نحن مستهزءون .) ثم يعقب على ذلك بقوله (الله يستهزىء بهم ويَمُدّهم فى طغيانهم يَعْمَهون .) ومنه

قوله تعالى فى تصوير حال المنافقين ، حين اشتد عليهم حصار العدو فى وقعة الخندق (وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفه منهم يا أهل يثرب لا مُقَامَ لكم فارجعوا ويستأذن فريقٌ منهم النبي ، يقولون إن بيوتنا عَوْرَةٌ . وما هى بعَوْرَة إنْ يريدون إلا فرارا) ويعقب على ذلك بعد أن يمضى فى وصفهم بقوله (قل لن ينفعكم الفرار من الموت إن فررتم من الموت . وإذن لا تُمتعون إلا قليلا) ومنه قوله فى المنافقين من اليهود (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض . قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجّوكم به عند ربكم ؟) ثم يعقب على قولهم هذا ساخرا من تفكيرهم السقيم . فهم لا يريدون أن يناقشوا المسلمين ، حتى لا يتعلموا منهم ماخصَّهم الله به من علم ، فيقيموا به الحجة عليهم عند الله يوم القيامة ! يقول معقبا على هذا التفكير السقيم (أفلا تعقلون ؟ أوَلا يعلمون أن الله يعلم مايُسِرُّون وما يُعْلِنون ؟) .

وظاهرة أخرى نصادفها فى هذا الهجاء القرآنى ، هى اعتماده على التهديد والوعيد ، يختم به ما يسوقه من نقاش ، أو يروى من تاريخ ، أو يقدم من صور . فهو إذا بين تناقض اليهود ، إذ يأخذون بعض مافى كتابهم ، ويتركون بعضه الأخر ، ختم ذلك بقوله (فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خِزْىٌ فى الحياة الدنيا ؟ ويوم القيامة يُرَدُّونَ إلى أشد العذاب ؟ وما الله بغافل عما تعملون .) وإذا روى انصرافهم عن كتابهم إلى السحر ، ختم ذلك بقوله (ولقد علموا لَمَن اشتراه ماله فى الآخرة من خَلاق ولَبِئْس ما شَرَوا به أنفسَهم لو كانوا يعلمون) وإذا شَبَّهَهُمْ فى حَيْرَتهم بالذى يسير فى جو عاصف ، ورعد قاصف ، ختم ذلك بقوله (واللهُ مُحيطٌ بالكافرين) ثم قوله (ولو شاء الله لذَهَبَ بسمعهم وأبصارهم إن

الله على كل شىء قــدير) وإذا شبههم بالخشب المسنَّـــدة ، ختم ذلك بقوله (هم العُـدوّ ، فاحــذَرْهُـمْ قاتـَلـَهمُ اللهُ أنىَّ يُـؤْفَـكـُون) .

هذه جملة من خصائص الأسلوب الهجائى فى القرآن وهى تلتقى من من بعض النواحى مع أسلوب الهجاء السياسى فى الشعر ، مثل اعتمادها على التـاريخ ، وعلى التصوير والتهديد . ولـكنها تخالف كل ما عرف العرب ، فى نـَظْمها ، وفى ما تستند إليه من قيم أخلاقية واجتماعية جديدة .

حسـان

شهرة حسان فى الأدب العربى تستند إلى أنه شاعر النبى . وأكثر مايعرف الناس عنه دفاعه عن الدعوة الإسلامية ، وشعره الكثير فى هجاء من ناهضها . والواقع أن حسان لم يدخل فى الإسلام إلا وقد أسن وفارقه شبابه . فقد عاش فيما يحدثنا الرواة ستين سنة فى الجاهلية ، ومثلها فى الإسلام . وهذا خبر قد لايخلو من المبالغة والتزيد ، ولكنه لايبعد كثيرا عن الحقيقة . فهو إذن لم يبدأ حياته الإسلامية ، إلا وقد مضى الشطر الخصب المحبب إلى النفس من عمره

وُلِد حسان بمدينة يثرب ، فى بيت من أعرق بيوت بنى النجار — وهم من أظهر بطون الخزرج — قبل مبعث النبى بنحو من أربعين عاما ونشأ والنزاع بين الأوس والخزرج قديم . يرجع إلى عهد جده المنذر بن حِرام ، الذى حاول أن يصلح بين الحيين . وكان لبنى النجار خاصة فى هذا النزاع شأن ظاهر . وقد اشتهر أمر حسان فى هذه الأيام بشعره القوى الذى سجل فيه مفاخر قومه ، مشيدا بنصرهم ، فكان على رأس شعراء الخزرج ، بينما كان قيس بن الخطيم فى طليعة شعراء الأوس . ولكن هذا كان يشارك بسيفه ولسانه ، أما حسان فقد قنع بالشعر ، ولم نعرف أنه أخذ بنصيب من القتال فى هذا النضال . ولعل حسان كان يعرف من نفسه أنه على الهجاء والشعر ، أقدر منه على القتال ، حين قال :

لسانى وسيفى صارمان كلاهما ... ويَبلُغُ مالايبلغ السيف مِذْوَدى[1]

وحين يقول فى موضع من شعره :

---

(١) مذوده لسانه الذى يذود به ، أى يدفع به عن نفسه وعن قومه

لِـكـُلٍّ أُناسٍ مِيَسْم يعرفونه ... ومِيسَمُنا فينا القوافى الأوابد [١]

متى مانَسِم لايُنكر الناسُ وَسْمنا ... ونَعْرِفْ به المجهول ممن نُكايدُ

تَلُوحُ به تَعْشو إليه وُسومنا ... كما لاح فى سُمر الرِماح المَوارد [٢]

فيَشْفِين من لا يُستَطاعُ شِفَاؤُه ... ويَبْقَين ما تَبقَى الجبالُ الخوالد [٣]

ويُشْقِين من يَغْتالنا بعداوةٍ ... ويُسعِدن فى الدنيا بنا من نُساعِدُ

إذا ما كَسَرنا رُمحَ رايةِ شاعرٍ ... يَجيشُ بنا ما عندنا فنُعاوِدُ [٤]

ومنذ أحس حسان بمواهبه ، وعرف من نفسه مكانه فى الشعر ، رحل إلى الغساسنة ، متكسبا عندهم بالمدح ، متقربا إليهم بنسبه فى اليمن . وفى ربوع الشام ، وبين جنانها وقطوفها ، وعلى ضفاف بَرَدَى ، وفى أحضان الجبال الخضراء المكللة بالثلوج ، قضى حسان أجمل فترات حياته ، مطمئنا إلى هذه الحياة المترفة الناعمة ، مفتونا بالمناظر الطبيعية الساحرة ، التى لا عهد له بها فى الجزيرة القاحلة ، وقد أطلقت الخمرُ لسانه ، ورقق الجمال حسه ، فسخت نفسه بأحسن ما قال من شعر ، ووصله الغساسنة بأجزل ما نالت يداه من صلات .

وامتدت هذه الفترة الجميلة من حياته ، فلم تنته إلا بدخوله فى الإسلام ، وقد جاوز الشباب ، فبلغ الستين فيما يحدثنا الرواة ، أو قارب الخمسين على أقل تقدير كما يحدثنا هو نفسه بذلك فى بعض شعره الغسانى ، من قصيدة له يبدأها بقوله

---

(١) الميسم فى الأصل المكواة التى توسم به الدواب وقد يسمى أثر الوسم ميسما أيضا . وهو يقصد هنا الشعر وأثره الباقى فى المهجو ، كأنه أثر الكى لا يزول .

(٢) تلوح به تبدو وتظهر . تعشو إليه تقصد وتتبعه أينما وجد . عشا النار وعشا إليها رآها ليلا من بعيد فقصد إليها سمر للثان الرماح . الموارد جمع موردة أى الموارد المهلكة .

(٣) يقول إن هذه القوافى الأوابد تشفى من الجهل من لا يستطاع شفاؤه ، أى تردعه عن التمادى فى عداوتنا

(٤) الجيشان صوت الغليان والاضطراب الذى يصحبه .

تَطاوَلَ بالخمّانِ[1] لَيْلى فلم تَكَدْ تَهُمّ هَوادى نَجْمه أنْ تَصَوَّبا
أبيتُ أُراعيها كأنى مُوَكَّلٌ بها لا أُريدُ النومَ حتى تَغَيَّبا

إلى أن يقول :

وكِدتُ غَداةَ البَيْنِ يَغلِبُنى الهوى أُعالِجُ نفسى أن أقومَ فأركَبا
وكيف ولا يَنسَى التَّصابِىَ بعدما تَجاوَزَ رأسَ الأربعينَ وجرّبا
وقد بان مايأتى من الأمر واكتَسَتْ مَفارِقُهُ لوناً من الشَّيْبِ مُغْرَبا

ولكن هذه السنين الطوال مرت سراعا كالحلم ، وكأن هذا العهد وقد تقطع وتصرم لم يكن .

فَلَبِثتُ أزْماناً طوالاً فيهم ثم ادَّكَرتُ كأنَّنى لم أفعَلِ[2]

كان شعر حسان فى هذا القسم الطويل من حياته صورة حية للجمال الذى استخف نفسه ، والنعمة التى غرق فيها حسه ومشاعره . فجاء مغايرا لكل ما نعرف من الشعر الجاهلى . جاء قطعة من هذه الجنان الظليلة الحالمة ، بعيداً كل البعد عن رمال الصحراء المُضلة ، وجبالها الغبراء العابسة

هذه هى العيس تحمل صاحبتَه الناعمة شَعْثاء ، وقد اكتست الريط ، وبدا وجهها الأبيض الجميل كالبَرَد الناصع ، يتراءى من خلفها جبل قد كساه الثلج ، وانتثرت من فوقه قطع السحاب .

انظُر خليلى بِبَطنِ جِلَّقَ هل تُؤنِسُ دون البَلْقاءِ مِن أحدِ[3]

---

(١) الخمّان قرية قريبة من دمشق. هوادى النجوم أوائلها تصوبها غروبها

(٢) ما هنا زائدة . والمعنى إن ترى رأسى تغير لونه . الشمط بياض شعر الرأس يخالطه السواد الثغام بفتح الثاء نبت ينبت فى الجبال يكون أخضر ثم يبيض إذا يبس . وله سنمة غليظة ولا ينبت إلا فى قنة سوداء ولذلك شبه به الشيب

(٣) موعدوه أعداؤه قصر دومة هو حصن دومة الجندل مابين الحجاز والشام كان لأكيدر السكونى الذى قتله خالد بن الوليد سواء الهيكل وسطه . والهيكل بيت النصارى يعظمونه .

(٤) ادكرت تذكرت ما كنت فيه فوجدت كأنه شىء لم يكن ولم يبق الا الأحاديث والذكر .

(٥) جلق اسم لكورة الغوطة أوهى دمشق نفسها أو قرية من قراها . البلقاء كورة من أعمال دمشق .

جمالُ شعثاء وقد هَبَطنَ من المَحْ بَسِ بين الكُثبانِ فالسَنَد (١)
يحملن حُوَّ احوِرَ المَدَامِعِ فى الرَيْطِ وبيضَ الوجوه كالبَرَد (٢)
من دُونِ بُصْرَى وَخَلْفَها جبلُ الثَّلْ جِ عليه السحاب كالقَدَد (٣)

ثم يمضى فيقسم لها برب الإبل ، وما قطعت من مفاوز بعيدة الأرجاء ، وعرة المسالك ، وما قُرِّبت لمَنْحَرِها البُدْن (٤) ، أنه لم يتغير عن عهده ، ولم يحبب كحبها أحدا . ويحلو له أن يتذكر حديث صاحبته ، حين كانت تنهاه عن الإكثار من الخمر والغلو فيها

تقول شعثاءُ لو تُفِيقُ من الكأ سِ لا لفِيتَ مُثْرِى العَدَد

ثم لا يجد ما يعتذر به عن نفسه ، إلا أن يقول فى بساطة مؤثرة ، ملؤها الحنين المستسلم للذة .

أهْوَى حديثَ النَدْمَان فى فَلَق الصبح وصوتَ المُسامِر الغَرِدِ

* *

وهذه هى دور الغساسنة ، قد تعلقت بأعلى الجبال ، تحوطها الثلوج التى تتساقط من حولها ، حتى تتجمع فتتدافع إلى الوديان ، تُذْرِى بالأشجار ، وقد نبتت الكروم فى الأفنية والساحات ، فوق هذه المنحدرات أين هذه الجبال التى جملها الله ، من صحراء العرب الموحشة ، تضرب فيها الشاء ، يتتبع رعاؤها مواقعَ السيل !

أجِدَّكَ لم تَهتَجْ لرَسْمِ المَنَازِلِ ودارِ ملوكٍ فوقَ ذاتِ السَّلاسِلِ (٥)

(١) شعثاء صاحبته والحبس والسند موضعان

(٢) الحوة سمرة الشفة وكانوا يحبون فى الشفة أن يضرب لونها الى السواد . الحور اشتداد بياض العين وسوادها الريط جمع ريطة وهى الثوب الأبيض اللين الرقيق .

(٣) بصرى قرية معروفة بالشام باقية للان القدد جمع قدة وهى القطعة من الشىء

(٤) البدن جمع بدنة وهى من الأبل والبقر كالأضحية من الغنم تهدى إلى مكة

(٥) أجدك يعنى أبجد هذا منك ؟ ذات السلاسل موضع

تجود الثُّرَيا فوقها وتَضَمَّنَتْ   لها بَرَدًا يُذْرِى أُصُولَ الأَسَافِلِ (١)

إذا عَذِرَاتُ الحى كان نِتَاجُها   كُرُوماً تَدَلَّى فوق أعْشَرَ مائل (٢)

ديارٌ زَهَاها اللهُ لم يَعْتَلِجْ بها   رِعَاءُ الشَّوِىِّ من وراء السوائل (٣)

وهو يشبه ريق صاحبته شعثاء بخمر الشام أو تفاحة آونة حين يقول

لشعثاء التى قـد تيمَتْه   فليس لقلبـه منها شِفـاء

كأن سَبِيئَةً من بَيْتِ رأس   يَكون مِزاجَها عَسَل وماء (٤)

على أنيابها أو طَعمَ غـضٍ   من التفاح هَصَّرَه الجَناء (٥)

ويشبهه آونة أخرى بخمر الشام قد عتقت فى الخيام ، ثم شُجت بغدير بارد يجرى فى ظل الجبل ، مسترقا بين الحجارة المتراصة ، وقد أظـله الغمام

جِنِّيـةٌ أرّقنى طيفُهـا   تَذهَبُ صُبحاً وتُرى فى المَنامْ

هل هى إلا ظبيـةٌ مُطفِلٌ   مَألَفُها السِّدرُ بنَعفَىْ بَرام (٦)

تُزَجِى غـزالا فاتراً طَرْفُه   مقاربَ الخطوِ ضعيفَ البُغام (٧)

كأن فاها ثَغَب بـارد   فى رَصَفٍ تحتَ ظلال الغمام (٨)

شُجت بِصَهْباءَ لها سَوْرَةٌ   من بَيتِ رَأسٍ عتِّقت فى الخيام (٩)

---

(١) يقول إن المطر الذى يسقط من نوء الثريا — وهو نجم — قد تضمن بردا يعصف بالشجر. الأسافل أسافل الأودية

(٢) عذرات الحى أفنيتها وساحاتها أعرف مائل جبل مرتفع قائم منتصب

(٣) زهاها الله جملها وزينها اعتلج القوم اصطرعوا وتقاتلوا. الشوى جمع شاة . السوائل جمع سيل

(٤) السبيئة الخمر سميت بذلك لأنها تستبى أى تشترى . بيت رأس موضع بالأردن مشهور بالخمر

(٥) هصره الجناء أماله . يصف التفاح بأنه قد نضج . الجناء الجنى وهو كل ثمر يجتنى لنضجه

(٦) ظبية مطفل أى معها طفل ولذلك فهى وادعة هادئة يتمثل فيها الحنان . برام واد . نعفاه جانباه

(٧) يستمرق وصف هذه الظبية المطفل التى يشبه بها صاحبته . تزجى تسوق البغام صوت الظبية

(٨) الثغب بفتحات الغدير فى ظل جبل لا تصيبه الشمس فيبرد ماؤه . الرصف الحجارة المتراصة المتدانية .

(٩) شجت مزجت الصهباء الخمر السورة الحدة

عَتَّقَتْهَا الحانوتُ دَهْراً فقد مر عليها فَرْطُ عام فَعَام[١]

ونمضى مع الشاعر بعد ذلك ، وقد نسى صاحبته ، وهام فى أحلام الثمل النشوان فهو يشرب الخمر صرفا تارة ، وممزوجة أخرى ، ثم ينطلق وقد استخفته ، مغنيا فى قصور شيدت من رخام ، تدب فى جسمه دبيب النمال فى كثيب من رمال خمر تحط من الشيخ شيخوخته ، وما أوقره من أثقال كهولته ، فيرتد غلاما عابثا لاهيا وكيف لا ترد الشيخ غلاما ، وهى من خمر بيسان ، وقد تخيرها حسان ، فهى كالترياق للأحزان ، تسرع فتر العظام ! وهذا هو الساقى ، يسعى إليه بها فى لباسه الأحمر ، وقلنسوته الطويلة ، وقد شد وسطه بحزام ، وتضمخ بالطيب خلف أذنيه ، وقد وقف وكل انتباهه للشرب ، يخف للدعوة عند أدنى حركة ، ملبياً فى خفة ونشاط .

نَشْرَبُهَا صِرْفاً وممزوجة ثم نُغَنّى فى بُيوتِ الرُّخَامْ
تَدِبُّ فى الجسم دبيباً كما دَبّ دباً وسط رِقاقٍ هَيَامْ[٢]
كأساً إذا ما الشيخُ والىَ بها خمساً تَردّى فى رِداءِ الغلام
من خمر بَيْسَانَ تَخَيّرتُها تِرْيَاقَةٌ تُسْرِعُ فَتْرَ العظام
يَسْعَى بها أحمرُ ذو بُرْنُسٍ مختلَقُ الذِّفْرى شديدُ الحِزام[٣]
أروعُ للدعوةِ مُسْتَعْجِلٌ لم يَثْنِهِ الشأنُ خفيفُ القيام

ويصف الخمر فى مجلس صالح بن علاط ، أحد أشراف بنى سليم ، وقد أحاط به شَرْبٌ كرام بيض الوجوه ، تفرقت بينهم القيان النواعم ، فى

---

(١) الحانوت الخمار الذى يبيع الخمر ، أو بيته

(٢) الدبا أصغر النمل رقاق هيام يقصد رملا مستويا لينا . يشبه دبيب الخمر فى الجسم بدبيب النمل فى الرمال . ومنه أخذ الأخطل قوله

تدب دبيبا فى العظام كأنه دبيب نمال فى نقى يتهيل

(٣) الذفرى العظم الشاخص خلف الأذن وهو أول مايعرق من الانسان يقول إن هذا الموضع مطلى بالخلوق وهو ضرب من الطيب

ثيابهن البيض الرقاق ، وقد خفق الشرطان[1] فى السماء آخر الليل ، ودارت عليهم الخمر النبطية الخالصة ، حمراء تضرب للسواد . ودعا صالح بن عِلاط بقيانه ، فانطلقن فى العزف ، بين سكون وتثن ، كأنهن الظباء وقد أوين للكناس ، أو ثنين الجيد متطاولات ، يتناولن من أوراق الأشجار . ثم طفن بين الشرب بالكئوس ، فوق بسط رقيقة الخَمَل ، مهدت للجالسين . حتى إذا استخفهم الشراب ، أمر صالح بجواريه ، فتفرقن بين الندماء بددا ، يستمتعون منهن بما يشاءون

رب لَهو شَهِدْتُه أم عَمرِو ... بين بِيضٍ نواعم فى الرِّياطِ

مَعْ نَدَامَى بِيضِ الوجوه كرامٍ ... نُبِّهوا بعد خَفْقَةِ الأشراط

الكُمَيْتِ كأنها دَمُ جوفٍ ... عُتِّقَت من سُلافَةِ الأنباط

فاحتواها فَتًى يُهِينُ لها الما ... ل ونَادَمتُ صالح بنَ عِلاط

ظل حولى قِيانُهُ عازفاتٍ ... مثلَ أُدم كَوانسٍ وعَواطِ[2]

طُفْنَ بالكأس بين شَربٍ كِرام ... مَهَّدوا خيرَ صالحِ الأنماط

ساعة ثم قال هُنَّ بِدَاد ... بينكم غَيرَ سمعةِ الإختلاط

ومن أجمل ماوصف به الشارب ، وقد أثقلته الخمر ، حتى فتر ، وخفت صوته ، وجف حلقُه ، فتوقف عن الشراب ، ومضى هو يلح عليه مقسما أن يستزيد منه

ومُشَرِقٍ النُّخامة مُستكينٍ ... لو قَنِعَ الكأسَ مُختَلِس البَيان

حَلَفتُ له بما حَجَّت قريش ... وكلِّ مُشعشَعٍ مِ الخَمْر آن

(١) الشرطان نجمان

(٢) أدم كوانس وعواط أى ظباء مستكنة فى الكناس وهو البيت الذى تتخذه فى أصول الأشجار. عواط من العطو وهو التناول وذلك حين ترفع يديها لتتناول من الشجر ثمرها يشبههن فى رقصهن وتثنيهن بالظباء فى هاتين الحالتين

لتَصطَبِحَنْ وإنْ أعْرَضْتَ عنها ولو أنّي بحَيْثُبَتِه سَقَانى [1]
فطَافَتْ طَوْفَتَيْنِ فقالَ زِدْنى وذبتْ فى الأخادِعِ والبَنَانِ [2]
فلَمْ أعْرِفْ أخى حتى اصْطَبَحْنا ثَلاثاً فانبرى خذِمَ العِنَانِ [3]
فلان الصوتُ فانبسَطتْ يداه وكان كأنه فى الغُلّ عان
ورَاحَ ثيابه الأولى سِوَاهَا بلا يَنْعٍ أمَيمٌ ولا مُهَانِ

* * *

كانت هذه الفترة هى اللب الخالص من حياة حسان الفنية أنشأ فيها أجمل شعره فى الغزل والخمر والمدح والفخر وكان مخلصاً فى مدحه لآل غسان، لأنه كان متعصبا ليمنيته، فهو يراهم أهله وعشيرته، ومادة فخره، وموضع اعتزازه واعتداده، ولأنه قد أحب الشام، وتعلق بكل ما فيها

انظر إليه كيف يذكرهم مفتخرا فى قصيدته

أجْمَعَتْ عَمْرَةُ صرْماً فابتَكِر إنما يُدْهِنُ للقَلْبِ الحَصِر

حين يفتخر بنفسه وبقومه، فيقول — مشيرا إلى ما كان لهم من مجد قديم أزاله الدهر الذى لا يؤمن —

مَنْ يَغُر الدَّهْر أو يأمَنُهُ من قَبِيلٍ بعد عَمْرٍو وحُجُر
مَلَكَا من جبلِ الثلج إلى جانبَىْ أيْلَةَ من عبدٍ وحُر
ثم كانا خيرَ من نال الندى سَبَقَا الناسَ بإقساطٍ وبِرْ

ويمضى فى الإشادة بهم. فيذكر غزوهم للفرس، وصبرهم على قتالهم. ويختم ذلك بأن يخلط نفسه وقومه بهم، فيقول إنهم يصبرون فى القتال، لأن من شيمة قومى الصبر

---

(١) الاصطباح شرب الخمر صباحا الحيبة الخال يقول لو كنت مكانه وفى حاله لسقانى كما أسقيه أنا الان

(٢) ذبت أسرعت الأخدعان عرقان فى جانبى العنق قد خفيا وبطنا والأخادع الجمع

(٣) خذم منقطع، يريد انه أكثر الكلام والهذر لما سكر وخلع عذاره

ولقــد يَعلَمُ مَنْ حارَبَنا   أننا نَنْفَعُ قِدْماً ونَضُرّ
صُبُر للموت إنْ حَلّ بنا   صادقوالبأس غطاريفُ فُخُر
وأقام العِزّ فينا والغِنَى   فلَنا منه على الناس الكُبُر
منهم أصلي فمن يَفخَر به   يعرِف الناسُ بفَخر المُفتَخِر

لحسان إذن حين يمدح آل غسان ، لا ينسى نفسه وعشيرته ، فهو يراهم أهلا وأبناء عم ، تجمع بينهم اليمنية وقد كانت هذه القرابة مادة خصبة لفخره واعتداده بنفسه وقومه ، وداعية إلى رضاه عن نسبه واعتزازه به . فأكثر من الفخر والمباهاة ، أقوى ما يكون الفخر ، وجمع فى آن واحد بين شخصيتين ، شخصية شاعر البلاط عند الغساسنة ، وشاعر الوطن السياسى بين قومه . ومن أحسن ما قال فى الغزل والفخر فى هذا الطور قصيدته :

لِمَنْ منزل عافٍ كأنّ رُسومَه   خَياعيلُ رَيْطٍ سابرِيّ مُرَسَّم (١)
خَلاءُ المَبادىء مابه غيرُ رُكَّدٍ   ثلاث كأمثال الحمائم جُثَّم (٢)
وغيرُ شَجيج ماثلٍ حالفَ البِلَى   وغيرُ بقايا كالسَّحيق المُنَمنَمَ (٣)
تعلّ رياحُ الصيف بالى هَشيمِه   على ماثلٍ كالحوض عافٍ مُثَلَّم (٤)
كسَتْهُ سرابيلُ البِلى بعدَ عَهده   وجَوْنٌ سَرَى بالوابلِ المُتَهزِّم (٥)
وقد كان ذا أهلٍ كبيرٍ وغِبطةٍ   إذا الحبلُ حبلُ الوصل لم يَتصرم
وإذ نحن جيرانٌ كثير بغِبطةٍ   وإذ ما مَضَى من عَيشِنا لم يُصَرَّم

---

(١) خياعيل جمع خيعل وهو درع يخاط أحد شقيه تلبسه المرأة كالقميص الريط الثياب اللينة. السابرى من الثياب الرقاق نسبة إلى سابور

(٢) المبادى الظواهر . ركد ثلاث يقصد بها الأثافى وهى الأحجار التى ينصب عليها القدر يشبهها ثلاث حمائم بيض جاثمة

(٣) يريد بالشجيج الوتد ماثل قائم منتصب . السحيق الثوب الخلق الذى انسحق وبلى . المنمنم المخطط

(٤) الهشيم النبت اليابس المتكسر يقول إن الرياح تعتاده مرة بعد مرة ماثل بارز قائم يقصد النؤى وهو الحوض الصغير الذى يتخذ حول الخباء لدفع المطر عنه وتصريفه .

(٥) الجون السحاب الأسود الوابل أشد المطر يقول إن هذه الرياح وتلك الأمطار أبلته

وكلُّ حَثيثِ الوَدْقِ مُنْبَعِقِ العُرَى   متى تُزجه الريحُ اللواقح يَسجُم [١]

ضعيفِ العُرَى دانٍ من الأرض بَرْكه   مُسِفٍ كمثل الطود أكظمَ أسحم [٢]

فإنْ تك ليْلَى قد نأتْكَ ديارُها   وضَنَّتْ بحاجات الفؤاد المُتيَّم

وهمّتْ بصَرْمِ الحبل بعد وِصالِه   وأصغتْ لقول الكاشح المتزعّم

فما حَبْلُها بالرَّثِ عندى ولا الذى   يُغيِّرُه نأْىٌ وإن لم تَكَلَّم

لَعَمْرُ أبيكِ الخَيْرِ ما ضاع سِرُّكِمْ   لدَىَّ فتجزينى بِعَاداً وتَصْرِمى

وما حبُّها لو وكّلتنى بوصله   ولو صرَّمَ الخِلَّانُ بالمُتصَرِّم

ولا ضِقْتُ ذَرْعاً بالهوى إذ ضمِنْتُه   ولا كظَّ صدرى بالحديث المكتم [٣]

ولا كان مما كان مما تَقوَّلوا   عَلىَّ وَنَثُّوا غيرَ ظنٍّ مرَجَّم [٤]

فإن كُنْتِ لما تخبُرينى فسائلى   ذوى العلم عنّا كى تُنَبَّى فتعلمى

متى تسألى عنا تُنَبَّى بأننا   كِرامٌ وأنَّا أهلُ عِزٍّ مقدم

وأنا عرانينٌ صقور مَصَالت   نَهُز قناةً متنُها لم يُوَصَّم

لعمرك ما المُعْتَرُّ يأتى بلادَنا   لنَمْنَعَه بالضائع المُتَهضَّم [٥]

وما السيدُ الجبارُ حين يريدنا   بكَيْد على أرْمَاحنا بمُحَرَّم

ولا ضيفُنا عند القِرَى بمُدَفَّع   ولا جارُنا فى النائبات بمُسْلَمَ

نُبيحُ حِمى ذى العِزِّ حين نكيدُه   ونحمى حِمَانا بالوَشيجِ المقوَّم

ونحن إذا لم يُبْرِمِ الناسُ أمرَهم   تكونُ على أمر من الحق مبرم

---

(١) الودق المطر   الحثيث السريع   منبعق العرى كثير الصب   تزجيه الريح تسوقه   يسجم يسيل وينصب

(٢) ضعف عراه كناية عن تحلله بالماء ، بركه معظمه وصدره   أكظم ممتلى   أسحم أسود

(٣) ولا كظ صدوى يقول إن صدرى لاتبهظه الأسرار فيعجز عن كتمانها

(٤) النث نشر الحديث الذى يحق كتمانه   وظن مرجم غير يقين

(٥) المعتر المعتفى الذى ينتاب سائلا   المتهضم المظلوم

ولو وُزِنَتْ رَضْوَى بحِلْمِ سَرَاتنا ... لمال برضوى حِلمُنا ويلملَم [1]

ونحن إذا ما الحربُ حُلَّ صِرارُها ... وجادتْ على الحلاب بالموت والدم [2]

ولم يُرجَ إلاّ كلُّ أروعَ ماجدٍ ... شديدِ القوى ذى عزَّة وتكرم

نكون زمامَ القائدينَ إلى الوغى ... إذا الفَشِلُ الرِّعديدُ لم يتقدَّمِ

فنحن كذاك الدهرَ ما هبَّت الصَّبا ... نعود على جُهالهم بالتَّحلُّم

فلو فَهِمُوا أو وُفِّقوا رُشْدَ أمرهم ... لَعُدْنا عليهم بعد بؤسى بأنْعُم

وإنا إذا ما الأُفقُ أمسى كأنما ... على حافتَيه مُمْسياً لونُ عَنْدَم [3]

لَنُطْعِمُ فى المَشْتَى ونطعَنُ بالقنا ... إذا الحربُ عادَتْ كالحريق المُضَرَّم

وتَلْقَى لدَى أبياتنا حين نُجْتَدَى ... مَجالسَ فيها كلُّ كَهْلٍ مُعَمم

رفيعِ عمادِ البيتِ يَسْتُرُ عِرضَه ... من الذَّمِّ ميمونِ النَّقيبةِ خِضْرِم [4]

ضَرُوبٍ بأعجازِ القِداح إذا شتا ... سريعٍ إلى داعى الهِياج مُصَمِّم

أشمَّ طويلِ الساعِدَيْنِ سَمَيْدَعٍ ... مُعيدٍ قِراعَ الدَّارعين مُكَلَّم [5]

---

(١) رضوى ويلملم جبلان

(٢) الصرار خيط يشد فوق خلف الناقة لئلا يرضعها ولدها وكانت العرب تصر ضلوع الحلوبات إذا أرسلوها للمرعى فاذا عادت فى العشى حلت تلك الأصرة وحلبت : شبه حسان الحرب بالناقة إذا حل صرارها محلبت درت . ولكنها لاتدر لبنا وإنما تدر موتا ودما

(٣) أراد باحرار الأفق الجدب والقحط . العندم شجر أحمر يصبغ به . يقول إنهم يجودون فى وقت الجدب والقحط

(٤) ميمون النقيبة مبارك النفس مظفر فيما يحاول خضرم جواد رفيع عماد البيت سيد . وبيوت السادة مرتفعة العمد . أما بيوت الفقراء فهى منخفضة قصيرة العمد لاصقة بالأرض

(٥) سميدع كريم . مكلم مجرح لأنه يخوض الحرب .

ونسدل الستار عن هذه الأيام ، وندع حسان فى هذا الشباب المترقرق، الذى يفيض لذه وشعرا ، لنستقبله مرة أخرى ، وقد تقدمت به السن ، ودخل فيما دخل فيه قومه من أمر هذا الدين الجديد . يأتى الإسلام فإذا حسان شاعر كبير له شهرة ونفوذ ، وهو محتاج إلى لسان قوى ، وصوت نافذ ، يدفع عنه هذه الهجمات التى تأتيه من كل مكان ، وقد تألبت عليه الجزيرة ، وأغرت به محاربيها وشعراءها على السواء فيتألفه النبى ، ويخصه بعطفه ، ولايجد حسان بدا من يكون شاعر قومه فى الإسلام

فى الجاهلية ، فيمضى فى هذا التيار الجديد ، مسجلا حروبهم فى سبيل نصرة جارهم . الذى أخذوا على أنفسهم حمايته ، ولكنه يظل جاهليا فى صميمه ، بعيدا عن التأثر الصادق بالإسلام ، فهو إذا رثى النبى ، وجدت رجلا يبكى ما ضاع من رزقه ورزق عياله .

وما فقد الماضون مثلَ محمد ولا مثلَه حتى القيامة يُفقَد
أعفَّ وأوفى ذِمةً بعد ذمة وأقرب منه نائلا لا يُنكَد
وأبذَلَ منه للطريف وتالد إذا ضن معطاءٌ بما كان يُتلِدُ

ويقول فى قصيدة أخرى

نَبٍّ المساكينُ أنّ الخيرَ فارَقَهم
مع النبي تَولَّى عنهم سَحَرا
من ذا الذى عنده رَحلِي وراحلتى
ورِزقُ أهلى إذا لم يُؤنِسوا المطرا

ويقول بعد أن يقف بآثار الرسول فى يثرب .

ظِلالتْ بها أبكى الرسول فأسعَدَت
عيونٌ ومِثلاَها من الجَفن تُسعِدُ

تَـذَكـرُ آلاءَ الرسول وما أرى
لها محضِياً نفسى فنفسى تَـبَـلَّـدُ

مُفَجَّعَةٌ قـد شفَّها فَقْدُ أحمد
فظلَّت لآلاء الرسول تُعَدِّدُ

ويقول فى قصيدة رابعة يرثيه :

مُصَدِّقاً للنبيين الألى سَلفُوا
وأبذلَ الناس للمعروف للجَادِى (١)

يا أفضل الناس إنِّى كنتُ فى نَهَر
أصبحتُ منه كمِثل المُفْرَدِ الصَّادى

ثم يريد أن يصور حزن نساء النبى ، فلا يجد غير صورة الراهبات فى مسوحهن

أمسى نساؤك عطلْنَ البيوتَ فما
يَضْرِبن فوق قَفَا سِتْر بأوتاد

مثلَ الرواهب يلبَسْنَ المُسوحَ وقـد
أيقَنَّ بالبؤس بعد النعمة البادى

*

قارىء شعر حسان فى هذا الطور من حياته ، يلمس فيه ظاهرتين بارزتين ، عصبيته اليمنية وفتور عاطفته وتكلفه فيما يمس النواحى الإسلامية .

أما عصبيته فلم يكن حسان ليدعها بحال ، ولم يستطع الإسلام أن ينسيه إياها . فهو يمنى أولا ، ثم هو مسلم بعد ذلك . فهو يكثر من الفخر بقومه ، جامعا بين مجدهم اليمنى القديم ، ومجدهم الإسلامى الجديد . فهم ملوك الجاهلية ، وحماة الإسلام ، لجأ إليهم النبى حين ضاقت به الدنيا ، فعز بجوارهم واشتد . يقول حين وفد وفد تميم على النبى :

(١) الجادى المجتدى الذى يطلب جدواه أى عطاءه

هل المَجْدُ إلا السؤددُ العَود والندى
وجاهُ الملوكِ واحتمالُ العظائم (١)

نَصَرْنا وآوَيْنا النبيَّ محمدا
على أنف راضٍ من مَعَدٍّ وراغم

بحَىٍّ حَرِيدٍ أصلُه وذِمارُه
بجابيةِ الجَوْلان وسطَ الأعاجم (٢)

نصرناه لما حلَّ وسْطَ رِحَالنا
بأسيافنا من كل باغ وظالم

جعلْنا بَنِينا دونه وبناتنا
وطِبْنا له نفساً بفَيْءِ المَغَانم (٣)

ونحن ضَرَبْنا الناسَ حتى تتَابَعُوا
على دِينِه بالمُرْهَفَات الصوارم

ويقول فى موضع آخر

أتانا رسولُ الله لما تَجَهَّمَت
له الأرض يرميه بها كل موفِقِ

تَطَرَّدُه أفناءُ قيسٍ وخِنْدِف
كتائبُ إن لا تَغْدُ للرَّوْع تَطْرُقِ

فكُنّا له من سائر الناس مَعْقلا
أشَمّ مَنِيعاً ذا شَمَارِيخ شُهَّق

---

(١) السؤدد العود القديم الذى يتكرر مع الزمان

(٢) حى حريد منفرد معتزل عن جماعته قبيلة لا يخالطهم فى حلهم وترحالهم لعزته بنفسه. جابية الجولان موضع بالشام يريد حسان الغساسنة فهؤلاء أهل الجابية وسط الأعاجم يعنى الروم

(٣) يقول قد طبنا له نفسا بفيئه وهو [illegible] غنائم فى [illegible] أعطيناه ذلك عن طيب نفس لم نكره عليه

كان حسان يكره المضرية ، ويبغض هذا النفر من المهاجرين ، لا يراهم إلا مستضعفين قد لجئوا إليهم محتمين . فهو ينفس عليهم مايصيبون من خير ، ومايستمتعون به من عطف النبي وحبه . وهذا هو رسول الله ، يقسم المغانم يوم الفتح فى قريش وفى قبائل العرب من عدنان ، فيكثر اللغط بين الأنصار ، ويقول قائلهم : لقد والله لقى رسول الله قومه . فيرتفع صوت حسان ، معبرا عن سخطهم ، معددا أياديهم عند النبي ، وقديم صنيعهم فى الإسلام .

عَلاَمَ تُدعَى سُلَيْمٌ وهى نازِحةٌ
قُدَّامَ قومٍ هُمُ آوَوا وهم نَصَروا
سمَّاهم اللهُ أنصاراً لنصرهمُ
دينَ الهدى وعَوانُ الحربِ تَسْتَعِرُ
وسارَعُوا فى سبيل الله واعتَرَفُوا
للنائباتِ وما خاموا ولا ضَجِروا
والناسُ إلْبٌ علينا فيكَ ليس لنا
إلا السيوفَ وأطرافَ القنا وَزَرُ (١)
ولا يَهِرُّ جنابَ الحَربِ مَجْلِسُنا
ونحن حين تَلَظَّى نارُها سُعُرُ (٢)
وكم رَدَدْنا ببدرٍ دون ما طلبوا
أهلَ النفاقِ وفينا أُنزِل الظَّفَرُ
ونحن جُندُك يومَ النَّعْفِ من أُحُدٍ
إذ حَزَّبَتْ بَطَراً أشياعَها مُضَرُ

---

(١) الناس إلب علينا فيك مجتمعون على عداوتنا بسببك . وزر ملجأ يوم لم يكن لنا ملجأ نلجأ إليه إلا سيوفنا ورماحنا

(٢) هر الشيء يهره هريرا كرهه الجناب الناحية يقول إننا لانكره الحرب ولا نملها

فما ونَيْنَا وما خِنَّا وما خبروا
منا عِثاراً وجلُّ القوم قد عَثروا

ويجمع النبي هذا الحي من الأنصار ، وقد خشى الفتنة فيلاطفهم مترضيا ، ويعتذر إليهم بأنه إنما تألَّف من تألَّف بالشاة والبعير وعرض الدنيا ليسلموا ، ووَكَلهم إلى إسلامهم وإلى ثواب الله فينصرف القوم راضين [١]

ولقد بلغ من جفاء حسان أن يتهم عائشة زوج النبي بصفوان بن المعطل فى حديث الإفك ، حتى يكثر فى ذلك اللغط ، ويشك النبي فى إخلاصها . ثم ينزل القرآن ببراءتها ، ويُحَدُّ حسان فيما جاء به من الإفك . ويوصف بأنه هو الذى تولى كِبْرَه (إنّ الذين جاءوا بالإفك عُصبة منكم لا تحسبوه شرًّا لكم ، بل هو خير لكم . لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم . والذى تولَّى كِبْرَه منهم له عذاب عظيم .) .

ويجلس حسان يوما إلى أُطُمه فارع ، ومن حوله أصحاب له قد مد لهم بساطا ، ويرى كثرة من يقبل على النبي من المهاجرين ، فيهزأ بهم قائلا

أمسى الجلابيبُ قد عزوا وقد كَثُروا
وابنُ الفُرَيعَةِ أمسى بيضةَ البلد [٢]

جاءت مُزَينةُ من عَمقٍ لتُخرِجَنى
اخسىءْ مُزَينُ وفى أعناقكم قِدَدِى [٣]

يمشون بالقول سِرًّا فى مهادنة
يهدّدونى كأنى لستُ من أحدِ

---

(١) السيرة ٤ : ١٤٢

(٢) الجلابيب جمع جلباب وهو الإزار كنى بذلك عن [illegible] القرشيين . الفريعة أم حسان . بيضة البلد منفردا كالبيضة المتروكة فى الصحراء .

(٣) مزينة هم بنو عمرو بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر نسبوا لأمهم . خسأ الكلب طرده فهو خاسىء مبعد صاغر . القدد جمع قد وهو السير من الجلد شبههم بالكلاب فى أعناقهم القدد

قد ثَكِلَت أُمّه من كنتُ واجدَهُ
وباتَ مُنتَشِباً فى برثُنِ الأسد
ما البحرُ حين تهُبُّ الريحُ شامِيَةً
فيَغْطَئِلُّ ويَرمِي العِبْرَ بالزَبَد [١]
يوماً بأغلبَ منى يومَ تُبْصِرنى
أفرى من الغيظ فَرْىَ العارضِ البَرِد [٢]
ما للقتيل الذى أسمو فآخُذُه
من دِيَة فيه يُعْطاها ولا قَوَد [٣]

ويغتنم صفوان بن المعطل هذه الفرصة ليشفى منه نفسه ، فينطلق إليه بسيفه ، ويضربه قائلا

تَلَقَّ ذُبابَ السيفِ مِنى فإننى غلامٌ إذا هُوجِيتُ لستُ بشاعر

ويتعصب قوم حسان له ، فيثبون على صفوان . ثم يرضى النبى حسان ، بأن يهب له سيرين أخت مارية القبطية (وهى أم ولده عبد الرحمن) ، ويُقطِعه حديقة باعها بعد ذلك لمعاوية

كان النبى يعرف من حسان هذا التعصب البغيض ، ولكنه كان يغضى عنه . لأنه لا يريد أن يثير قومه من الأنصار ، فيحدث فى المدينة فتنة ، تنتهى بتفريق كلمة المسلمين وضعف أمرهم ثم هو محتاج إلى لسانه وإلى شعر صاحبيه الخزرجيين ، عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك . وهو يعرف لقومه بعد ذلك فضلهم فى إيوائه ونصرته ، حين ناصب قومه العداء .

أما فتور عاطفة حسان وضعف شعره الإسلامى، فشىء معروف قد لاحظه القدماء من قبل . كان الأصمعى يقول (الشعر نَكِدٌ بابه الشر . هذا حسان

---

(١) يغطئل يركب بعضه بعضا لتلاطم الأمواج . العبر جانب البحر أو النهر

(٢) العارض السحاب . البرد الذى فيه برد .

(٣) يقول ليس للقتيل الذى أقتله دية أو قود والقود القصاص وقتل القاتل بالقتيل .

ابن ثابت ، فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره)
والواقع أن الحياة الإسلامية لم تحرك من حسان عاطفة ، ولم تنس من قلبه وتراً . فهو رجل قد شب وشاب فى الجاهلية ، ثم دخل فى الإسلام وقد تم تكوينه الخلقى والفنى ، واتخذ مزاجه شكلا لا سبيل إلى تحويره أو تعديله . قطع الإسلام ما بينه وبين الشام ، وكان يحبها ويتعلق بها . وحرمه عطاء ملوكه ، وكان وافراً جزلا . وحال بينه وبين هذه الحياة اللاهية المترفة ، التى لم يزده البعد عنها إلا شوقا إليها

بين يدينا شعر إسلامى كثير ينسب لحسان ، ربما كان شطر كبير منه قد أضيف إليه وحمل عليه كما يقول ابن سلام ولكن هذا الشعر فى جملته ، لايصور عاطفه صادقة ، ولايظهر فيه أثر للحياة الإسلامية الجديدة ، ولا يبدو أن صاحبه قد تأثر بها أدنى تأثر . ففيه كثير من الضرورات التى تصور شعراً مرتجلا أنشىء على عجل ، لم يعن صانعه بإحكامه ، ولم يكلف نفسه عناء مراجعته .

والأمثلة على هذه الضرورات كثيرة . منها وصل همزة القطع فى مثل قوله :

وأنت ابنَ المغـــيرة عبدُ شَوْلٍ   قد اندَبَ حَبْلَ عاتِقكَ الوِطَابُ (١)

وقوله :

إن الفَرافِصَةَ بن الاحوصِ عنده
شَجَنٌ لأمك من بَنَاتِ عُقَابِ (٢)

وقوله :

جعلتم فَخرَكُمْ فيه لعَبْد
من الأمِ من يَطَا عَفَرَ التُراب

---

(١) ابن المغيرة هو الوليد بن المغيرة . الشول جمع شائلة والشائلة من الابل ماأتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها . ويقصد بعبد شول راعى إبل . الوطاب جمع وطب وهو سقاء اللبن أو الزق الذى يكون فيه اللبن يعلقه الراعى فى عاتقه . الندوب آثار الجراح .

(٢) عقاب هذا كانت بناته إماء للفرافصة بن الأحوص الكلبى . يقول للحارث بن هشام بن المغيرة إن الفرافصة عنده من خبركم مايحزن أمك ويخزيها . وعقاب عبد كان لبنى تغلب تزوج جد الحارث لأمه احدى بناته .

ومنها تسهيل الهمزة فى مثل قوله :

مَشُومٌ لَعِينٌ كان قِدْماً مُبَغَّضاً تبَيّن فيه اللُّؤمَ من كان يهتدِى

وقوله

كَفَرْتُم بالقُرَان وقد أُتيتُم بتصـديق الذى قال النـذير

ومنها ترك إشباع الضمير وتسكينه فى مثل قوله :

أبلغْ رَبيعَةَ وابن أمّه نوفلا أنى مُصيبُ العَظْمِ إن لم أصفح

كان حسان يأخذ معانى القرآن ، فيديرها فى رأسه ، ثم يرسلها نظماً فاتراً بعيداً كل البعد عن أن يكون قد قد مر بقلبه ، أو امتزج بنفسه يقول فى يوم أحد

حتى إذا وَرَدُوا المدينةَ وارتجوا قتـلَ النبي ومَغْنَمَ الأسلاب

وغدَوا علينـا قادرين بأيدِهِمْ رُدّوا بغيظِهِمُ على الأعقاب

بهبوب مُعصِفَةٍ تُفرِّق جَمْعَهم وجُنُود ربِّك سَيِّدِ الأرْباب

وكفى الالهُ المؤمنـين قتالَهم وأثابهم فى الأجـر خيرَ ثواب

فهو نظم لقوله تعالى (وَرَدَّ اللهُ الذين كَفَرُوا بغَيظِهمْ لم ينالوا شيئا وكَفَى اللهُ المؤمنينَ القتال) ولكنه نظم سقيم يحشو فيه الألفاظ حشواً فقوله (بأيدِهِمْ) فى البيت الثانى زائد لا مكان له . وإسناد رب إلى ضمير المخاطب فى البيت الثالث غير حسن ، فهو رَبُّ كل الناس . وقوله بعد ذلك (سيد الأرباب) سخيف ، يفهم أن هناك أربابا آخرين هوسيدهم . وقوله فى البيت الرابع (الإله) بشعر بشيء من التنكير ، لا نجده فى لفظ الجلالة (الله) .

والأمثلة على هذا النظم الفاسد لآيات القرآن وألفاظه كثيرة ، لا تكاد تخلو منها قصيدة من قصائده الإسلامية الطوال . ومع ذلك فقد نظفر بشعر إسلامى جيد لحسان . ولكننا إذا تفحصنا مثل هذا الشعر ، وجدناه خلوا من كل إشارة للإسلام أو تأثر بتعاليمه . فهو ينشئه على طريقة الجاهلية ،

مسجلا مفاخر قومه ، وشدة بطشهم بأعدائهم من قريش . ومن الأمثلة على هذا الشعر القوى ، قصيدة له فى يوم أحد ، يبدأها بغزل رقيق ، لا يلبث أن ينتقل منه إلى الفخر بنسبه وبقومه ، وما لهم من قديم ، ثم يتناول أعداءهم من قريش ، متشمتاً بما لحقهم من هزيمة على يد قومه . ونحن نسوق هذه القصيدة ، لنرى الفرق البعيد بينها وبين الأبيات السابقة ، التى أنشئت فى الموضوع نفسه

يبدأ حسان بذكر صاحبته ، وما ينتابه من هموم ، إذا أقبل العشاء ، وتغوّرت النجوم ، وامتنع عليه النوم ، من ذكرى حبيب أصاب قلبه بالسقم ، ويعجب من أمره وإياها ، كيف يقتل مثلها مثله وهى واهنة البطش والعظام ! ويمضى فى تصوير صاحبته . فهى ناعمة مترفة ، هَمُّها العطر والفراش ، يزينها حلى من فضة ولؤلؤ منظوم ، لو دَبَّ الذَّرُّ على جلدها الرقيق لأندبه بالكلوم يالها من رائعة الحسن ! لم تكن شمس النهار لتفوقها روعة (غَيْرَ أنَّ الشبابَ ليس يدوم !) .

ويمضى حسان فى الفخر بنفسه وبآبائه فخاله خطيب جابية الجولان عند النعمان ، وأبوه السيد الشريف الذى ارتضى الأوسُ والخزرجُ حكومته يوم التقت فى سميحة الخصوم . وهو الصقر عند باب النعمان ، إذ يشفع فى إطلاق فلانٍ وفلانٍ من قومه فتُحَطَّمْ عنهم الأغلال . فهو أوسط قومه شرفا ، وأرفعهم مجدا وكم من حالِمٍ أضاعه عدم المال ، وكم من جهل وخمول غطى عليه النعيم ! .

وينتقل من ذلك إلى التعريض بأعداء قومه من قريش ، وما يزجى إليه شعراؤهم من هجاء ، فيقول ما أبالى نبيب تيوسهم ، ولا أهْتَمُّ لشتم لؤمائهم بظهر الغيب . فهذه أفعالنا تدل علينا ، وفعل الزِّبَعْرَى خامل مذموم وإنما وَلِىَ البأسَ منهم يوم القتال بنو عبد الدار بن قُصَىٍّ ، إذ يتبادل منهم اللواءَ تسعةٌ وسط القنا المسجور ، فيتساقطون واحداً تلو الآخر . ثم تَوَلّى

الجمعُ وقد أبيدوا ، فكلهم مُذَمم مدحور ، تسيل كلُومُهم دماً أحمر . ولقد كان من الحفاظ أن يُقيموا (إنَّ الكَرِيمَ كريم) بَلىَ قد أقاموا ! ولكنهم أزِيروا شَعُوبا ، والقنا فى نحورهم محطوم . تلوذ منا قريش لواذاً ، وقد خَفَّت منهم الحلوم ، ووهن العزم ، فلم تُطِق عواتقُهم حمل اللواء ، (وإنما يَحْمِل اللواءَ النُّجُومُ) .

منع النومَ بالعِشَاء الهُمومْ ... وخيالٌ إذا تَغُور النجومْ

يقول بعد الغزل والفخر

ما أبالى أَنَبَّ بالحَزْن تَيْسٌ ... أم لَحَانى بظَهر غَيْب لئيمُ

تلك أفعالُنا وفعلُ الزِّبَعْرَى ... خاملٌ فى صديقه مذموم

ولىَ البأسَ منكم إذحضرتم ... أُسْرَةٌ من بنى قُصَىٍّ صميم

تِسْعةٌ تحمل اللواءَ وطارت ... فى رَعَاعٍ من القنا مخزوم [(١)]

لم يُوَلُّوا حتى أُبيدوا جميعاً ... فى مَقامٍ وكلُّهم مذموم

بدمٍ عاتكٍ وكان حِفَاظاً ... أن يقيموا إن الكريمَ كريمُ

وأقاموا حتى أُزِيرُوا شَعُوبا ... والقنا فى نحورهم محطوم [(٢)]

وقريش تلوذ منا لواذاً ... لم يقيموا وخفَّ منها الحُلُوم

لم تُطِقْ حَمْلَه العَوَاتقُ منهم ... إنما يحمل اللواءَ النُّجومُ

شعر حسان فى هذا الطور الإسلامى قوى ، حين يترك نفسه الجاهلية على سجيتها ، فإذا تكلف مبادىء الإسلام ، وحاول أن يتأثر فى شعره معانى القرآن ، تبلد طبعه ، وضعف شعره ، وبدا وكأنه يصدر عن آلة صماء ، تحكى ألفاظا باردة ، ليس فيها حرارة أو حياة . . . .

---

(١) يريد التنويه ببنى عبد الدار بن قصى إذ صبروا يوم أحد ، ويريد التشهير ببنى مخزوم إذ انهزموا بأس الحرب . صميم خالصة النسب الرعاع الضعفاء من القنا أى خوفا من القنا .

(٢) شعوب اسم للموت وهو بفتح الشين .

كانت مكانة حسان الشعرية فى هذا الفن تقوم على الهجاء الموجع ، الذى يرمى به أعداء الإسلام . وقد كان هجاؤه موجعا ، لأنه لا يقوم على هذه المثل الإسلامية ، التى يهزأ بها القوم . ولا يضيرهم أن يعيروا بإنكارهم لها ، وخروجهم عليها

كان حسان يوجع أعداءه بالهجاء المفحش الذى يلائم جفاء البـــدو وخشونة طبعائعهم ، فيتردد على ألسن الرواة ، ويتندر به الأعراب فى أسمارهم ، لما فيه من صور بارعة ، تضحك هذه الأذواق الغليظة ، التى لم ترققها الحضارة ، ولم يهذبها التثقيف والتعليم . وهذا الفحش هو فى حقيقة الأمر لون من الصراحة العارية من اللياقة وإمعان فى الواقعية ، يأباه الذوق الحضرى المهذب ، ولكنه يعجب البدوى الفظ ، الذى يتعلق بالفاقع الصارخ من الألوان ، ولا تستخفه النكتة الرقيقة الخفية الدلالة . فهو لا يرى الشاتم قد أبلغ وأوجع ، حتى يخوض فى الآباء والأمهات ، والأعراض والعورات . ولا يرى المتهزىء الساخر قد أجاد وأسمع ، حتى تملأ نكتته الأشداق بالضحك الصاخب .

ولا نرانا قد بلغنا من تصوير حسان مانريد ، حتى نقدم أمثلة من هذا الشعر الفاحش ، وإن كان الباحثون يفضلون فى مثل هذه الحالات أن يمروا بهذا الشعر مرورا هينا ، ويشيرون إليه من بعيد ، متحرجين من روايته . والواقع أنه لا يكفى أن يقال إن لحسان شعرا مفحشا . فهذا الفحش . لا يمكن أن يعرف نوعه ومقداره ، حتى تقدم منه صور . وهذا الفحش ناحية من حسان . ولابد لدارسه أن يعرفه كما هو على حقيقته ، بخيره وشره . ولماذا نتحرج نحن فى الأدب من رواية مثل هـــذا الشعر ، والفقهاء لا يتحرجون فى مثل هذه الظروف من التفصيل والتطويل ، حين يحتاج إليهما التفسير والتوضيح ؟

من أوضح مايصور هذا اللون فى هجاء حسان قصيدته فى هند أم معاوية يوم أحـــد

أَشِرَتْ لَكَاعِ وكان عادَتَها لُؤْمٌ إذا أَشِرَتْ مع الكُفْرِ

لَعَنَ الإلهُ وزوجَها معها هندَ الهُنُودِ طويلةَ البَظْرِ

أَخْرَجْتِ مُرقِصةً إلى أُحُدٍ في القومِ مُعْنِقَةً على بَكْرِ (١)

بَكْرٍ ثَفَالٍ لا حَرَاكَ به لا عَنْ مُعَاتَبَةٍ ولا زَجْرِ (٢)

وعصاكِ إِسْتُكِ تَتَّقِينَ به دَقَّ العُجَايَةِ عارِيَ الفِهْرِ (٣)

قَرِحَت عَجِيزَتُها ومَشْرَجُها من نَصِّها نَصًّا على القَهْرِ (٤)

ظَلَّت تُداوِيها زَمِيلَتُها بالماء تَنْضَحُه وبالسِّدْرِ

أَقْبَلْتِ زائرةً مُبَادِرَةً بأبيكِ وابنِكِ يومَ ذي بَدْرِ (٥)

ونسيتِ فاحشةً أتيتِ بها ياهندُ ويحَكِ سُبَّةَ الدهرِ

فرَجَعْتِ صاغرةً بلا تِرَةٍ مما ظَفِرْتِ به ولا وِتْرِ

زَعَمَ الولائدُ أنها وَلَدَتْ ولداً صغيراً كان من عُهْرِ

بل هو يتهمها فى موضع آخر، بأنها كانت تحمل سفاحا . فتدفن أولادها سرًّا فى الصحراء ، سَتْراً للعار :

لِمَنْ سَوَاقِطُ صبيانٍ مُنَبَّذَةٍ باتَتْ تَفَحَّصُ فى بطحاءِ أجيادِ

باتَتْ تَمَخَّضُ ما كانت قوابلُها إلا الوُحُوشَ وإلا جِنَّةَ الوادى

---

(١) مرقصة ترقص البعير وذلك حين تسرع فى السير معنقة مسرعة كذلك .

(٢) ثفال بطىء . الزجر حث البعير على السير . يقول إن البكر الذى يحملها كان بطيئا وليس ذلك لأنه لم يزجر ويستحث ولكن لأنها ثقيلة عليه .

(٣) العجاية عصب فيه فصوص كانوا إذا جاعوا دقوه وأكلوه وكانوا يدقونه بين فهرين والفهر الحجر يملأ الكف يدق به الجوز وغيره . يقول لها حسان إن استك هى عصاك التى تدفعين بها يدقه خشب الرحل كما يدق الفهر العجاية .

(٤) النص التحرك على الدابة لحثها على السير . العجيزة الدبر . المشرج العصبة بين الدبر والفرج . يقول إن عجيزتها ومشرجها قد تقرحا من كثرة حركتها على البكر لحثه على السير.

(٥) أبوها عتبة بن ربيعة وعمها شيبة بن ربيعة قتلا يوم بدر . وابنها حنظلة بن أبى سفيان قتل كذلك يوم بدر وأخوها الوليد بن عتبة قتل كذلك يوم بدر .

فيهم صَبِيٌّ له أم لها نَسَب   فى ذِرْوَةٍ من ذرى الأحساب أيّادِ

تقول وَهْنًا وقد جَدَّ المَخَاضُ بها   ياليتنى كنتُ أرعى الشَّوْلَ للغادى

قد غادروه لِحُرِّ الوجه مُنْعَفِراً   وخالُها وأبوها سَيِّدُ النَّادى

ويقول فى هجاء بنى سهم ، وفى هجاء عمرو بن العاص بن وائل ، (وأمه النابغة امرأة من عَنْزَة) .

أما ابنُ نابغةَ العبدُ الهجينُ فَقَدْ
أُنْحِي عليه لساناً صارماً ذَكَرا

ما بال أُمِّكَ راغتْ عند ذى شَرَفٍ
إلى جُذَيْمَةَ لما عفَّت الأَثَرا [1]

ظَلَّت ثلاثاً ومِلْحَانٌ مُعانِقُها
عند الحَجُونِ فما مَلاَّ ولا فَتَرا [2]

يا آل سَهْمٍ فإنى قد نصحتُ لكم
لا أَبْعَثَنْ على الأحياءِ من قُبِرا

أمَّا هِشَامٌ فرجلاً قَيْنَةٍ مَجَنَتْ
باتت تُغَمِّزُ وسْطَ السامِرِ الكَمَرا [3]

لولا النبيُّ وقولُ الحقِّ مُغْضِبَةٌ
لما تَرَكْتُ لكم أنثى ولا ذكرا

ولست أدرى أى شىء قد ترك حسان إكراماً للنبى ؟ وماذا كان عساه قائلا لولاه !

---

(١) راغت مالت عن القصد . ذو شرف موضع . جذيمة اسم رجل . يقول له هلا خبرتنى خبر أمك انحرفت عن الطريق الى ذلك الرجل معفية آثار أقدامها على الرمال خشية أن تتبع

(٢) ملحان عبد لخزاعة الحجون جبل بمكة .

(٣) الماجن الذى يرتكب المقابح المخزية ولا يبالى العذل والتقريع . الكمر جمع كمرة وهو رأس الذكر ، الغمز العصر والكبس باليد .

وقال لسلامة بن رَوح بن زِنبَاع الجُذَامى — وكان يلى عشورَ الروم بالشام

سلامةُ دُميَةٌ فى لَوْحِ باب ‏ ‏ هُبِلتَ ألا تُعِزُّ كما تُجِيرُ

تَقَلَّدَ أيْرَ زِنبَاعٍ ورَوْحٍ ‏ ‏ سلامةُ إنه بئس الخَفِيرُ

ولا ينفكُّ ما عاش ابن رَوحٍ ‏ ‏ جذامى بذِمَّتِه خَتُور

ويقول فى هجاء بنى سُلَيْم بن أشجع :

ولو شهِدَتْنى من مَعَدٍّ عصابة

سِوَى نَاكَةِ المِعْزَى سلَيم بن أشجَعِ

بنو عمٍّ دارِ الذُّلِ لُؤْماً ودقة

وأحلامِ تَيْسٍ يَمَّمَ الدارَ أسفع

ويقول فى هجاء بنى المغيرة

هَلاّ منعتم من المَخْزاةِ أمَّكُم

عند الثَّنِيَّةِ من عمْرِو بن مَخْمُوم

أسلمتُمُوها فباتَتْ غيرَ طاهرةٍ

ماءُ الرجالِ على الفَخذَيْنِ كالمُومِ (١)

ويقول فى هجاء قوم

ذهبَتْ قريش بالعَلاءِ وأنتُمُ

تَمْشُونَ مَشيَ المومساتِ الخُرَّعِ

فذَرُوا التخَاجُؤَ وامنَعوا أسْتَاهَكُمْ

وامشوا بمَدْرَجَةِ الطريقِ المَهْيَعِ

أنتُم بَقِيَّةُ قوم لوطٍ فاعلموا

وإلى خِنائِكم يُشارُ بإصبَع

---

(١) الموم الشمع

هذا إمعان فى الفحش ، لا نجد له مثيلا فى الشعر الجاهلى ، ولا نكاد نعرف له نظيرا إلا فى نقائض جرير والفرزدق . ونحن لا نريد أن نمضى فى التحليل والاستنتاج ، لأنا لا نعرف كم من هذا الشعر المفحش الكثير تصح نسبته لحسان ، وكم منه قد أضيف إليه وحمل عليه ولكنا نلاحظ أن المنسوب له فى ديوانه من هذا الشعر كثير ، لا يعد له فى الشعر الجاهلى شىء . ومن الحق أنا لانزال نجد أمثلة من هذه الدعابات النابية ، والنكت العارية ، فى مجالس العامة ، وفى الطبقات التى لم تنل حظاً من الثقافة . ولكن هذا القدر الكبير من الشعر الفاحش ، إن صحت نسبته لحسان ، فهو يصور إلى جانب جفاء الطبع ناحية نفسية خاصة ، تغلب عليها الشهوة الجنسية ، وتميل بطبيعتها للفحش ، لأنها تجد فيه راحة لاذة . ولقد بلغ من غلظ طبع حسان أن يطلق امرأة تزوجها من أسلم ، ثم يَتْبَعُها وقَوْمَها بالهجاء . فيعيرها بأنه كان يفعل بها ويفعل

قد رَغِبُوا زَعَمُوا عنى بأختهم ... وفى الذُّرَى نسبى والمجدُ مرفوع

ويل امِّ شَعْثَاءَ شيئاً تَسْتَغِيثُ به ... إذا تَجَالَهَا النَّعْظُ الأفاقيعُ (١)

كأنه فى صَلاَهَا وهى بارِكَةٌ ... ذِراعُ آدمَ من نَطَاةَ مَنْزوعُ (٢)

وهذا الفحش مناف للآداب الإسلامية التى تحرص على الأعراض ، وتمنع من قذفها ، وتعاقب على ذلك بالجلد . ولكن حسان لم يكن حريصا على الآداب الإسلامية ، فهو يذكر الخمر فى مواضع كثيرة من شعره الإسلامى ، مع أن الدين قد حرمها

يقول فى يوم الفتح من قصيدته :

عفت ذات الأصابع فالجِواءُ ... إلى عذراء منزلها خلاء

كأن سبيئةً من بيت رأس ... يكون مِزَاجها عسلٌ وماء

---

(١) الأفاقيع الذى يفقع وتسمع له صوتا مثل تفقيع الأصابع وهو صوتها إذا فرقعت .

(٢) الصلا وسط الظهر من الانسان

على أنيابها أو طَعْمُ غَضٍّ من التفاح هَصَّرَهُ الجناء
إذا ما الأشرِبَاتُ ذُكِرْنَ يوماً فهُنَّ لطيِّبِ الراحِ الفداءُ
نُوَلِّيهَا المَلامَةَ إن ألمْنا إذا ما كان مَغْثٌ أو لحَاء
ونشربها فتتركنا ملوكا وأسداً ما يُنَهْنِهُنَا اللقاء

ويقول فى يوم بدر

تَبَلَتْ فؤادك فى المنام خريدةٌ تسقى الضجيعَ ببارِدٍ بسَّام
كالمسك تخلطه بماء سحابة أو عاتقٍ كدم الذبيح مدام

ويقول من قصيدة يفتخر فيها بمجد قومه فى الجاهلية وفى الإسلام :

وفيما اشتهوا من عصير القِطافْ وعَيْشٍ رَخِيٍّ علىَ غيرهم

نقول إن حسان لم يكن حريصا على الآداب الإسلامية . ورجل يقول فى زوجته ماقال بعد أن يطلقها ، ورجل يسىء الظن بزوج النبى ويجهر باتهامه لها ، ورجل يحن إلى حياة اللهو العابثة هذا الحنين بعد إسلامه ، خليق أن يمارس لذته الفاحشة ، فى الباب الوحيد الذى تركه له الإسلام مفتوحا ، وهو الهجاء .

بقيت خاصة من خصائص حسان الفنية فى الهجاء ، قد أشرنا إليها فى حديثنا عن الحطيئة ، وهى براعته فى خلق الصور الفنية وابتكارها وهذه موهبة تتيح للهجائيين بنوع خاص كثيراً من الشهرة والذيوع . فهى تصور إلى جانب الذكاء بصيرة هجائية ، وروحا فكهة ، لا تنظر إلى الأشياء إلا لتسخر منها ، وترى فيها شبها قريبا بألوان مضحكة من الصور .

يقول فى هجاء رجل من بنى عابد بن عبد الله المخزومى

فإن تَصْلُحْ فإنَّكَ عابِدِى وصُلحُ العابدىِّ إلى فَساد
وإن تَفْسُدْ فما أُلفيتَ إلا بعيداً ما علمتُ من السَّداد
على ما قام يَشْتِمُنى لئيمٌ كخنزير تمرَّغَ فى رماد

وقال فى هجاء رجل من المنافقين اسمه الضحاك :

أبلِغْ أبا الضحاك أن عُروقه ... أعيَتْ على الإسلام أن تَتمجّدا

أتُحِبُّ يُهدَانَ الحِجاز ودِينهم ... كَبِدَ الحِمارِ ولا تُحِبُّ محمدا

وقال لسعد بن أبي السرح (واسم أمه مهانة) :

ووالله ما أدرى وإنى لسائل ... مَهَانةُ ذاتُ الخَيْفِ ألأمُ أم سعد

أعبدٌ هَجِين أحمرُ اللونِ فاقِع ... مُوتَّرُ عِلباءِ القفا قطط جعْدُ [1]

وقال فى هجاء بنى عابد :

سألتُ قريشاً كلّها فشِرارُها ... بنى عابد شَاهَ الوجوهُ لعابد

إذا قعدُوا وسْطَ النّدِىّ تجاوبوا ... تجاوُبَ عِدَّان الربيعِ السَّوافِد [2]

وما كان صَيفِىٌّ ليوفى بذِمّةٍ ... قَفَا ثعلبٍ أعيَى ببعضِ الموارِد

وقال يهجو الحارث بن كعب ، رهط النجاشى الشاعر

حارِ بنَ كعب ألا الأحلامُ تزجركم

عنّا وأنتم من الجُوفِ الجماخير [3]

لا بأس بالقوم من طُولٍ ومن عِظَمٍ

جِسْمُ البغالِ وأحلامُ العصافير

ذَرُوا التخاجُؤ وامشوا مِشْيةً سُجُحاً

إن الرجالَ ذوو عَصْبٍ وتذكير [4]

---

(١) الهجين الذى ولد من أمة والعرب تسمى الهجين أحمر اللون تشير إلى أنه غير عربى العلباء عصب العنق . قطط جعد قصير .

(٢) الندى النادى وهو مجلس القوم للسمر عدان أصله عتدان جمع عتود وهى الجدى الذى استكرش . السوافد من السفاد وهو نزو الذكر على الأنثى .

(٣) الجوف جمع أجوف . الجماخير جمع جمخور وهو الواسع الجوف والمراد الضعفاء المسترخون

(٤) التخاجؤ التباطؤ فى المشى أو التبختر . العصب شدة الخلق . المشية السجح السهلة .

كأنكم خُشُب جُوف أسافله
مثقَّبٌ فيه أرواحُ الأعاصير
ألا طِعَانٌ ألا فُرسانُ عَادِية
إلا تَجَشُّؤُكُمْ حولَ التَّنَانِير ! [1]

وقال فى هجاء بنى سهم بن عمرو بن هصيص :

والله ما فى قريشٍ كلِّها نفر
أكثر شيخاً جباناً فاحشاً غمرا
أَذَبُّ أصلعُ سِفسِيرٍ له ذَأَب
كالقِرْدِ يَعجِمُ وسطَ المجلسِ الحَمْرا
هذَنٌ مشائيم محروم ثويّهُم
إذا تَروحَ منهم زُوِّدَ القَمَرا [2]

وقال فى هجاء بنى الحماس :

أما الحِماسُ فإنى غيرُ شاتمِهم
لاهمْ كِرام ولا عِرْضى لهم خَطَرُ
كأن رِيحَهُم فى الناس إذ بَرَزُوا
رِيحُ الكِلابِ إذا ما بَلَّها المطر
أولادُ حَامٍ فلن تلقى لهم شَبَها
إلا التُّيُوسَ على أكتافها الشعَر [3]

---

(١) التجشؤ تنفس المعدة عند الامتلاء . التنانير جمع تنور وهو نوع من الأفران . يقول إنكم لستم أصحاب قتال وهمكم أن تحلسوا إلى مواضع الطعام تتجشئون وأنتم تطيفون حولها

(٢) يقول إن ضيفهم يبيت محروما فإذا رحل لم يزودوه غير القمر أى لم يزودوه شيئا

(٣) أولاد حام حبش سامى . نفاهم من العرب

شِبهُ الإماءِ فلا دِينٌ ولا حَسَبُ

لو قامروا الزَّنْجَ عن أحسابهم قُمِروا

تلقَى الحَمَاسِي لا يمنَعْك حُرمَتَه

شبْه النَّبِيط إذا استغبدتهم صَبَرُوا

هذه الصور الساخرة المضحكة التى لا تخلو من إفحاش ناب فى كثير من المواضع ، وهذه الألفاظ المختارة لمثل هذه الصور ، هى التى أكسبت حسان مكانته الخاصة ، وأتاحت له الذيوع العريض ، وجعلته أشد على أعداء الإسلام من وقع النبل ، كما قال النبى . وأكثر ما يكون شعر حسان لاذعا قارصا ، حين يقصر فلا يتجاوز الأبيات ، مثل أبياته فى هجاء المغيرة ابن شعبة

لو ان اللؤمَ يُنسَبُ كان عبداً	قبيحَ اللون أعوَرَ من ثقيف
تركتَ الدينَ والإسلامَ جَهلا	غداةَ لقيتَ صاحبة النَّصِيف
وراجعْتَ الصبا وذكرتَ لهواً	من الأحشاءِ والخَصْرِ اللطيف

ومثل أبياته فى هجاء أبى سفيان ، فى قتل صهره أبى أزيهر الدوسى (قتله هشام بن الوليد بن المغيرة [١]

غدَا أهلُ حِضْنى ذى المَجَازِ بسحْرَةٍ

وجَارُ ابنِ حَرب بالمُحَصَّبِ ما يَغدو [٢]

---

(١) كان أبو أزيهر رجلا من الأزد وإنما سمى الدوسى نسبة لأخواله . وكان حليفا لأبى سفيان ابن حرب ثم زوج بناته فى قريش زوج إحداهما لأبى سفيان ، والأخرى عتبة بن ربيعه ، وزوج الثالثة للوليد بن المغيرة ، ثم أمسكها عنه ، لما بلغه من سوء خلقه ، ولم يرد إليه المهر فانتهز أبناء الوليد غرة من أبى أزيهر ، فقتلوه فى سوق ذى المجاز فجعل حسان يقول الشعر ليستثير أباسفيان للاخذ بثأره ، فتقع الحرب بين القرشيين ، وتذهب ريحهم وكان ذلك عقب وقعه بدر وقد كادت الحرب تقع بين الفريقين حين سمع يزيد بن أبى سفيان شعر حسان ، فحمى لصهر أبيه ، ولكن أبا سفيان تدارك الأمر فكف الناس ، وقد أدرك ماقصد اليه حسان بشعره

(٢) ذو المجاز موضع بمنى أو عند عرفات ، كان يقام فيه سوق فى الجاهلية وفيه قتل أبو أزيهر الدوسى . حضناه أى جانباه السحرة بضم السين والسحر بفتحتين آخر الليل قبيل الصبح جار ابن حرب هو أبو أزيهر لايعدو لأنه قتل فهو مقيم فى هذا المكان الذى دفن به

كساكَ هِشامُ بنُ الوليد ثِيابَه

فأبْلِ وأخلِفْ مثلَها جُدَدًا بَعدُ [١]

قضى وطرًا منه فأصبحَ غاديا

وأصبحْتَ رِخوًا ما تَخُبُّ ولا تَغدو [٢]

فلو أن أشياخًا بِبَدْرٍ شهودُه

لَبلَّ متُونَ الخيلِ مُعْتَبَطٌ وَرْدُ

فما مَنعَ العَيرُ الضَّرُوطُ ذِمَارَهُ

وما مَنَعَتْ مَخْزَاةَ والدِها هِنْدُ

ويمتد هذا الطور من حياة حسان عشر سنوات تنتهى بموت النبى ، فيرثيه حسان بشعر كثير ، فيه وفاء ، ولكن فيه حزنا على ما ضاع من مكانته ومن منزلة الأنصار ، الذين طغت عليهم عصبية المضريين بعد الفتح ولم يعد نفوذهم يستند إلا على ما يُدلونَ به من سابق إيوائهم للنبى :

مَنْ ذا الذى عنده رَحْلى وراحلتى

ورزقُ أهلى إذا لم يُؤْنِسُوا المَطَرا

أم من نُعاتِبُ لا نَخْشَى جَنادعه

إذا اللسانُ عتا فى القول أو عَثَرَا

كان الضِيَاءَ وكان النورَ نَتْبَعُه

بعدَ الإلهِ وكان السمعَ والبصرا

فليتنا يوم واروْه بملحده

وغيَّبوهُ وألقَوا فوقَه المَدَرا

(١) يسخر منه يقول أبل وأخلف ما أكلت ولبست من دية قتيلك

(٢) الوطر الأرب والحاجة . أصبح غاديا أى أن قاتل أبى سفيان قد أصبح آمنا يروح ويغدو غير مكترث الخبب السرعة يقصد أن أبا سفيان أصبح لايستطيع أن يفعل شيئا

لم يَتْرُكِ اللهُ منّا بعدَه أحَدا
ولم يَعِش بعدَه أنثى ولا ذكرا

ذَلّت رِقابُ بنى النجار كلّهم
وكان أمراً من امرِ اللهِ قد قُدِرا

ويظل حسان على عصبيته لليمنية وللأنصار خاصة ، ويظل المهاجرون والمضرية على كرههم له ، ولكنهم يدارونه ويكرمونه ، لسابق منزلته عند الرسول . يمر به عمر وهو ينشد الشعر فى المسجد ، فينتهره قائلا « أرُغاءٌ كرُغاءِ البعير ؟ » ولكن حسان يمضى فى إنشاده ، ويجيبه قائلا دعنا عنك يا عمر ! فوالله لتعلمُ أنى كنت أُنشِدُ فى هذا المسجد من هو خيرٌ منك وينزوى حسان فلا نكاد نسمع عنه شيئا ، إلا هذا الشعر الذى قاله فى رثاء عثمان ، مظهرا ولاءه لمعاوية ، محملا عليا تبعه قتله . وتثقل عليه الشيخوخه بعد أن يصاب فى بصره — وربما كان ذلك فى خلافة عمر ، كما تصوره قصة جبلة بن الأيهم — فيعتزل السياسة ، عاكفا على هذا الماضى الطويل الحافل ، تهيجه الذكرى ، فيحن إلى أيام شبابه متحسرا

إنّ شرخَ الشبابِ والشَّعَرَ الأسـودَ ما لم يُعاصَ كان جُنونا
ما التَّصابِى على المشيب وقد قلَّبتُ من ذاكَ أظهُراً وبطونا؟
إن يكن غثَّ من رَقاشَ حديث فبما نأكُلُ الحديثَ سمينا [1]
وانتَضَينا نواصىَ اللهوِ يوماً وبعثنا جُناتنا يجتنونا
فجنَونا جَنى شهيًّا حليًّا وقضَوا جوعَهم وما يأكلونا

(١) رقاش علم على كل امرأة بما نأكل الحديث أى ربما يقول إن أكن قد هرمت ، ولم يعد لحديث النساء فى نفسى حلاوة ، فلقد نعمت بهن فى شبابى ، وكنت أرى حديثهن حلوا طيبا

وأمينٍ حدّثتُه سِرّ نفسى فرعاه حِفْظَ الأمينِ الأمينا
مُضمِرٌ سِرَّه إذا ما التقينا ثَلِجَتْ نفسُه بأن لا أخونا

ويتذكر الشام وملك بنى غسان إبان ازدهاره ، وقد أوحشت منهم الديار مجيلا خياله فى مغانيهم التى كان يرتادها فى شبابه وفى أيام لهوه ، يتتبعها متنقلا من مكان إلى مكان ، مجملا هذه الذكريات الحلوة فى ترديد مواضعها ، تاركا لأسماء الأماكن وحدها أن تثير فى نفسه ما تثير من صور وأحلام

لِمَن الدار أوحشَتْ بمعَان بين أعلا اليَرموك فالخمان
فالقُرَيّات من بَلاسَ فَدَارَ يا فسَكّاءَ فالقصورِ الدوانى
فقِفَا جاسم فأوديةِ الصُفَّـــر مَغْنى قبائل وهِجَان
تلك دارُ العزيزِ بعدَ أنيس وحُلول عظيمةِ الأركان

ولا يزال يرفع الأستارَ عن هذا الماضى البعيد ، حتى يتخيل عيد الفصح وقد دنا ، فمضى الولائد الحسان يتهيأن لاستقباله بنظم أكاليل المرجان ، وسحنَ بين الجنان ، فى قمصان رقيقة من الكتان ، وقد شددن إلى خصورهن مآزر رقيقة بيضاء ، يجمعن فيها زهور الزعفران . ثم يعود إلى نفسه فيقول: أين هذه الجوارى الحسان من اللائى يجتنين صمغ المغافر وينقفن الحنظل ؟

ذاك مَغْنَى من آل جفنة فى الدهــر وحقٌ تَعَاقُبُ الأزمان
قد أرانى هناك حَقَّ مكين عند ذى التاج مجلسى ومكانى

ومن أجمل ما قال فى هذه الفترة الأخيرة على ذكرى أيامهم قصيدته :
أسألت رَسْمَ الدار أم لم تَسْأل بين الجَوَابى فالبُضَيع فحَوْمَل

يجول بخياله فى مغانيهم ، مرددا أسماء الأماكن التى كان له فيها ذكريات ، ويختم ذلك بقوله :

دار لقوم قد أراهم مَرَّة فوقَ الأعِزَّةِ عِزُّهمْ لم يُنقَلِ

ويثور فى نفسه الحنين المُلِحّ إلى هذه الأيام ، وإلى هؤلاء الصحاب والندمان ، فى ذاك الزمان البعيد ، فيقول :

لله دَرّ عصابةٍ نادمتُهم يوماً بجِلَّقَ فى الزمان الأوّلِ
يَمشُونَ فى الحُلَلِ المضاعَفِ نَسجها مَشْيَ الجِمالِ إلى الجِمالِ البُزَّلِ
الضاربونَ الكَبْشَ يَبْرُقُ بَيْضُه ضَرْباً يَطيحُ له بَنانُ المَفصِلِ
أولادُ جفنة حَوْلَ قبرِ أبيهم قبرِ ابنِ مارِيَةَ الكريمِ المُفضِلِ
يُغْشَوْنَ حتى ما تَهِرّ كِلابُهم لا يَسألون عن السوادِ المُقبِلِ
يَسقُونَ من وردَ (البَريصَ) عليهمِ بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرحيقِ السَّلسَلِ

تثير هذه الذكريات فى نفسه الضيق الشديد بمقامه فيقول : أين هذا العيش الحلو الرقيق من عيش هؤلاء الأعراب الخشن الضنين ، وأين نساؤهن الجميلات من ولائد الأعراب اللائى ينقفن الحنظل ؟ يالها من أيام حسان مرَّت وكأن لم تكن !...

يُسْقَوْنَ دِرْيَاقَ الرحيقِ ولم تكن تُدْعَى ولائدُهم لنَقْفِ الحنظلِ
فلبِثْتُ أزْمَاناً طِوالاً فيهمُ ثم ادّكَرْتُ كأنّنى لم أفْعَلِ

نعم . مرت سراعا كالحلم ، ولم يعد إليها من سبيل ، فقد تغير الشباب والشعر ! ولكنه يستطيع فى شيخوخته وضعفه وعيشه الراكد أن يحلم بها ، ويستعيد بعض صورها . . .

إمّا تَرَى رأسى تَغَيَّرَ لونه شَمَطاً فأصبح كالثَّغَام المُحْوِلِ
فلقد يرانى موعِدِى كأنّنى فى قصرِ دَوْمَةَ أو سواءِ الهَيْكَلِ
ولقد شربت الخمر فى حانوتها صهباءَ صافيةً كطعمِ الفُلْفُلِ
يسعَى عَلَيَّ بكأسها مُتَنَطِّفٌ فيعُلُّنى منها وإن لم أنهلِ

إن التى ناولتنى فقتلتها قُتلت قُتلتَ فهاتها لم تُقتل
كلتاهما حَلَبُ العصير فعاطنى بزجاجةٍ أرخاهما للمفصلِ
بزجاجة رقصت بما فى قعرها رقصَ القلوصِ براكبٍ مستعجل

ويصله عطاء جبلة بن الأيهم فى خلافة عمر وقد فر إلى الروم مرتدا إلى النصرانية فيقول فى ذلك أبياتا يلومه عليها بعض الحاضرين من مزينة قائلا — أتذكر قوما كانوا ملوكا فأبادهم الله وأفناهم ؟ فيجيبه حسان (أما والله لولا سوابق قومك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لطوقتك طوق الحمامة) ثم يقبل على الرجل الذى جاء من عند جبله بهديته فيقول — ماذا قال لك جبلة ؟ فيقول — قال لى إن وجدته حيا فادفعها إليه ، وإن وجدته ميتا فاطرح الثياب على قبره ، وابتع بهذه الدنانير بدنا فانحرها على قبره . فيقول حسان فى أسى ظاهر وحزن عميق ليتك وجدتنى ميتا ففعلت ذلك بى ! ويظل حسان فى عزلته حتى توافيه منيته فى أوائل ملك معاوية .

(انتهى القسم الأول فى عصر الجاهلية)

المراجع

نصوص

القرآن الكريم	
ديوان زهير	طبع دار الكتب
« امرىء القيس	« السندوبى مصر
« النابغة الذبيانى	« مصر ١٩١١ م
« حسان بن ثابت	« مصر ١٣٤٧ هـ ، ط أوروبا
« الحطيئة	« الشنقيطى مطبعه التقدم
« الشماخ بن ضرار	« الشنقيطى ١٣٢٧ هـ
« عبيد بن الأبرص	« أوروبا
« عامر بن الطفيلى	« «
« علقمة الفحل	« «
« الأعشى	« «
« طرفة بن العبد	« «
العقد الثمين فى دواوين الشعراء الجاهلين «	«
المعلقات السبع للزوزنى	« مصر ١٣٥٢ هـ
المعلقات العشر للتبريزى	« مصر ١٣٥٢ هـ
مختارات ابن الشجرى	« مصر ١٣٤٤ هـ
ديوان الحماسة	« مصر
شرح ديوان الحماسة للتبريزى	« مصطفى محمد . مصر

المفضليات	طبع هارون مصر ١٣٦١ هـ
جمهرة أشعار العرب	« مصر ١٣٤٥ هـ
شعراء النصرانية	« اليسوعيين بيروت

نقـــد

العمدة لابن رشيق	طبع مصطفى محمد مصر
الموازنة للآمدى	« صبيح مصر
ديوان المعانى للعسكرى .	« مصر ١٣٥٢ هـ
الصناعتين للعسكرى	« الأستانه ١٣١٩ هـ
الوساطة للجرجاوى	« مصر ١٣٦٤ هـ
الموشح للمرزبانى .	« مصر ١٣٤٣ هـ
نقد الشعر لقدامة	« مصر ١٩٣٤ م
نقد النثر لقدامة	« الجامعة المصرية

أدب

نهاية الأرب للنويرى	طبع دار الكتب
العقد الفريد لابن عبد ربه .	« مصر ١٩٤٠ م
البيان والتبيين للجاحظ	« السندوبى ١٩٢٦ م
الكامل للمبرد .	« مصر ١٣٥٥ هـ
الامالى للقالى .	« دار الكتب

تراجم وطبقات

الأغانى للأصبهانى	طبع دار الكتب فى الأجزاء العشرة الأولى . وطبع بولاق فيما يليها

وفيات الأعيان لابن خلكان	طبع بولاق ، طبع مصر (فريد رفاعى)
الشعر والشعراء لابن قتيبة	« مصر (السقا) ١٩٣٢ م
طبقات الشعراء لابن سلام	« مصر (السعادة)
خزانة الادب للبغدادى	« مصر (الحلبى) ١٩٣٠ م
الفهرست لابن النديم	« مصر ١٣٤٨ ﻫ
معجم الشعراء للمرزبانى	« مصر (القدسى) ١٣٥٤ ﻫ
المؤتلف والمختلف للآمدى	« « «
الطبقات الكبرى لابن سعد	« أوروبا

تاريخ

سيرة ابن هشام	طبع مصر (الحلبى) ١٩٣٦ م
تاريخ الطبرى .	« مصر ١٩٣٩م
تاريخ ابن الاثير	« مصر (المنيرية) ١٣٤٨ ﻫ
مروج الذهب للمسعوى .	« ١٣٤٦ ﻫ
إمتاع الأسماع للمقريزى .	« مصر (لجنة التأليف) ١٩٤١ م
معجم البلدان لياقوت	« مصر
نسب عدنان وقحطان للمبرد	« مصر (لجنة التأليف) ١٩٣٦ م
الإنباه على قبائل الرواه لابن عبدالبر	« مصر (السعادة) ١٣٥٠ ﻫ
شرح نقائص جرير الفرزدق	« أوروبا
مقدمة ابن خلدون	« مصر ١٩٣٠ م
النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم للمقريزى	« مصر

معاجم :

لسان العرب	لابن منظور
القاموس المحيط	للفيروزبادى

أساس البلاغة ، للزمخشري

مجمع الأمثال ، للميداني

شرح القاموس ، للزبيدي

المعرب للجواليقي

دائرة المعارف الإسلامية .

دائرة المعارف الإنجليزية

دائرة المعارف الفرنسية

كتب حديثة :

بلوغ الارب للألوسي طبع مصر ١٩٢٤ م

تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ، مصر (الهلال) ١٩٢٤ م

تاريخ التمدن الإسلامي ، ، مصر (الهلال) ١٩٢٦ م

تاريخ آداب العرب للرافعي ، مصر ١٣٥٩ هـ

النصرانية وآدابها لشيخو . ، بيروت (اليسوعيين)

الروائع للبستاني ، بيروت (اليسوعيين)

The writers of Rome
A litterary history of Rome } J. W. Duff.
Roman Satire

The writers of Greece — Norwood.

Some principles of litterary Criticism — Wenchester.

Juvinal and Persius — G.G. Ramsay.

Pope's Poetical works — London 1908

Manual of English litterature — Arnold.

فهرس

ماهـــو الهجـاء

الخصائص الفنية للشعر الهجائى

الهجاء والسحر

(ص ٤٦ — ٦٠)

(٤٦) الأطوار التي مر بها الكلام حتى استوى شعرا : مدلول الشعر عند الجاهليين يختلف عن مدلوله عندنا اليوم ، القرآن والأمثال وبعض الخطب والأسجاع كان فى عرفهم شعرا ، لم يكن الشعر مستقيم الأوزان فى كل الأحيان ولكن الرواة أصلحوا كثيرا منه، غلبة الطويل والبسيط على أشعارهم ومشابهة هذين البحرين لوزن الـ hexameter عند اليونان واللاتين . (٥٢) الشعراء يعالجون صناعتهم ليلا ، التباس أمرهم بالسحرة والكهنة ، تصوير القرآن لخلط العرب بين الشعر والسحر والقرآن . (٥٧) فن الهجاء أقرب الفنون الشعرية للارتباط بالسحر : شياطين الشعراء ، وجه الشبه بين الهجاء والسحر ، زى الشاعر فى الهجاء ، خوف العرب من الهجاء

الشاعر والقبيلة

(ص ٦١ — ٦٥)

(٦١) الشعراء يكونون جزء مهما من النظام القبلى : الشعراء يتزعمون قبائلهم فى بعض الأحيان ، أمثلة للشعراء الذين سادوا فى قبائلهم ، الشعر لايضع من قدر الأشراف ولكنه يعزز مكان صاحبه من قبيلته ، اعتماد القبائل على شعرائها فى الحروب والخصومات . (٦٤) غلبة الحماسة على الشعر الجاهلى ، الشعر الجاهلى مزاج من الحماسة والغضب يصور المثل العليا للحياة إيجابا وسلبا . (٦٥) ضعف شخصية الفرد ، الشاعر مؤرخ وقصاص ،اعتماد الشعر على العصبية وعلى القيم الأخلاقية والاجتماعية .

القيم الأخلاقية والاجتماعية عند العرب فى الجاهلية

(ص ٦٦ — ٨٣)

(٦٦) القوة هى المثل الأعلى الوحيد الذى آمنوا به وحرصوا عليه ، صور من القوة فى شعرهم وحياتهم : زهير ، طرفة ، سعد بن ناشب ، مجمع بن هلال

القطامى ، جرير ، قريط بن أنيف ، عبد الملك وجعيل بن علقمة التغلبي ، تميم ابن أبى بن مقبل والنجاشى . (٦٩) المغتصب بطل مادام يسعى جهرة ولا يدب متسترا ، لايستغيث بالسلطان إلا العاجز . (٧٠) الصعاليك والمثل العربية : عروة ، تأبط شرا ، أبو النشناش . (٧٢) المكان الأول للفارس المقاتل وللسوقة حياة الصناعة والزراعة . (٧٣) أعز شىء على العربى فرسه وسلاحه. (٧٤) العرب يحبون كثرة النسل ويعتزون به . كره العرب للسمن فى الرجال وحبهم له فى النساء . (٧٦) العربى إذا أراد أن ينجب من زوجته أغضبها. (٧٧) الصبر والتجلد للمكاره والخطوب (٧٨) الحب عندهم ضرب من الفخر بامتلاك اللذة وبالشباب. (٨٠) موازنة بين شعر الخمر والغزل الجاهلى وشعر الخمر والغزل فى العصر العباسى ، الكرم مظهر للسيادة والاستعلاء والثقة بالنفس (٨٢) قوة البيان نظير قوة السيف ، كل ما يهجى به العربى يرجع إلى الضعف والخور.(٨٢)حياة جاهلية صريحة واضحة تعترف بالقانون الطبيعى الأزلى « البقاء للأصلح »

أقدم صور الهجـــاء

(ص ٨٤ — ٩٤)

(٨٤) المنافرات هى أقدم صور هذا الفن المنافرة لغة . (٨٥) وصف المنافرة . (٨٦) عكاظ ، أسلوب المنافرة وقيمتها الأدبية خليط من الشعر والنثر ، الارتجال غالب عليها ، تصويرها لقيم العصر الأخلاقية والاجتماعية. (٨٧) الحكام . (٨٨) المنافرة بين رجلين من قبيلة واحدة ، عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة .(٩٣) المنـافرة بين رجلين من قبيلتين كل يمثل قبيلته ، جرير بن عبد الله البجلى وخالد بن أرطاة الـكلبى

الهجـــاء الشخصى

(ص ٩٥ — ١٠)

(٩٥) الهجاء فن واقعى والهجاء الشخصى أحط درجات هذه الواقعية ، المشاركة فى الشعور بين القارىء والشاعر ضعيفة . (٩٦) المعانى فى الهجاء

الشخصى محدودة تتكرر عند كل شاعر ، المزرد بن ضرار الذبيانى . (٩٧) ولكنه لايخلو فى بعض الأحيان من شعر جيد ، ذو الإصبع العدوانى .(٩٨) افتراء الكذب فى الهجاء الشخصى . (٩٩) الهجاء الشخصى يوجه للقبيلة كلها فى بعض الأحيان ، تلخيص قصيدة للأعشى .

الحطيئـــة

(ص ١٠٢ — ١١٣)

(١٠٢) نشأته الأولى وأثرهـا فى مزاجه . (١٠٣) انصرافه إلى الشعر . ارتزاقه بالمدح وبالهجـاء . (١٠٤) عمر والحطيئة . (١٠٥) إشفاق القبـائل والأشراف من هجائه : الحطيئة وخالد بن سعيد بن العاص ، الحطيئة وحسان. (١٠٦) الحطيئة أعرابى جافى الطبع فساد دينه ، نفاقه ، موقفه فى الردة ، ضيقه بعمر ، دفاعه عن الوليد بن عقبة حين حد فى الخمر . (١٠٩) اعتماده فى هجائه على التفضيل والمقارنة ، دخوله بين بغيض بن شماس والزبرقان بن بدر. (١١١) براعته فى خلق الصور وابتكارها ، توفقه لاختيار ألفاظه الهجائية .

الهجـــاء السيـاسى

(ص ١١٤ — ١٣٣)

(١١٤) ما هو الوطن عند الجاهليين : جماعة من الناس تربطهم أواصر النسب،مفهوم العصبية يضيق ويتسع حسب الظروف . (١١٥) هجـاء يصور النزاع بين القبـائل : اختلاط الغضب بالحماسة ، عبد الله بن عنمة الضبى . (١١٧) الاعتماد على التاريخ والأنساب : أبو بكر ودغفل ، الحارث بن حلزة . (١٢٤) هجاء يصور النزاع بين القبائل والملوك : جابر بن حنى التغلبى ، يزيد ابن الخذاق الشنى ، المتلمس ، طرفة ، الحارث بن ظالم الذبيانى .

الأعشى

(ص ١٢٤ — ١٦٢)

(١٣٤) تصوير القدماء للأعشى . (١٣٥) نشأته وتلمذه على خاله المسيب بن علس . (١٣٦) الأعشى من فتيان الجاهلية : الأعشى صاحب لذة ، حرصه على اللذة جعله فى حاجة دائمة للمال ، رحلته إلى الأشراف وإلحافه فى السؤال. (١٣٩) ولكنه مع هذا ظل شاعر القبيلة المخاص لمصالحها ، موازنة بينه وبين الحطيئة . (١٤٠) يوم ذى قار . (١٤٢) جولاته السياسية فى الخصومة بين فروع بكر وقبائلها ، الأعشى ويزيد بن مسهر الشيبانى ، بين الأعشى وبين بعض بطون قومه « بنو عبدان » ، ترفقه فى الهجاء وتراوحه بين الغضب والحنين والإباء والوفاء . (١٥١) نصوص من شعره

الهجـــاء الدينى

(ص ١٦٣ — ١٩٥)

(١٦٣) للإسلام إلى جانب صفته الدينية صفة سياسية : خطط الرسول السياسية . رحلته عن مكة ، توحيد صفوف حزبه . نشاطه السياسى . التخلص من اليهود ، بدء سياسته الخارجية ، مكة أول أهدافه ، ما فى صلح الحديبية من كسب سياسى ، لا يشغل نفسه بالحرب مع عدوين فى وقت واحد ، اصطناع الأحزاب السياسية واختيار دعاتها من الشعراء ، النهى عن رواية الشعر القديم بعد الفتح ، لا ثبات للإسلام مع قيام دولتى الفرس والروم على أطراف الجزيرة العربية ، توحيد الديانة فى الجزيرة ، توحيد المسلمين فى الدين وفى القوانين المدنية ، التدرج فى التشريع ، الاعتماد على التقاليد القديمة وتهذيبها وتوجيهها . (١٦٥) الإسلام دين واقعى يقرر أن الحرب ضرورة من ضرورات الحيـاة الإسلام يطلب من المسلم أن يكون قويا مستعداً للقتال . تكفيره من دعى للجهاد فقعد عنه . الإسلام يحث على الرحمة

والإحسان ولكنه يطلب من المسلم أن يكون قادراً على الرحمة والإحسان فالعفو لا يكون إلا من القوى القادر على الانتقام .(١٦٧) العرب فى معظمهم لم يسلموا عن إيمان واقتناع كانوا يفهمون النبوة على أنها نوع من الملك ، لم يفرقوا بين الزكاة والإتاوة ، إسلام ثقيف ، وفد بنى عامر ووفد تميم ، الشعراء يمدحون النبي بما تمدح به الملوك والسادة ، العصبية الجاهلية لم تفتر فى حياة النبي . (١٧٤) الإسلام قد أثار حركة فكرية قوية لا عهد للعرب بمثلها : تنظيم الدعاية للإسلام ، النبي يشرف بنفسه على الشعراء ويقوم شعرهم ، نهيه عن الاستماع إلى الكفار وإبطال رواية الشعر الذى يهاجم المسلمين ، إهدار دم بعض الهجائيين ممن يهاجمون الدعوة .(١٧٧) أثر العناية بالدعاية للدين فى نمو فن الهجاء وعنفه ، الهجاء الدينى ظل جاهليا فى صميمه. (١٧٨) القرآن وهجاء أعداء الدعوة : الهجاء فى القرآن يقوم على قيم أخلاقية واجتماعية جديدة ، هجاء أبي بن أبى سلول وصحبه من المنافقين ، هجاء المنافقين من الأوس والخزرج ، هجاء أهل النفاق فى يوم الخندق ، هجاء اليهود فى إعراضهم عن النبي وانحرافهم عن دينهم ، هجاء يهود بنى قينقاع وعبدالله بن أبى فى حمايته لهم حين هاجمهم الرسول . (١٨٩) أسلوب القرآن فى الهجاء : مناقشة حجج الكفار بالدليل العقلى وبالمنطق ، الاعتماد على التاريخ فى تصوير ضلالة المعارضين ومكابرتهم ، تصوير حال المعارضين بالتمثيل وبالصور الهجائية الساخرة ، كشف الستر عن دسائس الكفار ومؤامراتهم ، التهديد والوعيد ، الهجاء القرآنى يوافق من بعض النواحى ما عرف الجاهليون من هجاء سياسى ولكنه يخالفه فيما يستند إليه من قيم أخلاقية واجتماعية .

حسان

(ص ١٩٦ — ٢٣٠)

(١٩٦) نشأته النزاع بين الأوس والخزرج ، اشتراكه فى هذا النزاع بشعره (١٩٧) رحلته إلى الغساسنة فتنته بالشام . امتداد هذا القسم من

حياته إلى دخوله فى الإسلام ، شعره فى هذا القسم قطعة من هذه الجنان بعيد عن الصحراء ، ثلوج وكروم وأنهار ، مجالس اللهو والخمر ، إخلاصه فى مدح الغساسنة ، قوة فخره ، الجمع بين شخصيتى شاعر البلاط وشاعر القبيلة .(٢٠٧) دخوله فى الإسلام وقد تقدمت به السن اتباعا لقبيلته : حسان شاعر قومه فى الإسلام كما كان شاعرهم فى الجاهلية ، النبى يتألف حسان بالمال والعطاء .(٢٠٨) فتور عاطفته الإسلامية فى شعر الطور الثانى وقوة عصبيته اليمنية .(٢١٠) حسان يمثل الساخطين من الأنصار يوم الفتح ، حسان وحديث الإفك ، كراهية حسان للمهاجرين تعصبا لقومه .(٢١٣) كثرة الضرورات الشعرية وشيوع الركاكة فى شعره الإسلامى .(٢١٥) قوة شعره حين يترك نفسه على سجيتها الجاهلية وضعفه حين يتكلف نظم معانى القرآن (٢١٧) مكانته فى هذا الطور تقوم على هجائه الموجع إفحاشه فى هجائه ، الفحش مظهر البداوة وجفاء الطبع .(٢٢١) مجافاته لتعاليم الإسلام بهذا الإفحاش ، عدم حرصه على تعاليم الإسلام ، ذكر الخمر فى شعره بعد إسلامه. (٢٢٢) براعته فى خلق الصور الهجائية وابتكارها .(٢٢٥) أكثر ما يكون هجاؤه لاذعا حين يكون قصيراً .(٢٢٦) ينتهى هذا الطور الثانى من حياة حسان بعد عشر سنوات بوفاة النبى .(٢٢٧) إقامته على عصبيته اليمنية ، اعتزاله السياسة ، حنينه إلى عصر شبابه فى الشام .(٢٣٠) وفاته

تصويب للأخطاء المهمة

ساصحح فيما يلى الأخطاء التى قد يترتب على تركها خطأ فى الفهم أو غموض، وأترك غيرها مما يستطيع القارىء أن يهتدى للصواب فيه بغير دليل. وسأثبت الصواب الذى ينبغى أن يقرأ بدل الخطأ المكتوب، مشيراً إلى الصحيفة (ص) والسطر (س)

ص	س	الصواب	ص	س	الصواب
٣	٢	الاستنجاز	١٥٢	٢	خَفَيْدَدَا
٣١	٥	تستعجل	١٥٥	٧	حَلَّتْ
٣٩	١٢	ولا يَرِدُون	١٥٧	١	يُقَرِّبُ
٤٤	٢	خَرَّتْ	١٥٩	١٣	الأقواما
٤٤	٢٠	خَصِى بَرَاذِينِ	١٦٠	٣	النضيح
٥٣	٢١	فَلْيَأْتِنا	١٦١	١	لِمَيْثاءَ
٦٧	١٠	بِبَارِح	١٦٢	٢	قتيلُها
٨١	١٤	سَبْرَة	١٦٢	٦	ومَحُولُها
٩٤	١٧	لى	١٦٥	١٧	دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم
هامش ١١١	١	ركنه	١٦٥	١٢	ما اقتَتَلُوا
١١٦	٦	وهم من مالك الضبى	١٨٨	١١	اتَّخَذُوها
هامش ١٢٢	١	غنمه	١٩٩	٨	مُثْرىً

الهجاء والهجاءون

في صدر الإسلام

تأليف

الدكتور م. محمد حسين

مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر مكتبة الآداب بالجماميز تليفون ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية

٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا هو القسم الثانى من تاريخ فن الهجاء . وهو يؤرخ هذا الفن فى العصر الإسلامى . وأقصد بالعصر الإسلامى عصر النفوذ العربى الذى انتهى بغلبة النفوذ الفارسى ، وتقويض هذه الدولة العربية ، التى كان من أبرز صفاتها التعصب للعروبة فى شتى مظاهرها الأخلاقية والاجتماعية والأدبية .

والعصر الأدبى الذى نؤرخ هذا الفن فيه ، لا يساير التقسيم التاريخى ، ولا يجرى على ما جرى عليه جمهور مؤرخى الآداب ، من تقسيمها تبعاً للتقسيم التاريخى فهو يبدأ منذ وفاة النبي ، وينتهى بانتهاء القرن الأول الهجرى . والواقع أن المطابقة التامة بين تاريخ الأدب و بين التاريخ السياسى ، تعرض الباحث لأخطاء كثيرة ، وتورطه فى تعسف غير قليل . فدارس الأدب — وهو مرآة صادقة دقيقة لحضارة العصر ولمزاج أفراده — لا يلاحظ فرقا كبيرا بين لون هذا الأدب فى عصر الخلفاء ، و بين لونه فى الصدر الأول من العصر الأموى . بيد أنه يلاحظ هذا الفرق واضحا إذا قارن بين الصدر الأول من العصر الأموى و بين الشطر الأخير من حياة هذه الدولة . فالأدب فى عصر الخلفاء ، وفى الصدر الأول من العصر الأموى — وهو ما نسميه بالعصر الإسلامى — أدب عربى خالص ، يجرى على ما جرى عليه الأدب العربى القديم ، فى أسلوبه ، وفى أغراضه وفى صوره ، وفى أوزانه ، مع بعض التطورات التى اقتضتها طبيعة الظروف . فهو أدب عربى خالص أما الأدب فى القسم الثانى من ذلك العصر ، فهو

متأثر بالحضارة الفارسية ، وبالترف والخلاعة ، الذين نشآ من شيوع الغناء والمجون، وكثرة الجوارى وغلبتهن على قلوب العرب .

ولسنا هنا فى مقام المقارنة بين العصرين ، وتفصيل الفوارق بينهما . ولكنا أحببنا أن نوضح السبب الذى جعلنا نعدل عن التقسيم المألوف ، فنخلط بين عصر الخلفاء وبين قسم من العصر الأموى من جهة ، ونفصل بين شطر هذا العصر الأول وشطره الثانى من جهة أخرى .

وليس يفهم من هذا أننا ننكر الصلة القائمة بين التاريخ السياسى وبين تاريخ الأدب فهذه الصلة قائمة بينهما ، قيامها بين الأدب وبين ألوان المعارف الإنسانية . ولكن الذى ننكره هو وضع العصور الأدبية فى حدود التواريخ التى تعين قيام الدول وسقوطها . فليست العبرة فى ذلك بقيام دولة وسقوط أخرى . ولكن العبرة فى شكل الحضارة السائدة ، وألوان الثقافة الغالبة ، وحالة المجتمع القائمة . وليس هناك ما يمنع أن تتقارب هذه العناصر جميعا وتتشابه فى دولتين ، هما عصران مختلفان عند المؤرخ ، بينما تتباين أشد التباين فى دولة واحدة ، هى فى عرفه عصر واحد ؟

رمل الاسكندرية ٢٣ أبريل سنة ١٩٤٨

نشأة الأحزاب السياسية

رأينا فيما سبق أن الاسلام لم يستطع أن يقضى على العصبية القبلية بين العرب ، أو يخفف من حدتها ، وكل الذى حدث أن شخصية النبي القوية ، قد استطاعت أن تدبرها ، وتتفادى شرورها ، وتوجهها توجيها نافعاً لصالح الدعوة. لم تستطع العقلية الجاهلية أن تسيغ هذا النظام الذى جاء به الاسلام ، وأن تنسى وطنها الأول الصغير ، لتتفانى فى هذا الوطن الكبير ، والاتحاد الجديد ، الذى نشأ من ضم هذه الأوطان الصغيرة ، تحت سلطة مركزية واحدة . لم يكن العربى يحمل لهذا الوطن الجديد شيئاً من الحب أو التقديس ، وكل الذى فهمه أن قريشا قد فرضت سيادتها على بقية القبائل العربية . وكان أثقل شىء على نفسه ، هذه الأموال التى فرضها عليهم الاسلام ، وسماها « زكاة » . ولم تكن الزكاة فى حقيقة الأمر ، إلا نوعاً من الضرائب ، التى يدفعها الأفراد للدوله الآن ، مقابل حمايتهم وتدبير شئونهم ، بما يكفل لهم حياة مطمئنة ، قريبة غاية الجهد من تحقيق السعادة لسائر الأفراد ولكن العربى لم يفهم هذا الوطن الجديد ، ولم يعرف شيئاً عن الدولة ، ولم يستطيع شعوره البدائى أن يفهم الحكمة فى وجودها ، أو الفوائد التى تحققها فهو يختص القبيلة بكل حبه وعواطفه ، ويرى قوتها كفيلة بتحقيق غاياته ، ويرى أن فناءها فى هذا المجموع الكبير ، تضحية لا مبرر لها فالزكاة فى نظره ، ليست إلا أتاوة تدفع لقريش ، وتوضع تحت تصرفها ، لتنفقها حيث تشاء لذلك لم يكد النبي يموت ، حتى انبعثت هذه العصبيات قوية جارفة ، تريد أن تتحلل من كل قيد ، وأن تعود إلى حياتها الأولى الحرة الطليقة . منكرة حق قريش فى الزكاة ، ممتنعة عن أدائها لهذا الأمير القرشى الجديد . الذى يسمى نفسه خليفة . وخير ما يصور هذا التفكير البدوى ، الذى ينفر من النظام ، ويأبى الاعتراف

بالسلطان، ولا يرضى إلا حياة الخلاف والتناحر، أبيات الحطيئة التى قالها فى الردة :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا عجبا ما بالُ دِينِ أبى بَكْرِ
أيورثها بَكراً إذا مات بعده ؟ وتلك لعمر الله قاصمة الظهر!

ورأت القبائل أن قريشاً لم تفضلهم وترجح عليهم إلا بالنبوة. فليكن فيهم إذن أنبياء. فى ربيعة نبي من حنيفة هو مسيلمة. وفى مضر نبي ونبية. أما النبي فمن أسد وهو طليحة من خويلد، وأما النبية فمن تميم وهى سجاح. وفى اليمن نبي هو الأسود العنسى.

وينهض رجل الإسلام الكبير للجهاد فى سبيل إعادة بناء الدولة الإسلامية، بعزيمة لاتعرف وهنا ولا فتوراً، وإيمان صادق عنيف، ينتهى آخر الأمر بالظفر على هذه الفتنة وإعادة القبائل المنشقة إلى الطاعة والخضوع للدولة. والقارى لشعر القبائل فى حركة الردة لا يجد فيه معارضة لمبادى الأسلام فالحركة ليست ثورة على الدين الجديد ولكنها محاولة لاسترداد سلطة القبيلة المسلوبة فالشعر منصب كله على القبائل والأفراد. والمسألة فى حقيقتها عصبية خالصة.

يقول الخطيل بن أوس أخو الحطيئة [1] :

فِدًى لبنى ذُبيان رَحلى وناقتى عشيةَ يحُدى بالرماح أبو بكر
ولكن يُدَهْدَى بالرِّجال فِهبْنَه إلى قَدرٍ ما إن تُقيمُ ولا تَسْرى [2]
ولله أجْنادٌ تُذاقُ مَهانَةً لتُحسَبَ فيما عُدَّ من عَجَبِ الدَّهْرِ [3]

---

(١) الطبرى ٢١٧٧٤

(٢) دهديت الحجر فتدهدى دحرجته ، هبنة كذلك هى بالنص لعلها من أهاب بالابل والخيل اذا زجرها قائلا هاب هاب ، فيكون المقصود ان هؤلاء الرجال يزجرون أبا بكر وجيوشه ويدفعونهم الى قدرهم وحينهم

(٣) يسخر بهم فيما يزعمون من أنهم جنود الله ؛ يقول هل رأيتم أعجب من هذا ؟ جنود الله تذوق الذل والهوان !

ويقول أبو تجرة بن عبد العزى وهو ابن الخنساء[١] :

صحا القلبُ عن مَىٍّ هواه وأقصرا وطاوع فيها العاذلين فأبصروا
وأصبح أدنى رائدِ الجهل والصبا كما وُدُّها عنا كذاك تغيرا
ألا أيها المُدْلِى بكثيرة قَومه وحظُّك منهم أن تُضام وتُقْهرا
سَل الناس عنا كلَّ يوم كريهةٍ إذا ما التقينا دارِعِين وحُسَّرا
ألسنا نُعَاطِى ذا الطِّماح لجامَه ونطعن فى الهيجا إذا الموتُ أقْفَرا
وعارِضَةٌ شهباء تخطِرُ بالقنا ترى البُلْق فى حافاتها والسنوَّرا [٢]
فروَّيتُ رُمحى من كتيبةِ خالد وإنى لأرجو بعدها أن أُعَمَّرا

ومما يصور أن العصبية روح هذه الحركة والدافع إليها ، مايروى الطبرى من خروج الزبرقان بن بدر والأقرع بن حابس إلى أبى بكر ، وقولهم له (اجعل لنا خراج البحرين ، ونضمن لك أن لا يرجع من قومنا أحد) . وقد رضى أبو بكر بهذا الشرط وكاد ينفذه . لولا أن عمر اعترض ومزق الصحيفة غاضباً [٣] .

ويمضى أبو بكر بعد سنتين من خلافته ، ويخلفه عمر ، فيحكم الجزيرة بحزمه الصارم . مندفعا فى الفتوح كالسيل الجارف . لايقف فى سبيله شىء . ثم ينتهى حكمة بهذه المأساة المروعة ، التى ذهب الخليفة الكبير ضحيتها ، فتنتهى الخلافة إلى بيت من قريش ، عريق النسب فى الجاهلية ، كانت المنافسة قائمة بينه وبين بنى هاشم وقد امتدت الدولة العربية ، واتسعت رقعتها ، حتى أصبحت أمبراطورية كبيرة ، قد ابتلعت دولتين عريقتين . هما الفرس والروم . ولم تعد النظم العربية الساذجة ، التى تركز السلطة فى يد الخليفة ،

---

(١) الطبرى ٢ : ٤٩٣
(٢) عارضة قابلة بمثل ما أتى . شهباء كتيبة شهباء . السنور كل سلاح جديد .
(٣) الطبرى ٢ : ٥٠٠

والتى تقوم على الزهد المطلق ، وتنفر من ادخار المال ، وتتحرج من إنشاء خزينة للدولة . لم تعد هذه النظم كافية لضبط ذلك الملك العريض . ولم يعد الأمر كما كان ، مقصوراً على إقامة حدود الدين ، وحمل الناس عليه بالاقناع أو التهديد . والتمسك بقانونه الأخلاقى القويم . فالعرب الذين كانوا يعيشون منذ سنوات قلائل على النظام القبلى قد أصبحوا أمام مشاكل جديدة خطيرة ،هى سياسة هذه الأمبراطورية المترامية الأطراف ، وتدبير أمورها . وضبط شئونها . فهم أمام مشاكل مالية واجتماعية وسياسية ، لا عهد لهم بمثلها فى عزلتهم القديمة .

وتضطرب الأمور وتتعقد فى يد عثمان بن عفان ، ويفلت زمام الأمر من يده ، وقد غلت الأمصار بالفتنة . ويندفع الدهماء فى طوفان مدمر ، يجوف فى طريقه هذا الخليفة الطيب القلب ، الذى ذهب ضحية الانتقال المفاجىء ، من العزلة العربية القديمة إلى الملك الواسع العريض . وكان قتله وقتل عمر من قبله ثم قتل على بعد ذلك ، برهاناً قاطعاً على أن نظام الحكم القديم لم يعد صالحاً للبقاء . فلم يعد العرب فى حاجة إلى رجل دين وتقوى . ولـكنهم أصبحوا فى حاجة إلى رجل حزم وسياسة قبل كل شىء . بل هم فى حاجة إلى عبقرية سياسية . تستطيع أن تنشىء قواعد للحكم إنشاء . وتخلق من العدم نظما وقوانين ، تستطيع أن تساير التوسع الحديد . وقد وجد العرب ضالتهم آخر الأمر ، فى عاهل العرب الأول ، ومنشىء الأمبراطورية الإسلامية معاوية بن أبى سفيان .

وكان بين قتل عثمان وبين مايسميه المؤرخون عام الجماعة الأول ، الذى انتهى فيه الأمر إلى معاوية ، ست سنوات ، اضطربت فيها الجزيرة بالفتن ، واجتاحتها موجة من الحروب المدمرة فى كل مكان ، كانت كلها قتالا حول شخص الحاكم ونظام الحكم . وقد ظهر فى هذه الحروب لون جديد من العصبية

هو العصبية الأقليمية ، فقد أصبح الشام حزب معاوية ، وأصبح العراق حزب علي ، وأصبح الحجاز موطناً للمعارضة ، يقودها زعماء قريش الطامعون فى الخلافة الذين لايقرون عليها على بن أبى طالب ، فيهم طلحة والزبير وعبدالله بن عمر وعائشة أم المؤمنين . وفى هذه الحروب ، وضع أساس الأحزاب الثلاثة التى كان لها أعمق الأثر فيما يلى من الناحيتين التاريخية والأدبية، وهى حزب الشيعة ، وحزب الخوارج ، وحزب الأمويين .

لم يكن على رجل الساعة ، فقد كانت عقليته السياسية من هذا الطراز القديم ، الذى تقوم شهرته على التقوى والورع ، والفقه بأمور الدين ، والنزاهة المطلقة ، والصراحة السافرة التى لاتعرف مكراً أومخاتلة . وهذه صفات خلقية سامية ، قد ترفع صاحبها إلى مرتبة القديسين المطهرين ، ولكنها لا تجعل منه حاكما أو زعيما . فقد كان مع هذه الصفات السمحة ، بعيداً عن المرونة التى تنبغى لرجل السياسة . وكان بعيداً عن الأدراك الصحيح لروح الجماعات ، والفهم الدقيق لدوافعها العقلية والنفسية — وهى تختلف عن دوافع الأفراد اختلافا كبيراً — خسر كثيراً من الزعماء ، وكان يستطيع أن يكسبهم ، كالزبير وطلحة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة . ونهى أهل العراق عن نهب أموال أهل الشام ، لأنهم مسلمون لا يحل منهم سبى أو غنم . فمل الناس القتال ، وسئموا هذه الحروب التى لا مطمع فيها . ونهى عن شتم معاوية وشيعته ، ضاربا صفحاً عن آثار ذلك فى الدعوة السياسية . ولم يقبل نصيحة المغيرة فى إقرار معاوية وعمال عثمان على أعمالهم ، حتى تأتى بيعتهم وكان شديد التزمت فى أمور الدين ، مدققاً فى تحرى العدالة ، وفى توزيع الأموال والصدقات ، قليل الاهتمام بالشعر وإغراء الشعراء بالمال ، حتى لقد جلد شاعره النجاشى ، حين رفع إليه وقد أفطر فى رمضان مع صاحب له ، وشربا حتى علا صوتهما ، فجلده سبعة وثمانين سوطاً — وحد

الشارب ثمانين — فقال النجاشي : ما هذه العلاوة يا أبا الحسن ؟ فقال : هذا لجرأتك على الله فى شهر رمضان . فهجا النجاشي أهل الكوفة قائلا [١] :

إذا سقى الله أرضاً صَوْبَ غادِيةٍ   فلا سقى الله أرضَ الكوفةِ المطرا
التاركين على طُهْرٍ نساءَهم   والناكحين بشَطَّيْ دِجلةَ البَقَرا
والسارقين إذا ما جَنَّ ليلُهُمُ   والتالِيِينَ إذا ما أصبحوا السُّوَرا

أما معاوية . فقد مرن على السياسة فى هذه الحقبة الطويلة التى ولى فيها أمر الشام ، وأعانه على ذلك أنهم أهل طاعة ، قديمو العهد بالنظام والملك . وقد استطاع بحلمه وسعة صدره ونعومة مكره ، أن يكسب حبهم وإعجابهم . وكان مع هذا داهية عارفا بالرجال ، يحسن اختيار بطانته ، ويعرف أين يضع ثقته . وكان بعد هذا مرنا ، لا يأخذ جانب الدين كله ، ولا يميل عنه دفعة ، ولكنه يتوسط بين الدين والدنيا ، يأخذ بأحسنهما ، ويكمل أحدهما بالآخر . وقد علم منذ اللحظة الأولى ، أن هذه الدولة الناشئة ، لا تصلح إلا بالملك ، الذى يكفل لها الاستقرار والثبات ، ويكفيها شر هذه المحن والثورات ، التى تتعرض لها فيما يقع بين الناس من خلاف عند موت كل خليفة . فبايع لابنه يزيد ، وعنى بوضع أركان حزب سياسى ، قوامه الشعراء . يغدق عليهم العطاء ، وتألف قلوب أعدائه من أصحاب النفوذ . ولم يتورع عن لعن على من فوق المنابر ، إقراراً لبغضه فى قلوب الناس . وأحسن اختيار ولاته من أصحاب الحزم ، ثم أطلق يدهم فى أقاليمهم ، إلا فيما يمس السياسة العامة . ثم أوجد نظام البريد ، ليسهل الاتصال بينه وبين عماله . وأوجد ديوان الخاتم ، ليكون سجلا لتوقيعات الخليفة التى يبعثها إلى الأقاليم . واتخذ الحجاب والحرس ، لأن من فى مثل مكانه ، لا يأمن أن يكون بين رعاياه موتور متهوس ، ينتهز

---

(١) خزانة الادب ٤ ٥٧

منه غرة فيقتله. كل هذه السجايا. جعلت معاوية خليقاً بما وصفه به ابن عباس حين قال: ما رأيت أليق من أعطاف معاوية بالرياسة والملك.

ولكن هذا الاستقرار لم يطل عهده بعد معاوية، فقد كان من سوء حظ الناس: أن جاء بعد يزيد ابنه معاوية الثانى وكان ضعيفاً زاهداً، فأبى أن يستخلف، وترك أمر الناس فوضى، فثارت الفتنة من جديد، وكثر المطالبون بالملك والخارجون فى كل مكان، من زبيرية وشيعة وخوارج.

وتفرقوا شِيَعاً فكلُّ مدينة فيها أمير المؤمنين ومِنْبَرُ

واحتكم الناس إلى السيف من جديد وأصبح الملك للغالب، كما يقول كعب بن جعيل التغلبى.

أصبحت الأمة فى أمر عجب والمُلْكُ مجموعٌ غداً لمن غلب
فقلتُ قولاً صادقا غيرَ كذِبْ إنّ غداً تَهلِك أعلامُ العرب

وأسرف الناس فى القتل وفى إراقة الدماء، حتى ملوا الحرب، ورأوا أنهم إنما يقاتلون من أجل قريش، كما تقول هذه المرأة الثكلى، التى فقدت أولادها الثلاثة فى صفين(١)

أعينَىَّ جودا بدمعٍ سَرِبْ على فتيةٍ من خيار العرب
وما ضرَّهم غيرُ جَنْى النفوس بأى امرىءٍ من قريشٍ غَلَب

وكما يقول الشاعر الطائى:

وإن امرءًا يعطى الأسنَّة نحره وراء قريشٍ لا أعُدُّ له عقلا
يذمون لى الدنيا وقد ذَهَبوا بها فما تركوا فيها لمُلْتَمِسٍ ثُعْلا

ثم يقرر السيف للمرة الثانية، أن بنى أمية هم أولى الناس بالملك، فيستقر لهم الأمر على نظام ملكى ثابت الأركان، وطيد الدعائم.

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٣٠

كان لهاتين الثورتين الكبيرتين آثار خطيرة فى التفكير العربى ، لاتخلو من خير . فقد صحبتهما حركة فكريه عنيفة ، لا تضارعها إلا هذه الحركة التى صحبت ظهور الإسلام . وللمرة الأولى بدأ الناس يناقشون نظام الحكم ، وأتيح لهم أن يروا ألوانا مختلفة من البرامج السياسية ، يعرضها عليهم المرشحون للحكم ، كل منهم يحاول استمالتهم إلى جانبه وبدأت العصبيات الجاهلية القديمة تتخذ صورة حزبية مهذبة ، تقوم على نظريات سياسية واضحة محددة . فأتباع بنى أمية فى الشام — ومعظمهم من اليمنية، الذين أصهر معاوية إلى قبيلة كبيرة منهم هى قبيله كلب — يقرون النظام الملكى الجديد ، الذى يقوم على التوريث ، وتأخذ فيه البيعة شكلا صورياً . وأتباع ابن الزبير فى الحجاز متمسكون بالنظام الجمهورى القديم ، الذى يقوم على الانتخاب ، ولكنهم يحصرون حق الخلافة فى قريش . والشيعة يرون فى الخلافة أو الإمامة كما يسمونها شيئا من القداسة التى لا تكتسب اكتسابا ، ولكنها تورث توريثا ، فهناك دم ملكى مقدس ، ورث هذه القداسة عن النبى ، وهم وحدهم أصحاب الحق فى الملك،وحقهم فى ذلك ثابت من عند الله ، ليس للناس فيه رأى أو خيار . والخوارج يمثلون التفكير الديمقراطى المتطرف ، فهم لا يرون الخلافة حقا لقريش أو لفرع معين منها ، بل لا يرونها حقا للعرب مقصوراً عليهم لا يتجاوزهم إلى غيرهم . فالخلافة عندهم تصلح فى أفناء الناس كلهم ، من كان منهم قائما بالكتاب والسنة عالما بهما ، ثم هم بعد ذلك يخالفون بقية الأحزاب ، فى حق سحب الثقة من الإمام الجائر ، فالخلافة عندهم ليست بالحق الذى يوهب مدى الحياة ، وهناك فرقة من الخوارج هم النجدية ، يمثلون الفوضوية اللا حكومية ، فهم يرون أن الناس يستطيعون أن يتعاطوا الحق فيما بينهم ، وأن ينظموا أمورهم ، من غير حاجة إلى إمام .

وقد كان للعصبيات الجاهلية أثر واضح فى نشأة الأحزاب الجديدة وتكوينها ، فحروب العراق والشام ليست إلا امتداد للنزاع القديم بين المناذرة

والغساسنة من ناحية ، وبين النزارية والقحطانية من ناحية أخرى . شاءت الظروف أن يكون جند معاوية يمنيين ، لأنهم معظم أهل الشام ، فلم يكن لأهل العراق بد — ومعظمهم نزارية — من أن يكونوا جند المعارضة . وانساق اليمنيون منهم مع جمهور الناس متأثرين بعصبية الأقليم ؛ ولكنهم ظلوا متمسكين بعصبيتهم اليمنية لا ينسونها فالأشعث بن قيس لا يرشح فى التحكيم بين على ومعاوية إلا أباموسى الأشعرى . فإذا اعترض علىّ عليه ورشح ابن عباس ، قال الأشعث وأصحابه : والله لا يحكم فينا مضرى[١]. ثم هو يثبط الناس عن على ، حين طلب إليهم أن يمضوا لقتال معاوية فى الشام ، بعد أن هزموا الخوارج ، قائلا : قد كلت سيوفنا ، ونفدت نبالنا ، ونصلت أسنة رماحنا ، فدعنا نستعد بأحسن منها[٢]. والعداء بين الأمويين وبين الأنصار — مع أنهم يمنية — ليس إلا أثراً من آثار العداوة القديمة بين يثرب وبين مكة ، التى كان يتزعمها فى ذلك الوقت أبو سفيان بن حرب .

ولم تنته هذه العصبيات بانتهاء الفتن واستقرار الأمور ، فقد ظل الأمويون على كرههم للقيسية وأهل العراق . دخل رجل من قيس على عبد الملك بن مروان فقال : زبيرى ! والله لا يحبك قلبى أبداً . فقال: يا أمير المؤمنين ، إنما يجزع من فقد الحب النساء . ولكن عدل وإنصاف[٣] ودخل مسكين الدارمى على معاوية ، وسأله أن يفرض له ، فأبى — وكان لا يفرض إلا لليمن[٤]. فاليمنية لم يقاتلوا مع معاوية ، ثم مع مروان ، إلا بعد أن اشترطوا عليهما شروطاً . يقول المسعودى : واشترط حسان بن مالك — وكان رئيس قحطان وسيدها فى الشام — على مروان ، ما كان لهم من الشروط على معاوية وابنه

---

(١) مروج الذهب ٢ ٢٨

(٢) مروج الذهب ٢ ٢٨

(٣) العقد الفريد ٤ ١١٤

(٤) خزانة الأدب ٢ ٢٥٥

يزيد وابنه معاوية بن يزيد ، ومنها أن يفرض لهم لألفى رجل ألفين ألفين ، وإن مات قام ابن عمه مكانة ، وعلى أن يكون لهم والنهى وصدر المجلس ، وكل ما كان من حل وعقد ، فعن رأى منهم ومشورة . فرضى مروان بذلك وانقاد إليه . وقال له مالك بن هبيرة اليشكرى إنه ليست لك فى أعناقنا بيعة . وليس نقاتل إلا عن عرض دنيا ، فإن تكن لنا على ما كان لنا معاوية ويزيد نصرناك ، وإن تكن الأخرى ، فوالله ماقريش عندنا إلا سواء[1]. وظل الأمويون على بغضهم للأنصار ، ولكنهم كانوا يصانعونهم ويدارونهم . لسابق صنيعهم فى الإسلام ، ولوصية رسول الله . دخل قيس بن سعد بن عبادة على معاوية بعد وفاة على ووقوع الصلح ، فى جماعة من الأنصار . فقال لهم : يامعشر الأنصار . بم تطلبون ماقبلى ، فو الله لقد كنتم قليلا معى كثيراً على ، ولقد فللتم حدى يوم صفين ، حتى رأيت المنايا تتلظى فى أسنتكم ، وهجوتمونى فى أسلافى بأشد من وقع الأسنة ، حتى إذا أقام الله ماحاولتم ميله قلتم : ارع وصية رسول الله ! هيهات ، يأبى الحقير الغدرة[2]. وحضرت الوفود بباب معاوية , فاستأذن لهم حاجبه وقال الأنصار بالباب ، وكان عمرو بن العاص حاضراً فغاظه هذا اللقب ، فقال لمعاوية ماهذا اللقب يا أمير المؤمنين ؟ أردد القوم إلى أنسابهم . وخرج الحاجب فقال : من كان هنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل ، فلم يدخل الأنصار ، ثم خرج فقال : من كان هنا من الأوس والخزرج فليدخل ، فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير ، وهو يقول :

يا سعدُ لا تُجِب الدُّعاء فما لنا نَسَبٌ نُجِيبُ به سوى الأنصار
نسبٌ تخَيَّرَهُ الإلهُ لقومِنا أَثْقِلْ به نَسَبًا على الكفار
إن الذين ثَوَوا ببدرٍ منكم يومَ القَلِيبِ هُمُ وقودُ النار

---

(١) مروج الذهب ٢ : ١٠٦
(٢) مروج الذهب ٢ ٦٣

فنظر معاوية لعمرو قائلا : إن كنا لأغنياء عن هذا [١] .

هذه العصبيات القديمه التى انتهت إلى الصورة الحزبية الناضجة التى قدمناها ، قد أوجدت فى العصر الأموى معارضه قوية فعالة ، تخشى الحكومة بأسها ، فتأخذها باللين تارة ، حريصة على إرضائها ، وتأخذها بالعنف أخرى حين لا يكون بد من العنف . وكان موطن هذه المعارضة فى الغالب هو العراق ، ويرجع ذلك لأسباب كثيرة ، منها بعده عن مركز السلطان ، فالخارج على الحكومة ، يستطيع أن يجد له مهرباً إلى الشرق أو إلى الصحراء إذا انهزم ، فهو فى مكانه هذا أبعد عن يد السلطان . وآمن على سلامته . لذلك اضطرب العراق بالثورات والحروب طوال العصر الأموى . ولم يعرف الاستقرار . إلا بعد إنتقال عاصمة الملك إليه ، بقيام الدولة العباسية . وقد أعان على هذا الاضطراب تباين البيئات فيه ، واختلاف المذاهب والآراء ، من زبيرية وخوارج وشيعة . فهو مثابة الثائرين ، ومعقل الخارجين . وملجأ الهاربين . هذا والنازحون إلى العراق من البدو كثير . والجفاء وحب الخلاف غالب على خلقهم . فهم ينفرون من قيود القانون ، ولا يحتكمون إلا إلى السيف ، لأن اقتصاص السلطان لا يشفى صدورهم . فهو عندهم من مظاهر العجز . وخير ما يصور ضيق هؤلاء البدو بالقانون والنظام ، قول شبيب بن عوانة الطائى :

قضى بيننا مروانُ أمسِ قضيةً   فما زادنا مروانُ إلا تنائيا
فلو كنتُ بالأرْض الفضاءِ لعِفْتُها   ولكن أتَتْ أبوابُه من ورائيا

والبدوى لا يعتقد أن للسلطان حقاً فيما يستمتع به من سلطات . ولا يراه

---

(١) الأغانى ١٤ ١٢٥

إلا مغتصباً قد أكل أموال الناس . وراح يتصرف فيها على حسب ميله وهواه . يقول عتبة الأسدى [١] :

معاوِىَ إننــا بَشَرٌ فأَسْجِحْ   فلسنا بالجِبــال ولا الحديد [٢]

أكلتُم أرضنا وجَذَذْتُمونا   فهل من قائِم أو من حَصِيد

فهَبْنا أمةً هلــكَتْ ضَياعاً   يزيدُ أمــيرُها وأبو يزيد

أتطمعُ بالخــلود إذا هلــكنا   وليس لنــا ولا لك من خُلُود

ذَرُوا خَوَلَ الخلافة واستقيموا   وتأمينَ الأراذِلِ والعبيــد [٣]

(١) العقد الفريد ٦ ١٦٨
(٢) السجح بضمتين والسجيج اللين السهل
(٣) الخول محركة ما أنعم الله على الرجل من النعم والعبيد والأماء وغيرهم من الحاشية ، يستعمل للواحد وللجمع وللمذكر والمؤنث .

الهجـــــاء السياسى

كان الهجاء السياسى من أظهر فنون الشعر فى العصر الأموى : فقد عرف معاوية وخلفاؤه ما للشعر من أثر فى نفوس الناس، فحرصوا على أن يجمعوا حولهم أكبر قدر ممكن من الشعراء . ولم يجدوا حرجا من أن يتألفوا قلوب أصحاب النفوذ والجاه بالمال والعطاء، وكان لهم فى رسول الله أسوة حسنة بما فعل من تشجيع الشعر، وتألف الناس بالمال، فى سبيل نشر الدعوة وإقرارها . ولازم هذه الحركات العنيفة والحروب المضطربة شعر كثير مضطرب عنيف يؤيد الطامعين فى الحكم والمحاربين فى سبيله، ويهاجم خصومهم وأعداءهم . وبذلك عاد الشعراء مرة ثانية للظهور، بعد أن اختفى أثرهم وخفت صوتهم منذ وفاة النبى . عادوا يحتلون من الحياة السياسية مكاناً ممتازاً، ويشرفون على توجيه الرأى العام، بما يذيعون من شعر، فى تأييد أحزابهم ومعارضة أعدائهم ومنافسيهم . وحرص القادة والزعماء والمطالبون بالملك عليهم . فاصبح الشعر — كما كان فى الجاهلية — نظير الرمح وقرينة . وشطر عدة المحارب وروح دعوته . وصحبوهم فى حربهم، كما فعل عبد الرحمن ابن الأشعث، حين خرج من سجستان مقبلا إلى العراق، وبين يديه أعشى همدان، قد تقدم الجيش على فرسه يرتجز : [1]

شطت نوى مَن دارُهُ بالإيوان ... إيوانِ كسرى ذى القرى والرَّيْحان

فالبَنْدُنيجَينِ إلى طَرْدَاسْتَان ... فالجِسْرِ فالكوفةِ فالغَرِيّان

مِن عاشقٍ أضحى بزابُلِسْتان ... إنّ ثقيفاً منهم الكذابان

كذابُها الماضى وكذابٌ ثان ... أمكَنَ ربى من ثَقِيفٍ هَمْدان [2]

---

(١) الطبرى ٥ ٤٧ وديوانه ٣٤١

(٢) الكذاب الأول هو المختار بن عبيد الثقفى ويقصد بالكذاب الثانى الحجاج بن يوسف الثقفى .

يوماً إلى الليـل يُسْلِ ماكان ... إنا سَمَوْنا للـكَفُور الفتّان
حين طغَى فى الـكُفْرِ بعد الإيمان ... بالسيد الغِطْرِيف عبدِالرحمن
سار بِجَمْعٍ كالدَّبَى من قحْطان ... ومن مَعَدٍ قد أتى ابنِ عدنان [١]
بجَحْفَلٍ جَمٍ شـديدِ الإرنان ... فقل لحجّاجٍ ولىِّ الشيطان [٢]
يثبُتْ لجمع مذحجٍ وهَمْدان ... والحىِّ من بكرٍ وقَيْسِ عيلان
فإنهم ساقوه كأس الذَّيْفان ... ومُلْحقُوه بقرى ابن مروان [٣]

واعتمد الزعماء على الشعراء فى إعداد الناس لما يدبرون من مشاريع ، يمهدون لها بالشعر ليتحسسوا رأى الناس ، ومدى استعدادهم لقبولها ، قبل أن يفجئوهم بها ، كما فعل معاوية ، حين هم أن يباع لابنه يزيد ، مستحدثا بذلك سنة ولاية العهد فأوعز إلى مسكين الدارمى أن يتكلم فى ذلك فقال : [٤]

ألا ليتَ شِعْرى ما يقول ابنُ عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعِيد
بَنِى خلفاءِ الله مهلاً فإنمـا ... يبوِّئها الرحمنُ حيثُ يريد
إذا المِنْبَرُ الغربىُّ خَلاَّهُ ربُّه ... فإن أميرَ المؤمنـين يزيد

وحرضوهم على هجاء معارضيهم : عاملين على إذاعة هجائهم فى المجامع والمحافل ، كما فعل عبدالملك بن مروان بأبى العباس الأعمى ، حين حج فطلب إليه أن ينشده هجاء ابن الزبير على ملأ من الناس ، يقصد بذلك إلى التأثير فيهم، وهو يعلم أن الحجاز معقل صحبه وأتباعه، ومنشأ المعارضة القويه للحكم

(١) الدبى أصغر الجراد والنمل ، يريد كثرة هـذا الجيش ، كما نقول نحن اليوم فى تشبيهنا العامى عددهم كثير كالنمل .

(٢) الأرنان الصياح والماضى رن وأرن صاح .

(٣) الذيفان السم القاتل . ملحقوه بقرى ابن مروان يعنى الشام حيث يقيم الخليفة عبدالملك بن مروان.

(٤) الأغانى ١٨ : ٧١

الأموى . قال صاحب الأغانى : حج عبدالملك بن مروان ، فجلس للناس بمكة فدخلوا على مراتبهم ، وقامت الشعراء والخطباء فتكلموا ، ودخل أبوالعباس الأعمى ، فلما رآه عبدالملك قال ، مرحباً بك يا أبا العباس ! أخبرنى بخبر الملحد المحل . حيث كسا أشاعه ولم يكسك ، وأنشدنى ما قلت فى ذلك . فأخبره بخبر ابن الزبير ، وأنه كسا بنى أسد وأحلافها ولم يكسه ، وأنشده الأبيات :(١)

بنى أسد لا تذكروا الفخرَ بينكم ... متى تذكروه تكذبوا وتُحَمَّقوا

بعيدات بين خيركم لصديقكم ... وشركم يغدو عليه ويَطرُق (٢)

متى تُسْأَلوا فضلاً تضِنُّوا وتبخلوا ... ونيرانكم بالشر فيها تَحَرَّق

إذا استَبَقَتْ يوماً قريش وُجِدْتُم ... بنى أسد سُكْتاً وذو المجد يسبق(٣)

تجيئون خَلفَ القوم سُوداً وجوهكم ... إذا ماقُريشٌ للأضامِيم أصفَقُوا (٤)

وما ذاك إلا أن للُّؤْم طابعا ... يَلُوح عليكم وَسْمُه ليس يَخلُقُ

فقال عبد الملك ، أقسم على كل من حضر من بنى أمية وأحلافهم ومواليهم ثم على كل من حضر من أوليائى وشيعتى على دعوتهم ، إلا كسا أبا العباس .

وبذلك أصبحت السياسة والحزبية حرفة يتكسب منها الشعراء . وهذا هو أعشى همدان ، يذكر ابن الأشعث بيلائه وصبره معه فى الشدة ، ويطالبه بثمن شعره وولائه . فى قصيدة طويلة منها :(٥)

---

(١) الأغانى ٥ ٦٢

(٢) الطرق والطروق الاتيان بالليل ، والغدو ضد الرواح ، والغدوة ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس ، بعيدات بين خيركم كذلك هى بالأصل ولعله محرف .

(٣) سكت جمع سكيت يوزن كميت وقد تشدد الكاف وهو آخر خيل الحلبة .

(٤) الضمة الحلبة فى الرهان والجمع أضاميم وهى جماعات الخيل . أصفقوا اجتمعوا . وأصفق القوم على الشىء أطبقوا عليه .

(٥) ديوان أعشى قيس والأعشون الآخرون ص ٣٢٤ .

كم قد أسدَى لك من مدحة   تُرْوَى مع الصادر والوارد
وكم أجبنا لك من دعوة   فاعرفْ فما العارفُ كالجامد
مالك لا تُعطى وأنت امرؤ   مُثْرٍ من الطارف والتالد
تَجْبِي سِجِسْتانَ وما حولها   مُتَّكِئاً فى عيشك الراغد
لا ترهبُ الدهرَ وأيامها   وتَجْرُدُ الأرضَ مع الجارد
إن يكُ مكروهٌ تَهِجْنا له   وأنت فى المعروف كالراقد
ثم ترى أنا سنرضى بذا   كلا وربِّ الراكع الساجد
وحُرْمةِ البيتِ وأستاره   ومَن به من ناسك عابد
ما أنا إن هاجك مِن بعدها   كَهَيْجٌ بآتيك ولا كابد
ولا إذا ناطوك فى حلقة   بجاهلٍ عنك ولا ناقد
فأعط ما أعطيتَه طيِّباً   لا خير فى المَنْكُود والناكد (٦)
وأنجِز الوعد إذا قلتَه   ليس الذى يُنجِزُ كالواعد

وقد أعان التشجيع من جانب الخلفاء والزعماء ، والطمع من جانب الشعراء ، على استحفال الهجاء السياسى ، فاستطار شره بين الناس ، حتى أصبحوا يجتمعون لذلك فينشدون أهاجيهم ، ولا يفترقون إلا بعد قتال ، كما كان يفعل سديف[١] مولى بنى هاشم وشبيب مولى بنى أمية . قال أبو الفرج فى أخبار سديف : شاعر مقل من شعراء الحجاز . ومن مخضرمى الدولتين . وكان شديد التعصب لبنى هاشم ، مظهراً لذلك أيام بنى أمية . وكان يخرج إلى صحار صغار فى ظاهر مكة ، يقال لها صفار الشراب [٢] ويخرج مولى لبنى

---

(١) نكد فلان فلانا منعه ما سأله أو لم يعطه لا أقلة

(٢) الأغانى ٤ ٦٢

(٣) كذا بالنص . وفى الأغانى ٩ ٧٥ ط . دار الكتب صفا السباب وهو أصح .

أمية معه يقال له سباب [١] . فيتشاتمان ويذكران المثالب والمعايب . ويخرج معهمامن سفهاء الفريقين من يتعصب لهذا ولهذا .فلا يبرحون حتى يكون الجراح والشجاج ، ويخرج السلطان إليهم فيفرقهم ويعاقب الجناة فلم تزل العصبية بهم . حتى شاعت فى العامة والسفلة . وكانو صنفين ، يقال لهم السديفية والسبابية [٢] . وقال فى موضع آخر [٣]، فى قول الشاعر :

سكنوا الجزع جِزْعَ بيت أبى مو سى إلى النخل من صفى السباب

(وصفى السباب بفتح الفاء وكسرها جميعاً . وهو شعب من شعاب مكة ، فيها صفاً أى صخر مطروح ، وكانت قريش تخرج فتقف على ذلك الموضع ، فيفتخرون ثم يتشاتمون ، وذلك فى الجاهلية ، فلا يفترقون إلا عن قتال ثم صار ذلك فى صدر من الأسلام أيضاً ، حتى نشأ سديف ، مولى عتبة بن أبى سديف ، وشبيب مولى بنى أمية ، فكان هذا يخرج فى موالى بنى هاشم ، وهذا فى موالى بنى أمية ، فيفتخرون ثم يتشاتمون ثم يتجادلون بالسيوف . وكان يقال لهم السديفية والشبيبية . وكان أهل مكة مقتسمين بينهما فى العصبية).

بل لقد غرى الناس بالهجاء . حتى أصبح بدعا فى ذلك الوقت . وصاروا يتهاجون لغير خصومة ، كلفا باللجاج والمراء . جاء البردخت إلى جرير ، فقال: تهاجينى ؟ قال : ومن أنت ؟ قال أنا البردخت . قال : وما البردخت ؟ قال : الفارغ بالفارسية . قال : ما كنت لأشغل نفسى بفراغك [٤] . ورحل قوم إلى عدى بن الرقاع ليهاجوه ، فتقدمت إليهم بنته فقالت :

تجمَّعْتم من كل أوبٍ ومنزل على واحدٍ لازلتُم قِرْنَ واحد

---

(١) كذا بالنص . وهو شبيب . الأغانى ٩ ٧٦ ط . دار الكتب
(٢) كذا بالنص والصواب الشبيبية .
(٣) الأغانى ٩ : ١٧٥
(٤) الشعر والشعراء ٢٧٣

فانصرفوا عنه ولم يهاجوه [١] . وكان المغيرة بن حبناء يهاجى أخاه صخر ابن حبناء ، ولهما قصائد يتناقضانها كثيرة . [٢] وكان ابن ميادة متعرضاً للشر، طالباً لمهاجاه الشعراء ومسابة الناس . وكان يضرب بيده على جنب أمه ويقول:

اعرَنْزِمِي ميَّادُ للقوافى واستمعِن ولا تخافى
ستجدين ابنك ذا قذاف [٣]

ولا نكاد نعرف فى هذا العصر شاعراً مشهوراً ، إلا قد أخذ من الهجاء بنصيب . يقول ابن قتيبة فى أخبار ذى الرمة : وإنما وضعه عندهم ، أنه كان لا يجيد المدح ولا الهجاء [٤]

واحتل المربد فى العراق — موطن الفتن والاضطرابات والهجاء فى العصر الأموى — مكان عكاظ من الحجاز فى الجاهلية ، فصار مجمع الناس فى خصوماتهم الخاصة ، وفى محافلهم السياسية العامة . يقول ابن عبد ربه قدم طلحة بن عبدالله والزبير بن العوام وعائشة أم المؤمنين البصرة ، فتلقاهم الناس بأعلى المربد ، حتى لو رموا بحجر ما وقع إلا على رأس إنسان . فتكلم طلحة ، وتكلمت عائشة ، وكثر اللغط . فجعل طلحة يقول : أيها الناس أنصتوا . وجعلوا يرهجون ولا ينصتون . فقال — أف ! أف ! فراش نار وذباب طمع ! [٥] وفى المربد كانت تنشد نقائض جرير والفرزدق . وكان لكل منهما حلقة معروفة ومكان معين يجتمع فيه بأصحابه . قال أبو فرج : وكان لراعى الأبل والفرزدق وجلسائهما حلقة معروفة بأعلى المربد بالبصرة يجلسون فيها . ثم أصبح (جرير) ، حتى إذا عرف أن الناس قد أخذوا مجالسهم

(١) الشعر والشعراء ٢٣٧
(٢) الأغانى ١١ ١٦٢
(٣) الأغانى ٢ ٢٦٣ ، الشعر والشعراء ٢٩٨
(٤) الشعر والشعراء ٢١٠
(٥) العقد الفريد ٥ : ٧١

بالمربد — وكان جرير يعرف مجلس الراعى ومجلس الفرزدق — فدعا بدهن فادهن وأصلح وجهه ،حتى إذا كان بموضع السلام لم يسلم ، ثم قال: ياغلام قل لعبيد الراعى أبعثك نسوتك تكسبهم المال بالعراق ؟ والذى نفس جرير بيده لترو بن إليهن بمير يسوؤهن ولا يسرهن . ثم اندفع فى القصيدة (وهى التى يقول فيها بيته المشهور : فغض الطرف إنك من نمير) فنكس الفرزدق رأسه ، وأطرق الراعى [١] وفى المربد تهاجى النابغة الجعدى وأوس بن مغراء ، وحضرهما العجاج والأخطل وكعب بن جعيل ، وكلهم شارك فى المهاجاه يعين صاحبه بشعره . [٢] وكثيراً ما كانت تنتهى المهاجاه بالقتال كما يروى صاحب الأغانى فى خبر جرير والفرزدق. يقول : ولما تواقف جرير والفرزدق بالمربد للهجاء ، اقتتلت بنو يربوع وبنو مجاشع ، فأمدت بنو العم بنى مجاشع، وجاؤوهم فى أيديهم الخشب ، فطردوا بنى يربوع ، فقال جرير: من هؤلاء ؟ قالوا : بنوالعم . فقال جرير :

ما للفرزدق من عز يلوذ به إلا بنى العم فى أيديهم الخشب [٣]

وربما أنشد فيه الشعراء شعرهم فى غير الهجاء ، وقد خرجوا على الناس فى أحسن لباسهم وأبهى زينتهم ،كما يروى أبو الفرج فى وقوف ذى الرمة بالمربد ، وقد اجتمع عليه الناس ، وهو قائم وعليه برد قيمته مائتا دينار ، وهو ينشد ودموعة تجرى على لحيته :

ما بالُ عينِك منها الماء ينسكب كأنه من كُلًى مفريَّةٍ سَرِبُ [٤]

وقد اختلفت صور الهجاء السياسى فى ذلك العصر وتعددت مذاهبه ، فمضى بعضه على الأسلوب الجاهلى الذى يقوم على العصبية القبلية واتجه

---

(١) الأغانى ٢٠ ١٦٩
(٣) الأغانى ٥ ١٢
(٣) الأغانى ٣ ٢٥٧
(٤) الأغانى ١٦ : ١٢٣

بعضه إلى مهاجمة أصحاب الدعوة والمحاربين فى سبيل الملك، وإنكار حقهم فى ذلك، وتتبع سقطاتهم، والتشنيع بأفعالهم وهفواتهم. وانصب بعضه الآخر على الولاة، مهاجما سياستهم البعيدة عن العدل والانصاف، والمخالفة لما ألف الناس من عادات. وذهب فريق من الناس مذهب الساخط على كل هؤلاء الزعماء القرشيين، الذين امتلأت نفوسهم بالطمع، فجروا على الناس هذه الويلات، التى لا تعود عليهم بغير الشر والفناء.

أما شعر العصبية فهو جاهلى فى روحه وخصائصه، لم يتأثر بالمثل الإسلامية الجديدة فى قليل أو كثير، فهو امتداد لشعر الحروب التى كانت تقع بين القبائل فى الجاهلية. فالقيسى لا يحس أنه يقاتل من أجل ابن الزبير، وليس الذى يدفعه للقتال عداؤه للأمويين، ولكنه يحارب هذه القبائل اليمنية، التى عادت للظهور بعد أن أخماها الإسلام، وقضى على مجدها الجاهلى القديم. واليمنية — ومعظمهم من الشام — يقاتلون فى سبيل الظهور إلى الحياة، واستعادة سلطانهم السياسى، وإقرار الملك فى الشام بعد أن أزاله الإسلام ونقله إلى الحجاز، والأمويون عندهم مطية لتحقيق أغراضهم، وسبب لما يحاولون من السيادة والملك. والدارس لهذا اللون من ألوان الهجاء السياسى، يرى أن القيسى عميق الشعور بمضريته، واليمنى عميق الشعور بيمنيته. فالقيسى لا يحس أنه تابع لابن الزبير، ولكنه قيسى قبل كل شىء وبعد كل شىء. واليمنى لا يحس أنه من جند معاوية أو مروان، ولكنه يمنى أولا وآخرا. فالفريقان كلاهما لم يكونا مدفوعين إلى القتال بفكرة سياسية حول نظام الملك أى أنواعه أصلح، وأيها أدنى لتحقيق العدالة وإقامة الإسلام، ولكنهما كانا مدفوعين إليه بالعصبيات الجاهلية والثارات القديمة، ولم تكن هذه الفتنة الإسلامية الجديدة إلا منفذاً أو ثغرة لهذه الحزازات، التى تلمست طريقها إلى الوجود عن طريق هؤلاء الزعماء الذين يتقاتلون على الحكم.

يقول زفر بن الحارث الكلابى فى مرج راهط [١]

أرينى سلاحى لا أبالك إننى ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا

أتانى عن مروان بالغيب أنه ... مُقِيدٌ دمى أو قاطعٌ من لسانيا

ففى العِيس مَنجاةٌ وفى الأرض مَهْرَبٌ ... إذا نحن رفّعنا لهن المَثَانيا [٢]

فلا تحسبونى إن تغيّبْتُ غافلا ... ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا

فقد ينبتُ المَرعى على دِمَن الثرى ... وتبقى حزازاتُ النفوس كما هيا [٣]

أتذهب كَلْبٌ لم تنلْها رماحنا ... وتُترَكُ قتلى راهطٍ هى ما هيا [٤]

لعَمْرى لقد أبقت وقيعةُ راهطٍ ... لحسّانَ صَدعاً بَيِّنا متنائيا

أمن بَعْدِ عمروٍ وابن معنٍ تتابعا ... ومَقْتَل همّامٍ أُمَنِّى الأمانيا [٥]

فلم تُرَ منّى نبوةٌ قبل هذه ... فرارى وتركى صاحِبَىَّ ورائيا

عشية أعدُو بالقران فلا أرى ... من الناس إلا مَن عَلَىَّ ولاليا

أيذهب يومٌ واحدٌ إن أسأتُه ... بصالح أيامى وحُسْنِ بَلائيا

---

(١) الطبرى ٤ ٤١٨ ، ابن الأثير ٣ ٣٢٩

(٢) المثانى معاطف الوادى ، وركبتا الدابة ومرفقاها والمعنى يصلح بكليهما

(٣) الدمن أرواث البهائم المتلبدة والأبعار يقول إن الحقد الدفين يظل كامنا فى النفس وإن سترته مظاهر البشاشة كما أن المراعى الخضر الزاهية تنبت فوق الدمن فتخفيها عن الأعين ولكنها باقية كما هى .

(٤) كلب قبيلة يمنية تسكن بادية الشام أصهر إليهم معاوية ، منهم أم ولده يزيد وقد كانوا منذ ذلك الوقت عصبية أموية . قتلى راهط يقصد وقعة مرج راهط وهى من المواقع العظيمة الحاسمة كانت بين الزبيرية بقيادة الضحاك بن قيس وبين الأمويين يقودهم مروان بن الحكم . وقد كان جند مروان فى هذه الموقعة من اليمنية (كلب وغسان والكاسك والسكون) وكان جند الضحاك من قيس عيلان . وقد قتل من القيسية فى هذه الموقعة عدد ضخم .

(٥) هؤلاء قيسية قتلوا فى مرج راهط .

فلا صُلحَ حتى تنحِط الخيلُ بالقنا ... وتثأر من نسوان كلْبٍ نسائيا
ألا ليت شعرى هل تُصيبنَّ غارتى ... تَنُوخاً وحيِ طيء من شفائيا (١)

فيجيبه جَواس بن قعْطل :

لعمرى لقد أبقتْ وقيعة راهطٍ ... على زُفرٍ داءً من الداءِ باقيا
مقيماً ثوى بين الضلوع محلُّه ... وبين الحَشا أعيِ الطبيب المُداويا
تُبَكِّى على قتلى سُليمٍ وعامر ... وذبيان معذورا وتُبكى البواكيا (٢)
دُعى بسلاح ثم أحجم إذ رأى ... سيوف جَنابٍ والطوال المَذاكيا
عليها كأُسْد الغاب فتيانُ نجدةٍ ... إذا شرعوا نحو الطِّعان العواليا

ويجيبه عمرو بن مخلاة الكلبي :

بكى زفرُ القيسيُّ من هُلْك قومه ... بعَبْرة عين ما يجفُّ سُجُومها
يُبَكِّى على قَتْلَى أُصيبتْ براهط ... تُجاوِبُه هام القفار وبومُها
أبحنا حِمَى للحىِّ قيس براهط ... وولَّتْ شِلالاً واستُبيحَ حريمُها
يُبكِّيهمُ حَرَّانَ تجرى دموعُه ... يُرَجِّى نزارا أن تئُوبَ حلومُها
فمُتْ كمداً أو عِشْ ذليلاً مُهضَّماً ... بحسرة نفسٍ لاتنامُ همومُها
إذا خَطَرَتْ حولى قضاعةُ بالقنا ... تخَبَّطُ فعلَ المُصعَباتِ قرومُها
خَبَطْتُ بهم من كادنى من قبيلةٍ ... فمن ذا إذا عزَّ الخُطوبُ يرومُها

ويعز على زفر أن يقتل ابن الزبير وهو قرشى مضرى ، بينما بحدل وابن بحدل — أخوال يزيد بن معاوية ينعمان بالحياة — وهما يمنيان فيقول :

---

(١) كلب وتنوخ وطيء قبائل يمنية اشتركت مع الأمويين فى مرج راهط .
(٢) سليم وعامر وذبيان قبائل من قيس عيلان .

أفي اللهِ أمَّا بَحْدَلٌ وابن بَحْدَلٍ فيَحْيَا وأما ابنُ الزبير فيقْتَلُ
كذبتم وبَيْتِ الله لا تقتلُونَه ولمَّا يكُن يومٌ أغرُّ مُحَجَّلُ
ولما يكُنْ للمَشرفيَّةِ فوقكم شُعاعٌ كقَرن الشمس حين ترَجَّلُ

فيجيبه عبد الرحمن بن الحكم (أخو مروان) :

أتذهَبُ كلبٌ قد حَمتْها رماحُنا وتُترَكُ قتلى راهطٍ ما أجنَّت
لحا اللهُ قيساً قيسَ عيلانَ إنها أضاعَتْ ثغورَ المسلمين وولَّت
فباهِ بقيسٍ فى الرخاءِ ولاتَكُن أخاها إذا ما المَشْرَفيَّةِ سُلَّتِ

ومما يناسب هذا النوع شعر ابن بقيلة ، الذى قاله فى فتح خالد للعراق يتحسر على ما كان لليمنية من مجد فى الجاهلية ، وما صاروا إليه من دفع الجزية للخلفاء والحكام من مضر [١]

أبعد المنذرَيْن أرى سَوَاماً تَرَوَّحُ بالخورنق والسَّدير [٢]
وبعد فوارس النُّعمان أرعى قَلوصاً بين مُرّة والحفير
فصرنَا بعد هُلْكِ أبى قُبَيْس كجَربِ المعز فى اليوم المطير [٣]
تَقَسَّمُنا القبائلُ من مَعَدٍّ علانية كأيْسَار الجَزُور [٤]

---

(١) الطبرى ٢ ٥٦٦

(٢) المنذان ملوك الحيرة هما المنذر بن النعمان الذى بنى الخورنق والمنذر بن ماء السماء . وماء السماء أمه كانت مشهورة بحسنها وجمالها وأبوه الأسود بن النعمان بن المنذر . الخورنق والسدير قصران مشهوران لملوك الحيرة .

(٣) أبو قبيس يقصد أبا قابوس النعمان بن المنذر صاحب النابغة الذبيانى .

(٤) هو معد بن عدنان الجد الأكبر لعرب الشمال من ربيعة ومضر . ويقابله قحطان الجد الاكبر لعرب الجنوب من كهلان وحمير وملوك الحيرة والشام من عرب الجنوب يقول الشاعر بعد أن كان عرب الجنوب من القحطانية ملوك الناس أصبح عرب الشمال يملكون عليهم ويتقسمونهم بينهم كما يتقسم لاعبو الميسر الجزور . والجزور من الابل الناقة أو الجمل يطلق على الذكر والأنثى .

وكُنَّا لا يُرامُ لنـا حَرِيمٌ فنحن كغُرَّةِ الضَّرْعِ الفَخُورِ
نُؤَدِّى الخرجَ بعد خراج كِسْرى وخَرجٍ من قُرَيظَةَ والنَّضِيرِ
كذاك الدهرُ دولتُه سِجَالٌ فيومٌ من مَسَاءَةَ أو سُرُورِ

ومنه شعر النجاشي ، فى معارضة سياسة معاوية إزاء اليمنيين فى الحروب ، إذ كان يغزيهم فى البحر ويغزى تميما فى البر [١] :

ألا أيُّها الناسُ الذين تجمَّعوا بعَكَّا أُناسٌ أنتم أم أباعِرُ
أتُترَكُ قيسٌ آمنين بدِارِهم ونركبُ ظهرَ البَحرِ والبحرُ زاخر ؟
فوالله ما أدرى وإنى لسائلٌ أهَمْدَانُ تحْمِي ضَيْمَها أم يَحَامِرُ ؟
أم الشرف الأعلى من أولاد حِمْيَرَ بنو مالك أم تستمِرُّ المرَائِرُ [٢]
أأوصَى أبُوهُمْ بينهم أن توَاصَلُوا وأوصى أبوكم بينكم أن تدَابَرُوا ؟

وهناك نوع جديد من هذا الهجاء العصبي لم يعرفه الجاهلون ، هو هجاء الإقليم . وهو يصور تعلق الناس بأوطانهم التى نزحوا إليها ، وشعورهم برابطة جديدة تجمعهم على اختلاف قبائلهم ، هى الإقليم . فالعربى الذى لم يعرف الاستقرار فى الجاهلية ، ولم تكن تحركه إلا العصبية للأفراد من قبيلته ، قد بدأ يحس بشىء من العطف نحو الأرض التى سكنها واستقر فيها وتعلق بها . ومن أمثلة هذا النوع ، هجاء أعشى همدان لأهل العراق ، فى تلونهم وإرصادهم الفتنة ونكوصهم فى الحروب :

أبَى اللهُ إلا أن يتَمِّمَ نورَه ويُطفِىء نور الفاسقين فيُخْمَدا

---

(١) خزانة الأدب ٣ ٢٥٥

(٢) همدان قبيلة يمنية . وحمير أحد فروع قحطان من عرب الجنوب ومالك هو مالك ابن حمير وهو جد لعدة قبائل منها كلب وعذرة ونهد وجرم وغيرهم . المرة بكسر الميم وتشديد الراء القوة . وأمر الحبل على البناء للمجهول شد فتله استمر مريره واستمرت مريرته استحكم

ويُظهرَ أهلَ الحقِّ فى كلِّ موطنٍ ويَعدلَ وقعُ السيفِ من كان أصيَدا[1]
ويُنزلَ ذلاًّ بالعراق وأهلِه لما نقضوا العَهدَ الوثيقَ المؤكَّدا
وما أحدَثوا من بِدعةٍ وعظيمةٍ من القول لم تَصعَد إلى الله مَصعَدا
وما نكثوا من بَيعة بعد بَيعةٍ إذا ضَمِنوها اليومَ خَاسُوا بها غَدا
وجُبنًا حشاه ربُّهم فى قُلُوبهم فما يَقرَبون الناسَ إلا تهدُّدوا
فلا صدقَ فى قولٍ ولاصبرَ عندهم ولكنَّ فَخراً فيهم وتزَيُّدا
فكيف رأيتَ الله فرَّقَ جَمْعَهم ومَزَّقهم عَرْضَ البلادِ وشَرَّدا
فقَتلاهُمُ قتلى ضلالٍ وفتنةٍ وحيُّهُمُ أمسى ذليلاً مُطَرَّدا

ومنه هجاؤه لأهل البصرة مفتخراً عليهم بيوم الجمل :

أكسع البَصْرِىَّ إن لاقيتَه إنما يُكسَعُ من قَلَّ وذَلّ[2]
واجعل الكوفىَّ فى الخَيل ولا تجعل البَصْرِىَّ إلا فى النَفَلْ[3]
أفَخَرتُم أن قَتَلْتم أعبُداً وهزَمتُم مرةً آلَ عزَلْ
نحنُ سُقناهُمْ إليكم عَنوَةً وجمعنا أمركُمْ بعدَ فَشَلْ
وإذا فاخرتمونا فاذكروا ما فعلنا بكُمْ يومَ الجَمَلْ
بين شيخٍ خاضبٍ عُثْنُونَه وفتى أبيض وضَّاحٍ رَفِلْ[4]

---

(١) الصيد محركة بفتح الصاد داء بالعنق لايستطيع أن يلتفت معه . والمقصود به هنا الكبر .

(٢) كسعه مثل منعه ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه .

(٣) النفل محركة بالفتح الغنيمة وجمعها أنفال يقول إن الكوفى يصلح للقتال أما البصرى فهو لايصلح إلا لاقتسام الغنائم .

(٤) العثنون بضم العين اللحية أو ما فضل منها بعد العارضين . وإنما يخضب الرجل لحيته إذا شاب ليغطى بالخضاب شيبه . رفل مختال يتبختر .

جاءنا يُهْدِجُ فى سابغَةٍ فذبحناه ضُحًى ذَبْحَ الجمل[1]

وعفونا فنسيتم عفْونَا وكفرتم نعمةَ الله الأَجَلّ

وقتلتم خَشَبِيّين بهم بَدَلاً من قَوْمِكُم شَرَّ بَدَل

ومنه هجاؤه لمكران — والظاهر أنه قد سار إليها غازياً على كره منه — وشعره هنا يصور إلى جانب النزعة الأقليمية ضيقاً بالغزو ، وبما يلقى الجند من عنت ، بجره الإيغال فى الفتوح . يقول الأعشى بعد تشبيب طويل يبلغ ستة وثلاثين بيتاً

وَأنت تسير إلى مُكْرَانْ فقد شَحَطَ الوِرْدُ والمَصْدَر

ولم تك من حاجتى مكران ولا الغزوُ فيها ولا المَتْجَرُ

وخُبِّرْتُ عنها ولم آتِها فما زلت من ذكرها أُذعَر

بأن الكثيرَ بها جائعٌ وأن القليلَ بها مُقْتِرْ

وأن لِحَى الناس من حرِّها تطولُ فتُجلَم أو تُضفَرْ

وَيَزْعُمُ من جاءها قبلنا بأنا سنُسْهَمْ أو نُنْحَر

أعوذ بربى من المُخْزِيات فيما أُسر وما أجهَر

وحُدِّثتُ أنْ مالنا رَجعةٌ سِنينَ ومن بعدها أشهر

إلى ذاك ما شاب أبناؤُنا وباد الأَخِلاَّء والمَعْشَر

وما كان بى من نشاط لها وإنى لذو عُدَّةٍ مُوسر

ولكن بُعِثْتُ لها كارهاً وقيل انطلق للذى يُؤْمَر

---

(١) الهدجان والهداج بضم الهاء مشية الشيخ المرتعشة . سابغة درع سابغة تغطى سائر الجسم .

فكان النَّجاء ولم ألتفت إليهم وشرُّهُم منكرٌ
هو السيفُ جُرِّد من غِمْده فليس عن السيف مُستأخَر
وكم من أخ لى مستأنِسٍ يظل به الدمع يَستَعْبر
يُودِّعُنى وانتَحت عَبْرة له كالجداول أو أغزر
فلست بلاقيه من بعدها يَدَ الدهر ما هَبَّت الصَّرْصَر
وقد قيل إنَّكُمُ عابرو ن بحراً لها لم يكن يُعْبَر
إلى السِّنْد والهِند من أرضهم هم الجنّ لكنهم أنْكَرُ
وما رام غزوا لها قبلنا أكابر عادٍ ولا حِمْيَرُ
ولا رام سابُورُ عزواً لها ولا الشيخُ كسرى ولا قَيْصَر
ومن دونها مَعْبَرٌ واسع وأجرٌ عظيمٌ لمن يُؤْجَرُ!

ومن الهجاء الذى تظهر فيه عصبية الإقليم، قول عدى بن زيد بن عدى ابن الرقاع العاملى، فى حرب مصعب بالعراق (١):

لعمرى لقد أصْحَرَتْ خيلُنا بأكناف دجلةَ للمُصْعَبِ (٢)
إذا ما مُنافقُ أهلِ العرا ق عُوتب ثُمّتَ لم يُعْتَب (٣)
دَلَفْنا إليه بذِى تُدرُء قليل التَفَقُّد للغُيَّب (٤)
يَهُزون كلَّ طويل القنا ة ملتئم النَّصْل والثَّعْلب (٥)

(١) الطبرى ٥ ٢
(٢) أصحرت خرجت للصحراء .
(٣) أعتبه سره بعد ما ساءه . والاسم منه العتبى .
(٤) دلف الشيخ والمقيد دليفاً ودلوفا وهو فوق الدبيب درأ العدو دفعه وذو تدرء قوى على دفع أعدائه .
(٥) الثعلب رأس الرمح .

كأن دُعَاهُم إذا ما غدَوا ضجيجُ قَطَابلدٍ مُخْصِب

فقدَّمنا واضحٌ وجهه كريمُ الضّرائب والمَنْصِب

أُعِينَ بنا ونُصِرْنا به ومن يَنْصُر الله لم يُغْلب

ومنه شعر نعيم بن هبيرة الشيبانى ، الذى كتب به إلى أخيه مصقلة بن هبيرة ، وقد انتقل إلى الشام ، وانضم إلى جند معاوية ، ثم أرسل إلى أخيه يطمعه فى ترك على ، والانضمام لمعاوية [١] :

قد كنتَ فى مَنْظر عن ذا ومُسْتَمَع تحمى العراقَ وتُدعى خيرَ شيبانا

حتى تقحَّمْتَ أمراً كنتَ تكْرَهُهُ للراكبين له سِرًّا وإعلانا

لو كنتَ أدَّيْتَ ما للقوم مصطبرا للحقِّ أحيَيْتَ أحيانا وموتانا

لـكن لحقت بأهل الشام مُلْتمِسا فضلَ ابن هندٍ وذاك الرأى أشْجانا

ومنه قول النجاشى فى هجاء أهل الكوفة [٢]

إذا سقى اللهُ أرضاً صَوْبَ غاديةٍ فلا سقى الله أهل الكوفة المطرا

التاركين على طُهْرٍ نساءهُمُ والناكحين بشطَّىْ دجلة البقرا

والسارقين إذا ما جَنَّ ليلُهُم والدارسين إذا ما أصبحوا السُّوَرا

ومما تظهر فيه عصبية الشام وعصبية العراق ، شعر ابن جعيل يعارض عليا ، ويتهمه بإيواء قتلة عثمان والإغضاء عنهم [٣] :

أرى الشامَ تَكرهُ مُلْكَ العراق وأهلُ العراق لها كارهونا

---

(١) الطبرى ٤ ١٠١

(٢) الشعر والشعراء ١١٥

(٣) وقعة صفين ٦٣

وكلٌّ لصاحبه مُبْغِضٌ يَرَى كلَّ ما كان من ذاك دينا
إذا ما رمَونا ورميناهم ودِنَّاهم مثلَ ما يُقْرِضونا
وقالوا عليٌّ أمامٌ لنا فقلنا لهم لا نرى أن ندينا
ومنْ دون ذلك خرطُ القتَاد وضربٌ وطعنٌ يُقِرُّ العيونا
وكلٌّ يُسَرُّ بما عنده يرى غثَّ ما فى يديه سمينا
وما فى عليٍّ لمستعتِبٍ مقالٌ سوى ضَمِّه المُحْدِثينا[1]
وإيثاره اليومَ أهلَ الذُّنوب ورفع القِصاص عن القاتلينا
إذا سيلَ عنه حدا شُبْهَةً وعَمّى الجواب على السائلينا[2]
فليس براضٍ ولا ساخطٍ ولا فى النُّهاةِ ولا الآمرينا
ولا هو سَاءَ ولا سَرَّهُ ولابد من بعض ذا أن يكونا

وإذا تجاوزنا هذا اللون المتغلب الرجعى من الهجاء السياسى ، وجدنا شعراً قد تخطى هذه النزعات القبلية ، ليصور حياة أرقى وتفكيراً أسمى من الناحية الاجتماعية ، ونظرة أوسع وأفقاً أشمل من الناحية الوطنية . فهو يترفع عن الفكرة القبلية الضيقة ، ويناقش نظام الحكم فى هذا الوطن الجديد الواسع ، مهاجماً هذا أو ذاك من الطامعين فى الملك ، معارضاً حقهم فيه وهذا الشعر يتميز بإدراكه للحياة الجديدة ، وتأثره بمثل الإسلام وأسلوب القرآن فالشعراء هنا لا يستمدون فخرهم وهجاءهم من قديمهم الجاهلى ، ولكنهم يستمدونه من حياتهم الإسلامية ، وما لهم فيها من سابقة وفضل ، ويزنون الأمور بالمعايير الإسلامية الجديدة . ومما يصور هذا اللون ، شعر

(١) يقصد بالمحدثين قتلة عثمان . يتهم عليا بإيوائهم .
(٢) إذا سيل يقصد إذا سئل عن القصاص من قتلة عثمان . حدا شبهة ساقها .

سعيد بن عبد الرحمن بن حسان ، فى قتل مصعب لزوجة المختار بن عبيد الثقفى ، وهى بنت النعمان بن بشير[1] :

أتى راكبٌ بالأمر ذى النبأ العَجَبْ ... بقتل ابنة النعمان ذى الدِّين والحسب

بقتل فتاة ذاتِ دلٍّ وسيرة ... مهذبةِ الأخلاق والخِيم والنسب

مُطهَّرةٍ من نسل قوم أكارمٍ ... من المؤثرين الخيرَ فى سالف الحِقب

خليل النبىِّ المصطفى ونصيرهِ ... وصاحبه فى الحرب والنكب والكُرَب

أتانى بأن المُلْحِدين توافقوا ... على قتلها لا جُنِّبوا القتْلَ والسلب

فلا هنأت آل الزبير معيشةٌ ... وذا قوا لباس الذُّل والخوف والحَرَبْ

كأنهم إذ أبرزوها وقُطِّعتْ ... بأسيافهم فازوا بمملكة العَربْ

ألم تعجب الأقوامُ من قتل حُرَّةٍ ... من المحصنات الدينِ محمودةِ الأدب

من الغافلاتِ المؤمناتِ بريئةٍ ... من الذم والبُهتان والشَّكِ والكذب

علينا كتابُ القتل والبأسِ واجبٌ ... وهن العفَافُ فى الحِجال وفى الحُجُب

على دين أجدادٍ لها وأبوةٍ ... كرامٍ مضت لم تُخز أهلا ولم تُرب

من الخفرات لاخَروجٌ بذيَّةٌ ... مُلايمَةٌ تبغى على جارها الجُنُب

ولا الجار ذى القربى ولم تَدْرِ ما الخنا ... ولم تَزْدلف يوما بسوءٍ ولم تُحِب

عجبتُ لها إذ كفِّنتْ وهى حية ... ألا إن هذا الخطبَ من أعجب العَجَب

فهو هنا لا يعير مصعباً ضعفه أو خمول أجداده ، مستعيناً على ذلك بتاريخهم ومن أذلهم من القبائل وغلبهم ، ولكنه يعيره خروجه على الدين الذى يدعو باسمه ، محتجاً عليه بأنه قد أباح دم مسلمة لا يحل له قتلها ، مستنداً

---

(١) الطبرى ٤ : ٥٧٤

إلى صنيع قومها فى الإسلام ، وسابقتهم فى نصر النبى وهذا الشعر واضح التأثر بالقرآن فى ألفاظه وأسلوبه ومبادئه الأخلاقية ، فى مثل قوله (وذاقوا لباس الذل والخوف والحرب) ، وقوله (علينا كتاب القتل والبأس واجب) وقوله (على جارها الجنب) ، ثم (ولا الجار ذى القربى) .

وبعض هذا الهجاء منصب على نظام الحكم ، مثل شعر عبد الله بن هشام السلولى فى مبايعة معاوية لابنه يزيد ، وهو يهاجم نظام الوراثة الذى ابتدعه معاوية ، قائلا إنه كسروية ليس من الإسلام فى شىء [١] :

فإنْ تأتوا بَرْمَلة أو بِهِنْدٍ نبايعْها أميرة مؤْمنينا[٢]

إذا ما مات كسرى قام كسرى نعُدُّ ثلاثةً مُتناسِقينا

فيا لهفا لو آنَّ لنا ألوفاً ولكن لا تعود كما عنينا

إذاً لضُربتُمو حتى تعودوا بمكّةَ تلعَقُون بها السَّخينا[٣]

حُشِينا الغيْظَ حتى لو شربنا دماء بنى أميـة ماروينا

لقـد ضاعت رعيّتُكم وأنتم تصيدون الأرانبَ غافلينا

وبعضه منصب على أشخاص الحكام ، ونقد سياستهم ، واتهامهم بمجافاة الدين والخروج على الشرع فيما يفعلون ، مثل شعر جارية بن قدامة السعدى ، يندد بما فعل طلحة والزبير ، من إخراج عائشة أم المؤمنين للقتال ، وقد أمرها الله أن تقر فى بيتها [٤] :

---

(١) مروج الذهب ٢ ٧٠

(٢) رملة بنت معاوية وهند أمه . يسخر به ويقول كنا مستعدين لأن نبايع بالخلافة لامرأة ما دمت تريد ذلك وتفرضه على الناس .

(٣) السخينة كسفينة طعام رقيق يتخذ من دقيق . وهو لقب لقريش كانت تعير به لاتخاذها إياه .

(٤) الطبرى ٣ : ٤٨٢

صُنتم حلائلكم وقُدتم أمكم ... هذا لعمرك قلةُ الإنصاف

أُمرت بجَرٍّ ذيولها فى بيتها ... فهوت تشقُّ البيد بالإيجافِ

غرضاً يُقاتل دونها أبناؤُها ... بالنَّبْل والخطىِّ والأسياف

هُتِكتْ بطلحة والزبير ستورُها ... هذا المُخبَّرُ عنهم والكافى

وقول عمرة بن بحرة ، يلومها على خروجها للقتال ، وتحريضها على سفك الدماء [1] :

يا أُمَّنا أعقَّ أمٍّ نعلم ... والأمُّ تغذُو ولداً وترحم

ألا ترين كم شجاعٍ يُكْلَم ... وتُخْتلى منه يدٌ ومِعْصم !

وقول ابن أم الكلاب لها ، يتهمها بتهييج الناس على عثمان ، إذ تقول (اقتلوا نعثلا فانه قد كفر) حتى إذا قتل واجتمع الناس على بيعة على ، قامت تطالبه بدم عثمان [2] :

منكِ البداء ومنكِ الغِيَرْ ... ومنكِ الرياحُ ومنكِ المطرْ

وأنتِ أمرتِ بقتل الأمام ... وقلتِ لنا إنه قد كفر

فهبنا أطعناكِ فى قتله ... وقاتله عندنا مَنْ أمَرْ

ولم يسقُط السقفُ من فوقنا ... ولم ينكسفْ شمسُنا والقمر

وقد بايع الناسُ اذ تدْرأٍ ... يُزيلُ الشَّبا ويُقيم الصعَر [3]

ويلْبس للحرب أثوابَها ... وما مَنْ وَفَى مثل مَنْ قد غدر

(١) الطبرى ٣ : ٢٥٦

(٢) الطبرى ٣ : ٤٧٧

(٣) الدرء الدفع وذو تدرإ قوى على مدافعة العدو . الشبا جمع شباة وهى العقرب ساعة تولد وإبرتها وحد كل شىء . والشبا كذلك الطحلب وهو أقرب للمقصود هنا أى يزيل الشوائب . الصعر الميل فى الخد خاصة وهو وصف المتكبر .

هذا شعر يناقش المسائل على ضوء الدين ، مروياً فيها متفكرا وهو يذهب فى هذا التفكير إلى أبعد حدوده ، فلا يتحرج من أن ينقد شخصاً له حرمة وقداسة كأم المؤمنين ، وأن يهاجمها فى قسوة وعنف :

ومن هذا النوع شعر أبى حرة — مولى ابن الزبير — فى هجائه ، بعد أن انصرف عنه لبخله . وقد كان ابن الزبير لا يزال يقول للناس إنما بطنى شبر ، فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا ، وأنا العائذ بالبيت [١]

ما زال فى سُورة الأعراف يقرؤُها   حتى فُؤَادىَ مثلُ الخَزِّ فى اللِّينِ

لو كان بطنُك شِبراً قد شبعتَ وقد   أفضَلْتَ فضلاً كثيراً للمساكين

إن أمرءاً كنتُ مولاه فضيَّعنى   يرجُو الفلاحَ امْرِى حقْ مغبون

وكذلك شعر الضحاك بن فيروز الديلمى فيه

تُخَبِّرُنا أن سوف تكفيك قَبْضةٌ   وبطنُك شِبرٌ أو أقلُ من الشِبْرِ

وأنت إذا ما نلتَ شيئا قصمتَه   كما قَضَمت نارُ الغَضَى حَطَبَ السِدْرِ

فلو كنتَ تَجْزِى أو تُثيبُ بنعمةٍ   قريباً لرَّدتْك العطُوفُ على عَمْرو[٢]

وشعر أبى الطفيل عامر بن واثلة ، يؤيد ابنى عباس فى دعوتهما للعلويين ويهجو ابن الزبير لتضييقه عليهما ، ومنع الناس من لقائهما والجلوس إليهما [٣] :

لادَرَّ دَرُّ الليالى كيف تُضْحكنا   منها خطوبٌ أعاجيبٌ وتُبكينا

(١) مروج الذهب ٢ ٩٩

(٢) عمرو بن الزبير أخوه وقد كان خارجا عليه يحاربه مع جند الشام . خرج فى جيش لحربه فى أيام يزيد فانهزم ، وظفر به أخوه عبد الله بن الزبير ، فأقامه بباب المسجد الحرام مجردا ، ولم يزل يضربه بالسياط حتى مات .

(٣) خزانة الأدب ٤ ٣٠

كنا بمجىء ابنَ عباس فيُقْبسُنا فضلاً ويُكسبنا أجراً ويهدينا
ولا يزال عبيــدُ الله مترعةً جِفانُه مطعِماً ضيفا ومسكينا
فالبِرُّ والدينُ والدنيــا بدارهما ننالُ منها الذى نَبْغى إذا شيئا
إن النبىَّ هو النورُ الذى كُشِفَت به عَمَاياتُ باقينا وماضينا
ورهطُهُ عِصمةٌ فى ديننا ولهم فضلٌ علينــا وحقٌ واجبٌ فينا
ولستَ — فاعلمه — أوْلَانَا بهم رحِماً يا ابن الزبير ولا أولى به دينَا
ففِيمَ تَمنَعُهم منــا وتمنعنا منهم وتؤذيهم فينــا وتؤذينا
لن يُؤْتِىَ اللهُ مَن أخزى ببغضهم فى الدين عزاً ولا فى الأرض تمكينا

وكذلك شعر أنس بن أبى إياس فيه، حين تزوج عائشة بنت طلحة، ودفع صداقها ألف ألف دينار [١] :

أبلغ أميرَ المؤمنين رسالة من ناصح لك لايريد خداعا
بُضْعُ الفتاة بألفِ ألفِ درهم وتَبيتُ ساداتُ الجنودِ جياعا[٢]
لو لأبى حَفْصٍ أقولُ مَقَالتى وأقُصُّ شأن حَديثكم لارتاعا[٣]

وكذلك شعر كثير فيه، وقد سجن الحسن بن محمد بن الحنيفة، ومعه خمسة عشر رجلا من بنى هاشم [٤]

تُخبِّرُ من لاقيتَ أنك عائِذٌ بل العائذُ المظلومُ فى سِجنِ عَارمِ[٥]

---

(١) الشعر والشعراء ٢٨٤
(٢) البضع بالفتح القطع والشوق والتزوج وبالضم مهر النكاح.
(٣) أبو حفص كنية عمر بن الخطاب.
(٤) الكامل للمبرد ٢ ١٦٥
(٥) سجن عارم حبس مشهور كان موحشا مظلما. حبس فيه ابن الزبير الحسن بن=

ومن يَلْقَ هذا الشيخَ بالخيفِ من منىً من الناس يَعْلَمْ أنه غيرُ ظالم
سَمِيُّ النبي المصطفى وابنُ عمه وفكّاكُ أغلال وقاضى مَغَارم

ومن هذا النوع شعر عتبة الأسدى فى هجاء معاوية ، يتهمه بالشره فى جمع المال ، وإفساد أمر الناس ، بتأمين الأراذل والعبيد [١]

معاوِىَ إننا بَشَرٌ فأَسْجِحْ فلسنا بالجِبال ولا الحديد[٢]
أكلتم أرضَنا وجَذَذْتُمونا فهل مِن قائم أو من حصيد
فهَبْنا أمةً هلكتْ ضياعاً يزيدُ أميرُها وأبو يزيد
أتطمعُ بالخلود إذا هَلَكنا وليس لنا ولا لك من خلود
ذَرُوا خَوَلَ الخلافةِ واستقيموا وتأمينَ الأراذل والعبيد

وشعر رجل من الأنصار ، يتهمه بأنه يتخذ دم عثمان ستاراً ، يخفى وراءه طمعه فى الملك [٣] :

معاوى إنَّ الحق أبلجُ واضحٌ وليس بما رَبَّصْتَ أنتَ ولا عَمْرُو
نصَبْتَ ابنَ عفانٍ لنا اليومَ خُدْعَةً كما نَصَبَ الشيخان إذ زُخرِف الأمر[٤]
فهذا كهذاك البلا حَذْوَ نَعْلِه سواءً كرَقْراقٍ يُغَرُّ به السَفْر
رميتم عليًّا بالذى لا يَضُرّه وإن عظمت فيه المكيدة والمكر

= محمد بن الحنفية وأراد قتله . فأعمل الحيلة حتى تخلص منه ، وتعسف الطريق على الجبال حتى أتى منى وبها أبوه محمد بن الحنفية .

(١) العقد الفريد ٦ ١٦٨

(٢) سجح الخد كفرح سجحا وسجاحة سهل ولان وطال فى اعتدال وقلة لحم . والسجح بضمتين اللين السهل . والأسجح الحسن المعتدل

(٣) وقعة صفين ٧١

(٤) الشيخان يقصد بهما طلحة والزبير .

وما ذنبُه أن نال عثمانَ معشرٌ أتوه من الأحْيَاءِ يَجمَعُهم مِصْرُ
فثار إليـه المسلمون ببيته علانِيـةً ما كان فيهـا لهم قسر
فبايعـه الشيخان ثم تحمَّلا إلى العُمرة العظمى وباطنُها الغدر
فـكان الذى قد كان مما اقتِصَاصُه رَجيعٌ فيالله ما أحدثَ الدَّهْرُ
فـما أنتما والنصر منـا وأنتُما بَعِيثَا حُروبٍ ما يبوخُ لها الجمْرُ
وما أنتما لله دَرُّ أبيكمُا وذِكرُكُما الشُورى وقد فَلَجَ الفَجْرْ

وبعض هذا الهجاء السياسى ، يصور ضيقاً شديداً بزعماء هذه الأمة ، الذين قادوها إلى ما صارت إليه من التطاحن وسفك الدماء فقد أيقظت هذه الأحداث المتتابعة عقول الناس ، وفتحت عيونهم على ما حولهم ، وأخرجتهم من سذاجتهم ، فلم يعودوا يحسنون الظن بقائد من قوادهم ، أو زعيم من زعمائهم ، فكلهم متهالك على حطام الدنيا ، لا يدفعه إلا الجشع والغرور ، يقولون غير ما يعملون ، ويضللون الناس بمـا يظهرون من النسك والورع ، والحرص على إقامة الدين وإعلاء شأنه ، واتهام خصومهم بالمروق والتهاون فى الأخذ بسننه . مل الناس هذا الرياء ، ولم يعد من السهل خداعهم بالخطب والوعود ، بعد أن أسرعت هذه المعارك بالتفـكير إلى النضج ، ونبهت ملكة النقد ، ففتحت بذلك باب الهجاء الاجتماعى ، الذى نضج فى القرن الثانى الهجرى ، ثم بلغ الذروة على يد المتنبي والمعرى :

فمن الشعر الذى يصور ضيق الناس بمـا آل إليه أمرهم من اضطراب وخلاف ، قول الصلتان العبدى [1] :

أرى أُمَّةً شَهَرَتْ سيفَها وقد زِيدَ فى سوطها الأصبَحِى [2]

---

(١) الـكامل للمبرد ٢ : ١١٨

(٢) الأصبحى السوط نسبة إلى ذى أصبح من ملوك اليمن .

بنَجْـدِيَّةٍ وحَرُورِيَّةٍ وأَزْرَقَ يدعُو إلى أزرقِ[1]
فمِلَّتُنا أننا المسلمون على دين صِدِّيقنا والنبى

ومنـــه

أشاب الصغير وأفنى الكبير كَرُّ الغداة ومرُّ العشى
إذا ليلةٌ هرَّمَتْ يومَها أتى بعد ذلك يومٌ فَتِى
نروحُ ونغدُو لحاجاتنا وحاجةُ من عاش لا تنقضى
تموتُ مع المرءِ حاجاتُه وتبقَى له حَاجَةٌ ما بقى

ومنه شعر على بن الغدير الغنوى وهو يرى أن الناس لا يتقاتلون إلا من أجل قريش ، فهم فى الحقيقة أصل الشر وأس البلاء ، ومن الخير للناس أن يدعوهم وشأنهم ، ولا يهلكوا أنفسهم فى سبيلهم[2]

من مبلغٌ قيسَ بن عيلانَ كلَّها بما احتازَ منها أرضَ نجدٍ وشامَها
فلا تهلكنكم فتنةٌ كلُّ أهلها كحيران فى طخياء داج ظلامها
فشأنَ قريشٍ والخصومةَ بينها إذا اختصمت حتى يقومَ إمامها
همُ اخذُوها بين حتفٍ معجَّلٍ وخطةِ خسفٍ لا تزال تسامها
فضموا جناحيكم إلى مُرْجَحِنَّةٍ معاً حربها إن حاربتْ أو سلاَمها
وشيموا سيوفَ الهند حتى تَبَيَّنُوا على أيٍّ أعداء يُسَلُّ حسامها[3]

---

(١) النجدية والأزارقة فرقتان من الخوارج والحرورية اسم للخوارج سموا بذلك لانحيازهم إلى حروراء بعد صفين

(٢) نقائض جرير والأخطل ٢٣

(٣) شام من الأضداد فى اللغة تقول شام سيفه أسله وشامه غمده أيضا والمقصود هنا المعنى الأخير ضموا جناحيكم إلى مرجحنة أى كتيبة مرجحنة أو خطة مرجحنة من الرجحان

وخلوا قريشاً تقتتلْ إن ملكها لها وعليها بِرُّها وأثامها
فإن وسعتْ أحلامها وسعتْ لها وإن عجزَتْ لم يَدْمَ إلا كِلاَمها
فإن قريشاً مهلكٌ من أطاعها تنافسُ دنيا قد أحم أنصرامها

ومنه شعر حنظلة الكاتب فى فتنة عثمان (١) :

عجبتُ لما يَخوضُ عنهم يرومون الخلافة أن تزولا
ولو زالت لزال الخير عنهم ولاقوا بَعدَها ذُلاًّ ذليلا
وكانوا كاليهود أو النصارى سواء كلُّهم ضلوا السبيلا

وقد غلب الحزن والرثاء على هجاء الشيعة ، لكثرة من قتل منهم ، ولشدة ما وقع عليهم من ظلم واضطهاد ، مثل شعر هند ابنة مخزمة الأنصارية ، فى مقتل حجر بن عدى (٢) :

تَرَفعْ أيها القمرُ المنيرُ تبصَّرْ هل ترى حُجراً يسير
يسيرُ إلى معاويةَ بنِ حَرْبٍ ليقتله كما زعم الأمير
تَجبَّرَت الجبابرُ بعد حُجر وطاب لها الخوَرْنقُ والسديرُ
وأصبحَت البلادُ لها مُحُولاَ كأن لم يحيها مزْنٌ مَطير
ألا يا حُجْرُ حُجْرَ بنى عَدِىٍّ تلقتك السلامةُ والسرور
أخافُ عليك ما أردَى عَدِيًّا وشيخاً من دِمَشقَ له زئير
يرى قتلَ الخيارِ عليه حقًّا له من شرِّ أمته وزيرُ
ألا ياليتَ حُجراً مات موتاً ولم ينحَرْ كما نحِر البعير
فإن يهلكْ فكلُّ زعيم قومٍ من الدنيا إلى هُلك يصير

(١) الطبرى ٣ ٤١٧
(٢) الطبرى ٤ ٢٠٩

ومما يصور هذا الهجاء الحزين ، شعر امرأة من بنى عبد المطلب ، فى قتل الحسين (١)

ماذا تقولون إن قال النبى لكم   ماذا فعلتم وأنتم آخرُ الأمم
بعترتى وبأهلى بعدَ مفتقدى   منهم أسارى وقتلى ضُرِّجوا بدم
ما كان هذا جزائى إذ نصحتُ لكم   أن تَخْلُفُونى بسوء فى ذوى رَحِمِى

وتمثلت الفدائية والإخلاص المبدأ إلى حد الموت والفناء فى شعر الخوارج فكان هجاؤهم السياسى مختلطاً بالحماسة ، فى الوقت الذى نرى فيه هجاء الشيعة مختلطاً بالرثاء وكان شعرهم صورة صادقة لجرأتهم النادرة ، وتطرفهم الشديد فى فهم الدين ، وأيمانهم العميق بهذه الآراء المتطرفة .

يقول قطرى بن الفجاءة ، مخاطبا أبا خالد القنانى ـ وهو من قعد الخوارج (٢)

أبا خالد يا انفرْ فلستَ بخالدٍ   وَماجعل الرحمنُ عذراً لقاعد
أتزعمُ أنّ الخارجىَّ على الهدى   وأنتَ مقيمٌ بين لصٍ وجاحد

ويقول عيسى بن فاتك (من بنى تيم اللات بن ثعلبة) ، فى وقعة آسك ، متهكما بجيوش بنى أمية (٣)

فلما أصبحوا صلَّوا وقاموا   إلى الجُرْدِ العِتاق مُسَوَّمينا (٤)
فلما استجمعوا حَمَلوا عليهم   فظلَّ ذوو الجعائل يُقْتَلونا (٥)

(١) الطبرى ٤ ٢٩٤
(٢) الكامل ٣ ١٠٧
(٣) الكامل ٢ ١٥٧
(٤) مسومين معلمين والسومة العلامة يتخذها الفارس فى الحرب ليعرف بها من بين الناس
(٥) الجعائل جمع جعالة كسحابة وهو ما تجعل للمحارب من أجر يصف جنود بنى أمية بأنهم مأجورون لايحاربون عن عقيدة .

بقيَّـــةَ يومهم حتى أتاهم ‏ سوادُ الليلِ فيه يُراوِغونا

يقول بصيرُهم لمـــا أتاهم ‏ بأنّ القومَ ولَّوا هاربينا

أألفا مؤمنٍ فيما زعمتم ‏ ويَقْتُلُهم بآسك أربعـــونا

كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ‏ ولكنَّ الخوارجَ مؤمنونا

هم الفئةُ القليلةُ غير شكٍّ ‏ على الفئةِ الكثيرةِ ينُصَرونا

وقال معاذ بن جوين ، يحض الناس على الثورة وكان الخوارج قد اجتمعوا إلى المستورد بن علفة ، عازمين على الخروج سنة ٤٣ هـ ، بعد أن اجتمع الأمر لمعاوية ، ثم بلغهم أن المغيرة بن شعبة يكيد لهم ، وأنه قد أخذ العهد على كل قبيلة أن تنفى من كان بينهم من الخوارج[١] :

ألا أيُّها الشارون قد حان لامرئٍ ‏ شَرَى نفسَهَ لله أن يترحَّلا

أقمتُمْ بدارِ الخاطئين جَهالةً ‏ وكلُّ امرئ منكم يُصادُ ليُقتَلا

فشُدُّوا على القوم العُداةِ فإنما ‏ إقامتُكم للذَّبح رأياً مضَلَّلا

ألا فاقصدوا يا قومُ للغايةِ التى ‏ إذا ذُكِرَتْ كانت أبرَّ وأعدلا

فياليتنى فيكم على ظهر سابحٍ ‏ شديدِالقُصيْرىدارعاًغيرأعزلا[٢]

وياليتنى فيكم أعادِى عدوَّكم ‏ فيسقيَنى كأسَ المنيَّةِ أولا

يعز علىّ أن تخافوا وتُطرَدُوا ‏ ولما أُجرِّدْ فى الُمحِلِّين منْصُلا

ولما يفرق جمعَهم كلُّ ماجد ‏ إذا قالتُ قَدْ ولَّى وأدبَرَ أقبلا

---

(١) الطبرى ٤ ١٤٣

(٢) القصيرى أسفل الأضلاع أو آخر ضلع فى الجنب وأصل العنق . غير أعزلا لضرورة الشعر وحقه غير أعزل .

مُشِيحاً بنصل السيفِ فى حَمْسِ الوغى يرى الصبرَ فى بعضِ المَواطن أمثلا
وعزَّ علىَّ أن تضاموا وتُنْقَصوا وأصبح ذَا بَثٍّ أسيراً مكبَّلا
ولو أننى فيكم وقد قصدوا لكم أثَرْتُ إذاً بين الفريقين قَسْطلا
فيا رُبَّ جَمع قد فللتُ وغارةٍ شهدتُ وقِرْنٍ قد تركتُ مجدَّلا

ومما يصور إخلاصهم العميق لمبادئهم، وزهدهم فى الحياة وزخرفها، ما كتب به قطرى إلى سيرة بن الجعد الخارجى، وكان سمين الحجاج، ولم يكن يعرف أمره[1]

لشتانَ ما بينَ ابن جَعْدٍ وبيننا إذا نحن رحنا فى الحديد نُظَاهِرِ
نجاهد فرسانَ المهلَّب كلُّنا صبورٌ على وقع السيوف البواتر
وراح يجُرُّ الخزَّ عند أميره أميرٌ بتقوى ربه غيرُ آمر
أبا الجعد أين العِلم والحِلمُ والنُهى وميراثُ آباءٍ كرامِ العناصر
ألم تر أن الموت لا شك نازل ولا بد من بعث الأولى فى المقابر
حفاةً عراةً والترابُ لديهم فمن بين ذى ربح وآخر خاسر
فإن الذى قد نلتَ يفنى وإنما حياتك فى الدنيا كوقعة طائر
فراجِعْ أبا جَعْدٍ ولاتك مُغْضِياً على ظُلَمٍ أعشَتْ جميعَ النواظر
وتُبْ توبةً تُهدى إليك شهادة فإنك ذو ذَنْبٍ ولستَ بكافر[2]
وسر نحونا تَلْقَ الجهاد غنيمةً تُفِدْك ابتياعاً رابحاً غيرَ خاسر[3]

(١) مروج الذهب ٢ ١٣٨

(٢) فى هذا البيت إشارة إلى ما يرى الخوارج من تكفير مرتكب الذنوب.

(٣) يقصد أن الذى يبيع حياته يشترى بها الجنة وذلك قوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والأنجيل والقرآن. ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به. وذلك هو الفوز العظيم).

هى الغايةُ القصوى الربيحُ ثوابُها   إذا نال فى الدنيا الغِنَى كلُّ تاجر

ويقرأ سيرة الشعر فيبكى لشدة تأثره ، ويأخذ سلاحه لاحقا بقطرى .
وفى ذلك يقول :

فمَنْ مُبْلِغُ الحجّاجِ أن سميرَه   قَلاً كلَّ دينٍ غيرَ دينِ الخوارج

رأى الناس إلا من رأى مثلَ رأيِه   ملاَعينَ ترَّا كين قَصْدَ المخارج

فأقبلتُ نحوَ اللهِ باللهِ واثقاً   وما كُرْبَتِى غيرَ الإله بفارجِ

إلى عصبةٍ أمّا النهارُ فإنهم   هم الأُسْدُ أسدُ الغِيل عند التَّهايُج

وأما إذا ما الليلُ جَنَّ فإنهم   قيامٌ بأنواحِ النساء النواشج

يُنادون للتحكيم بالله إنهم   رأوا حُكْمَ عمرو كالرِّياحِ الهوائج

وحكمَ ابن قيس مثل ذاك فأعصموا   بحَبْلٍ شديدِ المتنِ ليس بناهج[1]

ولدينا بعد هذا هجاء لا يتصل بأصول الحكم ، ولا يصور ميولا حزبية معينة ، ولكنه يتصل بالولاة فى الأقاليم ، يعارض سياستهم ، وينقد تصرفاتهم .
وهذا اللون من الهجاء السياسى مختلط بالهجاء الاجتماعى وهو من أمتع ألوان الشعر السياسى ، وأكثرها دقة ووضوحا ، فى الكشف عن معايب هذا المجتمع الذى تعقدت فيه الحياة ، وتعارضت فيه الآراء والأهواء وهو لا يصور معارضة حزبية ، ولكنه يصور سخطا على النظم الاجتماعية القائمة فقد تدفقت الأموال على الناس ، وبدأت الفوارق الاجتماعية تتسع بينهم شيئا فشيئا ، بعد أن كانوا قريباً من قريب ، فارتفع بعضهم من صفوف الشعب

---

(١) كان مما أنكر الخوارج على على قبوله التحكيم حين ندب أبا موسى الأشعرى وندب معاوية عمرو بن العاص . وقد قالوا له فيما جرى بينه وبينهم من نقاش (لم حكمت الحكمين ؟ فان كنت فى شك من خلافتك فغيرك أولى بالشك . وجملتهم المشهورة فى ذلك (لا حكم إلا لله) .

إلى طبقة الحكام، وانغمسوا فى الترف والملاذ، هذا يشرب ويطرب، وذاك يسرق وينهب، وآخر يتأنق فى طعامه ولباسه. واتخذوا الحجاب، فصار العربى لا يصل إلى الحاكم إلا بعد استئذان، وربما دفع عن حاجته فلم يبلغ إليه؛ فكان ذلك من أثقل الأشياء على نفس العربى، الذى لم يألف مظاهر الملك والسلطان، والذى كان يدخل على الخليفة نفسه قبل ذلك حين يشاء، ويكلمه فى غير كلفة. وتأثر الخلفاء والولاة بالعصبية. فولوا أعمال الدولة قوما ليسوا من أهل الكفاية. هذا يقود الجيوش وهو جبان لا يصلح لقتال، وذاك يلى أمور الناس وهو منافق يصطنع الرياء، يظهر عليهم فى ثياب النسك والورع، فإذا خلا إلى نفسه كان أفسق خلق الله. وأحس الناس ثقل هذه النظم الإدارية الجديدة. التى جعلتهم طبقتين تتميز إحداهما من الأخرى تميزا واضحا. طبقة الحكام وطبقة المحكومين. ولم يكن للحكام بد - بعد هذه الفتن الطويلة. التى فقد فيها الناس روح النظام واحترام القانون — من أن يأخذوا الناس بالعقوبات الرادعة فاتسمت أفعالهم بالقسوة الخارجة على الدين وأحكامه فى كثير من الأحيان واستحدثوا ألوانا من التعذيب والتنكيل والتشهير، ليس للناس بها عهد وراح بعضهم يغلو فى جباية الضرائب، ويشتد فى ذلك، متجاوزا حق الدولة، حتى ضجت الأمصار، وفسدت العلاقات بين الحاكم والمحكوم، وبدأ الناس يمقتون هذا النظام الجديد ويضيقون به. وصب الشعراء هذا الضيق على الولاة والعمال، الذين يمثلون هذا النظام ويشرفون على تنفيذه.

انظر إلى هذه الصورة التى يقدمها يحيى بن نوفل الحميرى يهجو أبان بن الوليد البجلى وأخاه بلالا. حين ولاهما خالد القسرى بعض الأعمال كيف يصور ما ينغمس فيه العمال من ترف. وما يحيطون به أنفسهم من مظاهر الجاه. بعد عيش خشن. ورزق ضيق ضنين[1]

---

(١) الشعر والشعراء ٢٨٦

تقولُ هُشَيمةُ فيما تقول ملَلْتَ الحياةَ أبا مَعْمَر ؟
ومالِىَ أنْ لا أملَّ الحياة وهذا بلالٌ على المنبر !
وهذا أخوه يقودُ الجيوش عظيم السُّرادق والعسكر !
وأما ابنُ سَلْمى فشيبُهُ الفَتاة رءوحٌ بَكورٌ على المِجْمَر[١]
دَبوبُ العشاءِ إذا أُطعِمَت حليلة كلِ فتى مُعْوِر
وأما ابنُ أشعثَ ذو التُّرَّهات وذو الكَذْب والزور والمُنْكَر
فلو قيل عَبْدٌ شرته التجار سَبِيٌّ من الروم لم يُنكَر
وهذا ابنُ مَا هَان بعد الشقاء وبعد الخياطةِ فى كَسْكَر
يروحُ يُسامِى ملوكَ العراق وقد عاش دهراً ولم يُذْكَر
وأما المكحَّلُ وهبُ الهَنَاة فلو قُيِّد الدهرَ لم يصبر
عن الزَّفْنِ والصنجِ والمُسمِعَات وقَرْعِ القوارير والمِزْهَر
ولا عن هَنَاتٍ له لو ظهرْن فمات عليهن لم يُقْبَر
وهذا ابنُ زيدٍ له جُبَّةٌ تفوحُ من المِسك والعَنْبَر
وهذا أبانُ بُنَىُّ الوَلِيد خطيبٌ إذا قام لم يَحْصَر
أبَعْدَ الدواةِ وبعد الطُّرُوس وبعد الكِتَابِ على الدَّفْتَر !
ولو حَلَّ ضَيْفٌ به لم يزده على الأبيضَيْن مع الصَّعْتَر ![٢]

وانظر قوله فى بلال بن أبى بردة الأشعرى . ذاك الذى يدمن الشراب . فلا يصبر عنه ليلا ولا نهارا[٣]

---

(١) المجمر والمجمرة الذى يوضع فيه الجمر والبخور ، يقول لا هم له إلا التطيب بالبخور وهو شأن النساء .

(٢) الأبيضان الماء واللبن : والصعتر ضرب من النبات وهو الذى نسميه الآن (زعتر)

(٣) العقد الفريد ٨ : ٦٤

وأما بلالٌ فــذاك الذى يَميلُ الشرابُ به حيثُ مالا
يبيتُ يمُصُّ عتيقَ الشَّراب كمصِّ الوليدِ يخافُ الفِصَالا
ويصبِحُ مضطربًا ناعسا تخالُ من السكْرِ فيه احوِلَالا
ويمشى ضعيفا كمشْىِ النَّزيف تخالُ به حين يمشى شِكالا[1]

وانظر إليه كيف يصور بلالا هذا فى نفاقه وريائه. يظهر النسك والورع ويخدع الناس بتلاوة القرآن، وبهذه العلامة التى اتخذها فى جبهته، كأنها من أثر السجود وإدمان الصلاة[2]

أبلالُ إنِّى رابَنِى من شأنكمُ قولٌ تُزَيِّنه وفعلٌ منكَرَ
مالى أراك إذا أردتَ خيانةً جعل السجودُ بحُرِّ وجهِكَ يَظْهر
متخشعاً طَبِنًا لكل عظيمةٍ تتلوا القرآنَ وأنت ذئبٌ أغبرُ

وفيه يقول متشفياً. وقد أصيب بالجذام.

فأما بلالٌ فإنَّ الْجذا م جلَّلَ ما جازَ منه الوَرِيدا
فأنقع فى السمنِ أوصاله كما أنقع الأدمون الثريدا
فأكسَدَ سمنَ تجارِ العرا ق فينا وأصبح فينا كسيدا

ثم انظر إلى ما يقول هذا الشاعر الكثير الهجاء، الذى لا يكاد يمدح أحدا، فى سعيد ابن رشد. ذلك المنين الخامل، الذى ارتقى للأمارة. فلبس الخز وركب البغال فى المواكب، واتخذ الحجاب.

بكى الخز من إبطَىْ سعيدِ بنِ راشد ومن إسته تبكى بِغالُ المواكب

---

(١) النزيف الذى سال دمه والمجنون والسكران والشكال الحبل الذى تشد به قوائم الدابة إذا قيدت.

(٢) الشعر والشعراء ٢٨٧

فواعجبا حتى سعيدُ بنُ راشد له حاجِبٌ فى الباب من دون حاجب !

ومن هذا اللون شعر أنس بن أبى إياس ، فى حارثة بن بدر الغدانى وقد طلب من عبيدالله بن زياد أن يوليه . فخيره فاختار (سُرَّق) ، لما وصف له من شرابها وكان مدمنا للخمر — فولاه إياها[1]

أحارِ بنَ بدرٍ قد وَليتَ إمارةً فكن جرذا فيها تَخُونُ وتسرق

وباه تميماً بالغِنى إن للغنى لشأناً به المرء الهيُوبةُ يَنطِق

فإنَّ جميعَ الناسِ إما مكذِّب يقول بما يَهوَى وإمّا مُصدِّق

يقولون أقوالًا ولا يعرفونها وإن قيل هاتوا حَقِّقوا لم يُحَقِّقوا

فلا تحقِرَنْ ياحارِ شيئاً أصبتَه فحظُّك من ملك العراقَين (سُرَّقُ)[2]

ومنه شعر عبد الله بن همام السلولى . يهاجم النعمان بن بشير والى الكوفة . وكان معاوية قد أمر لأهلها بزيادة عشرة دنانير فى أعطياتهم فحبسها النعمان عنهم ولم ينفذها . لسابق إخلاصهم لعلى[3]

زيادتَنا نعمانُ لا تحرِمَنَّنا خَفِ اللهَ فينا والكتابَ الذى تتلو

فإنك قد حُمِّلْت فينا أمانةً بما عجزَتْ عنه الصلاخمةُ البُزْل[4]

فإن يكُ بابُ الشعرِ تُحسِن فتحَه فلا يكُ بابُ الخيرِ ليس له قُفْل

فقد نلتَ سلطاناً عظيما فلا يكن لغيرك جَمَّاتُ النَّدَى ولك البخل[5]

---

(١) الشعر والشعراء ٢٨٤ ، العقد الفريد ٨ ٥٧

(٢) سرق اسم الولاية التى وليها حارثة . (حار) ترخيم حارثة .

(٣) الأغانى ١٤ ١٢٠

(٤) بعير صلخام بكسر الصاد وصلخم بفتح الصاد صلب شديد البزل جمع بازل وهو البعير الذى بزل نابه أى ظهر وذلك فى السنة التاسعة

(٥) الجم الكثير من كل شىء . ومن الماء معظمه وكثرته.

وأنت أمرؤٌ حلو اللسانِ بليغهُ   فما بالُه عنـد الزيادةِ لا يحلو
وقَبْلَكَ قد كانوا علينـا أئمةً   يهُمُّهم تقويمُنـا وهم عصْل
إذا أنصتوا للقول قالوا فأحسنوا   ولـكنّ حُسْنَ القولِ خالَفَه الفِعْل
يذُمُّون دنيـاهم وهم يَرضَعونها   أفاويقَ حتى ما يدِرُّ لها ثُعْـل[1]

ومن الشعر الذى يصور سخط الناس . لتأثر الولاة بالعصبية والقرابة فى اختيار العمال . قول الحارث بن خالد المخزومى . يهجو عبد العزيز أخا خالد ابن عبد الله بن أسيد . وقد ولاه قتال الخوارج فانهزم[2]

فَرَّ عبدُ العزيز لمَّا رأى الأبـــطال بالسَّفْح نازلوا قَطَرِيّا[3]
عاهَدَ اللهَ إن نجا مِلْمَنَايا   ليعودَنّ بعـدها حَرَمِيًّا[4]
يسكن الخلّ والصِفاجَ فمرّا   نَ وسلعاً وتارة نَجْدِيّا[5]
حيثُ لا يَشهدُ القتالَ ولا يسـ   ـمع يوما لِـكرِّ خيلٍ دويّا

ومما يصور سخط الناس لعدم توافر الـكفايات فى العمال . شعر رجل من بنى عامر بن صعصعة . يهجو عبيد بن أبى ربيعة بن أبى الصلت الثقفى . رسول الحجاج إلى المهلب يقول : تسمع هذا الرجل حين يخطب فلا ترى بأساً فإذا رأيته فى القتال عجبت لمـا كان يتشدق به من حث الناس على القتال[6]

---

(١) أفاريق جمع فيقة بكسر الفاء وهو اللبن يجتمع فى الصرع بين الحلبتين والثعل بفتح الثاء وضمها زيادة فى أطباء الناقة والبقرة والشاة .

(٢) الـكامل للمبرد ٢ ٢١٧

(٣) قطرى بن الفجاءة من زعماء الخوارج وشعرائهم المشهورين

(٤) ملمنايا أصلها من المنايا حذف النون لقرب مخرجها من اللام حرميا نسبة إلى الحرم . أى يقيم هناك ولا يشهد حربا .

(٥) الخل موضع وأصله الطريق فى الرمل . والصفاح ومران وسلع مواضع . نجديا نسبة إلى نجد ، يعنى أنه يتنقل بين هذه الأماكن بعيداً عن خطر الخوارج خوفا منهم .

(٦) الـكامل ٢ ٢٤١

ما زلتَ ياثقفيُّ تخطُبُ بيننا وتغمُّنا بوصيَّةِ الحجّاج
حتى إذا ما الموتُ أقبلَ زاخراً وسَمَا لنا صِرْفاً بغيرِ مِزَاج
ولَّيْتَ ياثقفيُّ غيرَ مناظِرٍ تَنْسابُ بين أُحِزَّةٍ وفِجَاج
ليسَتْ مقارعةُ الكماةِ لَدَى الوغى شُربَ المدامةِ فى إناءِ زجاج

وقد كثرت شكوى شعراء العراق ، من ظلم العمال فى جباية الأموال . والذى يبدو أن هؤلاء العمال كانوا يختارون من الغلاظ الشداد ، الذين يأخذون الناس بالعنف الصارم ، لما عرف به أهل هذا الإقليم من الشقاق ، والخروج عن طاعة السلطان . وكان بعض هؤلاء العمال يستغل بعده عن موطن الخلافة ، فيشتط على الناس ، ويطالبهم بأكثر مما توجب عليهم فروض الزكاة ، مدخراً لنفسه بعض ما يجمع . وهذا هو الراعى ، يشكو العصاة إلى عبد الملك ، فيقول إنهم يأخذون فوق ما يوجب القانون ، ويتعدون بذلك ما أمرهم الخليفة . فهم يأخذون العشار من كرام الإبل . بينما يكتبونها للأمير فصيلا ، ويغلون لأنفسهم الزيادة . ويشتطون على الناس فى هذه الأحكام الجائرة ، فلا يزالون يجلدون العريف بالسياط ، وقد أقاموه فى الأغلال ، حتى يقطعوا جلده . ثم يأتونه بصكهم وقد أخذ منه الرعب . فينصبونه إبله ويدعونه للضياع (يدعو أمير المؤمنين ودونه خرق تجرُّ به الرياح ذيولا) فكأنه حمام كسر الرماة جناحه . فهو لا يزال ينوح على قارعة الطريق ، وقد وقع الربيع ، فتقارب خطوه ، وأخذه الفزع ، إذ رأى الذئب يقترب من مخله ، فى شراسة النهم الذى لا يبقى على شىء يصادفه . وهؤلاء هم قومه المسلمون الذين لا يمنعون الزكاة ، والذين يشهدون أن لا إله إلا الله ، يهيمون فى الصحراء مطرودين ، كأنهم مجرمون أصابوا قتيلا . يحدون إبلا عجافاً ، قد تهدمت أسنمتها . فهم يتركونها فى خارم الجبال ، تتساقط ضعفاً وإعياء ، لأنها لا ترعى إلا الفاسد من النبات ، بين يابس ومُرٍّ وخم . وماذا يصنعون

وقد أتاهم (يحيى) الجابى . فأخذهم بشروطه الظالمة . وكلفهم ما لا يطيقون . فأفقر غنيهم . وأهزل فقيرهم ! ![١]

أخليفةَ الرحمنِ إنّا معشرٌ حنفاء نسجدُ بكرةً وأصيلا[٢]

عربٌ نرى لله فى أموالنا حقَّ الزكاةِ منزَّلا تنزيلا

إن السعاة عصَوكَ يومَ أمرتهم وأتوا دواهىَ لو علمتَ وغولا

إن الذين أمرتهم أن يعدِلوا لم يفعلوا مما أمرتَ فتيلا

أخذوا العِشَارَ من الكرام ظُلامةً منّا ويُكتَبُ للأمير أفيلا[٣]

أخذُا العريف فقطَّعوا حَيزُومَهُ بالأصبَحِيّة قائماً مغلولا[٤]

حتى إذا لم يترُكوا لعظامِهِ لحماً ولا لفؤاده معقُولا

جاءوا بصَكِّهِمُ وأحدَبَ أسأَرَتْ منه السياطُ يراعةً إجفيلا[٥]

نسِىَ الأمانةَ من مخافةِ لُقَّحٍ شُمْسٍ تركن بَضِيعَهُ مجدولا[٦]

أخذوا حَمُولَتَهُ فأصبح قاعدا لا يستطيع عن الديار حَوِيلا

---

(١) جمهرة أشعار العرب ٣٥٦ ، خزانة الأدب ٢ ٣٠٦

(٢) حنفاء مسلمون والحنيف المسلم

(٣) العشار جمع عشراء مثل فقهاء ، وهى الناقة التى أتى عليها عشرة شهور لحملها الأفيل ابن المخاض إذا كان صغيرا قبل أن يفصل من أمه .

(٤) العريف رئيس القوم الحيزوم وسط الصدر ، وما يضم عليه الحزام جمعها حيازيم : الأصبحية السياط واحدها أصبح نسبة إلى ذى أصبح ملك من ملوك حمير لأنه هو الذى ابتدعها

(٥) أحدب يقصد العريف نفسه وصفه بذلك لأن السياط قد آذته ونالت منه . أسأر الشارب فى الاناء سؤرا أى ترك فيه بقية . اليراعة القصبة الجوفاء شبه بها قلب العريف الفزع . إجفيلا خائفا مجفلا . يقول لم تترك منه السياط إلا رجلا فزعا مروعا

(٦) شمس طوال وهو وصف للسياط . البضيع اللحم .

يدعو أميرَ المؤمنين ودونه خَرْقٌ تجرُّ به الرياحُ ذُيولا (١)
كهداهدٍ كسر الرماةُ جناحه يدعو بقارعةِ الطريقِ هديلا (٢)
وَقَعَ الرَّبيعُ وقد تقَاربَ خَطوُه ورأى بعِقْوَته أزَلَّ نَسولا (٣)
مُتوشِّحَ الأقرابِ فيه نَهْمَةٌ نهشَ اليدين تخاله مَشْكُولا (٤)
أخليفة الرحمن إن عشيرتى أمسى سَوامُهم رعِزِينَ فُلُولا (٥)
قطعوا اليمامة يُطرَدُون كأنهم قومٌ أصابوا ظالمين قتيلا
يحدون حدْباً مائلا أشرافُها فى كل مقْرَبَةٍ يدَعْنَ رعيلا (٦)
شهرَىْ ربيع ما تذرقُ لبُونهم إلا حُمُوضاً وَخمةً وذَبيلا (٧)
وأتاهمُ (يحيى) فشدّ عليهم عَقْدًا يراه المسلمون ثقيلا
كُتُباً تركن غنيَّهم ذا عيلَةٍ بعد الغِنَى وفقيرَهم مهزولا
فتركتُ قومى يَقسِمون أمورَهم أإليك أم يَتربَّصُون قليلا

---

(١) الخرق بفتح الخاء الصحراء الواسعة التى تخترقها الرياح .
(٢) الهداهد الحمام الكثير الهدهدة . الهديل صوت الحمام
(٣) العقوة ما حول الدار والمحلة أزل قليل اللحم يعنى الذئب نسول تساقط شعره لجوعه فهو شرس .
(٤) متوشح الأقراب كل هذا وصف للذئب الأقراب الخاصرة نهش قليل اللحم ، يشبه عريف قومه فى خوفه من الجباة بحمام ضعيف رأى ذئبا شرسا هذه صفاته يقترب من محلته .
(٥) سوامهم إبلهم التى تستام الكلأ أى ترعاه . عزين جماعات الفلول جمع فل بفتح الفاء وهو المهزوم المتفرق .
(٦) يحدون يسوقون . الحدب الأبل المهزولة . أشرافها أسنمتها . وإنما تميل أسنمتها لضعفها وقلة شحمها المقربة الطريق فى الجبل . الرعيل القطيع .
(٧) الحموض جمع حمض بفتح الحاء وهو ما ملح وأمر من النبات . الأرض الوخمة التى لا ينجع كلؤها . الذبيل اليابس من النبات .

أنت الخليفةُ عَدْلُه ونواله وإذا أردتَ لظالِمٍ تنكيلا

فارفع مظالم عيّلت أبناءنا عنّا وأنقِذْ رِشْلَوَنا المأكولا

وهذا هو الفرزدق، يشكو إلى سليمان بن عبدالملك من هذا الأمر نفسه، فيقول إن الناس قد نذروا أن يحجوا حفاة، وأن يصوموا لله، إن أنقذهم بولايتك الملك. وها هم أولاء يوفون نذرهم، بعد أن أهلكهم ظلم من قبلك فلم يبق منهم إلا ألسنا وعظاما. كانوا يحبسون الجند فى الثغور، ويؤخرونهم عن مواعيدهم فى البر والبحر بغير أعطية وكان الجباة يحاسبون الناس على ما ذهب من مالهم، وما هلك من إبلهم، حتى أصبح أهل العراق يحسدون الميت، لنجاته من عذاب الظالمين ويقول الفرزدق إن الناس قد أنقذوا من هذا الظلم بولاية سليمان لذلك مشيراً إلى السجون، التى كان الحجاج قد اتخذها لسجن نساء العصاة، ويعجب من أمره فى ظلم أرامل، ليس لهن جريرة، وقد حبس عنهن ما يستحققن من عطاء

كم فيك إن ملكت يداك لنا يوما نواصينا من النُّذُر

من حَجٍّ حافيةٍ وصائمةٍ سَنَتَيْن أمٍّ أفيرخٍ زُغْر

لم يَبقَ منهم غيرُ ألسنةٍ وأعيظمٍ وحواصلٍ حُمْرٍ[1]

ويُجَمَّرون بغير أعطِيَةٍ فى البَرِّ من بَعَثُوا وفى البحرِ[2]

ويُكلَّفون أباعرا ذَهَبَتْ جِيَفًا بَلِينَ تقادُمَ العصرِ

---

(١) يقول كم فيك من نذر نذرناه إن ملكت يداك نواصينا فى يوم من الأيام. والناصية الرأس. من حج حافية. يعنى قد نذر النساء أن يحجوا سنتين حفاة صائمات. أم افيرخ أم أطفال ضعاف لم يبق منهم غير السنة تنطق وعظام برزت من الهزال. صور بؤس القوم فى حال أطفالهم الضعاف وحزن أمهاتهم عليهم.

(٢) التجمير حبس الجيوش فى المغازى وتأخيرها عن موعد تسريحها. الأعطية جمع عطاء وهو المرتب الذى يصرف من بيت المال.

حتى غبطنا كلَّ محتملٍ يمشى بأعظمه إلى القبر
وتمنت الأحياء أنهم تحت التراب وجىء بالحشر
والراقصات بكل مبتهل من فجٍّ كل عمايقٍ غبر[١]
ما قلتُ إلا الحقَّ تعرفه فى القول مرتجلا وفى الشعر
ما أصبحتْ أرضُ العراق بها ورقٌ لمختبطٍ ولا قشر[٢]
أحييت أنفسنا وقد بلغتْ منا الفناء ونحن فى دَبْر[٣]
فلقد عززْتنا بعد ذلتنا بك بعد ما نأبى عن القَسْر
أحييت أنفسنا وقد هلكت وجبرت منا واهى الكسر
بل ما رأيتُ ولا سمعتُ به يوماً كيوم صواحب القصْر[٤]
يوما سيؤمن كلُّ مندفنٍ أو لاحق بأئمةِ الكفر
فاذكرْ أرامل لاعطاء لها ومسجَّنين لموضع الأجر[٥]
لو يبتلونَ بغير سجنهم صبروا ولو حبِسوا على الجمْر

ويصور الفرزدق ظلم الجباة فى موضع آخر من شعره ، يشكوهم فيه إلى الوليد بن عبد الملك ، فيقول إنهم يشقون على الناس ، ويجلدونهم بالسياط حتى يلجئوهم إلى الربا الذى يدخلهم جهنم إرضاء لجشعهم

---

(١) الراقصات الابل التى ترقص فى سيرها . يحلف بالابل التى تحمل الحجاج من مختلف بقاع الأرض مبتهلين إلى الله .

(٢) الخبط ورق الشجر ينفض بالمخابط ويجفف ويطحن ، يخلط بدقيق أو غيره ويعجن بالماء فتطعمه الابل . وإنما يفعلون ذلك فى أوقات الجدب وانعدام الخضراء . والمختبط الذى يفعل ذلك بابله

(٣) الدبر هنا الهلاك

(٤) كان الحجاج يأخذ نساء العصاة فيحبسهن فى قصور ما بين البصرة إلى قصر أنس.

(٥) يصف النساء فى سجون الحجاج ويذكر الخليفة بهن .

أمير المؤمنين وأنت تشفى بعدلٍ يديك أدواء الصدور
فكيف بعامل يسعى علينا يكافئنا الدراهمَ فى البدُور[1]
وأنَّى بالدراهم وهى منا كرافع راحتيه إلى العبور[2]
إذا سقنا الفرائض لم يردها وصدَّ عن الشويهة والبعير
إذا وضعَ السياطَ لنا نهاراً أخذنا بالرِّبا سرق الحرير[3]
فأدخلنا جهنم ما أخذنا من الأرباءِ من دون الظهور[4]
فلو سمع الخليفةُ صوت داع ينادى الله هل لى من مُجير
وأصواتَ النساء مقرَّنات وصبيانٍ لهن على الحجور[5]
إذاً لأجابهن لسانُ داع لدين الله مِغْضَابٍ نَصُور
أمينِ الله يَصْدَع حين يقْضِى بدين محمـد وبه أمُورِ

---

(١) يكافئنا الدراهم فى البدور أى فى كل شهر

(٢) يريد أن الدراهم عزيزة المنال والعبور من مطالعة البروج . وهو أن يطلع نجمان معا أو متقاربين .

(٣) السرق جمع سرقة بفتح السين والراء وهى الشقة من الحرير .

(٤) يقول ندخل جهنم بسبب الربا وإنما ألجأنا إلى ذلك خوفنا على ظهورنا من السياط .

(٥) مقرنات مقرون بعضهن إلى بعض فى الأصفاد .

الأخطـــــــل

أول ما نعرف عن أيام غياث بن غوث الأولى ، وعن أخبار طفولته ، هذه القصة التى تصوره متيما مع زوج أبيه ، فى حياة لا تخلو من ضيق وحرمان فهى تؤثر أبناءها بما لذ وطاب من طعام ، وتبعث به خلف أعنزلها يرعاها ، وهو يحتال لنفسه فى الوصول إلى مايشتهى من ألوان الطعام ، فيزعم لزوج أبيه أن بعض جيرانها مريض ، ولا تكاد تمضى حتى يهوى إلى ما أخفت عنه من تمر وزبيب ، فلا يبقى على شىء منه . ثم تعود وقد تنبهت إلى حيلته ، وتهم بضربة ، فيهرب ويقول فى ذلك

ألم على عنبات العجوز وشكوتها من غياث لمم[1]
فظلت تنادى ألا ويلها وتلعنُ واللعنُ منها أممْ

وهو هنا صبى محروم ، ولكنه متمرد ، لا يرضى بما فرض عليه من هذا الحرمان ، ولا يعدم الحيلة فى الوصول إلى ما يحب . وهو فى نفس الوقت حسن الاستعداد للشعر ، وللهجائى منه بنوع خاص . وصورة أخرى لهـذا التمرد والطموح ، ولهذه الموهبة الهجائية ، تحفظها لنا عنه كتب الأدب ، فيما تروى من قصته مع كعب بن جعيل ، وكان شاعر تغلب فى وقته ، وكان لا يلم برهط منهم الا أكرموه وأعطوه . فنزل على رهط الأخطل فأكرموه ، وجمعوا له غنما ، وحظروا عليها حظيرة ، فجاء الأخطل فأخرجها من الحظيرة وفرقها ، فخرج كعب وشتمه ، واستعان بقوم من تغلب فجمعوها له ، وردوها الى الحظيرة . فارتقب الأخطل غفلته ففرقها ثانية ، فغضب كعب وقال كفوا عنى هذا الغلام وإلا هجوتكم . فقال له الأخطل : إن هجوتنا هجوناك

(١) الشكوة بفتح الشين وعاء من الجلد يتخذ للماء واللبن .

فقال كعب : ومن يهجونى ؟ قال : أنا . فقال له أبوه : أبغرزمتك[1] تريد أن تقاوم ابن جعيل ؟ وضربه . والأخطل هنا غلام مبتدىء فى معالجة الشعر ولكنه يطمع أن تكون له فيه مكانة ، ويلتمس السبيل لذلك بهذه التصرفات النزقة . التى تلفت إليه الأنظار . وتجعل له بين الناس أهمية خاصة . فهو لا يرضى أن يكون غلاماً ككل الغلمان . مغموراً خامل الذكر . ولكنه يلتمس الشهرة بأن يفعل الفعلة الكبيرة . التى تغضب الناس وتؤلبهم عليه . ولا يلبث أن ينجح فى إثارة هذا الشاعر الكبير . فيقول له :

شاهدَ هذا الوجهُ غِبَّ الجمه

فيجيبه الأخطل :

فناك كَعبُ بنُ جعيلٍ أمه

ثم يقول فى كعب وأخيه :

هجانى المنتنان ابنا جُعيل وأى الناس يقتلهُ الهجاءُ

ولدتم بعد إخوتكم من استٍ فهلاَّ جئتمُ من حيث جاؤا

ويقـــول :

سميتَ كعباً بشرِّ العظامْ وكان أبوك يسمى الجُعَل[2]

وإن مَحَلّك من وائل محلُّ القراد من است الجمل[3]

ويلج الهجاء بعد ذلك بينه وبين كعب . فيقترن اسم هذا الغلام الناشىء بذلك الشاعر المشهور ويتحدث الناس بأمرهما . ويعرف غياث من ذلك الحين بلقب الأخطل . لبذاءته وسلاطة لسانه .

---

(١) فى القاموس المحيط الغذرمة اختلاط الكلام . قلت كأن الكلمة بما تجمع من حروف متنافرة تحكى هذا التنافر الذى يكون فى الكلام المختلط .

(٢) الجعل ضرب من الحشرات التى تقتات بالأقذار تشبه الخنفساء .

(٣) وائل هو الجد الأكبر الذى يجمع بكرا وتغلب (قبيلة كعب والأخطل) .

ولا يزال الأخطل يلتمس الشهرة من طريق الهجاء والإفحاش على الناس حتى يتاح له هجاء الأنصار مستنداً إلى حماية يزيد بن معاوية ، بعد أن عرض الأمر على كعب بن جعيل ، فتحرج منه ودله على الأخطل . ويوافق العرض من هذا الشاب الطموح المغامر هوى فيرحب به ، على ما فيه من خطورة التعرض لهذه الطائفة المعروفة بتاريخها القديم فى الإسلام ، وسابقتها فى تدعيمه وإقراره . فيها جمهم أعنف مهاجمة ، بأبياته المشهورة .

لعنَ الإله بنى اليهود عصابةً بالجزع بين جلاجل وصرارِ[1]

قومٌ إذا هدَرَ العصير رأيتهم حمراً عيونهم كجمر النار[2]

ذهَبتْ قريشٌ بالمكارم والعلَى واللؤم تحتَ عمائم الأنصار

فذروا المعالى لستمُ من أهلها وخُذُوا مَساحِيكم بنى النجار[3]

إن الفوارس يعرفون ظهوركم أولادُ كل مقبَّح أكَّار[4]

وإذا نَسَبْتَ ابن الفريعةِ خلته كالجحش بين حمارةٍ وحمارِ[5]

ويذيع هذا الشعر . فيحدث فى أوساط الأنصار ضجة هائلة . وتثور ثائرة زعيمهم النعمن بن بشير الأنصارى : فيقدم على معاوية غاضباً : مطالباً بتأديب هذا الغلام النصرانى ، لا يرضى فى ذلك إلا بقطع لسانه . ويغضب معاوية ويهم بالأخطل ، لولا تدخل يزيد فى الأمر ، يترضى أباه حتى يرضى .

---

(١) الجزع منعطف الوادى . جلاجل وصرار موضعان .

(٢) العصير عصير العنب أو ما يعتصر ليخمر . هدر العصير وذلك حين يختمر . أى أنهم يسرفون فى الشراب حتى تحمر عيونهم .

(٣) المساحى جمع مسحاة بكسر الميم اسم آلة يجرف بها الطين والقشر . سحا الطين يسحيه ويسحوه جرفه وقشره . و بنو النجار بيت من بيوت الأنصار وهم قوم حسان بن ثابت الشاعر

(٤) أكار أجير حراث يحفر الأرض .

(٥) ابن الفريعة حسان بن ثابت والفريعة أمه .

والراجح أن هذه الحادثة كانت فى أواخر أيام معاوية بعد سنة ٥٦ ﻫ .
فالأخطل يصور يزيد فى قصيدته التى قالها فى هذه المناسبة ولياً للعهد حين يقول:

فأصبحت مولاها من الناس بعده　　وأحرى قريش أن يهاب ويُحمدا

وإنما بايع معاوية لابنه يزيد سنة ٥٦ ﻫ ، قبل وفاته بأربع سنوات . وقد صور الأخطل فى هذه القصيدة يد يزيد عنده ، وما تعرض له من شر . وهى رائعة ، بل هى فى غاية الروعة ، حين تصور ترضى يزيد لأبيه ، ذلك الملك الصارم وما لقى فيه من جهد .

وإنى غداةَ استعبرتْ أمُّ مالك　　لراض من السلطان أن يتهددا
ولولا يزيد ابنُ الملوك وسيبه　　تجللت حِدباراً من الشر أنكدا[١]
وكم أنقذتنى من جَرُور حبالكُم　　وخرساء لو يُرْمَى بها الفيل بلّدا[٢]
ودافعَ عنى يومَ جِلق غمرة　　وهمّاً ينسينى السلافَ المهودا[٣]
وبات نجيّاً فى دمشق لحيةٍ　　اذا عضَّ لم ينم السليم وأقصدا[٤]
يخفّته طوراً وطوراً إذا رأى　　من الوجه إقبالا ألح وأجهدا
أبا خالد دافعت عنى عظيمة　　وأدركتَ لحمى قبل أن يتبدّدا
وأطفأت عنى نار نعمان بعدما　　أغذَّ لأمر عاجز وتجردا[٥]

---

(١) الحدبار الناقة الذاهبة السنام العارية العظام يشبه نفسه فى حال ورطته براكب ناقة هذه حالها

(٢) الجرور البئر البعيدة القعر . الخرساء الداهية التى تذهل وتخرس .

(٣) جلق غوطة دمشق أو موضع قريب منها . غمرة كربة . السلاف الخمر المهود المسكن ، وأصل التهويد النوم .

(٤) يقصد بالحية معاوية . السليم الذى لدغته الحية . أقصدت الحية لدغت فقتلت .

(٥) نعمان هو النعمان بن بشير الأنصارى . الاغداذ سرعة السير .

وأشار إلى ذلك فى موضع آخر ، من قصيدة مدح فيها يزيد ، وكان لا يزال وليا للعهد .

فلولا يزيدُ ابنُ الأمام أصابنى قوارع يجنيها علىَّ لسانى
ولم يأتنى فى الصُحف إلا نذيركم ولو شئتم أرسلتمُ بأمانى
فأقسمت لا آتى نصيبين طائعاً ولا السجنَ حتى يمضى الحرمان

ومن ذلك الوقت بدأت صلة الأخطل بيزيد . وزاد فى توثقها توافق طبعيهما . فقد كان يزيد شاعراً وكانت خلائقه بدوية ، ينزع منزع فتيان العرب الذين يهجمون على اللذة ، ولا يحرمون أنفسهم منها ، فاستراح إلى هذا الشاعر البدوى ، الذى تلوح عليه مخايل النباهة ، واتخذه صديقاً ونديما . ولكن الأخطل فيما يبدو ، ظل مكروها من معاوية لم يصل إليه ، فنحن لا نجد فى ديوانه شعراً فى مدحه ، وكل ما نجد أربع قصائد فى مدح يزيد ، اثنتين منهما قبل وفاة معاوية ، وهما اللتان قدمناهما ، وثنتين بعد وفاته وهما

بانت سعاد ففى العينين تسهيد واستحقبتْ لبهُ فالقلبُ معمود
وحلَّت ضُبيرةُ أمواه العداةِ وقد كانت تحلُّ وأدنى دارها ثـكُدُ

وهو يشير فى القصيدة الأولى إلى شيبه حيث يقول .

إما ترينى حنَانى الشيبُ من كبر كالنسرِ أرجُفُ والإنسان مهدود
فقد يكونُ الصبى منى بمنزلةٍ يوماً ويقتادنى الهيف الرَّعاديد
يا قلَّ خيرُ الغوانى كيف رُغن به فشربُهُ وشلٌ فيهن تصرِيد[1]
أعرضْنَ من شمط فى الرأس لاح به فهنَّ منه إذا أبصرْنه حِيدُ

---

(١) التصريد السقى دون الرى .

ويقول إن يزيد قد عطف عليه فى محنة ، حين أفرده أهله لجرم ارتكبه ، فأصبح طريداً مشرداً .

جزاك ربك عن مستفردٍ وَحدٍ نفاه عن أهله جُرْم وتشريد
مستشرفٌ قد رماه الناسُ كلُّهمُ كأنه من سَمُوم الصَّيفِ سفُّود[1]

ويشير إلى عطفه هذا فى القصيدة الأخرى بقوله .

أنتم تداركتُمونى بعد ما ذَلقَت نعلى وأخرج عن أنيابه الأسدُ
ومن مودَّةٍ أخرى تداركنى مثل الرُّدَينى لا واهٍ ولا أودُ

والمرة الأولى ، نرى الأخطل فى هذه القصيدة شاعراً سياساً ، يتجاوز مدح يزيد إلى الدفاع عن الدولة ، ومهاجمة خصومها ، مؤيداً حق الأمويين فى الملك ، مقرراً أن حقهم فيه ثابت ، بولايتهم لدم عثمان .

ويوم صفين والأبصارُ خاشعةٌ أمدهم إذ دعوا من ربهم مدَدُ
على الأولى قتلوا عثمانَ مظلمةً لم ينههم نشَدٌ عنه وقد نشدوا
فثمَّ قرَّتْ عيون الثائرين به وأدركوا كلَّ تَبلٍ عنده قَوَد[2]
فلم تزل فيلقٌ خضراء تحطمهم تنمى ابن عفّانَ حتى أفرخ الصيَد[3]

ويقول ان نصرهم جاء من عند الله . فانتهاء أمر المسلمين إليهم ، دليل على تفضيل الله لهم . وهذه فكرة جديدة ، وقف الأخطل جهده على تقريرها بمختلف الصور والوسائل ، كما سنرى :

تمت جدودهم والله فضَّلَهم وجَدُّ قوم سواهم خاملٌ نكدُ

---

(١) مستشرف على البناء للمفعول مظلوم من قولهم استشرفه حقه أى ظلمة . والسفود الحديدة التى يشوى بها اللحم و نسميها الآن (سيخ) .
(٢) التبل الثأر . القود القصاص
(٣) الصيد الكبر . أفرخ سكن

هم الذين أجابَ اللهُ دعوتهم لما تلاقتْ نواصى الخيل فاجتلَدُوا

..قومٌ إذا أنعموا كانت فواضلهم سيباً من الله لامنٌّ ولاحسد

..ويومَ صفينَ والأبصارُ خاشعةٌ أمدهم إذ دعوا من ربهم مدد

ثم هو يهاجم أعداءهم من القيسية وأصحاب صفين :

ويوم شرطة قيسٍ إذ مُنِيت لهم حنَّتْ مثاكيلُ من إيقاعكم نُكُدُ(١)

ظلوا وظل سحابُ الموت يمطرهم حتى توجَّهَ منهم عارضٌ برد(٢)

والمشرفيةُ أشباهُ البروق لها فى كل جمجمةٍ أو بيضةٍ خُدُدُ(٣)

ويومَ صفين والأبصارُ خاشعةٌ أمدهم إذ دعوا من ربهم مدد

ويختم القصيدة بهذا البيت القوى يخاطب به يزيد

والمسلمون بخيرٍ ما بقيتَ لهم وليس بعدك خيرٌ حين تفتقدُ

من ذلك الوقت ، لم يعد الأخطل صديقاً ليزيد فحسب ، ولكنه أصبح شاعراً أمويا ، أعد نفسه للدفاع عن سياسة هذه الدولة ، ومهاجمة أعدائها ، فنال عندهم حظوة رفعت من شأنه فى قبيلته ، حتى احتل منها مكان الزعامة ، وحتى كانت بكر بن وائل إذا تشاجرت رضيت به حكما ، فكان يدخل المسجد فيقدمون إليه .(٤) وعظم جاهه حتى اتخذ دار ضيافة . قال أبو الفرج : كان للأخطل دار ضيافة . فمر به عكرمة الفياض وهو لايعرفه ، فقيل له — هذا

---

(١) يقول قدرك الله لأعدائك يوم مرج راهط إذ أوقعت بهم فأثكلت الأمهات وأبكيتها على قتلاها .

(٢) العارض السحاب المعترض فى الأفق . البرد الذى يمطر بردا .

(٣) البيضة الخوذة . خدد يقصد بها الجراح . والخدة فى الأصل الحفرة المستطيلة فى الأرض .

(٤) الأغانى ٨ ٣٠٣

رجل شريف قد نزل بنا . فلما أمسى بعث إليه فتعشى معه ثم قال له : أتصيب من الشراب شيئاً ؟ قال — نعم . وإذا عنده قينتان خلفه ، وبينه وبينهما ستر ، وإذا الأخطل أشهب اللحية له ضفيرتان ، فغمز الستر بقضيب فى يده ، وقال : غنيانى بأردية الشعر ، فغنتاه بقول عمرو بن شاس :

وبيضٍ تطلىَّ بالعبير كأنما يطأنَ وإن أعنقْنَ فى جدَدٍ وحلا
لهونا بها يوماً ويوماً بشاربٍ إذا قلتُ مغلوباً وجدتُ له عقلا[1]

ولم يصرفه مكانه من الأمويين عن رعاية قبيلته ، وتتبع شئونها ، ومهاجمة أعدائها

وقد علمت أفناء تغلب أننى نضارٌ ولم أنبت بقرْقرةٍ أثلا[2]
وأنى يوماً لا مضيعٌ ذمارَها ولا مفاتى هاج هجا تغلباً بطلا

بل لقد استغل مكانته هذه عند الأمويين ، فى إصلاح أمر قومه ، كلما وجد لذلك سبيلا . وكان مثال الزعيم القوى ، الذى يحرص على وحدة القبيلة واجتماع كلمتها . فهو إذا وقع بينهم خلاف ، تدخل مصلحا ، وسعى فى حقن الدماء خوفا من أن يقع بأسهم بينهم ، فتذهب ريحهم ، وتهن قوتهم ، ويطمع فيهم عدوهم . فكان يحتمل الحمالات عن الجناة ، ويدى القتلى ، ساعيا بين وجهاء القبيلة وأثريائها ، ويستعينهم على ما احتمل من غرامات، فيمدح من يعينه منهم مشيدا بوفائه للقبيلة وبذله فى سبيلها ، ويهجو بخلاهم ، الذين يمتنعون عن المساهمة بأموالهم فى الإصلاح . قال صاحب الأغانى : أتى الأخطل الكوفة فأتى الغضبان بن القبعثرى الشيبانى ، فسأله فى حمالة . قال : إن شئت أعطيتك ألفين . وإن شئت أعطيتك درهمين . قال : وما بال الالفين وما بال الدرهمين

---

(١) الأغانى ٨ ٣١٨

(٢) أفناء تغلب قبائلها . الفضاء الذى ينبت فى الجبل فيكون خشبه صلبا . القرقرة الأرض المطمئنة اللينه يكون خشبها هشا ضعيفا

قال : إن أعطيتك ألفين لم يعطكها إلا قليل ، وإن أعطيتك درهمين لم يبق في الكوفة بكرى إلا أعطاك درهمين ، وكتبنا إلى إخواننا بالبصرة ، فلم يبق بكرى إلا أعطاك درهمين ، نخفت عليهم المؤونة ، وكثر لك النيل ، قال:فهذه إذن . قال نقسمها لك على أن ترد عينا ... [١] ويروى الأصفهانى فى بقية الخبر ، أن الاخطل قدم على أبى سويد بن منجوف السدوسى بالبصرة ، فلم يعطه شيئاً ، وحض قومه على الامتناع ، مذكرا إياهم بما بين تغلب وبكر من قديم العداء . فهجاهم الأخطل بقوله :

فإن تبخل سدوسُ بدرهميها فإن الريح طيبةٌ قبول
تواكلنى بنو العلاَّت منهم وغالَبَ مالكاً ويزيد غول
صريعًا وائلٍ هلكا جميعاً كأن الأرض بعدهما محُول

وهجا سويد بن منجوف بقوله :

وما جِذْع سوء خرَّب السُّوس أصله لما حملَتْه وائلٌ بمطيق
تطيف سدوسٌ حوله وكأنها عصىٌّ أشاء لوحَتْ بحريق [٢]
جمادُ الصفا ما إن يبضُّ بقطرةٍ ولو كان ذا زراعةٍ ورقيق [٣]
فإن نعف عن حمران بكر بن وائل فما إن لنا سودانهم بصديق

ووفد الأخطل الكوفة ، فأتى حوشب بن رويم الشيبانى ، وقال : إنى تحملت حمالتين ، لأحقن بهما دماء قومى ، فنهره. فأتى سيار بن البزيعة،فاعتذر إليه . فأتى عكرِمة الفياض ، وكان كاتبا لبشر بن مران ، فسأله وأخبره بما رد

---

(١) الاغانى ٨ ٣١٠

(٢) الأشاء النخل . لوحت سودت وصفهم بالسواد والنحول .

(٣) الجماد الناقة التى لالبن لها والجماد أيضا السنة المجدبة ، الصفا الحجارة يعنى أنه بخيل كالصخرة لايندى .

عليه الرجلان ، فقال : أما إنى لا أنهرك ولا أعتذر إليك ، ولكنى أعطيك إحداهما عينا والأخرى عرضا[١] وفى ذلك يقول الإخطل :

إن ابن ربعى كفانى سيبه ضغنَ العدو ونبوةَ البخّال

أغليْتَ حين تواكلتنى وائلٌ إن المكارم عند ذاك غوالى

ولقد شفيْتَ مايلتى من معشر نزلوا بعقْوة حيَّةٍ قتال[٢]

بعدت قعورُ دلائهم فرأيتهم عند الحمالة مغلقى الأقفال

ولقد مننت على ربيعة كلها وكفيت كلَّ مواكلٍ خذال

كَزْم اليدين عن العطية ممسكٍ ليست تبضُّ صفاته ببلال[٣]

مثل ابن بزغة أو كآخر مثله أوْلى لك ابن مُسيمةِ الأجمال[٤]

إن اللئيم إذا سألت بهرتَه وترى الكريم يراحُ كالمختال[٥]

وإذا تبوَّعَ للحمالة لم يكن عنها بمنبهر ولا سعّال[٦]

وإذا المئون تُوُكلت أعناقُها فاحمل هناك على فتى حمّال[٧]

فهو الجوادُ لمن تعرض سيبه وابن الجواد وحامل الأثقال

---

(١) الأغانى ٨ : ٣١٩

(٢) المليلة الحمى الباطنة والحر الكامن فى العظم : استعاره لرغبة الانتقام . العقوة الساحة والمباءة والمحلة .

(٣) الكزم الضيق الكف القصير الأصابع كنى بذلك عن بخله . الصفا الحجر . تبض صفاته تندى . بلال وبلل واحد .

(٤) ابن البزيغة يعنى به سيار بن المنذر ويقصد بالآخر حوشب بن رويم الذين ورد ذكرهما فى القصة السابقة . ابن مسيمة الأجمال يعيره بأن أمه كانت ترعى الابل كالاماء.

(٥) بهره كلفه فوق طاقته . يراح أى تأخذه أريحية فيهتز زاهيا بنفسه .

(٦) تبوع للحمالة مد باعه لها

(٧) تؤكلت اتكل كل واحد على صاحبه . أعناقها جماعاتها .

ويشير الأخطل فى موضع آخر من شعره إلى هذه الحالات ، مثنيا على من يفى للقبيلة ، فيستجيب لدعائها وقت الشدة ، معرضا بمن يقعدعن المشاركة فيما يلم بها ، حيث يقول :

سعى لى قومى سعى قوم أعزة ... فأصبحت أسمو للعلى والمكارم

تمنوا لنبلى أن تطيش رياشها ... وما أنا عنهم فى النضال بنائم

وما أنا إن جارٌ دعانى إلى التى ... تحمَّل أصحاب الأمور العظائم

ليسمعنى والليلُ بينى وبينه ... عن الجار بالجافى ولا المتناوم

ألم تر أنى قد وديتُ ابنَ مرْفق ... ولم تُودَ قتلى عبد شمس وهاشم[١]

جزا الله فيها الأعورين مذمةً ... وعبدة ثفْر الثورة المتضاجم[٢]

فأعيوا وما المولَى بمن قلّ رِفدُه ... إذا أجحفَتْ بالناس أحدى العقائم[٣]

وما الجار بالراعيك ما دمت سالماً ... ويزحلُ عنـد المضلع المُتَفاقِم

هذه المنزلة الكبيرة التى احتلها الأخطل عند البيت الحاكم من جهة أخرى ، قد ربطت بين التغلبين والإمويين ، وكان لها أثر عظيم فى توجيه سياسة القبيلة ، وتعليق مصالحها بقيام البيت الأموى وقد ظهر أثر ذلك واضحاً فى أيام الفتنة التى تلت موت يزيد بن معاوية ، فقد شذت تغلب على قبائل العراق ، التى كانت يدا واحدة على الأمويين ، وقد بعثت من جديد تلك الحزازات القديمة بين الشام والعراق ، فوقفت موقفاً ظاهره الحياد ، وباطنه الولاء للأمويين . كانت النصرانية غالبة على تغلب ، فلم يكن يقبل منهم

---

(١) ولم تود قتلى عبد شمس وهاشم هؤلاء رجال من قومه ذمهم لأنهم لم يعينوه فى حالة فقتلوا .

(٢) الثفر للسباع بمنزلة الحياء للناقة وهو فرجها . وقد يستعار من السباع فيجعل للانسان . الثورة يقصد بها أنثى الثور أو البقرة . المتضاجم المائل .

(٣) المولى هنا ابن العم المخلص لقبيلته . الرفد العطاء . العقائم الشدائد .

رأى فى خلافة المسلمين ، ولم يكن من شأنهم أن يخوضوا فيما يخوض فيه الناس من حروب ، فى سبيل إقرار هذا الخليفة أو ذاك . فاعتزلوا أول الأمر إلا قليلا من رجالهم المسلمين ، كانوا يغيرون مع عمير وزفر على كلب واليمنية ويدلونها [١] ولكن القبيلة فى معظمها ظلت على حيادها الشاذ ، وسط هذه الكتلة الزبيرية ، التى تحيط بها من كل مكان ، تترقب الظروف ، وتشارك الأمويين بعواطفها ، ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً . ولم يكن بد من أن ينتهى موقفها بالحرب ، فالقيسية لا ينقطعون عن التحرش بهم ، لما هو معروف من ميلهم الأموى ، فهم يستأوون جوارهم ، ويسخرون مشايخهم من النصارى ، ويغيرون على إبلهم وماشيتهم كل ذلك والتغلبيون يؤثرون السلم ، لكثرة عدوهم حولهم . فهم يشتكون إلى زعيمهم عمير بن الحباب ، فلا ينهرهم ولا يكفهم ، فيتمادون فى الإعتداء ، حتى ثارت ثائرة التغلبيين مستقتلين ، تتقدمهم أعلام النصرانية ، قد رسم عليها الصليب ، وفى ذلك يقول الأخطل :

لما رأونا والصليب طالعاً ومار سرجيس وسماً ناقعاً
والخيل لا تحملُ إلا دارعاً والبيض فى أيماننا قواطعا
خلوا لنا الثرثارَ والمزارعا وحنطةً طيساً وتمراً يانعا [٢]

وتتابعت الوقائع بين تغلب وبين القيسية . الذين كان يتزعمهم الجحاف بن حكيم وعمير بن الحباب السلميان وزفر بن الحارث الكلابى . ووقف الأخطل الموقف الذى ينبغى لمثله ، يسجل انتصارات قومه ، ويهاجم للقيسية وشعراءهم ، كالنابغة الجعدى ، ونفيع بن صفار المحاربى ، تميم بن أبى بن مقبل . وكان من أعنف ما هجاهم به :

ألا يا اسلمى يا هندُ هندَ بنى بدْر وإن كان حيانا عدىً آخرَ الدَّهر

(١) ابن الأثير ٤ : ٣
(٢) الطيس الكثير من المال والرمل والماء .

وهو يتتبع فيها قبائل قيس باعنف الهجاء وأخشه ، ويفتخر بقتل ابن الحباب ، معتداً بذلك عند الأمويين . والقصيدة تمتاز بقوة التصوير الهجائى ، الذى ينزل إلى الفحش البذىء فى بعض الأحيان ، وبالقسوة الوحشية تصوير مناظر الحرب البشعة ، وطول النفس ، مع الاحتفاظ بالمستوى الشعرى الممتاز حتى البيت الأخير منها . انظر إلى ما فى شعره من عنف حين يخاطب القيسية :

لقد حملتْ قيسَ بنَ عيلان حربنا على يابس السيساءِ محدودب الظهر[1]

ركوب على السَّوْءات قد خرَّم آسته مقارعةُ الأعداءِ والنخسُ فى الدُّبر

وانظر إلى بنى محارب فى جلبتهم وضوضائهم ، كأنهم الضفادع التى لا تنقطع عن النقيق ، تتجاوب أصواتها ، فتجنى على نفسها ، لأنها تدل حية البحر على موضعها :

تنقُّ بلا شىء شيوخُ محارب وما خلتها كانتْ تريشُ ولا تبرى

ضفادعُ فى ظلماء ليل تجاوبتْ فدل عليها صوتها حيَّةَ البحر

ثم انظر إلى هذه الصورة البشعة ، التى يخوض فيها حين يخاطب الشاعر القيسى نُفَيْعَ بن صفار المحاربى ، وإلى استخفافه به وبشعره ، الذى لا يثبت لشعر الأخطل ، فكأنه إفك فرعون وسحرته ، أمام حية موسى ، لا يلبث أن يتضاءل ويزول :

وكان ابن صَفَّار هجين محارب كمقتبس منى شهاباً على ذعر

وقد وَسَمَتْ عينيه إذ طرَّقتْ به من الوُرْق دفراءُ المقذَّين والنحر[2]

(١) السيساء العمود الفقرى الذى ينتظم فقار الظهر فى الحيوان . صور ما يحتملون من الحرب بما يحتمل الراكب على دابة عجفاء محدودبة الظهر بارزة فقاره .

(٢) طرقت المرأة والقطاة إذا عسر خروج الولد والبيضة . رجل ورق وامرأة ورقة خسيسان . دفراء المقذين . الدفر نتن الرائحة المقذان ما خلف الأذنين . ولهذا =

إذا انفرجت عنه الأشاعر رَدَّه عن القَصد بظرٌ مثلُ أرنبةِ النسر
تخلَّ ابنَ صفار فلا تَرُم العلى ولا تذكُرَنْ حيَّاتِ قومك في الشعر
فقد نهضَتْ للتغابيين حيةٌ كحية موسى يوم أيد بالنصر

وانظر إلى هذا الشاعر القيسى الآخر ، تميم ابن أبى بن مقبل العامرى ، وإلى رهطه بنى العجلان ، يسودهم قومهم وهم من ألأم الناس . وتأمل هذه الصورة الساخرة ، التى يصور فيها هؤلاء الذين يتزعمون الناس ، يبخلون على غلمانهم بالزاد ، حتى يكاد يقتلهم الجوع ، ولا يزال غلامهم يبكى من شدة جوعه ، وقد تعبس وجهه ، وراح فى بكائه يدلك عينيه بيديه ، كأنه الخفاش ، حتى تمل الوليدة كثرة صياحه ، فتلقى به فى زاوية مظلمة من أركان البيت ، مصممة أذنيها عن صراخه . وانظر إلى رثاثة نسائهم وقماءتهن ، يتكلفن من أعمال الرعى وحمل المتاع ، قد لصقت الأوضار بجلودهن ، كأنما طليت سواد القدر . وتآكلت كعوبهن من طول الرعى ، ويبست أعجازهن من حمل القرب ومراكب النساء

إذا التمس الأقوامُ فى الناس ذِكرَهم فذِكرُ بنى العَجْلان من أقبح الذِكر
وقد سرنى من قيس عيلان أننى رأيتُ بنى العَجْلانِ سادُوا بنى بَدْر
وقد غَبَرَ العجلانُ حيناً إذا بكى على الزادِ ألقَتْه الوليدةُ فى الكِسْر
فيُصبحُ كالخفّاش يدلكُ عينَه فقُبِّحَ من وجهٍ لئيمٍ ومن حَجْر
وكنتم بنى العَجْلان أقصرَ ايدِياً والأَمَ من أن تبلُغوا عالِىَ الأمر
بَنى كلُّ دسماء الإهابِ كأنما كساها بنو العجلان من حُمَمِ القِدْر

= البيت والبيت الذى يليه وصف لعسر ولادة نفيع بن صفار وهو تصوير يتقزز منه البدن . وهذه البشاعة والوحشية والتصوير الكالح الفظ من مميزات الأخطل كما سنرى .

ترى كميتها قد زال من طول رعيها ‏ ‏ وقاح الذنابى بالسوية والزفر[1]

وانظر إلى هذه الصورة البشعة ، التي يصور فيها امرأة من نساء قيس ، قد أثخنتها الجراح ، فخرت صريعة على الأرض ، قد تدلى منها جنينها ، ملففاً في هذه اللفائف التي تكون على الجنين في البطن ، والطير تحوم من حولها تضرب عينيها ، وتعبث بأحشائها ، وهي تلفظ آخر أنفاسها :

وكم من جنين بات ينزع نفسه ‏ ‏ لقيسية قد هكها السيف بالخصر

سليمية سوداء أو عامرية ‏ ‏ تجر سلاها حين تنهض بالصدر[2]

بها رمق فالطير تبقر بطنها ‏ ‏ وتضرب عينيها قوادم من نسر

وانظر إلى هذه الصورة الدقيقة الرائعة . التي يصورفيها هذا السيد القيسي الذي أخذته الرماح من كل مكان ، حتى ألجأته إلى الهرب فهو يستحث فرسيه على العدو ، وقد تحلب من أعطافها الماء . كأن في بطنها ومجري حزامها قرباً تسح الماء ترمى برجليها موسعة الوثب . ولا تكاد تمس الأرض . كأنها تسبح في الفضاء ، أو تعوم في بحر من الغبار المتكاثف ، الذي يثيره من حولها هذا الزحام المضطرب العنيف . والرماح تنوشه من كل جانب ، تكاد تناله ولما تنله ، وقد انخلع قلبه من الذعر ، فراح يلهب ظهر الفرس في عدو جنوني . فكأنه عقاب يسرع إلى وكره ، وقد أقبل عليه ظلام الليل . ويظل في شدة فزعه وذهوله ، يفديها بنفسيه وأمه ، قائلا فدى لك أمي إن دأبت إلى العصر . وبالله لو أدركته الرماح ، لتركته جثة مهملة في الصحراء يتوسد كفه ولا يضمه قبر ، فهو نهب الضباع وكواسر الوحوش .

---

(١) الذنابى يعني به هنا العجز . قاح من القيح . السوية القتب العاري . الزفر الحمل يقول إن عجزها قاح من كثرة ما تحمل الحمول وتركب الدواب على القتب عارياً فيجرحها ويؤذيها .

(٢) السلي الكيس الذي يكون الجنين في داخله .

ونجّى ابنَ بدرٍ ركضُه من رماحِنا بنضّاحةِ الأعطافِ مُلْهَبَةِ الحضرِ (١)

إذا قلتُ نالته العوالى تقاذفتْ به سَوْحَقُ الرِجْلين سابحةُ الصدر

كأنهما والآلُ ينجاب عنهما إذا هبطا وعثاً يعومان فى غَمْرِ (٢)

كأن بطبيَيْها ومجرى حزامِها أداوَى تسحُّ الماءَ من حَوْرٍ وُفْرِ (٣)

فظلَّ يفدِّيها وظلّت كأنها عقابٌ دعاها جُنْحُ ليلٍ إلى وكْرِ (٤)

وظل يجيشُ الماء من متفَصَّد على كلِ حالٍ من هزائمه يجرى

يُسِرُّ إليها والرماحُ تنوشه فدًى لكِ أمى إنْ دأبتِ إلى العَصْر

وباللهِ لو أدركْنَه لاضطرَرْنَه إلى صَعْبةِ الأرجاء مظلمةِ القعْرِ (٥)

فوسَّدَ فيها كفَّه أو لحَجَّلتْ ضِباعُ الصحارى حولَه غيرَ ذى قبر

وهو فى آخر القصيدة يتجه إلى الخليفة فيقول إننا نستغنى بك عمن عداك ، فما بنا من حاجة إلى صلح قيس وأنت أمير المؤمنين لقد بايعت قيس ، وفزعت إليك تطلب العذر عما قدمت ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك عن إسلام أو هوى ، وإنما دفعهم إليه الذل كارهين ويفتخر بعد ذلك

---

(١) نضاحة الأعطاف يعنى فرسا تنضح أعطافها بالعرق لشدة ما أجهدها الجرى ، الحضر العدو . ملهبة العدو ألهبت ليستخرج أقصى ما عندها من العدو . سوحق الرجلين طويلتهما . سابحة الصدر كأن صدرها سابح فى الفضاء لسرعتها فهى لا تكاد تمس الأرض .

(٢) كأنهما يعنى ابن بدر وفرسه ينجاب ينكشف إذا دخلا فيه ثم ينطبق عليهما فينغمسان فيه . الوعث الأرض السهلة الرخوة تغيب فيها الأقدام . الغمر الماء الكثير يشبهه حين يحيطه الغبار الذى يثور حوله وحول فرسه بالذى يسبح فى ماء .

(٣) الأطباء : الأثداء واحدها طبى بضم الطاء وسكون الباء . الحور جلد مدبوغ . وفر ضخام . يصف العرق الذى يتحلب من بين ثدييها ومن موضع حزامها بالماء المتدفق من قرب ضخام .

(٤) يفديها يقول لها (جعلت فداك) .

(٥) صعبة الأرجاء مظلمة القعر ، ذلك هو القبر أو الحفرة الضيقة التى يوارى فيها .

بموقف قبيلته من الدولة وعدائها لمصعب بن الزبير ، ومحاربتهم جنده من القيسية ، وقتلهم رأسهم الذى دفعهم إلى الفتنة ، عمير بن الحباب :

وأنت أميرُ المؤمنين وما بنا إلى صلح قيسٍ يا ابنَ مروان من فقر
فإن تكُ قيسٌ يا ابن مروان بايعَتْ فقد وهِلتْ قيسٌ إليك من العذر[1]
على غير إسلامٍ ولا عن بصيرة ولكنهم سِيقُوا إليك على صُغْر[2]
ولما تبيَّنا ضلالةَ مصعبٍ فتحنا لأهل الشام باباً من النصر
فقد أصبحَتْ منى هوازنُ كلها كواهِي السُّلاَمَى زيدَ وَقْراً على وَقْر[3]
سمَوْنا بِعرْنينٍ أشمَّ وعارضٍ لنمنعَ ما بين العراق إلى البِشْر[4]
فأصبح ما بين العراق ومَنْبِجٍ لِتغلب تَرْدِى بالرُّدَيْنيَّة السمر
إليك أميرَ المؤمنين نَسيرُها تخُبُّ المطايا بالعَرَانين من بَكر
برأسِ امرئٍ دَلَّى سليماً وعامراً وأورد قيساً لُجَّ ذى حَدَبٍ غَمْر[5]
فأسرَيْنَ خمساً ثم أصبحن غُدْوَةً يُخبِّرن أخباراً ألذَّ من الخمر

ومما يصور قسوة الأخطل الوحشية فى الهجاء ، وبشاعة تصويره لمناظر القتال ، هذه الأبيات التى يصف فيها جثة عمير بن الحباب ، وقد تركت فى الصحراء عارية من الأكفان ، تنبعث منها الروائح العفنة ، فتدل الضباع

---

(١) الوهل الفزع . أى أن قيساً فزعت إليك تطلب عذراً عما قدمت .
(٢) الصغر الذلة والهوان .
(٣) السلامى عظام خف البعير . الوقر الصدع .
(٤) العرنين الأنف يريد الشرف . العارض الجمع الكثير وأصله السحاب . البشر ماء لبنى تغلب .
(٥) أورد قيساً لج ذى حدب غمر ، أى أوردها بحراً من المصائب . ذو الحدب البحر . الغمر الكثير الماء .

على موضعها ، ومن حولها جثث مبعثرة على جوانب الوادى ، قد انتفخت بطونها ، وخرجت أحشاؤها :

أمعشَرَ قيسٍ لم يمتَّع أخوكم   عميرٌ بأكفانٍ ولا بطُهُور

تدلُّ عليه الضبعَ ريحٌ تضوعتْ   بلا نَفْحِ كافورٍ ولا بعبير

وقتلى بنى رعل كأن بطونَها   على جَلْهَةِ الوادى فى بطونُ حمير[1]

ومن قصائده التى تمتاز بالفحش ، وبالاعتماد على الصور الهجائية ، قصيدته فى هجاء النابغة الجعدى أحد شعراء قيس :

لقد جارَى أبو ليلى بِقَحْمٍ   ومُنتكِثٍ على التقريب وان[2]

فمن إفحاشه فيها قوله :

خنافسُ أُدلِجَتْ لمبيتِ سوء   ورِثْنَ فِراشَ زانيةٍ وزان

وما أمٌ ربوتَ على يديْها   بطاهرة الثياب ولا حَصَانِ

كأن عِجَانَها لَحيا جزُورٍ   تحسَّرَ عنهما وضَرُ الجِرَان[3]

وقد عرف الأمويون لتغلب وشاعرها إخلاصهم للدولة فى محنتها ، وقتالهم فى سبيلها ، فأعظموا مكانهم ، وقربوا الأخطل ، حتى بلغ فى بلاط عبد الملك قمة مجده السياسى ، فكان شاعر الدولة المقدم . ولقد بلغ من جرأته على الخليفة ، أنه كان فى شعره يمن عليه سابق صنعه له ، ولا ينقطع عن الإدلال

---

(٩) جلهتا الوادى جانباه .

(١) أبو ليلى : كنية نابغة بنى جعدة   القحم الفرس الكبير السن المهزول الهرم . التقريب ضرب من العدو . المنتكث والمنتكس الضعيف   يعيره كبر سنه وعجزه عن المضى فى مساجلته الشعر .

(٢) العجان ما بين القبل والدبر . اللحى منبت اللحية من الانسان وغيره . الجزور الناقة المذبوحة . الوضر وسخ الدسم واللبن . جران البعير مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره .

بموقف قبيلته فى تيه وعجب ، وكان عبد الملك ، مع ما هو معروف من قوته وهيبته ، يحتمل منه كل ذلك . بل لقد استطاع أن يقول له فى إحدى مدائحه ، إن قبيلته أقرت ملك الأمويين :

وقد نُصِرْتَ أميرَ المؤمنين بنا … لما أتاك ببطن الغُوطَة الخبَرُ[1]

واستطاع أن يذهب فى الجرأة إلى أبعد من ذلك ، حين نقض الجحاف عهده ، فأوقع بتغلب فى البشر . فهو يتهم الخليفة بالتقصير فى حماية قومه ، ويجعله مسئولا عمن قتل منهم ، فيطالبه بأن يغرم عن القيسية دماءهم ، قائلا إن الحمالة مهما تثقل فدم القوم أثقل وهو يهدد الخليفة بالخروج معتداً بقوة قومه :

لقد أوقع الجحافُ بالبِشْر وقعَةً … إلى الله منها المشتكى والمعول

فسائلْ بنى مروانَ ما بالُ ذِمَّةٍ … وحبلٍ ضعيفٍ ما يزال يُوَصَّلُ[2]

بنزوة لصٍ بعد ما مر مصعبٌ … بأشعثَ لا يُفْلَى ولا هو يُغْسل[3]

أآمَرَكَ الجحافُ ثم أمرتَه … بجيرانكم وسط البيوت تُقَتَّلُ؟[4]

لقد كان للجيران ما لو دَعَوْتُمُ … به عاقِلَ الأَرْوى أتتكم تنزَّلُ[5]

فإن لا تُغَيِّرها قريشٌ بمُلكها … يكنْ عن قريش مُسْتَمازٌ ومَزْحلُ[6]

---

(١) الغوطة غوطة دمشق .

(٢) حبل ضعيف ، يقصد العهد الذى بين قومه وبين الأمويين ، يصفه بالضعف لأن الخليفة لم يستطع أن يحمى قومه من الجحاف السلمى حين أوقع بهم .

(٣) يقصد باللص الجحاف . يقول له فعلتم هذا بعد أن قتلنا لكم مصعب بن الزبير .

(٤) يتهكم بالأمويين يقول هل استأذنكم الجحاف فى قتل جيرانكم الذين يحتمون بكم فأذنتم له .

(٥) الأروى جمع كثرة للأروية وهى أنثى الوعول . والعاقل الممتنع فى الجبال العالية . يقول لقد كان للجيران عليكم عهداً ينزل الأروى المعتصم بأعالى الجبال

(٦) مستماز من ماز الرجل وامتاز واستماز انتقل من مكان إلى مكان متنحيا .

ونَعْزُزُ أُناساً عِزَّةً يكرهونها ... ونَحيى كراماً أو نموتُ فنقتلُ[1]

وإن يحملوا عنهم فما من حَمَالةٍ ... وإن ثقُلتْ إلا دمُ القومِ أثقلُ[2]

وإن تَعرِضُوا فيها لنا الحقَّ لم نكن ... عن الحقِ عِمياناً بلى الحقَّ نسأل

وقد نَنزِلُ الثغرَ المخوفَ ويُتَّقَى ... بنا البأس واليومُ الأغرُّ المحجَّل

كان الأخطل لسان الحكومة الذى يعبر عن رأيها واتجاهاتها . فهو يصور بغض الأمويين لهذا الحزب القيسى ، الذى ظل مكروهاً من عبد الملك ، لا يقربه ولا يثق به . فلا تكاد تخلو قصيدة فى مدح عبد الملك من هجائهم ، والتحدث عن نفاقهم ، ونبش قديم كيدهم للدولة وانحرافهم عنها يقول فى قصيدته

لعمرى لقد أسريتُ لا ليلَ عاجزٍ ... بساهمة الخدَّين طاوية القُرْب[3]

... عتبتم علينا قيس عيلان كلكم ... وأىُّ عدوٍ لم نُبِتْه على عَتْب

لقد علمت تلك القبائل أننا ... مصاليتُ جذّامون آخِيَةَ الشَّغْب[4]

فإنْ تكُ حربُ ابنَىْ نزار تواضعَت ... فقد عَذَرَتْنا من كلابٍ ومن كعبِ

وفى الحُقْبِ من أفناءِ قيس كأنهم ... بمَرْج الثرثارِ خُشْبٌ على خشب[5]

---

(١) عره بشر لطخه به وقد يكون من العر وهو الجرب .

(٢) الحمالة الدية والغرامة

(٣) السرى سير الليل . الساهم الشاحب الضامر . القرب جانب السرة .

(٤) المصلات الشجاع . الجذم القطع الآخية خشبة تدفن فى الأرض يشد فيها حبل الدابة . الشغب تهييج الشر

(٥) الحقب جمع أحقب وهو الحمار الوحشى الأبيض فى حقويه ، أفناء قيس أخلاطهم . الثرثار واد عظيم بالجزيرة وهو فى البرية بين سنجار وتكريت تسكنه تغلب ، وبه كانت وقائع مشهورة بينهم وبين قيس عيلان فى أيام الفتنة الثانية .

وهنَّ أذقنَ الموتَ جزءَ بنَ ظالم ... بماضيةٍ بين الشراسيفِ والقُصُبِ (١)

فظلَّت بنو الصمماءِ تأوى فلولُهم ... إلى كل دسماءِ الذراعين والعَقَبِ (٢)

وقد كان يوما راهطٍ من ضلالكم ... فناء لأقوامٍ وخَطباً من الخطب

تُسامون أهل الحقّ بابنَىْ محاربٍ ... ورهط بنى العَجْلانِ حسبُكَ من رَكْب (٣)

قرومُ أبى العاصى غداةَ تَخَمَّطت ... دمشقُ بأشباه المهنَّأةِ الجُرب (٤)

يقودون موجاً من أمية لم يرِثْ ... ديارَ سليمى بالحجاز ولا الهضب

ملوكٌ وحكامٌ وأصحابُ نجدةٍ ... إذا شُوغبوا كانوا عليها أُولى شَغَب

ويعرض بزعيمهم زفر بن الحرث فى قصيدة يمدح بها بشر بن مروان فيختمها بقوله :

فلا تجعَلَنِّى يا ابن مروان كامرىءٍ ... غلتْ فى هوى آل الزبير مراجلُه

يُبايعُ بالكف التى قد عرَفتَها ... وفى قلبه ناموسُه وغوائلُه

وقد اتخذ هجاؤه للقيسية صورة جديدة فى النقائض التى اتصلت بينه وبين جرير ، وكان عمادها هجاء الأخطل لهذا الحزب الزبيرى المنحرف عن الأمويين، وانتصار جرير له وهجو تغلب وشاعرها النصرانى .

ومن أروع ما يصور الهجاء السياسى الممتاز نقيضة الأخطل المشهورة :

---

(١) الشراسيف أطراف الأضلاع من أسفل الجنب ، القصب المصران ، جزء بن ظالم الحارث بن ظالم الذى قتل ابن النعمان وكان من فتاك العرب المشهورين ، والأخطل يفتخر هنا بقتلهم هذا البطل .

(٢) بنو الصمماء إخوة عمير بن الحباب نبزهم بذلك ، والصمماء الصغيرة الاذن ، دسماء الذراعين من الوسخ والأقدار

(٣) أهل الحق يعنى بنى أمية ، محارب وبنو العجلان من قبائل قيس عيلان

(٤) القروم جمع قرم وهو السيد على التشبيه بفحل الابل تخمط تكبر وغضب . المهنأة الابل المطلية بالقطران وذلك حين تداوى من الجرب والعرب تصف الجيش بالسواد لكثرة ما عليه من الدروع والحديد .

خفَّ القطينُ فراحوا منك أو بكروا   وأزعجتهم نَوًى فى صَرْفِها غِيَرُ[١]

وهو يمزج المدح فيها بالهجاء . يرفع من قدر الأمويين ، معرضاً بأعدائهم من القيسية ، متشمتاً بما لحقهم من ذل وانكسار ، مباهياً بمشاركة قبيلته فى إقرار الملك . وأين يذهب هؤلاء الحمق من عبد الملك ، وهو أعلى الناس همة ، وأقواهم مُنَّة ، وأصبرهم على قتال :

لايَطعَمُ النومَ إلا ريثَ يبعثُه   همُّ الملوكِ وجَدٌّ هابه الحجر

مفترشٌ كافتراش الليث كلكله   لوقعةٍ كائنٍ فيها له جزَر[٢]

حتى تكونَ له بالطّف ملحَمَة   وبالثَّويَّة لم يُنبَضْ بها وتر[٣]

وتستبينَ لأقوامٍ ضلالتهم   ويستقيم الذى فى خده صَعَر

يعلو القناطرَ يبنيها ويهدمُها   مُسَوَّمٌ فوق الراياتُ والقتَر[٤]

حتى استقلَّ بأثقالِ العراقِ وقد   كانت له نِقمةٌ فيهم ومُدَّخَر[٥]

وماذا يعيبون على بنى أمية أو ينقمون منهم وهم :

فى نَبعةٍ من قريشٍ يَعصِبون بها   ما إنْ يُوازَى بأعلى نبتها الشَّجَرُ

علَتْ هضاباً وحلّوا فى أرُومتِها   أهلُ الرياء وأهلُ الفخر إن فخروا

حُشْدٌ على الحقِ عَيَّافُو الخَنَا أُنُف   وإن أَلَمَّتْ بهم مكروهةٌ صَبَروا

---

(١) خف القوم ارتحلوا مسرعين . راحوا من الرواح وهو ضد البكور . أزعجتهم نوى أقلقتهم . غير الدهر وصروفه حوادثه .

(٢) الجزر كل شىء مباح للذبح .

(٣) الطف أرض من ضاحية الكوفة كان فيها مقتل الحسين الثوية موضع قرب الكوفة . لم ينبض بها وتر لأن الجيشين ملتحمان فليس بينهم إلا الضرب والطعن . وإنما يترامى الجيشان بالنبل إذا كانا بعيدين قبل أن يلتحما .

(٤) مسوم معلم بعلامة يعرف بها وكان الفرسان المشهورون يعلمون أنفسهم وقت القتال ليعرفوا من سائر الناس . القتر غبار المعركة .

(٥) نقمة فيهم ومدخر سبقت إليهم نقمته ولا يزال يدخر لهم ألواناً من النكال .

وما الذى غرهم بنى أمية حتى ركبوا رءوسهم ، وهم أوسع الناس حيلة ، وأشدهم بطشاً !

لا يستقِلُّ ذوو الأضغان حربَهم ولا يُبَيِّنُ فى عيدانهم خَوَر
وإن تدجَّت على الآفاق مُظْلِمَةٌ كان لهم مَخْرَجٌ منها ومُعْتَصَر[١]
شُمْسُ العداوة حتى يُستَقَادَ لهم وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَروا[٢]

وهل يستحق هؤلاء المارقون الذين أنزلهم السيف على حكمه ، فأعطوا عن يد وهم صاغرون ، إلا الذل والهوان ؟ وكيف يأمن الخليفة لزعيمهم وهو عدوه الذى استباح دم جنده وأوليائه ، وإنه ليخفى فى نفسه الغل الدفين والحقد الكمين .

بنى أمية إنى ناصِحٌ لكم فلا يبيتَنَّ فيكم آمناً زُفَرُ[٣]
واتخذوه عدوًّا إن شاهِدَه وما تَغَيَّبَ من أخلاقه دَعَر
إنَّ الضغينةَ تلقاها وإن قدُمت فالعَرِّ يكمِنُ حيناً ثم ينتشر[٤]

أتقربون منكم هذا الرجل ، وسيفه يقطر من دماء قومى ، الذين بذلوا أنفسهم فى إقرار ملككم ؟ ألم أناضل دونكم أبناء الأنصار .

حتى استكانوا وهم مِنّى على مضَضٍ والقولُ ينفُذُ ما لا تنفُذُ الإبَر

---

(١) تدجت أظلمت . مظلمة كارثة أو مصيبة . معتصر ملجأ ومعقل

(٢) رجل شموس عسر فى عداوته ، والشماس الاباء ، والفرس الشموس الذى يستعصى على راكبه

(٣) هو زفر بن الحارث الكلابى من زعماء القيسية الذين حاربوا الامويين ، وكان قد هرب ثم أمنه عبد الملك ، وهو القائل

فقد تنبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

(٤) العر الجرب ، يقول إن الحقد يظل كامناً فى النفس كالجرب يسكن فيظن أنه قد انصرف ولكنه لا يلبث أن ينتشر

وقيسُ عيلانَ حتى أقبلوا رَقَصاً ... فبايعوك جهارًا بعد ما كفروا

ضَجُّوا من الحرب إذ عَضَّت غواربهم ... وقيسُ عيلانَ من أخلاقها الضَجَرَ

فلا هدى اللهُ قيساً من ضلالتها ... ولا لَعاً لبنى ذَكوانَ إذ عثروا(١)

ويندفع الأخطل فى الفخر بقومه ، ونصرهم عبد الملك ، وقتلهم عمير ابن الحباب رأس سليم الذى دلاهم إلى الفتنة ، وقادهم إلى الحين والهلاك . وتستثيره ذكرى الدم ومناظر القتال ، فيبلغ منه الغضب والحماس حدالوحشية والغلظة القاسية ، حين يصف جثته وقد انطرحت فى ميدان القتال، وطاحت عنها الرأس بين أكداس من الرءوس ، وقد صمت منها الآذان ، وخرس اللسان ، ومزق السيف خيشومها . وهذا هو الحرث بن أبى عوف لعبت به السيوف حتى تركته جزر العقبان والحدأ ، تحوم حول جثته ، وتتنازع لحمه .

وقد نُصِرتَ أميرَ المؤمنين بنا ... لما أتاك ببطنِ الغُوطة الخَبَر

يعرفونك رأسَ ابنِ الحُبابِ وقد ... أضْحَى وللسيفِ فى خَيْشُومِهِ أثر

لا يسمع الصوتَ مستكاً مسامعُه ... وليس ينطقُ حتى ينطقَ الحجر

أمسَتْ إلى جانب الحَشّاكِ جيفتُه ... ورأسُه دونه اليَحْمُوم والصُوَرُ(٢)

يسأله الصُبْرُ من غسانَ إذ حضروا ... والحَزْنُ كيف قَرَاكَ الغِلمةُ الجَشَر(٣)

---

(١) لا لعاً يعنى لا ارتفعوا ، يقال لا لعا لفلان أى لا أقامه الله

(٢) الحشاك واد بأرض الجزيرة بين دجله والفرات كانت فيه وقعة بين قيس وتغلب وفى هذه الواقعة قتل عمير بن الحباب من زعماء قيس . واليحموم موضع بالشام والصور قرية على شاطىء الخابور .

(٣) الصبر والحزن حيان من غسان . الجشر الرعاة الذين يبعدون بإبلهم عن العمران . كان عمير يسخر من بنى تغلب ويقول (إنما هم جشر) والأخطل يسخر به هنا ويقول إنهم قد حملوا رأسه لهؤلاء الأقوام من بنى غسان فسألوه متهكمين : كيف رأيت قرى هؤلاء الغلمان من الرعاة . وإنما قروه الموت .

والحرثُ بن أبى عوفٍ لِمِبْنَ به   حتى تَعاوَرَه العِقبانُ والسُّبرُ[1]

انظر إلى ما يشتمل عليه هذا الهجاء من غضب وحشى ينزع من قلبه كل رحمة ، وإلى ما يخوض فيه من تفصيل تقشعر منه الأبدان ، وإلى هذه الألفاظ القاسية التى يستعملها فى وصف جثته حين يسميها (جيفة) وأنفه حين يسميه (خيشوماً) .

هذه الغلظة القاسية هى طابع الأخطل الذى تتّسم به كل أهاجيه ، وهذه الألفاظ البدوية الخشنة ، بما فيها من ضخامة تصك الأسماع ، هى أنسب الأثواب لهذه الغلظة البالغة . لم يكن الأخطل متهكماً ساخراً كجرير ، ولم يوهب هذا الذكاء الذى يلهم النكتة البارعة ، والصورة التى تستفز للضحك ، فهو غاضب دائماً حين يهجو ، يذهب الغضب بكل ما فى مزاجه من دعابة . وقد تجد فى هجائه كثيراً من الصور القوية ، ولكنها صور كالحة دائماً يغشيها عبوس مظلم واجم . فهو رجل غليظ قاس لا تعرف الرقة إلى قلبه سبيلا . ولم يكن من محض الصدفة والاتفاق أن يخلو ديوان هذا الشاعر الكبير من الرثاء ، فالواقع أن هذا الرجل لم يكن يستطيع الحزن ، ولم تكن مصيبة إنسان مهما عظمت لتحرك قلبه أو تثير عطفه ، بل لقد كانت المناظر المثيرة للحزن ، لا تثير فى نفسه إلا الوحشية الفظة ، والثورة الهائجة .

كان الأخطل ، كما تقدم ، لسان الأمويين الذى يعبر عن ميولهم واتجاههم فى مدائحه وفى أهاجيه على السواء . فهو يثنى على ولاتهم المعروفين بالشدة التى تتجاوز حدود العدالة ، مبرراً مسلكهم ، مؤيداً سياستهم ، وكأنه بذلك يجيب على ما يوجه إليهم من نقد ، وما يرمون به من ظلم واستبداد . فهو يخاطب عبد الملك مؤيداً الحجاج فيما ينتهج من عنف صارم ، يؤدب هؤلاء

---

(١) الحارث بن أبى عوف من رجال بنى عامر بن صعصعة (من قيس عيلان) السبر طائر شبيه بالصقر . تعاورة العقبان والسبر تداولته .

المنافقين من أهل العراق ، الذين عرفوا بميلهم عن الدولة وبغضهم لها . فهو ضابط للخراج ، مظفر فى الحروب ، لا يزال يسوق إلى الخليفة السبايا والغنائم ، ضارب على أيدى العابثين بالقانون من الخوارج :

فعليكَ بالحجاج لا تعدِلْ به ... أحداً إذا نزلَتْ عليك أمور

ولقد علمتَ وأنتَ أعلمُنا به ... أن ابنَ يوسفَ حازمٌ منصور

وأخو الصفاءِ فما تزالُ غنيمةٌ ... منه يجىء بها إليكَ بشير

وترى الرواسمَ يختافِنَ وفوقها ... ورقُ العِراق سبائكٌ وحرير[1]

وبناتُ فارسَ كلَّ يومٍ تُصطَفَى ... يعلونَهنَّ وما لهن مُهُور

... ولقد علمتَ بلاءه فى مَعْشَرٍ ... تغلى شَنَاةُ صدورِهم وتفُورُ

والقومُ زأرُهمُ وأعلى صوتِهم ... تحتَ السيوفِ غماغمٌ وهدير[2]

طلبوا الأزارِقَ بالكتائب إذ هوت

بشبيبَ غائلةُ النفوسِ غدور[3]

يرجو البقيةَ بعدَ ما حدَقت به ... فُرُطُ المنيةِ يَحْصبٌ وحَجُورُ[4]

فأباح جمعَهُمُ حميداً وانثنى ... وله لوَقْعةِ آخرين زئير

---

(١) الرواسم الابل . الورق الفضة . وبنات فارس مالهن مهور لأنهن سبايا .. يعلونهن يعلون الابل .

(٢) الزئير صوت الأسد شبه به أصوات المحاربين . الغمغمة الكلام الخفى . يقول أقصى ما ترتفع به، حناجر المحاربين أن يغمغموا لشدة انشغالهم بالقتال ولجفاف حلوقهم

(٣) الازارقة من فرق الخوارج ومن أشدها تطرفاً . شبيب من زعمائهم كانت له حروب كثيرة مع الحجاج حتى مات غرقاً عند جسر دجيل سنة ٧٧

(٤) يحصب وحجور من قبائل اليمن، الأولى من حمير والأخرى من همدان . فرط المنية ما سبق إليه منها .

ويمدح الأخطل عباد بن زياد وأخاه مسلم بن زياد فينسبهما لأبى سفيان، توكيداً لما فعل معاوية من إلحاق زياد، وإقراراً له فى الأذهان والآذان. وكان الناس لا يكادون يقولون إلا (زياد بن أبيه) أو (زياد بن سمية).
يقول فى مدح عباد:

إليكَ أبا حَرْبٍ تدافَعْن بعد ما وصلن لشمسٍ مَطلعاً بغروب

ثم يكرر ذلك بعد أبيات:

ولولا أبو حَرْبٍ وفضلُ نواله علينا أتانا دهرُنا بخطوب

ويقول فى أخيه مسلم بن زياد:

نفسى فداء أبى حرب غداةَ غدا مخالطُ الجِنِّ أو مستوحشٌ فَرِقُ

وكان أكثر ما عنى الأخطل بتقريره حق الأمويين فى الملك. فهو يؤكد فى كل موضع من شعره أن الله قد اختارهم للخلافة، فهم أصلح الناس لها.
يقول فى عبد الملك:

وقد جعل اللهُ الخلافةَ فيكم لأبيضَ لاعارِى الخِوانِ ولاجَدْب[1]

... أهلُّوا من الشهرِ الحرَامِ فأصبحوا موالىَ مُلْكٍ لا طريفٍ ولا غصب

ولم تر عَيْنِى مثلَ يومٍ رأيتُه أتاك بلا طعنِ الرماحِ ولا الضرب

ولكن رآكَ اللهُ موضعَ حقِّه على رغم أعداءٍ وصَدَّادةٍ كُذْب

ويقول فى مدح بشر بن مروان:

أنتم خيارُ قريشٍ عند نسبتهم وأهلُ بطحائِها الأثرون والفرَع

أعطاكم اللهُ ما أنتم أحقُّ به إذ الملوكُ على أمثاله اقترعوا

(١) هذا البيت من سقطات الأخطل التى لامه فيها قدماء النقاد فقالوا (لو مدح بهذا البيت حرسيا لعبد الملك ما أنصفه) فقليل جداً على الخليفة أن يوصف خوانه بأنه ليس عاريا ولا جدبا.

وهو يؤكد فضلهم على الناس ، بمالهم من حسب عريق فى الجاهلية ،
وبخلافة عثمان فى الإسلام . فلكهم ثابت بحسبهم وقديم فضلهم (ليس
بطريف ولا غصب) وليس أعداؤهم من بنى الزبير وأنصارهم القيسية إلا
خرابا وقطاع طرق ، عاقبهم الله على بغيهم بيد الأمويين .

فالله لم يَرْضَ عن آل الزبير ولا عن قيس عيلان حيًّا طالما خَرَبُوا[1]
يُعاظِمون أبا العاصى وهم نَفَرٌ فى هامةٍ من قريشٍ دونها شَذَب[2]
بيضٌ مصاليتُ أبناء الملوك فلن يُدرِك ما قدَّموا عُجمٌ ولا عَرَب
كانوا موالِيَ حقٍّ يَطلُبون به فأدركوه وما مَلُّوا ولا لغَبُوا
إن يك للحقِ أسبابٌ يمَدُّ بها ففى أكفهمُ الأرسانُ والسبَبُ
همُ سعوا بابن عفانِ الامامِ وهمْ بعدَ الشِّماسِ مرَوْها ثمت احتلبوا[3]
حرباً أصاب بنى العوّامِ جانبَها بعداً لمن أكلته النار والحطب
حتى تناهَتْ إلى مصرٍ جماجمُهم تعدو بها البُرْدُ منصوباً بها الخشب[4]

وهو يؤكد هذا المعنى فى مواضع أخر حين يقول من قصيدة يمدح بها
عبد الله بن معاوية :

قوم إذا بسَطَ الإلهُ ربيعهم دارَتْ رحاهُ بمُسْبِلٍ درّار
وإذا أُرِيدَ بهم عقوبة فاجرٍ مطرت صواعقُهم عليه بنارِ

(١) الخارب السارق وقاطع الطريق .
(٢) الشذب : الشوك .
(٣) سعوا بابن عفان أى سعوا لادراك ثأره مروها ثمت احتلبوا . شبه الحرب بناقة صعبة الخلق تمتنع على الحالب فى أول الأمر والمرى مسح الضرع ليدر . يشبه تذليلهم لصعاب الحرب بالحالب الصناع الذى يمسح ضرع الناقة النافرة حتى تلين له وتسمح باللبن .
(٤) لما قتل مصعب بن الزبير بعث عبد الملك برأسه إلى أخيه عبد العزيز بن مروان بمصر . البرد بجفف برد بضمتين جمع بريد .

ثم يقول :

لمـــا تبُوحِثت الضغائن بينهم	أفضىَ وسار بجحفلٍ جرّار
وأهلّ إذ غنِظَ العدوُّ بفياق	تحت الأشاءِ عريضة الآثار(١)
حتى رأوه بجنب مَسْكَنَ مُعْلماً	والخيلُ جاذيةٌ على الأقتار(٢)
ولقد تناوَلت العقُورَ بضربةٍ	وبنى أبى بكر ذوى الأصهار(٣)
ورجالُ عبد القيس تحت نُحورِها	كانوا لها جَزَراً من الأجزار
وعلى خزاعةَ والسَّكونِ تعطفَتْ	وأصابهم ظُفُرٌ من الأظفار(٤)
والخيلُ تمشُقُ عنهمُ أسلابهم	فى كل معتَرَكٍ وكلٌّ مغَارِ(٥)
حتى إذا علم الالهُ نكاله	وتصاغرُوا للحرب أىَّ صَغار
حقن الدماء ورَدَّ ألفتَهم لهم	وجزاهُمُ بالعُرف والإنكار

ويقول فى مدح بشر بن مروان :

إمامٌ يقود الخيلَ حتى كأنها	صُدورُ القَنَا معوجُّها وقويمها
إلى الحرب حتى تخضعَ الحربُ بعدما	تخمَّطَ مَرْحاها وتحمى قرومُها(٦)
بكم أدرك اللهُ البرية بعد ما	سعى لصُّها فيها وهَبَّ غشومها

(١) غنظه وفدحه وبهظه كل ذلك بمعنى واحد أى غمه وآذاه وأجهده الأشاء النخل شبه القنا بها .

(٢) الجاذى الثابت القائم . الأقتار أطراف الحوافر . مسكن موضع على نهر دجيل قريب من دير الجاثليق كانت به وقعة بين عبد الملك ومصعب .

(٣) العقور قبائل من تغلب وبنو أبى بكر هم أبو بكر بن كلاب .

(٤) عبد القيس قبائل من ربيعة وخزاعة والسكون من قبائل اليمن . خزاعة من الأزد والسكون من كندة .

(٥) مشق ثوبه شقه ومزقه . المغار من الاغارة .

(٦) تخمط اهتاج كما يتخمط الفحل وهو هديره وعقده عنقه وضربه بذنبه . مرحاها من المرح والنشاط . مرحى جمع مرح .

وفكرة الأخطل هنا بسيطة قريبة فالقوى الغالب هو صاحب الحق دائما ، لأن الله لا ينصر الظالمين ، ولا يعين المفسدين . وليست الحروب إلا محنة واختبارا ، يظهر الله خلالها صاحب الحق ، ويعاقب الظالمين بيديه . وهو بهذا متأثر بالفكرة الجاهلية التي قررناها ، من أن القوة وحدها هي الفضيلة ، وأن كل ما نالته يد القوى فهو حق له . وقد كان الأمويون أنفسهم يحبون أن يمدحوا على هذا النحو الذي يصورهم أقوياء ، ولم يكونوا يرون بأساً في أن يقول عنهم الشعراء إنهم أخذوا الملك بالسيف . وكان الشعراء يجرون في ذلك على مايحب الأمويون حتى جاء الأخطل فاستحدث فكرة هذا الحق الإلهي ، ولكنه ألبسها ثوبا جاهلياً . روى صاحب الأغاني أن عبدالملك أنشد قول كثير فيه :

فما تركوها عَنوةً عن مودةٍ ولكن بِحَدِّ المشرفيِّ استقلها

فأعجب به . فقال له الأخطل — ماقلته لك والله يا أمير المؤمنين أحسن منه . قال — وما قلت ؟ قال قلت :

أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا مَوَالِي مُلْكٍ لاطريفٍ ولاغصب

جعلته لك حقاوجعلك أخذته غصبا . قال : صدقت .

والواقع أن الأخطل كان بدويا يعيش على هذه المثل الجاهلية ولا يرى غيرها ، نجد ذلك واضحا في حياته وتفكيره وفي فنه على السواء . فهو رجل لا يؤمن إلا بالقوة . وقارىء شعره في الفخر لا يراه إلا جاهليا ممعنا في الجاهلية . يقول :

نصبنا لكم رأساً فلم تكاموا به ونحن ضربنا رأسَكم فتصدّعا
ونحن قسمنا الأرض نصفين : نصفُها لنا ونُرامى أن تكون لنا معا
بتسعين ألفاً تأله العينُ وسطه متى تره عينا الطُرامةِ تدمعا
إذا ماأكلْنا الأرضَ رعياًتطلّعت بنا الخيلُ حتى تستبيحَ المُمَنَّعا

وهو لا يرى فى الجود فضيلة الإيثار والعطف على البائس المحروم ، ولكنه يراه مظهرا من مظاهر القوة ، لأن الكريم يجود مما اجتمع له من السبي والمغانم بقوته :

إليك أمير المؤمنين رحلتها ... على الطائر الميمون والمنزل الرحْب

إلى مؤمن تجلوا صحيفةُ وجهه ... بلابل تغشى من هموم ومن كرْب

مناخُ ذوى الحاجاتِ يستمطرونه ... عطاء كريم من أسارى ومن نهْبِ [1]

ترى الحَلَقَ الماذِىَّ تجرى فضُولهُ ... على مستخفٍ بالنوائبِ والحرب [2]

وهو يذهب فى اللذة مذهب الجاهليين ، الذين يرون الهجوم عليها واغتصابها أليق بالفتى والجرىء الفاتك :

بانَ الشبابُ وربما علَّلتُه ... بالغانيات وبالشرابِ الأصهَب

ولقد شربت الخمر فى حانوتِها ... ولعبتُ بالقَيْنات كلَّ الملْعب

ولقد أُوكِّلُ بالمدجَّج تُتقى ... بالسيفِ عُرَّتُه كعرَّة أجرب [3]

ويقول :

ألا يا أسلَمِى يا أمَّ بِشْرٍ على الهجر ... وعن عهدِكِ الماضى له قِدَمُ الدهر

ليالى نلهو بالشباب الذى خلا ... بمُرتجَّةِ الأردافِ طيِّبَة النَّشْرِ

ويقول — وهو يشبه النساء هنا بالوحش النافر —

ولقد أصِيدُ الوَحْشَ فى أوطانها ... فيذلُّ بعدَ شِماسِهِ اليَعْفور [4]

---

(١) النهب الغنيمة أى أنه يعطى مما يغنم فى الحروب .

(٢) الحلق يعنى به حلق الدروع . الماذى ما خلص من الحديد . فضوله ما فضل منه وزاد . أى أن الدرع سابغة تغطى سائر الجسد .

(٣) المدجج الداخل فى السلاح . عرته شرته وأصل العرة الجرب أو قرحته .

(٤) الشماس الاباء والامتناع . اليعفور الظبي .

ومما يصور حبه للبادية، وكرهه للمدن وما فيها، قوله فى مقدمة قصيدة يمدح بها بشر بن مروان :

سقى اللهُ منه دارَ سلمى بريَّةٍ على أن سلمى ليس يُشفى سقيمُها
من العربيات البَوادِى ولم تكن تلوِّحُها حُمَّى دمشقٍ وموُمها (١)

وفن الأخطل بعد ذلك مرآة صادقة لهذه البداوة فى صوره وتشبيهاته وفى أسلوبه وألفاظه . فهو يشبه النساء، بإبل قد أوعثها السير فى أرض سهلة، تغيب أقدامها فى رمالها

يمشين مَشْىَ الجمالِ الأُدْمِ يُوعِثها أعرافُ داكداكةٍ مُنْهالةِ الكُثب (٢)

ويشبه مشيهن فى موضع آخر، بمشى الإبل البيض، يهدر الفحل وراءهن فيتبخترن .

يمشين مَشْىَ الهِجانِ الأُدْمِ روَّحها عندالأصيلِ هديرُ المُصْعب القطِمِ (٣)

ويشبه دنان الخمر بإبل جربى قد طليت قطرانا :

ولقد تباكرنى على لذاتها صهباءُ عارية القذى خُرطوم (٤)
من عاتقٍ حدِبَتْ عليه دنانه وكأنها جَرْبى بهنّ عَصيم (٥)

ويشبه هدير الخمر فى الدنان بهدير الجمال :

عز الشرابُ فأقبلَتْ مشروبةً هدر الدنانُ بها هديرَ الأُخل

(١) لوحتة النار والسموم غيرته وسفعت وجهه . الموم مرض الجدرى .

(٢) الهجان الابل الكرام يوعثها يجعلها تمشى فى الوعث وهو المكان السهل تغيب فيه الأقدام . أعراف الرمل والجبل ظهره وأعاليه . الدكداك » اللين من الأرض والكثب جمع كثيب وهو التل من الرمل سمى بذلك لأنه انكثب أى اجتمع فى مكان واحد

(٣) الادم من الابل البيض . المصعب الفحل الصعب . القطم الهائج شبه مشيهن بذلك لأن الجمل إذا هدر عليهن تبخترن .

(٤) الصهباء الخمر وذلك للونها والصهبة حمرة فى سواد . عارية القذى لا قذى فيها . الخرطوم ما سال قبل أن يعصر وهو أجود .

(٥) العاتق الخالص اللون ، العصيم القطران الدن وعاء كبير من فخار تخزن فيه الخمر ويطلى بالقطران لتسد مسامه .

ويشبه القلال الصغار بجانب الدن الكبير ، بصغار الإبل حول الفحل ، تتمسح به وتشمه بين رجليه .

وترى القِلالَ بجانبيه كأنها قُلُصٌ يسفْن فُروجَ قَرمٍ مرْسَلِ[1]

ويشبه نفسه حين يشرب الخمر صرفا فهى قوية شديدة ، بناقة لبسوا لها جلد حوار ، فهى إذا نظرته من بعيد حسبته ابنها ، فاذا دنت منه فشمته أنكرته

كأنى كررْتُ الكأس ساعة كرِّها على ناشِصٍ شمَّت حوارا ملبَّساً[2]

ويشبه رجلا من بكر اسمه الحراق ، فى غيظه وشدة غضبه ، بالفحل الذى حبس عن ضراب الإبل فهو يحرق نابه ويهدر لاوياً رأسه .

وظل الحراقُ وهو يحرُق نابه بما قد رأى من قوةٍ وعتادا[3]

هديرَ المُعَنَّى ألقحَ الشوْلَ غيرُه فظل يلوِّى رأسَه بقَتادِ[4]

ويشبه القيسية ، فيما ذاقوا من نكال الحرب بالذى حمل على ناقة عجوز ، قد تساقط عنها وبرها وبرزت عظامها :

صُكُّوا على شارفٍ صعبٍ مراكبها حصَّاء ليس لها هُلْبٌ ولا وبر[5]

---

(١) القلال آنية الفخار الصغيرة قلص جمع قلوص وهى صغار الابل . القرم الفحل وهو خطأ من الشاعر لأن القلص إنما تتمسح بالأنثى ولا تتمسح بالفحل .

(٢) الناشص الناقة التى يؤخذ فصيلها فتمنع اللبن ولا تسمح به ، فيحشون لها جلده بالتبن أو القطن ويوضع بجانبها لتسمح باللبن ، فاذا شمته بأنفها عرفت أنه ليس ابنها . والشاعر هنا يشبه نفسه حين يشرب الخمر صرفا فيقطب جبينه للذعها وشدة حرارتها بهذه الناقة حين تشم جلد الحوار المحشو فتلوى رأسها نافرة .

(٣) حرق نابه من باب نصر وضرب سحقه حتى يسمع له صريف .

(٤) الشول جمع شائل وهى الناقة التى تشول بذنبها أى ترفعه طلباً للقاح . المعنى على البناء للمفعول المتعب المكدود .

(٥) صكوا على شارف أى حملوا على خطة صعبة ، شبهها بالناقة الشارف وهى الكبيرة المسنة . الحصاء التى لا وبر لها . الهلب شعر الذنب .

ويشبه الحقد بالجرب الذى يزول عن ظاهر الجلد ولكنه يكمن تحته وينتشر بعد حين

إن الضغينةَ تلقاها وإن قدمَتْ   كالعَرِّ يكمِنُ حيناً ثم ينتشر

فلو أن جملا نطق فقال شعراً ما اجتمع له من التشبيهات والصور أكثر مما اجتمع للأخطل فى شعره من ذكر الإبل.

والأخطل بعد هذا يتخذ مثله الفنية من فحول الجاهلين ؛ فينشىء بعض قصائده على نهجهم مثل قصيدته .

بانت سعادُ ففى العينين مُلْمُول   من حبها وصحيحُ الجسم مخبول[1]

فهو يعارض بها قصيدة كعب بن زهير المشهورة فى مدح النبي ، ويتأثر فيها ببعض ألفاظ الأعشى فى مطولته (ودع هريرة) يقول فيها

غراء فرعاء مصقولٌ عوارضُها   كأنها أحورُ العينين مكحول

وهو مأخوذ من بيت الأعشى :

غرّاء فرعاء مصقولٌ عوارضُها   تمشى الهُوَيْنَى كما يمشى الوَجِي الوَحِل[2]

وهو فى قصيدته .

ألم تعرض فتسأل آل لهو   وأروى والمُدِلَّة والرَّبابا

متأثر بقصيدة الأعشى

عرفتَ اليومَ من تيَّا مَقَاما   بجوٍّ أو عرفتَ لها خِياما

---

(١) الملمول بضم الميم المكحال الذى يكتحل به . أراد أنه مكتحل بالسهر .

(٢) غراء بيضاء ، فرعاء طويلة الفرع وهو الشعر العوارض الأسنان . الوجى الذى يشتكى حافره فيكون مشيه متثاقلا الوحل الذى يمشى فى الوحل ، وهو تشبيه خشن لأنه يشبه صاحبته المتمهلة فى سيرها بدابة تشكو حافرها وتمشى فى الوحل .

فى مثل قوله :

وقد قالَتْ مُدِلَّةُ إنْ قلَتْنى ... أراكَ كبِرتَ والصدغين شابا

فإن يك رَيِّقى قد بان منّى ... فقد أُروِى به الرُّسَلَ اللهابا

فهو مأخوذ من قول الأعشى :

وقد قالت قتيلةُ إذ رأتنى ... وقد لا تَعدَمُ الحسناء ذاما

أراكَ كبرتَ واستحدثتَ خُلْقا ... وودعتَ الكواعبَ والمداما

فإنْ تك لِمَّتى يا قتْلُ أضحت ... كأنّ على مَفَارِقها ثَغَاما

وأقصَرَ باطلى وصحوتُ حتى ... كأن لم أجْرِ فى دَدَنٍ غلاما[1]

فإن دوائرَ الأيامِ يُفْنِى ... تتابعُ وقعِها الذَّكَرَ الحساما

وهو يعتمد كذلك فى قصيدة (عفا واسط) على كثير من صور الأعشى . ثم هو بعد ذلك يكثر من وصف الناقة والصحراء فى مدائحه ، ويسلك فى ذلك مسلك الجاهليين ، الذين يشبهونها بحمار الوحش أو الثور ، وينصرفون عن الناقة إلى هذا الثور أو ذاك الحمار ، ليصوروا نشاطه فى الصحراء ، وما يلقى من عنت الصائد ، وقسوة الريح والمطر . وينتهون آخر الأمر إلى القول بأن ناقتهم تشبه هذا الموصوف ، فى نشاطها وقدرتها على تخطى العقبات ، وفيما نالها من إعياء بسبب الرحلة إلى الممدوح. هذه الصورة تتكرر فى الشعر الجاهلى ، ويتداولها الشعراء على نحو متشابه ، بتفاصيلها وأجزائها ، ليس فيها تحوير أو تغيير . وكذلك هى فى شعر الأخطل بأجزائها ودقائقها .

وتأثره بالأعشى فى الخمر خاصة مشهور لا يحتاج إلى التنبيه عليه . ويكفى أن أقدم له مثلين أو ثلاثة :

---

(١) الددن اللهو واللعب . أقصر باطلى ارعويت عن عبث الشباب حين كبرت .

الأعشى : تحسِبُ الزِّقَّ لديها مُسْنَداً حبشياً نام عمْداً فانبطح

الأخطل أناخوا فجروا شاصيات كأنها رجالٌ من السودان لم يتسربلوا[1]

الأعشى مِن خمر عانة قد أتى لختامها حولٌ تسلُّ غمامةَ المزكوم

الأخطل و إذا تعاورت الأكُفُّ زجاجَها نفحَتْ فشم رياحَها المزكوم[2]

الأعشى لا يستفيقون منها وهى راهنةٌ إلا بهاتِ و إن علّوا و إن نهلُوا

الأخطل فما لبثتْنَا نشوةٌ لحقَتْ بنا توابعُها مما نُعَلُّ وتُنْهَلُ[3]

* * *

لم يدم للأخطل هذا النفوذ فى بلاط الأمويين. فقد كثرت حوله الوشايات فى أواخر أيام عبد الملك ، وأخذ النصارى يفقدون ماكانوا يستمتعون به من حرية ، فتزعزعت منزلته ، وتقلص سلطانه ، حتى أصبح يلجأ إلى الوليد ولى العهد ، يطلب إليه التوسط فيما ناب بقومه من غرامات ثقيلة . وضرائب فادحة لا يطيقونها :

وحاجِلةِ العيون طوى قُواها شهابُ الصيفِ والسفرُ الشديد[4]

طلبن ابن الإمام فتى قريش بحِمْصَ وحمصُ غائرةٌ بعيد

---

(١) الزق جلد (قربة) يحفظ فيه الماء والخمر يتخذ فى الأسفار خاصة يشبه الأعشى الزق فى اسوداده برجل حبشى قد رقد على الأرض عاريا . ويشبهه الأخطل برجل عار من السودان الشاصية هى الزق

(٢) تسل غمامة المزكوم وشم رياحها المزكوم هو تصوير لقوة رائحة الخمر التى تقتحم أنف المزكوم لأن حاسة الشم تكون عنده ضعيفة .

(٣) يقول الأعشى إنهم يوالون الشرب ولا يتوقفون عنه إلا ريثما يقول أحدهم للساقى « هات ! » ويقول الأخطل إن نشوة الكأس السابق لا تلبث أن تسلمهم إلى اللاحق لكثرة ما يشربون المرة بعد المرة . العلل الشربة الثانيــة والنهل الشربة الأولى .

(٤) حاجلة العيون غائرتها .

عدك إلى الرياء لحولُ صدقٍ وَجَدٌّ قَصَّرتْ عنه الجدود[1]

وزندُك من زناد واريات إذا لم يُحمَد الزندُ الصَّلُود

وإنّا معشرٌ نابَتْ علينا غراماتٌ ومضلِمَةٌ كَؤود

وعضُّ الدهرِ والأيامِ حتى تغيَّر بعدَك الشَّعَر الجديد

بدأ نجم عدى بن الرقاع فى الصعود، حتى أصبح الشاعر المقدم عند الوليد بن عبد الملك. وانكمش الأخطل على خوف ووجل، مهدداً لا يطمع إلا فى السلامة والعافية، لا يكاد يقدم على الخليفة، إلا فى هذه المواسم التى يجتمع فيها الشعراء لمدحه كل عام، يؤكد ولاءه للأمويين، ويعدد سابق نضالهم عليه، معتذراً عن بعده بما يخاف من وشاية الواشين، التى كادت — لولا فضل الوليد — تودى به، وتورده موارد الهلكة.

بنى أمية قد أجْدَتْ فواضلُكم منكم جيادى ومنكم قبلَها نَعَمى

فهى إذا ذِكرَتْ عندى وإن قدُمَت يوماً كخط كتابِ الكفِّ بالعلم

فإن حلفتُ لقد أصبحتُ شاكرَها لا أحلفُ اليومَ من هاتا على أَثِم[2]

لولا بلاؤكم فى غير واحدةٍ إذاً لقمتُ مقامَ الخائف الرَّزِم[3]

أسمعتكم يوم أدْعُو فى مُوَدَّأةٍ لولاكم شاع لحمى عندها ودمى[4]

لولا تناوُلكم أياى ما علِقَتْ كفى بأرجائها القصوى ولا قدمى

وقد علمتم وإن أصبحتُ نائيَكم نصحى قديماً وفعلى غيرَ متَّهَم

(١) الرياء يقصد به هذا فعل الخير نماه نصه ورفعه فحول صدق يقصد بهم أجداده.

(٢) الأثم مثل طرب وفرح الكاذب. يقول لا أحلف كاذباً

(٣) الرزم المنقطع الذليل قبيل الرهط.

(٤) المودأة كعظمة المهلكة والمفازة وحفرة الميت.

لقد خشيتُ وُشاةَ الناس عندكم ولا صحيحَ على الأعداء والكلم

ويقول من قصيدة أخرى يمدح فيها الوليد

وقد علمَتْ أميةُ أن ضِغْنِى إليها والعُداةُ لها هرير

وأنى ما حييتُ على هواها وأنى بالمغيبِ لها نَصُور

وما يبقى على الأيامِ إلا بناتُ الدهرِ والكَلِمُ العَقُور[1]

فمَنْ يك قاطعاً تَرَناً فإنى لفضلِ بنى أبى العاص شَكُور

ثم يقول

ومظلِمةٍ تضيق بها ذراعى ويتركنى بها الحَدِب النصور

كفَوْنيها ولم يَتَواكَلُونى بخُلْقٍ لا ألَفَّ ولا عثُور[2]

ولولا أنتم كَرِهَتْ مَعَدٌّ عِضَاضى حين لاح بى القَتير[3]

ولكنى أهاب وأرتجيكم ويأتينى عن الأسد الزئير

ويقول من قصيدة أخرى يشير فيها إلى إنقاذ الوليد إياه من هذه المحنة التى كادت تودى بحياته .

إن الوليد أمينَ الله أنقذنى وكان حصناً إلى مَنْجاته هربى

إتيتهُ وهمومى غيرُ نائمةٍ أخا الحِذَارِ طويدَ القتلِ والهرب

---

(١) الكلم العقور يعنى شعر الهجاء الذى يجرح المهجو بنات الدهر مصائبه .

(٢) الألف الضيق الخلق العى بالامور . العثور الكثير السقوط .

(٣) القتير الشيب ، وأصله رءوس مسامير الدرع .

فآمَنَ النفسَ ما تخشى ومَوّلها   قُدْمُ المَواهبِ أنوائه الرُغب[1]

وثبّتَ الوَطْء منى عند مُضْلِعَةٍ   حتى تخطّيتُها مسترخياً لببى[2]

وبمثل هذه النهاية المحزنة ، تطوى حياة هذا الشاعر الكبير ، الذى أفنى عمره ، وبذل شعره ، فى تثبيت ملك الأمويين ، والدفاع عن سياستهم ، وهجاء أعدائهم ، لحلق فى سماء الشهرة حتى بلغ أقصى ما يطمع فيه شاعر من نفوذ ، ثم هبط من حالق ، فات مجفوا خاملا ، يشكو متذللا ، بعد أن كان يهدر بالفخر مزهواً فى السنوات الأولى من ملك الوليد .

---

(١) القدم الكثرة يقال قدم له وقتم له إذا أعطاه وأكثر النوء المطر استعاره للعطاء يقال طلب نوءه أى عطاءه . الرغب الكثيرة الواسعة .

(٢) اللبب ما يشد فى صدر الدابة أو الناقة يكون للرحل والسرج يمنعها من التأخر مسترخياً لببى يقصد به ثابتاً جنانى مطمئناً .

الهجـــاء الشخصى

هذا الفن الذى عرفناه ضئيلا قليل الخطر فى العصر الجاهلى ، قد نضج وتقدم فى القرن الأول ، حتى أصبح من أظهر فنون الشعر وأجلها خطراً . وكان العراق بنوع خاص موطناً لهذا الفن ، فلا نكاد نعرف شاعراً من شعرائه لم يأخذ منه بنصيب . وما أكثر ما يجد قارىء الأغانى هذه العبارة فى تراجم شعراء العراق فى هذا القرن (وكان هجاء خبيث اللسان) يقول فى عيينة بن مرداس الملقب بابن فسوة : هجاء خبيث اللسان بذىء ، كان فاحشاً كثير الشر وكان لا يزال يأتى أمراء البصرة فيمدحهم فيعطونه ويخافون لسانه[1]. ويقول فى الوليد بن حنيفة الملقب بابن حزابة : شاعر بدوى حضر وسكن البصرة ، وكان شاعراً راجزا فصيحا خبيث اللسان هجاء[2] ويقول فى عبدالله بن الزبير الأسدى : شاعر كوفى المنشأ والمولد وهو أحد الهجائين للناس المرهوب شرهم[3] . ويقول فى الحكم بن عبدل : شاعر مجيد مقدم فى طبقته هجاء خبيث اللسان ، ومنزله ومنشأه الكوفة[4]. وأمثال هؤلاء الشعراء كثير لا نحب أن نطيل باستقصائهم وتتبعهم .

وكان الأشراف والوجهاء أكثر الناس تعرضا لشر الشعراء ، الذين اصطنعوا أسلوب الحطيئة فى التكسب بالهجاء . فقد وجدوا أن أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على الرهبة ، ولا يبالون الشاعر وإن كان مجيداً إذا لم يخافوا شره . ووجدوا أن الذين يتقونهم على عرضهم ، أكثر من الذين يرغبون إليهم فى تشريفهم بمدحهم . فهم إذا هجوا رجلا ففضحوه ، خاف غيره مثل فعلهم به ، فاتقاهم بالمال والعطاء . وهذا هو المهلب ، يعنف إبنه حين تعرض

(١) الأغانى ١٩ ١٤٣ (٢) الأغانى ١٩ ١٥٢
(٣) الأغانى ١٣ ٣٣ (٤) الأغانى ٢ ٤٠٤

لبعض هؤلاء الهجائين خوفا من شره أكل المغيرة بن حبناء يوما مع المفضل بن المهلب فعرض بآفته ـ وكان المغيره أبرص ـ فقام مغضبا. وبلغ المهلب ماجرى فشتم ابنه وقال : أردت أن يتمضغ هذا أعراضنا ؟ ماحملك على أن أسمعته ما كره بعد مؤاكلتك إياه ؟ أما إن كنت تعافه فاجتنبه. ثم بعث إليه بعشرة آلاف درهم واستصفحه عن ابنه[1]. وتعرض حبيب بن المهلب لزياد الأعجم وقد شرب فعربد عليه ، وأمر بشق قباء ديباج كان عليه . فقال زياد

لعمرك ما الديباج خرّقتَ وحده ولكنما خرقت جلد المهلب

فبعث المهلب إلى ابنه حبيب فأحضره وقال له : صدق زياد . ماخرقت إلا جلدى ، تبعث على هذا يهجونى . ثم بعث إليه فأحضره واستل سخيمته من صدره ، وأمر له بمال وصدقة[2]. وبلغ من خوف الناس من شر هؤلاء الهجائين ، أن الحكم بن عبدل كان يكتب على عصاه ، ويبعث بها إلى الولاة والحكام ، فلا يرد طلبه ، حتى قال فيه يحيى بن نوفل .

عصى حكم فى الدار أول داخل ونحن على الأبواب نقصى ونحجب

وكانت عصى موسى لفرعون آية وهذى لعمر الله أدهى وأعجب

تطاع فلا تعصى ويحذر سخطها ويرغب فى المرضاه منها ويرهب

وقدم الفرزدق المدينة وعليها عمر بن عبد العزيز . فقيل لعمر : إن الفرزدق قد قدم فيسأل الرجل ، فإن لم يرضه هجاه ، وإن أرضاه جهد نفسه، وقومك والأنصار مجهودون يتجملون . فبعث إليه من العقيق فأتاه ـ وكان به نازلا ـ فأعطاه ألف درهم ، وقال إنك قدمت على قريش وقد جهدت ، فلا تسألن أحداً[3].

ومن بين هؤلاء الهجائيين المحترفين ، طبقة عرفت بالتهتك والمجون وحضور النكتة ، مثل الحكم بن عبدل والأقيشر . وكانت هذه الجماعة أكثر

(١) الأغانى ١١ ١٦٦ (٢) الأغانى ١٤ ١٠٣

(٣) ديوان الفرزدق ٣٦٠

الهجائيين رهبة فى صدور الناس ، لأنهم لا يتورعون عن شىء ، ولا يبالون ما يقولون . فهم يخوضون فى أفحش السباب وأكثره بذاءة ، مفصلين فى ذلك أقذع تفصيل وأقذره . وهجاؤهم مع ذلك أشبه بالنادرة الطريفة ، التى تصادف من النفس ارتياحاً وتشوفاً لسماعها ، وتعلقاً بحفظها وراويتها فى الأسمار . ثم هو يتميز بسهولة الألفاظ ، وخفة الأوزان ، التى تبين على ذيوعه وانتشاره . ومن هنا كانت خطورته ، وشدة خوف الناس منه أتى الحكم ابن عبدل الأسدى محمد بن حسان بن سعد التميمى ـ وكان على خراج الكوفة ـ فكلمه فى رجل من العرب أن يضع عنه ثلاثين درهماً من خراجه، فقال أما نى الله إن كنت أقدر أن أضع من خراج أمير المؤمنين شيئاً فانصرف عنه وهجاه بقصيدة طويلة بدأها بقوله :

رأيتُ محمداً شرهاً ظلوماً وكنت أراه ذا ورع وقصد

يقول أماتنى ربى خداعاً أمات الله حسان بن سعد

ولم يزل ابن عبدل يطيل فيها ويضيف إليها حتى مات . واشتهرت أبياتها وذاعت بين الناس ، حتى إن كان المكارى ليسوق بغله أو حماره فيقول : عد . أمات الله حسان بن سعد . فاذا سمع ذلك أبوه قال : بل أمات الله ابنى محمداً، فهو عرضنى لهذا البلاء فى ثلاثين درهماً[١] .

ومما يصور روح الفحش الغالبة على شعرهم ، هذه الأبيات التى هجا بها الأقيشر امرأة من العباديين محتالة اسمها أم حنين . فقد قصد يوماً إلى بيت الخمار الذى كان يأتيه فلم يصادفه ، فجعل ينتظره . فزعمت له امرأة من العباديين اسمها أم حنين أنها زوج الخمار ، فأخذت منه درهمين فهربت بهما فراح يهجوها أفحش هجا وأقذره . وكان مما قال فيها :

عاهدَتْ زوجَها وقد قال إنى سوف أغدو لحاجتى ولدَيْنى

---

(١) الأغانى ٢ ٤١٣

فدعت كالحصان أبيض جَلْداً   وافر الأير مرسَلَ الخصيتين
قال ما أجرُ ذا هُدِيتِ فقالت   سوف أعطيك أجره مرتين
فابدأ الآن بالسفاح فلما   سافحتْه أرضتْه بالأخريين
تلّها للجبين ثم امتطاها   عالمٌ الأير أفحجُ الحالبين
بينما ذاك منهما وهي تحوِى   ظهرَه بالبنان والمعصمين
جاءها زوجها وقد شام فيها   ذا انتصابٍ موثَّقَ الأخدعين
فتأسّى وقال ويلٌ طويل   لحنين من عار أم حُنَيْن

فجاء حنين الخمار فقال : يا هذا ما أردت بهجائى وهجاء أمى ؟ قال : أخذت منى درهمين ولم نعطنى شيئاً . قال ـ والله ما تعرفك أمى ولا أخذت منك شيئاً قط ـ فانظر أمى فإن كانت هى صاحبتك غرمت لك الدرهمين . قال : لا والله ما أعرف غير أم حنين. ما قالت لى إلى ذلك . ولا أهجو إلا أم حنين وابنها . فإن كانت أمك فإياها أعنى . وإن كانت أم حنين أخرى فإياها أعنى . قال : إذاً لا يفرق الناس بينهما . قال : فما علىَّ إذا ؟ أترى درهمىّ يضيعان ؟ فقال له : هلم إذا أغرمهما لك وأقم ماتحتاج إليه ، ولا بارك الله لك [١] .

هذا الفحش الذى يمنع اليوم من إذاعة مثل هذا الشعر وتداوله ، هو نفسه الذى كان يدعو فى تلك الأيام إلى ذيوعه وتناقله ، فقد كان ملائماً لأذواق ذلك العهد الخشنة الفظة ، وكان على ما فيه من تفصيل قذر ، غاية فى البراعة وقوة التصوير . ولولا أن ما اشتمل عليه من الفحش لا يحتمل التفصيل والتحليل ، لعرضنا لبعض نواحيه .

ومما يصور الدعابة الغالبة على مجانهم ، هذه الأبيات التى يقولها ابن عبدل فى امرأة من همدان تزوجها ثم كره صحبتها . وهى شبيهة بأبيات الأقيشر

(١) الأغانى ١١ : ٢٦١

السابقة فى أم حنين . فكلاهما يذهب فى هجائه مذهب القصة ، ويسوقه فى صورة حوار .

أعاذلَتَىَّ من لومٍ دعانى	أقلا اللوم أن لم تعذرانى
فإنى قد دُلِلتُ على عجوز	مبرقعة مخضبة البنان
تغضَّنَ جلدُها واخضر إلا	إذا ما ضُرِّجت بالزعفران
فلما أن دخلت وحادثتنى	أظلتنى بيومٍ أرنوان[٢]
تحدثنى عن الأزمان حتى	سمعتُ نداء حُرٍّ بالأذان
فقالت قد نكحتُ اثنين شتى	فلما صاحبانى طلّقانى
وأربعةً نكحتهم فماتوا	فليت عريف حَىٍّ قد نعانى
وقالت ما تِلادُك قلت مالى	حمارٌ خالعٌ ومزَادتان
وبورىٌّ وأربعة زُيوفٌ	وثوبا مفلسٍ متخرقان[١]
وقطعةُ جُلَّةٍ[٢] لا تمر فيها	ودَنَّا عومة متقابلان
فقالت قد رضيتُ فَسَمِّ ألفاً	ليسمعَ ما تقولُ الشاهدان
ومالكِ عندنا ألفٌ عتيد	ولا تسعٌ تُعَدُّ ولا ثمان
ولا سبعٌ ولا ستٌ ولكن	لكم عندى الطويلُ من الهوان

وقد كانت دعابتهم هذه من أثقل الأشياء على الولاة والأشراف ، وأكثرها إزعاجاً لهم. ولى الشرطة رجل أعرج ، ثم ولى الإمارة آخر أعرج وخرج ابن عبدل — وكان أعرج — فلقى سائلا أعرج ، وقد تعرض للأمير يسأله . فقال :

---

(١) البورى الحصير المنسوج من القصب . أربعة زيوف يقصد أربعة دراهم زائفة

(٢) الجلة القفة الكبيرة تتخذ للتمر

ألقِ العصا ودع التخامُع والتمس عملاً فهذى دولة العرجان
لأميرنا وأمير شرطتنا معاً ياقومنا لكليهما رِجْلان
فإذا يكون أميرنا ووزيرنا وأنا فإن الرابع الشيطان

فبعث إليه الأمير بمائتى درهم وسأله أن يكف عنه .

وقد نشأ على يد هذه الطائفة من مجان الهجائين نوع من الهجاء القصير اللاذع الذى لا يتجاوز البيتين أو الثلاثة . وهو هجاء خفيف الروح ، سهل الألفاظ ، يعتمد على الصورة الهزلية المضحكة ، كان قصره أوكد لذيوعه وخطورته ، وثقل وقعه على المهجو . قيل للفرزدق — ما اختيارك للقصار ؟ قال : لأنى رأيتها أثبتَ فى الصدور ، وفى المحافل أجول . وقيل للحطيئة : ما بال قصارك أكثر من طوالك ؟ قال : لأنها فى الآذان أولج ، وفى أفواه الناس أعلق[١] . وهذا النوع من الهجاء القصير ، شبيه بما كان يعرف عند اليونان واللاتين بال. (epigram)

خطب رجل من تميم امرأة من بنى أسد ، ولم يزل يسأل عن حسبها وأمهاتها ، حتى سأل الأقيشر . فقال فيه :

حضرموت فتَّشَتْ أحسابنا وإلينا حضرموت تنتسب
أخوة القرد وهم أعمامه برئت منكم إلى الله العرب

وتولى الكوفة رجل من تميم ، فانكسر المنبر من تحته ، فقال :

أبنى تميم ما لمنبر ملككم ما يستقر قرارُه يتمرمر
إن المنابر أنكرت أستاهكم فادعوا خُزَيْمة يستقر المنبر

وكان لابن عبدل جارية سوداء ، وكان يميل إليها فولدت له ابناً أسود ، فقال فيه :

(١) الأغانى ٢ ٣٣

يارب خال لك مسودٌ القفا   لا يشتكى من رجله مسَّ الحفا

كأن عينيه إذا تشوَّفا   عينا غرابٍ فوق نِيقٍ أشرفا

وخطب امرأة يقال لها أم رياح فلم تتزوجه ، ففضحها بقوله :

ولا خير فى الفتيان بعد ابن عبدلٍ   ولا فى الزوانى بعد أم رياح

فـ... بحمد الله ماض مجرب   وأم رياح عرضة لنكاحى

فتحاماها الناس ، فما تزوجت حتى أسنت .

ودخل ابن عبدل على عمر بن يزيد الأسدى وهو يأكل بطيخاً — وكان بخيلا — فسلم فلم يرد عليه السلام ، ولم يدعه إلى الطعام ، فقال فيه :

فى عمر بن يزيد خلتا دَنَسٍ   بخل وجبن ولولا (   ) سادا

جئناه يأكل بطيخاً على طبق   فما دعانا أبو حفص ولا كادا

ويقول الفرزدق فى هجاء رجل يتهمه بالبخل اسمه عقبة بن جيار .

لو أن قدراً بكت من طول ما حُبِسَتْ

عن الحُفُوف بَكَتْ قِدْرُ ابن جيَّار[1]

ما مسها دسمٌ مذ فُضَّ معدنُها

ولا رأتْ أعدى بعد عهد القَيْنِ من نار[2]

وبرز فى هذا العصر لون آخر من ألوان الهجاء الشخصى عرف بالنقائض وتبادل فيه شعراء ذلك القرن السباب ، على نحو لم يعرف من قبل . وكان محور هذا الفن ومداره شعراء العصر الثلاثة المقدمون ، جرير والفرزدق والأخطل . ودخل بينهم عدد كبير من الشعراء ، أحصى منهم صاحب الأغانى

---

(١) الحفوف قلة الدسم   (٢) القين الحداد

تسعة عشر شاعراً معروفاً من عصرهم ، فى معرض قصة ساقها فى لقاء جرير للحجاج ، وسؤاله إياه عن خبر الشعراء الذين هجاهم[١] . وانشغل الناس بأمرهم والتحزب لهم ، والسؤال عما أحدثوا من هجاء ، وما أجاب به كل منهم ، ينقض هجاء خصمه ويرد عليه ، حتى لقد اختلف الناس فى عسكر المهلب وهم يقاتلون الخوارج على أيهم أشعر ، فسألوا فيه بعض جند الخوارج من الأزارقة ، حين أبى المهلب أن يقول فيهم شيئاً خوفاً من شرهم[٢] . وكان الفرزدق وجرير يأتيان القبائل فى مساجدهم فينشدانهم من شعرهما . وكان أحدهما إذا سمع أن خصمه قد أتى قبيلة فى مسجدها فأنشدها من شعره ، أسرع للإنشاد فى نفس المسجد . وربما تعصبت القبيلة لصاحبه فمنعته الإنشاد ، كما فعل بنو الهجيم ، حين أذنوا للفرزدق أن ينشد فى مسجدهم ، ومنعوا جريراً أن يفعل مثله حين علم بخبره[٣] . وصار الهجاء جل هم هؤلاء الشعراء ، حتى كان أحدهم يمدح الخليفة من الخلفاء ، أو الوالى من الولاة ، فلا يخلو مدحه من هجاء خصمه والتعريض به ، وحتى أضاف جرير إلى قصيدته المشهورة فى رثاء زوجته (لولا الحياء لهاجنى استعبار) هجاء صاحبيه الفرزدق والأخطل . ولم يسلم من الانشغال بأمرهم وتتبع نقائضهم الخلفاء والأمراء بل والفقهاء . بعث بشر بن مروان برسول إلى جرير ، يسأله أن يجيب عن شعر سراقة البارقى ، الذى يفضل فيه الفرزدق ، فلم يبرح الرسول حتى أخذ قصيدة جرير ، فقرئت فى العراق ، وأفحم سراقة فلم ينطق بعدها بشىء من مناقضاته[٤] . وروى ابن سلام أن سعيد بن المسيب قال لعبد الرحمن بن حرملة حين ورد عليهم هجاء جرير والتيمى : تروَّ لى مما قالا شيئاً . فأتاه عبد الرحمن وقد استقبل القبلة يريد أن يكبر ، فقال له : أرويت شيئاً ؟ قال : نعم . فأقبل عليه بوجهه . فأنشده للتيمى وهو يقول : هيه هيه . ثم أنشده لجرير : فجعل يقول : أكاه

(١) الأغانى ٨ ١٥ (٢) الأغانى ٨ ٤٢
(٣) الأغانى ٨ ٥٢ (٤) الأغانى ٨ : ٦٨

أكله [١]. وكان إقبال الناس على شعرهم، واهتمامهم بهجائهم. داعية لإغراء معظم شعراء عصرهم أن يهجوا نهجهم فجواس بن قطنة يهاجي جميل ابن معمر [٢]. وتميم بن أبي بن مقبل يهاجي النجاشي. والنجاشي يهاجي عبدالرحمن ابن حسان بن ثابت [٣]. وعبد الرحمن بن حسان يهاجي عبدالرحمن بن الحكم [٤]. وشبيب بن البرصاء يهاجي عقيل بن علفة [٥] وأبو جلدة يهاجي زياداً الأعجم. وزياد الأعجم يهاجي المغيرة بن حبناء [٦]. والمغيرة بن حبناء يهاجي أخاه صخر بن حبناء [٧]. وصخر الغي يهاجي أبا المثلم [٨]. وأبو النجم يراجز العجاج [٩].

اشتعل العراق بالهجاء والمناقضات حتى تجاوزته إلى الأقطار الأخرى، فكان جرير والفرزدق يلهبان هذا الفن وينشطانه حينما ذهبا، حتى لقد قدم الوليد المدينة وبها جرير وعمر بن لجأ يتهاجيان، فأمر بهما فضربا وأقيما على والبُلُس [١٠]. وكان جلدهما بسبب قصيدة جرير التي يبدأها بقوله:

يا تيم تيم عدى لا أبا لكم   لا يوقعنكم فى سَوْءة عمر

وكان أفحش ما قاله جرير فيها — وهو عجيب فى حكاية ألفاظ النساء، على مافيه من إغراق فى الفحش.

تقول والعَبدُ مسكينٌ يُجَرِّرُها   أرفُقْ فديتُك أنت الناكح الذكر

ولم تكن العداوة وحدها هى الدافع إلى الهجاء والمناقصة فى كل الأحيان فقد كان جزء كبير من هذه المناقضات يعتمد على المهارة الفنية،

---

(١) ابن سلام ١٥٣
(٢) الأغانى ١٩ : ١١٢
(٣) ابن سلام ٥٦
(٤) الأغانى ١٣ ١٥٠
(٥) الأغانى ١١ ٩٣
(٦) الأغانى ١١ ١٦٢
(٧) الأغانى ١١ : ١٦٨
(٨) الأغانى ٢ ٢٩٨
(٩) الأغانى ٢٠ ٢٠
(١٠) الشعر والشعراء ٢٣٣
(١٠) البلس غرائر كبار يجعل فيها التبن ويشهر عليها من ينكل به، وينادى عليه.

ويهدف إلى السبق والتفوق من الناحية الشعرية الخالصة . وقد كان الفرزدق وجرير على ما بينهما من خصومات مريرة ، يتبادلان فيها أشنع الهجاء وأفحش السباب ، يلتقيان عند الأمراء والخلفاء ، ويترافقان فى الرحلة ، فلا يكون بينهما إلا ما يكون بين الصديقين . وربما خرجا مرتدفين على ناقة واحدة ، كما يحدثنا ابن خلكان ، فى بعض رحلاتهما إلى هشام بن عبد الملك ، وهو يومئذ بالرصافة [١] بل لقد شفع جرير فى الفرزدق عند هشام ، حين كتب إلى خالد القسرى عامله فى العراق ، يأمره بحبسه لتعريضه به فى قوله .

يُقَلِّبُ عيناً لم تكن لخليفة مشوَّهةً حَوْلاء بادٍ عيوبها

دخل جرير يومئذ على هشام فقال — يا أمير المؤمنين إنك تريد أن تبسط يدك على بادى مضر وحاضرها . فأطلق لها شاعرها وسيدها الفرزدق . فقال له هشام : أو ما يسرك أن أخزاه الله ؟ قال : ما أريد أن يخزيه الله إلا على يدى . فأمر هشام بإطلاقه [٢] . وتبادل جرير والأخطل الهجاء وليس يعرف أحد منهما صاحبه ، حتى التقيا عند عبد الملك بن مروان [٣] . ولقى ابن ميَّادة ابن هرمة فقال له : والله لقد كنت أحب أن ألقاك ، لا بد أن نتهاجى ، وقد فعل الناس ذلك قبلنا . [٤] فالتهاجى والتناقض هنا مباراة أدبية ، وليس ناجما عن عداوة ولا هو موجبا لها ، إلا بمقدار ما يكون بين متنافسين على السبق . وربما استطعنا أن نتصوره إذا قرناه بما نعرف فى الأندية الشعبية من تبارى رجلين فى النكتة بما يعبر عنه (بالدخول فى آفية) وتزداد هذه الحقيقة وضوحاً كلما أمعن القارىء فى دراسة شعر النقائض فالشعراء يكثرون من الفخر بقوة شعرهم ، وبتفوقهم الفنى الذى لا يجارى ، وبشدة وقع شعرهم على أعدائهم وخصومهم ، وما يتاح لهذا الشعر من ذيوع يذهب به إلى أقاصى الأرض .

---

(١) ابن خلكان ٣ : ١٥١ .
(٢) العقد الفريد ٦ ١٧٣
(٣) الأغانى ٧ ٦٩ .
(٤) الأغانى ٤ ٣٦٩

يقول جرير فى هجاء النميرى :

أعد الله للشعراء منى ... صواعق يخضعون لها الرقابا

أنا البازى المطل على نُمَير ... أُتِحْتُ من السماء لها انصبابا

إذا علقت مخالبُه بِقِرْنٍ ... أصاب القلب أوهتك الحجابا

ويقول :

رجوتم يابنى وَقَبانَ موتى ... وأرجو أن تطول لكم حياتى

إذا اجتمعوا علىَّ نخلّ عنهم ... وعن بازٍ يصُكُّ حُبَارِيات

ويقول للبعيث :

وعاوٍ عوى من غير شىء رميتُه ... بقافية أنفَاذُها تقطر الدما

وإنّى لقوَّالٌ لكل غريبة ... وَرُودٍ إذا السارى بليل ترنما

خَرُوجٍ بأفواه الرواة كأنها ... قَرَى هندوانى إذا هُزَّ صمما

ويقول للفرزدق :

إن القصائد قد جَدَعْنَ مجاشعاً ... بالسم يُلحَمَ نسجها وينار

ولقوا عَوَاصِىَ قد عييت بنقضها ... ولقد نُقِضْتَ فما بك استمرار

قد كان قومك يحسبونك شاعراً ... حتى غرقت وضمك التيار

ويقول الفرزدق لجرير :

لن تدركوا كرمى بلؤم أبيكم ... وأوابدى بتنحل الأشعار

ويقول له :

إن كان قد أعياك نقضُ قصائدى ... فانظر جرير إذا تلاقى المجمع

ويقول معيراً إياه ضعف شعره زاعماً أنه سبابَ ليس من الفن فى شى

أتطلب ياحمار بنى كليب ... بعانتك اللهاميم الرغابا

وتعدل دارماً ببنى كليب وتعدل بالمُفَقِّئة السِّبابا

ويقول :

غلبتك بالمفقىء والمعنَّى وبيت المحتَبِي والخافقات

وهو يقصد بذلك قصائده التى يقول فى إحداها

ولست و إن فقأتَ عينك واجداً أبا عن كليب أو أبا مثل نهشل

ويقول فى أخرى :

وإنك إذ تسعى لتدرك دراما لأنت المعنَّى ياجرير المكلَّف

ويقول فى ثالثةٍ :

بيتاً زرارةُ محتبٍ بفنائه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

ويقول فى رابعة :

وأين تقضِّى المالكان أمورها بحق وأين الخافقات اللوامع

ويبدو من هذا البيت أن الفرزدق كان يسمى قصائده ، كما يبدو ذلك أيضا من بيته فى نقيضته المشهورة (إن الذى سمك السماء) حيث يسميها الفيصل :

إن التى فقئت بها أبصاركم وهى التى دمغت أباك الفيصل

وكان جرير والفرزدق يتواقفان بالمربد ، وينشد كل منهما نقيضته بإزاء صاحبه[1].

وربما أوحت الظروف والموقف لأحدهما بشعر مرتجل لم يكن قد فكر فيه من قبل ، كما نعرف من نقيضة جرير .

أقلى اللوم عاذل والعتابا وقولى إن أصبت لقد أصابا

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ٢ : ٢٢ .

وما كان من تغطية الفرزدق لرأسه ، حين بلغ جرير قوله (ترى بَرَصاً بأسفل إسْكَتَيْها) متوقعاً أن الشطر الآخر من البيت لا بد أن يصيبه . فلم يلبث جرير أن قال : (كعَنْفَقَةِ الفرزدق حين شابا) .

وكان الشعراء المتناقضون ، يتربص بعضهم ببعض ، فلا يكاد أحدهم يصيب من صاحبه سقطة ، حتى يسجلها عليه ، ويشنع بها مبالغاً فى تصويرها . يشكو الأخطل من إيقاع الجحاف بقومه حين يقول :

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعةً ... إلى الله منها المشتكَى والمعوَّل

فيقول له جرير :

بكى دوبلٌ لا يرقئ الله دمعه ... ألا إنما يبكى من الذل دوبل

ويفحش الفرزدق فى بعض شعره وهو مقيم بالحجاز ، فينفيه عمر بن عبد العزيز والى الحجاز وقتذاك ، فيقول جرير :

نفاك الأغَرُّ ابن عبد العزيز ... وحقُّك تُنفَى من المسجد

ويهب بعض السادة جارية لجرير ، فتملّ عيشه الخشن ، ويقول فيها جرير :

تكلفنى معيشةَ آل زيد ... ومن لى بالمُرَقَّق والصِناب[1]

وقالت لا تضم كضم زيد ... وما ضمى وليس معى شبابى !

فلا يلبث الفرزدق أن يعيره بقوله :

فإن تفرُكك عِلجةُ آل زيد ... ويعوِزك المرقق والصناب[2]

فقِدماً كان عيش أبيك مرا ... يعيش بما تعيش به الكلاب

وكانت مهارة الهجاء تتركز فى إدراكه لوجه النقص البارز فى خصمه ،

---

(١) المرقق نوع من الفطائر . الصناب لون من الطعام يتخذ من الخردل والزبيب

(٢) فركت المرأة زوجها من باب نصر وطرب كرهته . العلج من ليس عربيا

وقدرته على الافتنان والتصرف فى استخراج مختلف الصور وألوان الدعابة الساخرة منه . فهجاء جرير للأخطل يدور فى معظمه حول نصرانيته . فكل صوره من الخمر والصليب والجزية ، المفروضة على أهل الذمة .

يقول له :

قبح الإله مَن الصليبُ إلهُـه ... واللابسين برانس الرهبان

والتابعين جُرَيجسا وبُنَيَّـه ... والتاركين مساجد الرحمن

والذابحين إذا تقارب فِصْحهم ... شُهْبَ الجلود خسيسة الأثمان

من كل ساجى الطرف أعصلَ نابُه ... فى كل قائمة له ظلفان

تغشى ملائكة الإله قبورنا ... والتغلبىُّ جنازة الشيطان

يُعطَى كتاب حسابِه بشِماله ... وكتابُنا بأكفنا الأَيمْان

ويقول له :

الضاربون على النصارى جزية ... وهدى لمن تبع الكتاب ونوراً

إنا نسود فى الحياة حياتنا ... ويسود من دخل القبور قبوراً

الله فضلنا وأخزى تغلبا ... لن تستطيع لما قضى تغييراً

الباعثين برغم آنف تغلب ... فى كل منزلة عليك أميرا

أفبالصليب ومار سرجس تَتَّقِى ... شهباء ذاتَ كتائبٍ جمهورا [1]

أمُّ الأخيطل بالرحوب إذا انتشت ... عَاقَت بشقشقة العجَان هديراً

لقِحَتْ لأشهب فى الكناسة داجناً ... خِنزيرةٌ فوالدا خنزيراً [2]

---

(١) مارسرجس قديس نصرانى كانت تغلب تتخذه شعارا لها فى الحروب

(٢) يتهمها بأنها قد أتت بالأخطل من خنزير لامن أبيه . أشهب فى الكناسة داجنا يعنى خنزيرا

وَلَدَ الأخيطلَ أمُّه مخمورةً   قبحًا لذلك شاربا مخموراً

ويقول له :

رويدكمُ مسحَ الصليب إذا دنا   هلالُ الجزَى واستعجلوا بالدراهم [١]

وهجاء جرير للفرزدق يدور حول ما زعم من أن أجداد . كانوا يحترفون الحدادة فـكل صوره من النار والحديد والشرر والدخان والـكير وأدوات الحدادة والرقيق الذين يتخذونهم لهذه الصناعة وما يتهم به نساءهم من ميل لهؤلاء العبيد .

فانفخ بكيرك يافرزدق إننى   فى باذخ لمحل بيدك عال

يارب معضلةٍ دفعنا بعد ما   عَىّ القُيونُ بحيلة المحتال

مابال أمك إذ تسربَلُ درعها   ومن الحديد مُفاضةٌ سربالى

حمَّمتَ وجهك فوق كيرك قائما   وسقيت أمك فضلة الجرْيال [٢]

فانفخ بكيرك يافرزدق وانظر   فى كَرْنَباء هديةَ القفَّال

ويقول :

حدراء أنكرت القيون وريحهم   والحُرُّ يمنع ضيمَه الإنكارُ

لما رأت صدأ الحديد بجلده   فاللون أوْرَقُ والبنان قصار

قال الفرزدق رقعى أكيارنا   قالت وكيف ترقِّعُ الأكيار

رقِّعْ متاعَكَ إن جدى خالدٌ   والقيْنُ جدُّك لم تلدك نزار

---

(١) الجزى جمع جزية وهى الضرائب التى كان يؤديها أهل الكتاب (اليهود والنصارى) للدولة مقابل حمايتهم .

(٢) الجريال الخمر

ويقول :

فدينك يافرزدق دينُ ليلى　　تزور القَيْنَ حَجًّا واعتماراً[١]

فظل القين بعد نكاح ليلى　　يُطيِّرُ على سِبالكم الشرارا[٢]

وهجاء الفرزدق لجرير يدور حول نقرهم واصطناعهم الحمر فى تنقلهم وهو دليل الذلة لأن السادة يركبون الخيل والإبل . وهو يتمادى فى ذلك إلى أغرب ألوان الخيال وأفحشه ، فيتصور رجالهم وقد هجروا مضاجعهم إلى الأتن ، ويتخيل ما يكون من غيرة نسائهم من هذه الأتن التى تنافسهن على أزواجهن .

يقول له .

يا ابن المراغة كيف تطلب دار ما　　وأبوك بين حمارة وحمار

هلا غداة حَبَسْتُم أعياركم　　بجُدُود والخَيْلان فى إعصار[٣]

والحوفزانُ مسوِّمٌ أفراسَه　　والمحصَنَاتُ حواسرُ الأبصار

يدعون زيد مناة إذ ولَّيتُم　　لا يتَّقين على قفًا بخمار

قبح الإله بنى كليب إنهم　　لا يغدرون ولا يفون لجار

يستيقظون إلى نهاق حمارهم　　وتنام أعينهم عن الأوتار[٤]

---

(١) ليلى أم الفرزدق . يتهمها بالعبيد الذين كان يتخذهم حد الفرزدق للحدادة . ويقول له إنك تشبهها

(٢) السبال شعر الشاربين واللحية .

(٣) جدود يوم كان بين الحوفزان (وهو من بكر بن وائل) وبين بنى يربوع (قوم جرير) . وحديثه مفصل فى النقائض ج ٢ ص ٣٢ — ٣٥

(٤) يعجب لهم كيف يوقظهم نهاق الحمار ، ثم لا يوقظهم دم قتلاهم الذى يصرخ طلبا للثأر . الأوتار جمع وتر وهو الثأر .

تلقى فوارسنا إذا ريَّقْتُمُ … مُتَلبِّبِين لـكل يوم عَوار[١]

ويقول له :

لعمرى لقد قالت أُمامةُ إذ رأت … جريرا بذات الرقمتين تشنَّعا[٢]

أمُـكتفِلٌ[٤] بالرقم إذ أنت واقف … أتانَكَ أم ماذا تريد لتصنعا

رأيتكَ تغشى كاذَتَيْها ولم تكن … لتركب إلا ذا السُّحَوج الموقَّعا

دعتْ يا عبيد بن الحرام ألاترى … مكان الذى أخزى أباك وجدَّعا

أأعيا عليك الناسُ حتى جعلتَ لى … خليلاً يعادينى وآتُنَه معا

وهجاء المغيرة بن حبناء لزياد الأعجم يدور حول فارسيته ، فهو علج مستضعف مجهول النسب ألكن لايقيم لهجته . وليس بناته إلا ولائد لم يجر عليهن موسى فى ختان[٥]

يقول له :

أزيادُ إنك والذى أنا عبده … ما دون آدم من أبٍ لك يُعلَم

فالحق بأرضك يا زياد ولا ترم … ما لا تطيق وأنت عِلجٌ أعجم

أظننت لؤمك يا زياد يسده … قوس سترتَ به قفاك وأسهم

عِلجٌ تعصب ثم راق بقوسه … والعلجُ تعرفه إذا يتَكَمَّمُ

ألق العصابة يا زياد فإنما … أخزاك ربى إذ غدوتَ تَرَنَّمُ

---

(١) الربق بكسر الراء حبل فيه عدة عرى يشد به البهم فكل عروة ربقة . وربق بالتشديد جعل الرأس فى الربقة . يقول إن قوم جرير رعاة لا يصلحون للقتال .

(٢) أمامة زوجة جرير . ذات الرقمتين أتانه . تشنع هم بأمر شنيع قبيح

(٣) أكتفل الدابة ركب كفلها وهو مؤخرها ، الكاذتان أعلى الفخذين . ذو السحوج الموقع الأتان يريد آثار الدبر فى ظهورها

(٤) الأغانى ١١ : ١٦٦

وأعلَمْ بأنك لست منى ناجيا   إلا وأنت ببظر أمك مُلْجَم
تهجو الكرام وأنت ألأم من مشى   حَسَباً وأنت العلج حين تَكَلَّمُ
ولقد سألتُ بنى نزار كلِّهم   والعالمين من الكهول فأقسموا
بالله ما لك فى معدٍ كلِّها   حسبٌ وأنك يا زياد مُوَذَّم

ويقول له :

فأصبحت علجامن يُزْرك ومن يزُرْ   بناتك يعلم أنهن ولائد
وأصبحن قُلْفًا يغتزلن بأجرة   حواليك لم تَجْرَحْ بهن الحدائد
نفرن من الموسى وأقرَرْنَ بالتى   يُقِرُّ عليها المُقرِفاتُ الكواسد
بإصطخر لم يلبَسْنَ من طول فاقة   جديداً ولا تُلْقى لهن الوسائد
وما أنت بالمنسوب فى آل عامر   ولا ولدَتْكَ المحصَناتُ المواجد
ولا ربَّبَتْكَ الحنظلية إذ غذت   بنيها ولا جِيبَتْ عليك القلائد
ولكن غذاك المشركون وزاحمت   قفاك وخديك البظورُ العوارد
ولم أر مثلى يا زياد بعرضِه   وعرضِك يستَبَّان والسيفُ شاهد
ولو أننى غَشَّيْتُكَ السيف لم يقُلْ   إذا متَّ إلا مات عِلجٌ معاهد

كان الجانب الأكبر من نقائض جرير والفرزدق منافسة أدبية كما قدمنا. ولذلك حرص الشاعر حين يجيب على نقيضة خصمه أن تكون إجابته من نفس البحر والروى ، حتى تظهر مزية السبق لأحدهما على الآخر . والظاهر أن الإجابة من نفس البحر والروى كانت قاعدة مقررة فى الموازنة بين شعر الشعراء . فقد كان النقاد منذ عصر امرىء القيس، إذا أرادوا أن يوازنوا بين شاعرين ، وازنوا بينهما فى شعر متحد فى الغرض وفى الوزن والقافية. وقصة

علقمة الفحل مع امرىء القيس ، حين احتكما إلى زوجته، أشهر من أن نحتاج إلى ذكرها . وهى قوية الدلالة على هذا الأصل من أصول النقد القديم . وقد أخذ شعراء النقائض فى هذا القرن أنفسهم بتقيد جديد ، هو محاولة الإجابة على أبيات الخصم ونقضها بيتاً ببيتاه ويكفى فى ذلك أن نقدم مثلين من قصيدة الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتًا دعائمه أعـزُّ وأطول

ونقيضة جرير

لمن الديار كأنها لم تُحلَل بين الـكِناس وبين طَلْحِ الأعزل

فأول ما نلاحظ فى النقيضتين كثرة اشـتراك القوافى فيهما . فنقيضة جرير تشترك فى قوافى أبياتها مع ثلاثة وثلاثين بيتاً من قصيدة الفرزدق ، مع أن مجموع أبياتها ثلاثة وستون بيتاً . وجرير يتتبع فى نقيضته معانى الفرزدق ، فيجيب عليها بنفس الطريقة والأسلوب ، مقابلا الفخر بفخر ، والصورة بصورة ، والحوار بحوار .

يقول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنا لنا بيتا دعائمه أعز وأطول[١]

بيتا بناه لنا المليك وما بنا حكم السماء فأنه لاينقل

بيتاً زُرارةُ مُحْتَبٍ بفِنائه ومجاشعٌ وأبوا الفوارس نَهْشَل[٢]

---

(١) سمك السماء رفعها السمك بفتح السين وسكون الميم السقف . أعز وأطول يعنى من بينك

(٢) زرارة ومجاشع ونهشل كلها من بيوت درام (ودارم من تميم) ، والفرزوق من مجاشع ثم من دارم (راجع شجرة انساب تميم) الاحتباء أن يجلس الرجل على الأرض ثانيا ساقية وقد شدهما إلى ظهره بعمامته أو نطاقه أو نجاد سيفه أو نحو ذلك ليطمئن فى جلسته والفرزوق يكنى به هنا عن السيادة والاطمئنان والحلم .

لا يحتبي بفناء بيتك مثلهم أبداً إذا عُدَّ الفعال الأفضل

فيجيبه جرير عن البيتين الأولين بقوله :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتاً علاك فما له من مَنْقَل

أخزى الذى سمك السماءَ مجاشعاً وبنى بناءك فى الحضيض الأسفل

بيتاً يحمُّ قينكمُ بفنائه دنِسًا مقاعدُه خبيث المَدْخَل

ويجيبه عن البيتين الثالث فى فخره بنهشل — وهم من غير قومه لأنه من مجاشع — بقوله :

أعيَنْكَ مأثرةُ القيون مجاشع فانظر لعلكَ تدَّعى فى نَهشل

ويجيبه عن البيت الرابع الذى يشير فيه إلى احتبائهم بفناء بيتهم — يكنى بذلك عن عزهم — بقوله :

قُتِلَ الزُّبيْر وأنت عاقِدُ حُبْوَةٍ تبًّا لحبوتك التى لم تُحْلَل[١]

ويقول الفرزدق :

وإذا دعوتُ بنى فُقَيم جاءنى مَجْرٌ له العدد الذى لا يُعْدَل

وإذا البراجمُ بالقروم تخاطروا حولى بأغلب عزه لا ينزل

فيجيبه جرير :

وامدح سَراة بنى فُقَيم إنهم قتلوا أباك وثأره لم يُقْتَل[٢]

---

(١) هو الزبير بن العوام الصحابى كان من الخارجين على على بن أبى طالب مع طلحة وعائشة أم المؤمنين . وقد زعم جرير أنه كان جارا للنعر بن زمام المجاشعى فقتل فى جواره . وهو يقول له : قتل جاركم وأنتم مطمئنون لا تتحركون ولا تحلون الحبوة ناهضين لاغاثته .

(٢) بنو فقيم من دارم فهم أبناء عم مجاشع قوم الفرزدق (راجع الشجرة) مجر جيش كبير .

ودَعِ البراجمَ إن شِربَك فيهم ... مُرٌّ عواقبُه كطعم الحنظل

ويقول الفرزدق :

وهب القصائدَ لى النوابغُ إذ مضوا ... وأبو يزيد وذو القروح وجَرْوَل

وأخو بنى قيسٍ وهن قتلنه ... ومهلهلُ الشعراء ذاك الأول(١)

فيجيبه جرير :

حسب الفرزدق أن تُسَبَّ مجاشع ... ويُعُدُّ شعر مرقش ومهلهل

ويقول الفرزدق :

إنى ارتفعت عليك كل ثَنِيَّةٍ ... وعلوت فوق بنى كليب من علُ(٢)

فيجيبه جرير

إنى انصببت من السماء عليكم ... حتى اختطفتك يافرزدق من عل

ويعير الفرزدق جريراً أمه حيث يقول :

وتركت أمك ياجرير كأنها ... للناس باركةً طريقٌ مُعْمَلُ(٣)

ويمضى فى تفصيل الصورة ممعنا فى الفحش .

فيجيبه جرير معيراً بأخته (جعثن) :

بات الفرزدق يستجير لنفسه ... وَمُجَرُّ جِعْثِن كالطريق المعمل

ثم يقابل تفصيل الفرزدق فى الفحش بتفصيل مثله .

---

(١) النوابغ النابغة الذبيانى والنابغة الجعدى ونابغة بنى شيبان أبو يزيد هو المخبل ، ذو القروح أمرؤ القيس . جرول هو الحطيئة . أخو بنى قيس طرفه ابن العبد . هن قتلنه يعنى القوافى .

(٢) الثنية الطريق .

(٣) طريق معمل مستعمل تدوسه الاقدام .

ويقول الفرزدق :

حُلَلُ الملوك لباسُنا فى أهلنا　　والسابغاتِ إلى الوغى نتسربل

أحلامنا تزن الجبال رزانةً　　وتخالنا جناً إذا ما نجهل

فيجيبه جرير :

لا تذكروا حلل الملوك فإنكم　　بعد الزبير كحائضٍ لم تُغْسَل

أبلغْ بنى وَقَبانَ أن حلومهم　　خفت فما يزنون حبة خردل

ويحتكم الفرزدق إلى دغفل النسابة فى أنه أكرم من جرير أخوالا حين يقول :

أوصى عشيةً حين فارق رهطه　　عند الشهادة والصحيفة دَغْفَلُ

أن ابنَ ضبة كان خيراً والداً　　وأتمَّ فى حسب الكرام وأفضل[1]

فيرد عليه جرير محتكما إلى قريش فى أن قومه أكرم .

فارجع إلى حكمَى قريش إنهم　　أهل النبوة والكتاب المنزل

فاسأل إذا خرج الخِدامُ وأُحمِشَتْ　　حرب تَضَرَّمُ كالحريق المشعل[2]

ابنو طُهَيَّة يعدلون فوارسى　　وبنو خضاف وذاك مالم يعدل

ويفتخر الفرزدق بأخوله من ضبة قائلا :

يا ابن المراغة أين خالك إننى　　خالى حُبَيْشٌ ذو الفعال الأفضل

خالى الذى غصب الملوك نفوسهم　　وإليه كان حِباء جَفْنَة يُنْقَل[3]

---

(١) بنو ضبة إخوة تميم وهم أخوال الفرزدق

(٢) الخدام الخلاخيل . خرج الخدام يعنى وقت الغارة إذا فزع النساء .

(٣) الحباء العطاء . آل جفنه هم الغساسنة ملوك الشام . وكان حبيش بن دلف خال الفرزدق قد أسر أحدهم وجز ناصيته ثم أطلقه على أن يبعث إليه كل عام بحبائه من غير أن ينتقل إليه .

فيجيبه جرير :

كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله مثل الذليل يعوذ تحت القَرْمَل[١]

والخز بضبة إن أمك منهم ليس ابن ضبة بالمُعِمِّ المُخْوِل

ويفتخر الفرزدق بقومه فى الدروع والسيوف حين يقول .

يمشون فى حَلَقِ الحديد كما مشت

جُرْبُ الجِمال بها الكُحَيلُ المُشْعَل[٢]

يَحْمِي إذا اخْتُرِطَ السيوفُ نساءنا

ضربٌ تَخِرّ له السواعد أرعل

فيجيبه جرير بأنه إنما يحسن وصف السيوف لأنه حداد ابن حداد ، فهم يصنعون السيوف ، ولكن غيرهم يضارب بها .

تصف السيوف وغيركم يعصَى بها

يا ابن القيون وذاك فعلُ الصَّيْقَل[٣]

ويشير الفرزدق إلى أتن جرير فيتهمه ويتهم أباه بها .

هلا سألت بنى غدانة ما رأوا حيث الأتانُ إلى عمودك تُرْحَل

كسرت ثنِيَّتك الأتانُ فشاهِدٌ منها بفيكَ مبيَّنٌ مستقبَلُ

رمحتْك حين عجِلتَ قبل وِداقِها لكن أبوك وِداقَها لا يَعْجَل[٤]

---

(١) القرمل شجر ضعيف لا شوك له .

(٢) الكحيل القطران تطلى به الابل إذا أصيبت بالجرب . يشبه قومه لكثرة ماعليهم من الحديد بالابل المطلية بالقطران .

(٣) الصيقل الذى يصقل السيوف .

(٤) الثنية من الأسنان الأربع التى فى مقدم الفم ، ثنتان من فوق وثنتان من أسفل. والظاهر أن أسنان جرير الامامية كانت ساقطة ، فزعم الفرزدق أن الأتان قد رمحته برجليها الخلفيتين فكسرتها . الوداق طلب الفحل .

فيجيبه جرير مشيرا إلى اشتغالهم بالحدادة ، ويتهم أمه بقين من قيونهم أسمه نبتل .

ألْهَى أباكَ عن المكارم والعلى لىُّ الكتائف وارتفاع المرجل

وَلَدَتْ قُفَيرة قد علمتم خِبْثَةً بعد المشيب وبَظْرُها كالمنجل

أشرَكْتِ إذ حُمِلَ الفرزدقُ خبثةً حوضَ الحمار بليلةٍ من نَبتَل [1]

وكثيرا ما كان يبدو للشاعر أن ينقض أبياتا من رد خصمه ، ثم يضيفها إلى قصيدته . فنحن نجد فى قصيدة الفرزذق هذه أبياتاً يرد بها على نقيضة جرير التالية لها ولا شك أن مثل هذه الأبيات قد ألحقها الفرزدق بنقيضته بعد أن سمع رد جرير وذلك مثل قوله .

يبكى على دِمَن الديار وأُمُّه تعلو على كَمَرِ العبيد وتَسفُل

فهو رد على ما ابتدأ به جرير قصيدته من الوقوف بالأطلال

لمن الديار كأنها لم تُحلَل بين الكِناس وبين طَلْح الأعزل

ومنه قول الفرزدق :

أسألْتَنِى عن حبوتى ما بالها فاسأل إلى خَبَرى وعمَّا تسأل

فاللؤم يمنع منكم أن تحتَبوا والعِزُّ يمنَعُ حبوتى لا تُحْلَل

واللهُ أثبتها وعز لم يزل مُقْعَنْسِساً وأبيك ما يتحول

وهو رد على بيت جرير :

قُتِل الزبيرُ وأنت عاقِدُ حبوةٍ تبًّا لحبوتك التى لم تُحْلَل

---

(١) قفيرة أم الفرزدق ، أشركت يخاطبها بذلك فيقول إنك قد جئت بالفرزدق من غالب أبيه (حوض الحمار) ، ومن نبتل العبد . فكلاهما أبوه . وهما مشتركان فيه .

وتبدو هذه الظاهرة بشكل أوضح فى قصيدة جرير المشهورة التى رثى بها زوجته .

لولا الحيـاء لهاجنى استعبار ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يزار

فالرثاء فيها ينتهى عند البيت الثانى والعشرين ، ثم ينتقل الشاعر إلى هجاء الفرزدق ، حتى يبلغ بالقصيدة سبعة عشر بيتا فوق المائة . والواقع أن جريرا رثى زوجته ، فنقض عليه الفرزدق الرثاء ، متشما بمصيبته ، مهاجما زوجته الفقيدة ، فى غلظة قاسية ، لا تصدر إلا عن رجل فظ جاف كالفرزدق . ثم رد جرير على الفرزدق ، وألحق الرد بالرثاء ، فبدا رثاؤه غريبا على القارىء الذى لا يكاد يتصور أن شاعرا حزينا منكوبا فى زوجته ، يجد فى نفسه الفراغ للخوض فى مثل هذا الهجاء الخبيث المفحش . ودارس النقيضتين يجد ذلك واضحا لا شك فيه . ففى نقيضة الفرزدق أبيات يتشمت فيها بمصيبة جرير ، ويهجو زوجته ، وهى رد على الجزء الخاص بالرثاء من قصيدة جرير . على أن الشطر الهجائى من نقيضة جرير كله رد على نقيضة الفرزدق .

يبدأ جرير مرثيته بقوله :

لولا الحيـاء لهاجنى استعبار ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يُزار

ولقد نظرتُ وما تَمتُّعُ نظرةٍ فى اللحد حيثُ تمَكَّنَ المِحفْار

فجزاكِ ربُّكِ عن عشيرِكِ نظرةً وسقى صداكِ مجلْجِلٌ مِدْرَار

وهى أبيات تقطر حزنا ووفاء . وهى من أجمل ما قيل فى الرثاء صدقا وروعة . ولـكن الفرزدق ، ذلك الشاعر الفظ ، لا يتورع عن اغتنام هذه الفرصة لهجاء جرير ، فيجيب عن هذه الأبيات بقوله .

إن الزيارةَ فى الحياةِ ولا أرى مَيْتاً إذا دخل القبورَ يُزار

ويمضى فى الرد ، متصورا نظرة جرير الحزينة إلى زوجته ، نظرة خبيثة نفيض بالإثم فهو لا يبكى فيها إلا شهوته .

ولقد هممْتَ بسوأةٍ وفعلتَها　　فى اللحد حيث تمكن المِحْفار

أفبعد ما أكل الضباعُ رحيبَها　　تذرى الدموع أهانك القهّار[1]

ورثيتها وفضحتَها فى قبرها　　ما مثلَ ذلك تفعل الأخيار

وجرير يقول فى مرثيته :

كانت مُكرَّمةَ العشير ولم يكن　　يَخْشَى غوائلَ أمِ حزرة جارُ

فيجيبه الفرزدق :

كانت مُنافقةَ الحياة وموتُها　　خزيٌ علانيةً عليك وعار

وجرير يقول :

صلّى الملائكةُ الذين تُخُيِّروا　　والصالحون عليكِ والأبرار

فيجيبه الفرزدق :

قال الملائكةُ الذين تخيروا　　والمصطفون لدينه الأخيار

أبكى الإلهُ على نَبيثَةَ من بَكَى　　جَدَفًا ينوحُ على صداه حمار[2]

وبعد ، فجرير يبدأ الجزء الهجائى التالى للرثاء من نقيضته بقوله :

أفأم حزرة يا فرزدق عبتم　　غضب المليك عليكم القهار

ويمضى فى الإجابة على أبيات الفرزدق ، مقابلا الفخر بفخر ، والحوار بحوار ، والصورة بصورة ، والفحش بفحش مثله . فالفرزدق يلح فى نقيضته على أتن جرير ، ويفتن فى استخراج الصور البالغة فى البراعة والفحش معا ،

---

(١) الرحيب عوة المرأة .

(٢) النبيثة التراب الذى يخرج من القبر إذا حفر .

فيقول له : فيم بكاؤك على زوجتك ، ولك منها فى الأتن خير خلف ؟ فاذهب إلى أبيك يخطب لك أحداهن . . . ثم ينصحه متهكما بتخير الأبكار .

وجرير يعدل هذه الصورة ، التى يفتن فيها الفرزدق فى تصوير الحمر ، بصورة مثلها ، يفتن فيها فى تصوير القين . فليس فى قبر أبيه إلا أدوات الحدادة ، كتيف وكلبتان وميشار ، وليس يذكر أبوه بخير إلا إذا تصدع مرجل ، أو كسرت قدر ، فقد كان خير من يصلحها . وحدراء ، زوج الفرزدق ، قد أنكرت القيون وريحهم . (والحرُّ يمنعُ ضيمه الإنكار) . ويمضى فى تصور ما يكون بينه وبينها من حوار ، إذ يطلب إليها ترقيع أكياره ، فتجيبه غضبى بأنها لا تحسن ذلك ، لجدها خالد لم يكن حدادا . وهى غاضبة على قومها الذين زوجوها من (قينٍ أحَمَّ لفَسْوِه إعصار) ، لجمعوا عليها بين الاغتراب عن أهلها ، والذل الذى تلقاه فى بيت زوجها . ثم يتهم جرير أمَّ الفرزدق وبنات الجَلَوْبق وهو لقب مجاشع — بالعبيد من قيونهم ، ويخص منهم عبداً أسمه جبير ، بادئاً ذلك بقوله .

سَبُّوا الحمارَ فسوف أهجو نسوةً للكِير وسطَ بيوتهن أوار

ومن الخصائص الجديدة على فن الهجاء فى النقائض ، هذا الأسلوب القصصى الذى ابتدعه جرير والفرزدق ، وبرعا فيه براعة ظاهرة ، لا يغض منها إلا إمعانها فى الفحش البذىء ، الذى تنفر منه النفس فى كثير من الأحيان ولكنها مع نفورها من هذا الواقعية العارية ، التى تلتقط ما دتها من الوحل والأقذار ، لا تتمالك من الإعجاب بدقته الحية فى التصوير ، وتسلسل الحوار على نحو بالغ فى محاكاة الطبيعة . ونحن نكتفى فى التمثيل لهذا الأسلوب بما قدمنا ففيه غناء .

ولم يبق إلا أن نلاحظ على هذه الطبقة من المحترفين للهجاء ، ما أشرنا إليه فى مقدمة هذا البحث ، من أن معظمهم قد دفع الى هذه الاتجاه ، نتيجة

إحساسات مكبوتة، أو دوافع مستترة، هي شعور بالنقص في معظم الأحيان وشعور بالاضطهاد أو التفوق في أحيان أخرى. فالمتتبع لأخبارهم يجد أن معظمهم قد أحاط بنشأته شيء من النقص الذي يغض من قدرهم، ويهون من أمرهم على الناس، ويحقرهم في أعينهم، وأنهم يصطنعون الهجاء ليكسبهم رهبة في عيون الناس. ونحن نقدم بعض الأمثلة؛ مما نعرف عن نشأة بعض الهجائين، الذين جاء ذكرهم في هذا الفصل.

كان جرير من أسرة فقيرة مغمورة. وكان قميئا [١] وُلِد لسبعة أشهر. وكان عاقا لأبيه، لأنه ساخط على الظروف التي جاءت به إلى الدنيا عن طريق هذا الرجل الخامل المغمور، الذي لا يجد فيه شيئا يستطيع أن يفخر به. حتى لقد استعار منه مرة فحلا يطرقه في إبله؛ فلما استغنى عنه، جاءه أبوه في بَتٍّ خلق يسترده، فدفعه إليه قائلا. هذا (ترَدُّ إلى عطية [٢] تُعْتَـل) وهو بذلك يشير إلى بيت الفرزدق فيه.

ليس الكِرامُ بِناحِليك أباهُمُ حتى تُرَدُّ إلى عَطِيَّة تُعْتَل

وكان الفرزدق بشع المنظر؛ ذو وجه غليظ جهم القسمات، لا يشبهه إلا غلظ طبعه. وهو على جهامته وضخامة قسماته، منقَّر من آثار الجدرى. ومن أجل ذلك لقب بالفرزدق، وهو الرغيف الضخم. وكان مع هذا غليظا قصيرا أصلع، كما يفهم من شعر جرير فيه، حين يسميه (القُـرَيْـد الأصلع) وحين يقول فيه.

لقد ولدَتْ أمُ الفرزدق فاجراً فجاءت بوَزْوَازٍ قصيرِ القوائم

وكان يجمع إلى كل هذا، شعورا بالتفوق في النسب، يبلغ به حد الجنون

---

(١) القميء الضئيل الجسم.
(٢) عطية هو والد جرير

وكان الأخطل نصرانيا مغمورا فى بلد إسلامى . وكان فى طفولته مهملا من زوج أبيه ، يذوق آلام الحرمان ، ويعانى كثيرا من التضييق ، الذى جعله متمردا منذ نشأته ، يلتمس السبيل للظهور بالإفحاش على الناس ، حتى لقب بالأخطل — والخطل التسرع إلى البذاءة والسفه —

وكان الأقيشر أحمر الوجه أقشر . وكان أبغض الأشياء إلى نفسه أن يناديه الناس بهذا اللقب ، لأنه يذكره بما يكره من نفسه ، وما يحس من نقصه ودمامة منظره . وقد خلق منه هذا الشعور هجاء فكها ، بارع النكتة والدعابة . وكان مع هذا فقيرا ، يستدين ولا يبالى من أى وجه اقترض ، ويمدح بدرهمين وثلاثة ، وكان عِنِّينا ، لا يأتى النساء .

وكان المغيرة بن حبناء أبرص ، وكان من أسرة خاملة ليس فيهم إلا مبتلى بآفة عظيمة ، فأخوه صخر بن حبناء أعور ، وأخوه الآخر مجذوم ، وأبوهم مصاب بالحبن ، وهو داء فى البطن يعظم منه ويرم ، وهو مرض الاستسقاء .

وكان الحكم بن عبدل أعرج أحدب ، لا تكاد تفارقه عصاه .

وكان معظم الموالى الذين ظهروا فى هذا العصر هجائيين ، كما سنبين فى فصل نفرده لهجائهم .

هؤلاء رجال قد فشلوا فى أن يحتلوا مكانتهم فى الهيئة الاجتماعية ، عن طريق حب الناس لهم ، واحترامهم إياهم لأشخاصهم ، فهم يحتلون هذه المكانة بالإرهاب والتهديد .

فن الهجاء فى النقائض

نقائص جرير والفرزدق والأخطل هى أشهر ماعرف الأدب العربى فى هذا الفن وأطوله وليست هذه النقائض هجاء خالصاً ، فهى خليط من فنون الشعر التى عرفها الأدب فى ذلك الحين ، فيها فخر وفيها مدح وفيها نسيب وفيها وصف للبادية ونباتها وحيوانها ، وهى فى ذلك تتمشى مع ماعرف عن القصيدة العربية ، من تنقلها بين شتى الأغراض

ولم يكن الهجاء هو الغرض الأساسى فى كل القصائد التى اشتملت عليها النقائض ، فقد كان الشاعر ينشىء قصيدته فى بعض الأحيان لغرض آخر غير الهجاء ، فلا يلبث خصمه أن ينقضها والأمثلة على ذلك كثيرة منها لامية الأخطل

عفا واسطٌ من آل رضوى فنَبْتَل فمجتمع الحرَّين فالصبرُ أجمل

فهو لم يذكر فيها جريراً ولم يعرض له وإنما أنشأها فى مدح خالد بن عبدالله بن أسيد . بدأها بالوقوف على الأطلال ، وشبه نفسه فى ذهوله بالثمل وانتهز هذه الفرصة فتخلص إلا الخمر وأطال ، ثم انتقل إلى وصف الصحراء ووحشتها وقسوتها على المسافر فيها ، وما لقيت ناقته من تعب ، وماتعرض له معها من أهوال فى سبيل الوصول إلى ممدوحه ، فلم يصل إليه إلا وقد فرغ من نصف قصيدته غزلا وخمراً ووصفا ثم صرف بقية قصيدته فى الإشادة بممدوحه ، ولم يكد يخرج فى ذلك عما ألف العرب فى مدح السادة والقواد . وقد كان يمكن أن تمر القصيدة بسلام من غير أن تسترعى انتباه جرير ، لولا أن الأخطل قد عرض فى نهايتها لوقعة الجحاف ببنى تغلب فى يوم البشر ، وعاتب بنى مروان فى ذلك عتابا عنيفاً ، وحملهم جريرة هذا اللص الخارج

القانون ، وألزمهم ماضاع من دماء قومه ، وكاد يصفهم بأشنع مايوصم به عربي من انتهاك جواره ، ملوحا بقوة قومه بما يشبه التهديد .

فسائل بني مروان ما بالُ ذمةٍ وحبلٍ ضعيف ما يزال يُوَصَّل
بنزوةِ لص بعد ما مرَّ مصعب بأشعث لا يُفْلَى ولا هو يُغْسَل
أآمرك الجحَّاف ثم أمرتَه بجيرانكم وسط البيوت تُقَتَّل
لقد كان للجيران ما لو دعوتُمُ به عاقِلَ الأَرْوَى أتتكم تَنَزَّل
فإن لا تغيرها قريش بملكها يكُنْ عن قريش مُستَمازٌ ومَرْحل
وتَعْرُزْ أناساً عَزَّةً يكرهونها ونحيى كراماً أو نموت فنقتل

وقد نبهت هذه الأبيات الأخيرة جريراً ، فنقض عليه قصيدته ، متشمتاً بما لقى التغابيون على يد الجحاف وقومه ، معيراً الأخطل بكاءه وضعفه عن الانتصار بغير قريش ، الذين هم فى حقيقة الأمر أبناء عمومة القيسية ، لأنهم مضرية :

بكا دَوْبَلٌ لا يُرقِء اللهُ دمعَه ألا إنما يبكى من الذل دوبل
جزعتَ ابنَ ذات الفَلْس لماتداركت من الحرب أنيابٌ عليك وكلكل
فإن لا تعلَّق من قريش بذمة فليس على أسياف قيس مُعَوَّل
لنا الفضل فى الدنيا وأنفُكَ راغم ونحن لكم يوم القيامة أفضل

ومن أمثلة ذلك أيضاً فائية الفرزدق المشهورة :

عزفتَ بأعشاشٍ وما كدتَ تعزف وأنكرتَ من حدراء ما كنت تعرف

فقد أنشأها يجيب على شاعر الأنصار ، الذى تحداه أن يقول مثل قول حسان (لنا الجفنات الغُرُّ يلمعن بالضحى) . وهى قصيدة طويلة تزيد على

مائة بيت ، لم يعرض فيها لجرير ، كلها فخر بنفسه وبقومه . ولكن جريراً نقضها عليه بمائيته :

ألا أيها القلب الطروب المكلَّف　　أفِقْ ربما ينأى هواك ويُسعِف

فاضطر الفرزدق أن يلحق بقصيدته أبياتاً لاتزيد على العشرين ، يرد بها على جرير . ومن أمثلته كذلك رائية جرير ، التى رثى بها زوجته :

لولا الحياء لهاجنى استعبار　　ولزرت قبرك والحبيب يزار

وهى اثنان وعشرون بيتاً　وقد نقضها عليه الفرزدق متشمتاً بمصيبته فى رائيته :

أعَرَفْتَ بين ذُوَيْبتين وحنبل　　دِمَناً تلوح كأنها الأسطار

فاضطر جرير أن يجيبه ، وألحق رده برثائه الأول وأطال ، حتى بلغت القصيدة مائة بيت وسبعة عشر بيتاً

والواقع أن القصد إلى الهجاء ، لم يكن هو الدافع الأول إلى إنشاء هذه المجموعة الضخمة من الشعر . فلم يكن هم الشاعر أن ينال من خصمه فحسب ، ولكن كان همه الأول أن يجيد ويبدع ويتفوق فى فنه . ولذلك فقد كان يكلف نفسه أن يجيب على خصمه بقصيدة من نفس البحر والروى ، وهو تكليف يضيق على الناقض السبيل ، ويظهره بمظهر المتحدى الذى يترك لخصمه اختيار نوع السلاح الذى يريد أن يبارز به . وهذا التنافس يعلل لنا ما نجد فى النقائض من فخر كثير بالبراعة فى الشعر ، وشدة وقعه ، وذيوعه على ألسن الناس وتكرار هذا الفخر فى كل مكان ، بأسلوب متشابه ، يضيق به القارىء فى كثير من الأحيان .

ونحن لا يستطيع أن نزعم أن الفن الهجائى فى هذه النقائض ممتاز ، يبلغ حد الرفعة الخالدة . وقد يكون من الظلم للنقائض ، وللعصر الذى أنشئت

فيه ، أن تقارن بغيرها من ألوان الهجاء فى الأمم الأخرى، أو تقارن بالشعر الهجائى العباسى ، كهجاء ابن الرومى والمتنبى والمعرى . وإنما العدل أن تقاس هذه النقائض بعصرها وظروفها التى أحاطت بها . فهى أولا شعر بدوى ، لا يتذوقه القارىء المعاصر فى سهولة ويسر ، لأنه لا يترك فى نفسه صدى ، ولم يقصد به أصحابه أن يخاطبوه ، وإنما خاطبوا به قومهم ، ممن هم على شاكلتهم فى البداوة ، وعلى طريقتهم فى الحس والذوق . فالقارىء لا يستطيع أن يحس جماله ، إلا بعد أن يتماسى كثيراً من الملل والسأم ، ويتجلد لما تضيق به نفسه فى أول الأمر ، حتى إذا أوغل فى القراءة ، ومضى فى الدراسة ، غمره جو هذا الشعر ، ونقله إلى قلب البادية ، وإلى صميم هذه الحياة البدائية الخشنة . وعند ذلك فقط ، يستطيع أن يتذوق شعرهم . فهو لا يتذوقه ، إلا بعد أن يتعرف إلى أصحابه ، ويصحبهم صحبة طويلة ، تخلق فى نفسه شيئاً من الإلف لهذه الحياة ، ولهؤلاء الشعراء .

والنقائض من ناحية أخرى محدودة الغرض ، بحكم الظروف التى أحاطت بها ، والتى دعت إلى إنشائها . فهى شعر شخصى ، محوره الفرد ، لا يكاد يسمو إلى الحياة فى أفقها الواسع العام ، ولا يكاد يتصل بالنفس البشرية ، يصورها فى أطوارها المختلفة ، وحالاتها المتباينة . فالشاعر فيه يفتخر بنفسه وقومه ، والفخر ثقيل على القارىء ، لأنه يصور الغرور . ويهاجم لبغضه وغيظه ، والقارىء لا يشاركه هذا الشعور بالقياس إلى المهجو . ويمدح لرغبة فى مال أو جاه ، والقارىء لا يصيب من وراء ذلك شيئاً . وكل هذه الأسباب مجتمعة ، تجعل النقائض أقرب إلى الخصوص والضيق ، بعيدة عن العموم والشمول ، فى الاستناد إلى عاطفة يستطيع القارىء أن يشارك فيها بنصيب كبير ، فيتجاوب مع الشاعر ، ويستجيب لشعره ، ويفنى فيه وقت قراءته . وكل هذه الأسباب أيضا ، توضح لنا أن هناك تبايناً كبيراً فى العصر والظروف ،

بين شعر النقائض ، وبين الشعر العباسى أو شعر الأمم الأخرى ، يبطل المقارنة أو المفاضلة ، ويجعلها جائرة غير صحيحة .

ولعل من الحق والقصد البعيد عن التحيز ، أن نقرر أن مثل هذا الشعر لم يعد يجتذب هواة الفن الشعرى، ممن ينشدون اللذة الفنية الخالصة ، والمتعة الروحية الرفيعة . ولكنه شعر المختصين من الدارسين للأدب ، والعلماء الذين لا يجد أحدهم حرجاً من أن ينفق عمراً طويلا فى دراسة حشرة تافهة ؛ أو صخرة مهملة . وليس معنى هذا أنا نسلب النقائض كل قيمة فنية ، فالواقع أن فيها نواحى كثيرة جميلة، فهى بعض صور الإنسانية فى طور من أطوارها ، ولكننا نقول إنها قد أصبحت بعيدة عن أذواق المعاصرين وأنهم لا يستطيعون أن يجدوا فى الشعر نفسه لذة ، ولكنهم يجدون هذه اللذة فيما قد ينشأ حوله من دراسات ، تعتمد على التحليل والتعليل ، فتخلق فيه شيئاً من النشاط والحركة ، التى ترد إليه الحياة ، وتصله بالنفس الإنسانية ، وتقربه من قلوب المعاصرين .

ومع ذلك كله ، فللنقائض قيمتها ومكانتها عند دراسى الأدب العربى . وقيمتها ترجع إلى أسباب كثيرة . فشعراؤها الثلاثة هم أبرز الشعراء فى عصرهم بغير شك . وشعرهم يمثل عصرهم جملة ، ويمثل الناحية الأدبية فيه بنوع خاص . فقد رسم الحياة فى ذلك العصر بخيرها وشرها ، وصور القيم الأخلاقية والاجتماعية تصويراً دقيقاً بارعاً وهو مع هذا سجل صادق لكثير من الحوادث التاريخية التى عاصرته والتى سبقته ، منذ وعى العرب تاريخهم وأنسابهم . ولهذه الناحية الأخيرة ترجع معظم قيمة النقائض عند الدارسين . وقد زاد فى قيمة هذه الناحية وأعظم من قدرها ، هذا الشرح الطويل الذى ينسب لأبى عبيدة ، والذى يفصل ما عرضت له النقائض أو أشارت إليه من أيام العرب ، تفصيلا قصصيا رائعا ، يصور الحياة فى هذه العصور البائدة تصويرا قويا حيا .

وقد تباين شعراء النقائض الثلاثة فى طريقة علاجهم للهجاء . فغلب على الأخطل فنه الشعرى الرصين ، الذى يعنى بالألفاظ ، ويدقق فى اختيار العبارات ، فكان فى هجائه يرضى فنه الشعرى الرفيع ، بأكثر مما يستجيب لغضبه ، وللغيظ الذى يأكل نفسه . فهو لا يسف ولا يهبط إلى سباب العامة والدهماء . ولكن رصانة ألفاظه وجزالتها ، وما تضمنته من معانى شعرية ، أضفت على هجائه كثيرا من الوقار الذى حرمه روح الدعابة ، وحالت بينه وبين جمهور الناس ، الذين لا يعنيهم من الهجاء إلا النكتة المضحكة ، والسخرية البارعة المسلية . ولذلك ظل الأخطل فى هجائه — كما هو فى كل شعره — شاعر خاصة كما يقول قدماء النقاد .

وأما جرير فقد غلب عليه مرحه ودعابته ، فكان مذهبه فى الهجاء قوله : (إذا هجوت فأضحك) . وكان أسهل زملائه الثلاثة وأحظاهم عند جمهور الناس . ولم يكن يتكلف فى شعره ما يتكلف صاحباه من العناء ، فهو يكتفى بما وهبه الله من طبع شعرى خصب ، ومن حس فنى دقيق رقيق ، ويأخذ فيض هذه المواهب ، دون أن يلح فى استنزافها ، أو استخلاص أقصى ما تحتمله من إجهاد . ولذلك بدا فى شعره عامة ، وفى هجائه خاصة ، وكأنه يتكلم فى غير قصد إلى الشعر ، فإذا هو يقول شعراً . وقد أحسن قدماء النقاد وأصابوا ، إذ وصفوه بأنه يغرف من بحر . وقد أتاحت له هذه السهولة قدرة عجيبة على الإطالة ، لم يكد يجاريه فيها إلا الفرزدق ، وجعلت هجاءه أكثر ذيوعا على ألسن العامة .

أما الفرزدق فقد كان فى عامة شعره معنيا بفنه ، ولكنه لم يكن موهوباً كجرير . ولذلك فقد كان يشق على نفسه ويجهدها ، حتى لقد وصفه القدماء بأنه ينحت من صخر . ويزيد فى إحساس القارىء بهذا الجهد العنيف الذى يبذله فى شعره ، خشونة ألفاظه وغرابتها ، التى أغرت به أصحاب اللغة والغريب .

ولـكن هذه الصفة التى وسمت معظم شعره ، لم تكن واضحة فى فنه الهجائى وضوحها فى بقية الأغراض . فهو يجارى جريرا فى تناول المعانى الهجائية من قرب ، ليستطيع أن يسايره فى الإطالة والدعابة .

وليس قصدنا هنا إلى أن نتكلم عن الخصائص الهجائية لكل من هؤلاء الشعراء الثلاثة ، فقد أفردنا لكل منهم فصلا من الـكتاب ، تناولنا فيه حياته وفنه بشىء من التفصيل . ولـكن الذى يعنينا فى هذا المقام ، أن نتكلم عن الفن الهجائى فى شعر النقائض جملة ، وعن الخصائص العامة التى يشترك فيها شعراؤها الثلاثة .

فأول ما يسترعى الانتباه فى هذه الخصائص العامية والابتذال وهو ابتذال فى المعانى وفى الألفاظ وفى الأخلاق جميعاً أما المعانى فهى قريبة ، وهى فى كثير من الأحيان صورة من الحياة الواقعة ، لم يختزنها الحس الفنى ، ليصفيها من شوائبها ، وليضفى عليها من سحره وخياله وترفعه . فالشعر الهجائى يبدو كأنه لا يصدر عن أدنى جهد فنى .

يقول جرير فى هجاء الأخطل :

يا ابن الخبيثة ريحاً من عدلتَ بنا	أم من جعلتَ إلى قيسٍ إذا خطروا
قيسٌ وخندف أهلُ المجد قبلـكم	لستم إليهم ولا أنتم لهم خطر
وما لتغلب إن عدَّتْ مساعيهـا	نجمٌ يضىء ولا شمسٌ ولا قمر
والتغلبىُّ لئيمٌ حين تَجْهَره	والتغلبى لئيم حين يُخْتَبَرَ
والتغلبى إذا تمت مروءته	عبدٌ يسوق ركاب القَوم مؤتجَر
ما كان يَرضى رسولُ الله دينَهم	والطيبان أبو بكر ولا عمر
جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا	وهل يضير رسولَ الله أن كفروا

ويقول فى قصيدة أخرى :

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد وبجبرئيل وكذبوا ميكالا
أنسيت يومك بالجزيرة بعد ما كانت عواقبُه عليك نكالا
حمات عليك حُماة قيس خيلها شُعْثاً عوابس تحمل الأبطالا
زفرُ الرئيسُ أبو الهُذَيل أبادكم فسبى النساء وأحرز الأموالا

ويقول الفرزدق :

زار الفرزدقُ أهلَ الحجاز فلم يحظ فيهم ولم يحمد
وأخزيت قومك عند الحطيم وبين البقيعين والغرقد
وجَدْنا الفرزدق بالموسمين خبيثَ المَدَاخل والمشهد
نفاك الأغرُّ ابن عبد العزيز وحقُّك تُنْفَى من المسجد
تقول نُوارُ فضحتَ القيون فليت الفرزدق لم يولد
وقالت بذى حَوْمَلٍ والرماح شهِدتَ وليْتك لم تشهد

وكل هذا تقرير ساذج للواقع ، لا يقصد إلا إلى الإخبار والإفادة ؛ فهو خلو من كل ميزة فنية ، وليس للشاعر فيه إلا فضل النظم ، فهو يقدم الأخبار نظماً ، بدل أن يقدمها نثراً ، فى ثرثرة لا غناء فيها

ويقول الفرزدق لجرير :

يا ابن المراغة أنت الأم من مشى وأذل من لَبِنَاتِهِ أظفار
وإذا ذكرت أباك أو أيامه أخزاك حيث تُقَبَّل الأحجار
أنتم قرارة كل مَدفَع سَوْءة ولكل دافعةٍ تسيل قَرَارُ
إنى لأشتمكم وما فى قومكم حَسَبٌ يعادلنا ولا أخطار

وهو نظم لا يتجاوز تقرير الأشياء .

ويقول فى موضع آخر :

منا الذى اختير الرجال سَماحةً وخيراً إذا هب الرياح الزعازع

ومنا الذى أعطى الرسول عطية أسارى تميم والعيونُ دوامع

ومنا الذى يعطى المئين ويشترى الـ ـغوالى ويعلو فضلُهُ من يدافع

ويمضى فى ذلك إلى أربعة أبيات أخرى ، لا يتجاوز فيها هذا الأسلوب ولا يرتفع عنه . يقول منا الذى فعل ، ومنا الذى فعل وفعل . وهو سرد قد يفيد أصحاب التاريخ ، ولكنه من الناحية الفنية ، يهبط بالشعر إلى مستوى العامية فى التعبير .

ويقول :

وهب القصائدَ لى النوابغُ إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجرول

ويمضى فى سرد أسماء الشعراء ثمانية أبيات ، لا شىء فيها غير أسماء الشعراء منظومة فيما يشبه المتون التى وضعت فى عصور متأخرة لحفظ العلوم .

ويقول لجرير :

أتى الشامَ يرجو أن يبيع حماره وفارسه إذ لم يجد من يبادله

فجاء بعِدْلَيه اللذين هما له من اللؤم كانت أورثَتْه أوائله

وقوله (اللذين هماله) تعبير لا يخطر لشاعر يعنى بفنه أن يفسد به شعره

ويقول :

أبا مالك لابد أنى قارع لعظمك إنى للعظام قَرُوع

و (لابد) تعبير غريب على الشعر لا يصلح إلا للنثر .

ويقول :

يهتفن أين ذوو الحمية أين هم أم من يغار فلم يجدن غيورا

هذا وقد وطئت سنابك خيلنا   زوجَ المراغة صاغراً مثبوراً

وربط البيتين بكلمة (هذا) ربط نثرى ، ليس من أسلوب الشعر فى شىء .

ويقول :

وليست كليب كائنين كدارم   وودَّ جريرٌ لو عطية غالب

و (كائنين) حشو لا يصدر إلا عن المتعجل ، الذى لا يريد أن يتوقف ليسوى شعره ، ولـكنه لا يبالى ما يقول ، ولا كيف يستوى له النظم ، وكأنه مدفوع إلى تحبير عدد من الصفحات فى وقت محدود ، فهو ماض إلى بلوغ أجله ، فى غير توقف أو تريث .

هذا هو ماعنينا بالعامية والابتذال فى المعانى والتعبير . أما الألفاظ فهى فى كثير من المواضع سباب عامى مبتذل ، لا يفترق كثيراً عما نسمع من شتائم الدهماء ، التى تتناول الآباء والأمهات ، ولا تعف عن استعمالها فى صيغها الشعبية المسفة .

يقول الفرزدق :

إذا أنت ياابن الـكلب ألقتك نهشل   ولم تك فى حِلْفٍ فما أنت صانع

ويقول فى موضع آخر :

تصاغَرْتَ ياابن الـكلب لما رأيتنى   مع الشمس فى صعبٍ عزيز معاقله

ويقول جرير :

أخت الفرزدق من أبيه وأمه   باتَتْ وسيرتها الوجيف الأرفع

وقوله (من أبيه وأمه) توكيد عامى مأخوذ من أفواه الدهماء .

ويقول :

كانت الفرزدق شاعراً لخصيته   ناك الفرزدقُ أمَّه من شاعر

أمسى الأخيطل للفرزدق ضَرَّةً فيم المراء وقد نكحتُ ضرائرى

ويقول :

إذا ما كنت ملتمساً نكاحا فلا تعدل بليك بنى ضرار

وإن لاقيت ضبياً فنكه فكل رجالهم رخو المختار

وليس يعنينا أن يخرج الفرزق أو جرير عن آداب الناس فى شتائمهم ، ويشذا عن الذوق المهذب والخلق السليم ، ولكن الذى يعنينا هذه الألفاظ العامية المبتذلة ، التى تنقل السباب من أفواه الدهماء كما هو ، لا عمل فيه للخيال ، فتهبط بمستوى الصناعة الشعرية عما ينبغى له من ترفع فنى

أما التبذل الأخلاقى فهو كثير يملأ النقائض ، لا يفتح القارىء فيها صفحة إلا وقع على مثال له ، وكله تفصيل بغيض للسوءات ، وأكثر مانجده فى شعر جرير ، حين يتهم جعثن أخت الفرزدق بالمقرى ، أو ليلى جدته بعبدها جبير[1] ، ويمعن فى تفصيل مايجرى بينهم من أدق الحركات الفاضحة والعجيب فى الأمور والمؤلم فى نفس الوقت ، أن النقائض أخصب ما تكون فنا ، وأكثر ماتكون افتناناً وتصرفاً ، حين تعرض لأمثال هذه الفضائح ، فى أسلوب قصصى ، لا يفسد روعته إلا طبيعة مواضيعه ، التى تحرمه على الدارسين أن يكون موضع تحليلهم ونقدهم .

وظاهرتان أخريان تحتلان من النقائض مكانا بارزا ، هما تكرار المعانى والفخر الكثير بالمقدرة الشعرية . أما التكرار فهو نتيجة طبيعية للإكثار ، فكل واحد من الشعراء الثلاثة لا يرضى أن يسكت فيكون مغلوبا ، فليس له بد من أن يرد . وقد طال بينهم الأمر وامتد المدى ، حتى لم يعد أمامهم إلا أن يكرروا ماقالوا ، ويعيدوا ما أبدأوا فجرير يعير الفرزدق أن أجداده كانوا يصرفون بعض عبيدهم للحدادة ، فهو من بيت صناع حدادين . ويعيره

---

(١) لتقديم مثال على ذلك تراجع ص ٣٤٩ بديوان جرير .

خبث أخلاقه ومنافاتها للدين ، فهو سكير زناء ، ويختلق على أخته صلتها بالمنقرى ، ويشنع على جدته ليلى بصلتها ببعض رقيقها الذين كانوا يستخدمونهم فى الحدادة . وهى معان محدودة ، لا يخرج عنها فى كل هذه المجموعة من الشعر ، ولكنه يسوقها فى قصص لا يخلو من جمال كما قلنا ، لولا إمعانه فى الفحش ، ولولا ثقل التكرار على القارىء ، الذى يسمع القصة بعينها فى كل قصيدة . والفرزدق لا يعير جريرا إلا ضعف نسبة وضعة أبيه . وهو يقابل اختلاق جرير على أخته باختلاق مثله ، يشنع فيه على جرير وأبيه بصلتهم بالحمير . والقارىء يسمع القصة بعينها فى كل قصيدة .

ولكن اضطرار هؤلاء الشعراء إلى الإعادة والتكرار ، قد جعلهم يفتنون فى هذه المعانى القليلة التى بين أيديهم ، فيخرجونها فى شتى الصور ، ويولدوا منها مختلف المعانى والأخيلة ، فأحدثوا بذلك فى الهجاء لونا طريفا من القصص الهجائى ، الذى يدور على الحوار الفكه ، والدعابة المضحكة . وكان جرير أبرع الثلاثة فى هذا اللون من القصص الهجائى . ويكاد الفرزدق يجاريه فيه ولكنه يقصر عنه . أما الأخطل فقد كان أكثرهم تخلفا فى هذه الناحية وكان شعره لذلك أقل الثلاثة رواجا عند جمهور الناس ، الذى لا يعنيه من هؤلاء المتشاتمين إلا النادرة الحلوة ، والنكتة المضحكة .

يولد جرير من اتخاذ أجداد الفرزدق الحدادة شتى الصور . فهو مرة يتصور جد الفرزدق فى قبره ، وقد دفنت معه آلات الحدادة وأدواتها ، من كثيف وكلبتين ومنشار ، ثم يتصور الناس وقد أنكسر لأحدهم قدر أو مرجل ، فيتذكره لأنه كان يصلحها

سنثير قينكم ولا يُوفِى بها   قَيْنٌ بقارعة الطريق مثار

وُجِدَ الكتيفُ ذخيرةً فى قبره   والكلبتان جُمِعْن والمنشار

يَبْكى صداه إذ تهَزَّم مِرجَلٌ   أو إن تثَلَّم بُرمةٌ أعشار

ومرة يتصور حدراء زوج الفرزدق ، وقد أنكرت ريحه وماعلا جسمه القصير من صدأ الحديد ، ، ويتصور الفرزدق إذ يطلب إليها إن تصلح مافسد من الأكيار بترقيعه ، فتقول له إنها لا تجيد ذلك ولا تعرفه ، لأن أجدادها من أشراف العرب ، وليسوا كأجداده أصحاب حدادة . وهى تدعو الله أن يخلصها من هذا البلاء الذى ألقاها أهلها فيه ، مستعيذة به من شر هذا الصهر المشئوم ، ومن جوار هذا الحداد المنتن الرائحة .

حدراء أنكرت القيونَ وريحهم والحرُّ يمنع ضيمَه الانكارُ
لما رأت صدأ الحديد بجلده فاللون أورقُ والبنان قصار
قال الفرزدق رقعى أكيارنا قالت وكيف ترقع الأكيار؟
رقع متاعك إن جدِىَ خالدٌ والقينُ جدك لم تلدك نزار
وسمعتُها اتصلَتْ بذهلٍ إنهم ظلوا بصهرهم القيونَ وجاروا[1]
دَعَت المصور دعوة مسموعة ومع الدعاء تضرع وحذار
عاذت بربك أن يكون قرينُها قينا أحَمَّ لفسوِهِ إعصار

وهو حينا يتهم قُفَيْرة أم صعصعة بعبيدها الذين يشتغلون بالحدادة .

ولدَتْ قفيرة أم صعصعة ابنها فوق المُزَنَّم بين وطَبَى جازر
جعات قفيرةُ ليلتين لهُرْمُزٍ والزيِّبان وليلةً لقُنابِر

ويتهمها أخرى بجبير عبدها .

تسوف صُنَان القين من رِبَّةٍ به ليجعل فى ثقب المَحَالة محورا[2]

---

(١) ذهل بن شيبان بطن من بطون بكر وهم قوم حدراء زوج الفرزدق .

(٢) تسوف تشم . ليجعل فى ثقب المحالة محوراً ، هو مثل ضربة لفعله بها . المحالة البكرة التى تكون فوق البئر ويدور عليها الحبل الذى يحمل الدلو والمحور الخشبة التى تدور عليها البكرة .

تزور جبيراً مرة ويزورها وتترك أعمى ذا خميل مدثَّرا(١)
ويخلِجُ منها القينُ محيوكةَ القرَى كأن بها مُخًّا من البيض أصفرا(٢)

ومرة يتهم ليلى جدة الفرزدق بجبير هذا ، فيقول إن غالبا أبا الفرزدق هو فى الحقيقة ابن جبير ، وليس ابن صعصعة .

تلقى نساء مجاشع من ريحهم مَرْضَى وهن إلى جبير نُزَّع
ليلى التى زفرَتْ وقالت حبذا عرقُ القِيَانة من جبير ينبع
كلٌّ الذى غيرتُمُ أن قلتم هذا لعمرُ أبيك قينٌ مولَعُ !

ويقول :

تركتم جبيرا عند ليلى خليفةً أصعصعَ بئس القينُ قينُك صعصعا
وما حفات ليلى ملامةَ رهطِهـا ولا حفظت سِرَّ الحَصَانِ المنعا
أبان لـكم فى غالبٍ قد علمتم نِجارُ جبيرٍ قبل أن يتيَمَّما

ولذلك فهو يتصور جبيرا يهدى إلى غالب أبى الفرزدق بعض النصائح فى صناعة الحديد :

وأوصى جبيرٌ إلى غالب وصيةَ ذى الرحمِ المُجْهَد
فقال ارفقَنَّ بلَيِّ الـكتيف وحكٍّ المشاعب بالمَبرد

وهكذا تجد الشاعر يتصرف فى المعنى الواحد ، فيخلق منه صورا فنية متعددة ، وإن كان أصلها واحدا .

---

(١) جبير عبد كان لهم يشتغل بالحدادة الأعمى يقصد به صعصعة جد الفرزدق . الخميل القطيفة .
(٢) يخلج يجذب . القرى بفتح القاف الظهر .

أما التهديد والفخر بالمقدرة الشعرية ، وتكراره فى كل مكان من النقائض فأمثلته كثيرة . يقول جرير للأخطل .

تعرضت من دون الفرزدق محلبا   فما كنت منصورا ولا عالى الكعب
تصليت بالنار التى يصطلى بها   فأرداكَ فيها وافتدى بك من حربى

ويقول :

ترى الشعراء من صَعِقٍ مصاب   بصَكتِه وآخر مستديم [1]
لقد وجدوا رِشائى مستمراً   ودلوى غيرَ واهيـة الأديم [2]
ومثلك قد تصدت له فأمسى   أخا حلم وما هو بالحليم [3]
يرى حسراته ويخاف درئى   ويغضى طرفه نَظَرَ الأميم [4]

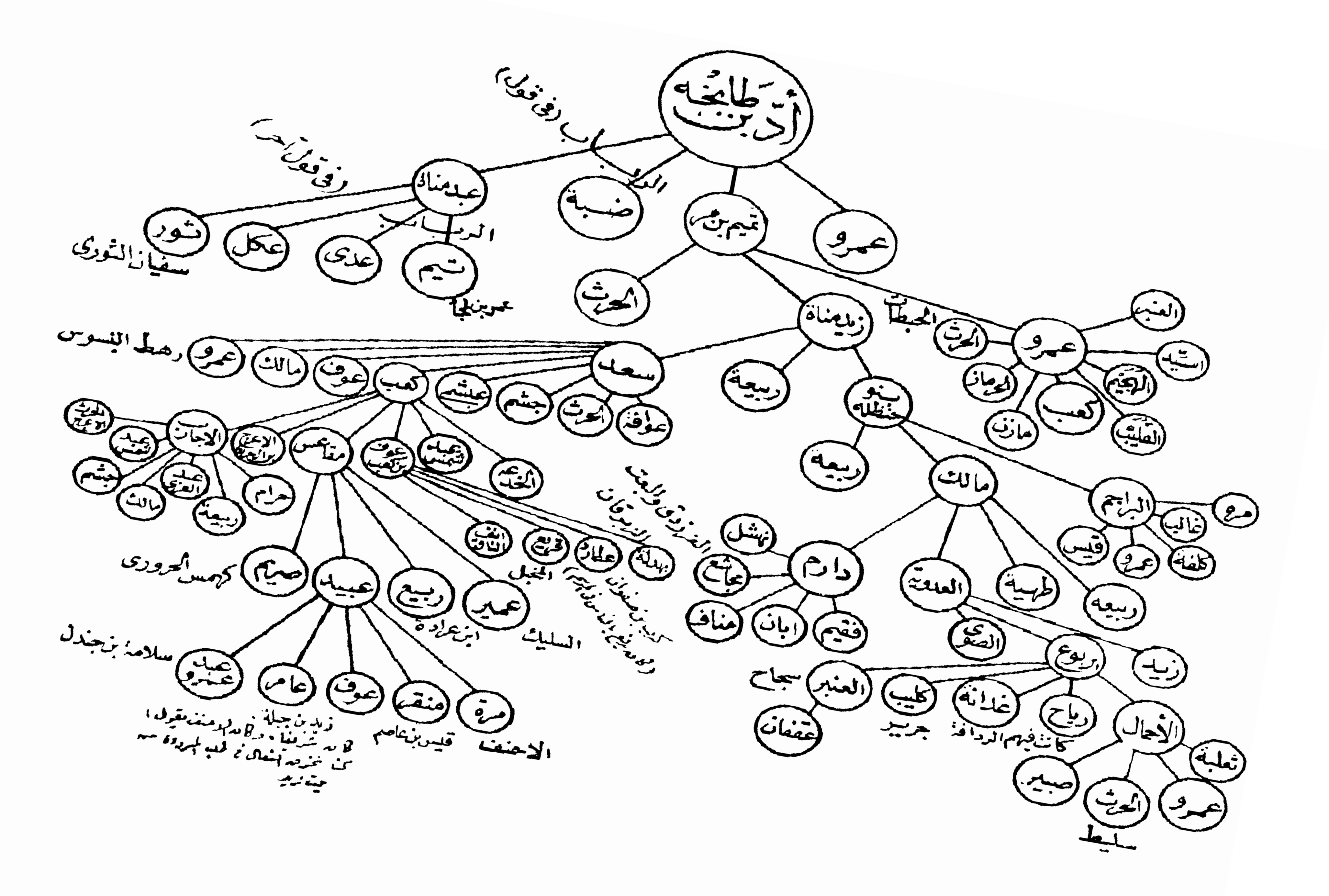
ويقول :

عوى الشعراء بعضهم لبعض   علىَّ فقد أصابهم انتقام
كأنهم الثعالب حين تلقى   هزبرا فى العرين له انتحام
إذا أوقعتُ صاعقةً عليهم   رأوا أخرى تحرق فاستداموا

ويقول الفرزدق :

تغنى يا جرير لغير شىء   فقـد ذهب القصائد بالرواة
فكيف ترد ما بعمان منهـا   وما بجبـال مصر مشهرات

(١) صعق مغشى عليه مستديم منتظر لصكة أخرى .
(٢) الرشاء الحبل الذى تربط به الدلو . يقصد طول نفسه فى الشعر ، وخصب طبعه .
(٣) يقول إن خصمه يتكلف الحلم وليس هو فى الحقيقة حليما ، ولكنه ضعف عن مجاراته .
(٤) الدرء الدفع . الأميم المشجوج الرأس الذى بلغ جرحه أم الدماغ .



أد بن طابخة
عمرو
تميم بن مر
ضبة
الرباب (في قول)
عبد مناة
(في قول آخر)
ثور
سفيان الثوري
عكل
عدي
تيم
الرباب
الحرث
زيد مناة
عمرو
الحبطات
الحرث
الحماز
مازن
كعب
العنبر
اسيد
الهجيم
القليب
ربيعة
بنو حنظلة
ربيعة
مالك
البراجم
غالب
قيس
عمرو
كلفة
مرة
ربيعه
طهية
العدوية
الصوي
زيد
يربوع
رياح
غدانة
كليب
جرير
العنبر
سجاح
عقفان
الأحمال
ثعلبة
عمرو
الحرث
صبير
سليط
دارم
نهشل
مجاشع
الفرزدق والبعث
أبان
فقيم
مناف
سعد
رهط البنوس
عمرو
مالك
عوف
كعب
عبشمس
جشم
الحرث
عوافة
الأجارب
جشم
مالك
ربيعة
حرام
مقاعس
عوف بن كعب
عبد شمس
بهدلة
الزبرقان
عطارد
قريع
الجحل
أنف الناقة
صريم
كهمس الحروري
عبيد
ربيع
ابن عرادة
عمير
السليك
عبد عمرو
سلامة بن جندل
عامر
عوف
منقر
قيس بن عاصم
مرة
الأحنف

غلبتك بالفقىء والمعنى وبيت المحتنى والخافقات

ويقول :

تبكى المراغة بالرغام على ابنها والناهقات ينحن بالإعوال

قالوا لها احتسبى جريرا إنه أودى الهزبرُ به أبو الأشبال

ألقى عليه يديه ذو قومية وَرْدٌ فدق مجامع الأوصال

قد كنتُ لو نفع النذير نهيتهُ أن لا يكون فريسة الرئبال

وهذا الإكثار من الفخر بالمقدرة الشعرية ، والتهديد بما سيصيب الخصم من نكال وعار ، ليس إلا مظهرا لما قدمنا من أن هذه النقائض تصور منافسة فنية ، يزعم فيها كل واحد من هؤلاء الشعراء أنه أشعر من صاحبه .

جـــرير

ينتسب شاعرنا إلى فرع من تميم اسمه يربوع ، كانت بعض بيوته على جانب من الشهرة فى الجاهلية والإسلام . فقد كانت الردافة فى بيت منهم اسمه رياح . ومن آخر اسمه العنبر ظهرت سجاح ، التى تنبأت فى حركة الردة . وقد غلب بنو يربوع فى أيام الفتنة على البصرة والكوفة وخراسان ، غلب على البصرة سلمة بن ذؤيب الرياحى ، وغلب على الكوفة مطر بن ناجية اليربوعى لابن الأشعث ، وأخرج منها عامل الحجاج ، وغلب على خرسان وكيع بن أبى سود اليربوعى ثم الغدانى ، وقتل قتيبة بن مسلم الباهلى [١] . وقد افتخر جرير بذلك فى قوله: [٢]

ويوم عبيد الله خُضْنا براية ... وزافرةٍ تمّت إلينا تميمها [٣]

لنا ذارة عن الحفاظ وقادة ... مقاديم لم يذهب شَعاعاً عزيمها

عن المنبر الشرقى ذادت رماحنا ... وعن حرمة الأركان يُرمَى حَطِيمُها

يقصد بالمنبر الشرقى منبر البصرة وخراسان ، ويقصد بمنع الحطيم إنجاد الخوارج لابن الزبير ، حين حاصره الحجاج فى ملك يزيد ، وكان معظم الخوارج وقتذاك من تميم [٤]

والظاهر أن بيت صاحبنا فى كليب بن يربوع لم يكن نابها ولا مشهوراً ، وإن كنا نعرف أن الخطفى جد جرير كان مثريا فيما يروى محمد بن حبيب [٥] ،

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ١ ١٠٧

(٢) ديوان جرير ٥٤٨

(٣) الزافرة الأعوان يوم عبيد الله بن زياد وذلك حين ترك الامارة بعد موت يزيد بن معاوية .

(٤) نقائض جرير والفرزدق ١ ١٠٧ ، ابن الأثير ٣ ٣٣٦

(٥) ديوان جرير ٦٠١

فى خبر أبياته المشهورة التى يعاتبه بها ، وهى الأبيات التى عاتب بها يزيد أباه معاوية وداعاها لنفسه ، لأن جريراً لم يكن قد اشتهر وقتذاك .

فرُدِّى جِمال الحى ثم تحملى — فما لكِ فيهم من مقام ولا ليا
فأنت أبى مالم تكن لى حاجة — فإن عرضت أيقنتُ أن لا أباليا
وإنى لمغرورٌ أعلَّل بالمنى — ليالى أرجو أنّ مالَكَ ماليا[1]
بأى سنانٍ تطعن القوم بعد ما — نزعت سنانًا من قناتك ماضياً
بأى نِجادٍ تحمل السيف بعد ما — قطعتَ القُوى من مَحْمِل كان باقيا[2]
وإنى لعَفٌّ الفقر مشترَك الغِنى — سريعٌ إذا لم أرض دارى انتقاليا[3]
جرئٌ الجنان لا أهاب من الردى — إذا ما جعلتُ السيف قَبْضَ بنانيا
وليس لسيفى فى العظام بقية — وللسَّيْفُ أشوى وقعةً من لسانيا
ألا لا تخافا نَبْوَتى فى مُلِمَّةٍ — وخافا المنايا أن تفوتكما بيا[4]

وهى قصيدة طويلة ، أضاف إليها الشاعر فى وقت متأخر أبياتا فى هجاء الفرزدق . وهى تصور صاحبنا جيد الشعر فى ذلك الوقت ، وإن كان خاملا غير معروف ومع ما يروى محمد بن حبيب من خبر جده وثروته ، فنحن نعرف أن عطية الخطفى أبا جرير كان فقيرا خاملا ، ليس فيه شىء يستطيع ولد أن يفاخر به سأل رجل جريرا : من أشعر الناس ؟ قال له : قم حتى

---

(١) يقول لجده لقد غررت نفسى حين زعمت لها أن لا فرق بين مالك ومالى .
(٢) النجاد حمائل السيف . القوى الحبال . هذا مثل ضربه له ، يقول لم يعد لك من تعتمد عليه .
(٣) يقول إنه إذا افتقر كان عفيفا ، وان أثرى أشرك الناس فى ثروته وماله .
(٤) يقول لا تخافوا قعودى عن نصرتكم حين تحتاجون إلى ، فليس يمنعنى من ذلك إلا الموت . فمهما قصرتم فى حقى فسأظل مخلصا لكم حتى الموت .

أعرفك الجواب. فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية ، وقد أخذ عنزا له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها ، فصاح به ، اخرج يا أبت . فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال ابن العنز على لحيته . قال : ألا ترى هذا ؟ قال: نعم . قال : أتعرفه ؟ قال :لا . قال : هذا أبي . أفتدرى لم كان يشرب من ضرع العنز ؟ قال : لا قال : مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن . ثم قال : أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعرا وقارعهم به ، فغلبهم جميعاً

وقد يكون التحديد الدقيق لمولد شاعرنا صعباً غير يسير ، ولكننا نستطيع أن نقول إنه ولد فى أواخر أيام عثمان . فابن خلكان يقول فى ترجمته إنه توفى بين ١١٠ هـ ، ١١٤ هـ — على خلاف فى الروايات — وله نيف وثمانون عاماً . ومولده على هذا حوالى ٣٠ هـ . ويتفق ذلك مع ما يروى ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ، من أنه عاش نيفا على ثمانين عاماً وبؤيد ذلك ما يذكر جرير من شيبه فى أول قصيدة مدح بها عبد الملك بن مروان (٦٥ هـ — ٨٦ هـ) ، حين أوفده الحجاج إليه ، لأن الحجاج ولى العراق ٧٥ هـ ، ووفود جرير على عبد الملك لا بد أن يتأخر عن ذلك سنوات ، لأنه ظل مدة يمدح الحجاج . وعلى ذلك فنحن لا نستطيع أن نقبل مايروى فى النقائض [١] ، من أن شاعرنا كان تَرْعِيَةً يرعى على أبيه الغنم ، لم يقل الشعر بعد ، على عهد ان ملك ابن الزبير [١].

وقد بدأ جرير حياته الشعرية بالرجز ، شأن معظم الشعراء ، فاشتبك بشاعر معروف من قومه اسمه غسان السليطى ، فكانا يتبادلان السباب بالرجز ، ثم لحم بينهما التهاجى شعرا ، فلم يزالا يتناقضان ، حتى دخل بينهما البعيث . وقد أتاح ذلك لجرير شيئاً من الشهرة الضيقة فى قبيلته ، ولكنه لم يظهر فى

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ١ ٤

(٢) ملك ابن الزبير من ٦٤ هـ — ٧٣ هـ .

الحياة العامة إلا فى ملك يزيد . روى صاحب الأغانى بسنده عن جرير أنه قال : وفدت على يزيد بن معاوية وأنا شاب يومئذ [١]. فاستؤذن لى عليه فى جملة الشعراء ، فخرج الحاجب إلى وقال : يقول لك أمير المؤمنين إنه لا يصل إلينا شاعر لا تعرفه ، ولا تسمع بشىء من شعره ، وما سمعنا لك بشىء فنأذن لك على بصيرة . فقلت له ، تقول لأمير المؤمنين : أنا القائل :

وإنى لعف الفقر مشترك الغنى ... سريع إذا لم أرض دارى انتقاليا

فدخل الحاجب عليه فأنشده الأبيات ثم خرج إلى وأذن لى . فدخلت وأنشدته وأخذت الجائزة مع الشعراء ، فكانت أول جائزة أخذتها من خليفة . وقال لى : لقد فارق أبى الدنيا ، وما يظن أبياتك التى توسلت بها إلى إلا لى.[٢]

ولم يلبث يزيد أن مات واضطرب أمر العراق . وظهر فى الكوفة رجل من بنى يربوع اسمه سلمة بن ذؤيب الرياحى ، يدعو لبيعة ابن الزبير ، فاجتمع عليه الناس حتى كثف جمعه . وضعف أمر عبيد الله بن زياد ، فكان يأمر بالأمر فلا ينفذ ، ويرد عليه رأيه ، ويحال بينه وبين أعوانه وطلبته . فلجأ إلى الأحنف بن قيس ، سيد تميم وشيخها فى ذلك الوقت ، وطلب إليه أن يكف سلمة . فخف لإعانته ، ثم قعد عنه ، لما رأى قوة الداعين لابن الزبير . ولم يجد ابن زياد بدأ من الهرب خوفاً على نفسه[٣] ، فنزل فى حماية سيد الأزد ، مسعود ابن عمرو . واستطاع الأزد أن يستميلوا ربيعة واليمن إلى جانبهم ، فاتفقوا على أن يردوا ابن زياد إلى دار الإمارة . وما زالوا يتحرشون بتميم حتى ثاروا ، وعلى رأسهم الأحنف ، ومعهم القيسية ، فقتلوا مسعود بن عمرو الأزدى . وأحرقوا دار مالك بن مسمع سيد ربيعة . واستطاع رجل آخر من بنى

---

(١) هذه الرواية تؤيد ما ذهبنا إليه من أن مولده حوالى ٣٠ هـ.

(٢) الأغانى ٨ ٣٦ .

(٣) ابن الأثير ٣ ٣٢٠ .

يربوع اسمه عتاب بن ورقاء الرياحى، أن يخضع الخارجين على الجماعة من أهل الرى . وبذلك حفظ بنو تميم العراق لابن الزبير ، حتى قدم عماله[١].

وكانت تميم فى موقفها هذا قسمين: قسم يتعصب لابن الزبير ويدعو له ، يتزعمه بنو يربوع ، وعلى رأسهم سلمة بن ذؤيب الرياحى . وقسم لا يحارب اليمنية والربعية إلا على الحفاظ ، ولأنهم بدءوهم بالعدوان ، وهؤلاء يمثلهم سعد بن زيد مناة — وهم فرع ظاهر من تميم يتميز بشرفه — وعلى رأسهم الأحنف بن قيس[٢].

من ذلك نرى بوضوح أن بعض تميم والقيسية كانوا زبيرية ، واليمن وربيعة كانوا أمويين . وليس فى ديوان جرير الذى بين يدينا شعر يبين اتجاهه فى هذه الفترة ، ولكننا نستطيع أن نجزم بأنه كان زبيرياً ، شأنه فى ذلك شأن قومه من بنى يربوع ، الذين كانوا من أظهر فروع تميم تعصباً لابن الزبير . ولكن جريراً لم يكن من وجهاء قومه، وأصحاب رأيهم حتى يدخل فى ذلك . ثم هو رجل مسالم ، حريص على أن يبعد بنفسه عن مواطن الشبهة ، وما قد يعرضه فى غده للشر ، فهو يكتفى بأن يؤيد ابن الزبير بقلبه . على أنه لم يكن معنياً بشئون الناس ومشاكل السياسة؛ فكل مواهبه الهجائية تتجلى فى مهاجمة الأفراد ، ولا تتجاوز ذلك إلى الجماعات . وقد كان همه فى ذلك الحين أن يجيب الذين تجمعوا عليه من شعراء قومه . فالبعيث المجاشعى قد دخل بينه وبين غسان ، معيناً أخواله السليطيين . ثم ثقل حمله بدخول الفرزدق ، حين أفحش جرير على بنى مجاشع ، وتناول أعراضهم ، فحمى الفرزدق لهم، وانضم للبعيث فى مهاجمته . ومما يؤيد ما نذهب إليه ، من انشغال جرير فى ذلك الوقت

---

(١) ابن الأثير ٣ : ٣٢١ — ٣٢٦ .

(٢) ابن الأثير ، نقائض جرير والفرزدق ١ : ١٠٣ وما بعدها .

بمهاجاة هؤلاء الشعراء ، قوله فى أول أمر الفرزدق ، مخاطباً الحرث بن ربيعة المخزومى ، والى ابن الزبير على البصرة :

أبا خالد أبليت حزما وسؤدداً وكلُّ امرىء مثنًى عليه بما يُبلى

أبا خالد لا تُشمِتن أعاديا يودون لو زلت بمهلكة نعلى

والحرث بن ربيعة المخزومى كان والياً على البصرة لابن الزبير ، بين عامى ٦٥ هـ — ٦٨ هـ ، لأن الكوفة والبصرة صمتا لمصعب عام ٤٩[١]. ويؤيد ذلك أيضاً قول جرير للبعيث ، قبل أن يدخل الفرزدق بينهما .

ويوم عبيد الله خضنا براية وزافرة تمت إلينا تميمها

عن المنبر الشرقى ذادت رماحنا وعن حرمة الأركان يرمى حطيمها

وهو لا يستطيع أن يفخر بذلك فى ملك الأمويين ، ولا يمكن إلا أن يكون فى ملك ابن الزبير . ومما يصور زبيرية جرير ، هذه القصة التى يرويها الأغانى فى وفوده على عبد الملك بن مروان ، وما لقى من مصاعب فى سبيل الوصول إليه[٢]. فقد أوفده الحجاج مع ابنه محمد ووصاه به ، وأمره بمسألة عبد الملك فى الاستماع منه ومعاونته . فلم يزل محمد بن الحجاج يلح على عبد الملك حتى أذن له . فلما استأذن فى الإنشاد قال له : وما عساك أن تقول فينا بعد قولك فى الحجاج . ألست القائل :

من سَدَّ مطَّلع النفاق عليكموا أم مَنْ يصول كصولة الحجاج ؟

إن الله لم ينصرنى بالحجاج ، وإنما نصر دينه وخليفته . أولست القائل .

أم من يغار على النساء حفيظة إذ لا يثقن بغيرة الأزواج

يا عاض كذا وكذا من أمه ! والله لهممت أن أطير بك طيرةً بطيئاً

---

(٤) ابن الأثير ، ٣ ٣٥٦ ، ٣٩٧

(١) الأغانى ٨ ٦٦

سقوطها ! اخرج عنى ! فأخرج بشَر . فلما كان بعد ثلاث شفع إليه محمد بن الحجاج وقال له : يا أمير المؤمنين . أنى أديت رسالة عبدك الحجاج وشفاعته فى جرير ، فلما أذنت له خاطبته بما أطار لبه منا وأشمت به عدوه ، ولو لم تأذن له لكان خيراً له مما سمع، فإن رأيت أن تهب كل ذنب له لعبدك الحجاج ولى فافعل . فأذن له . فاستأذن فى الإنشاد . فقال لا تنشدنى إلا فى الحجاج فإنما أنت للحجاج خاصة . فسأله أن ينشده مديحه فيه ، فأبى وأقسم أن لا ينشده إلا من قوله فى الحجاج ، فأنشده وخرج بغير جائزة . فلما أزف الرحيل، قال جرير لمحمد بن الحجاج : إن رحلت عن أمير المؤمنين ، ولم يسمع منى ولم آخذ له جائزة ، سقطت آخر الدهر . ولست بارحاً بابه أو يأذن لى فى الإنشاد . وأمسك عبد الملك عن الأذن له . فقال جرير ارحل أنت وأقيم أنا . فدخل محمد على عبد الملك فأخبره بقول جرير ، واستأذنه له ، وسأله أن يسمع منه ، وقبل يده ورجله . فأذن له . فدخل فاستأذن فى الإنشاد فأمسك عبد الملك . فقال له محمد : أنشد ويحك . فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطُون راح

فلما وصل جرير فى إنشاده إلى هذا البيت اهتز عبد الملك وطرب .

ويؤيد زبيرية جرير كذلك ، تعصبه للقيسية ، وما يملأ ديوانه من ترديد أيامهم مع تغلب ، التى كانت ممالئة لبنى أمية . يقول للأخطل .

وقيسٌ أذاقوك الهوان وقوّضوا بيوتكم فى دار ذُلٍ ومَحْرَب

فوارسُنا من صلب قيسٍ كأنهم إذا بارزوا حربا أسنَّة صُلَّب

ويقول مؤيدا حلف تميم لقيس .

وقد أوردت قيسٌ عليكَ وخندف   فوارسَ هُدَّمن الحياضُ التى تُجْبى (١)

ويقول للفرزدق :

لنا قيسٌ عليكَ وأىُّ يوم   إذا ما احمرَّ أجنحةُ العُقاب (٢)

ويقول له :

ولقد جهلت بشتم قيس بعد ما   ذهبوا بريش جناحك المكسور

قيس وجد أبيك فى أكياره   قواد كل كتيبةٍ جمهور (٣)

ويقول له

لقد لحق الفرزدق للنصارى   لينصرهم وليس به انتصار

تخاطر من وراء حِمَاىَ قيسٌ   وخِندفُ عزَّ ما حَمِى الذِمار

وهنا يبدو وجه الخلاف الشديد بين جرير والفرزدق . فالفرزدق أبىّ يكرم نفسه ويعتد بحسبه . وهو يمدح الأمويين حين لايجدبدا من الدخول فيما دخل فيه الناس ، ولكنه لا يقدم عليهم ولا يزورهم . أما جرير فهو يلتمس السبيل للوصول إليهم ، ويحتمل فى سبيل ذلك المكاره ، طمعاً فى عطائهم . وهو يحتال لذلك ، فيتصل بالحجاج أول الأمر ، لأن ذلك أهون عليه ، ولأن الحجاج قيسى من ثقيف ، فهو أقرب إلى الصفح عنه . ويجهد جرير نفسه فى مدح الحجاج ، ويقول فيه أجود ماقال فى مدح إنسان ، حتى يبلغ رضاه ويستطيع أن يضمن شفاعته له عند الخليفة .

(١) خندف امرأة ينسب إليها بنوها وهم مدركة بن إلياس بن مضر (جد قريش) وطابخة بن إلياس بن مضر (جد تميم) . ومضر شعبان كبيران خندف ويشمل قريشا وتميما ، وقيس عيلان وهو يضم قبائل كثيرة مشهورة منها هوازن وسليم وثقيف وعبس وذبيان .

(٢) العقاب الراية . وإنما تحمر من الدم .

(٣) الأكيار جمع كير ، وهو المنفاخ الذى ينفخ به الحداد ليذكى النار .

كان جرير رجلا من غمار الناس ، ولم يكن بالرجل الصلب الذى يقوى على النضال والكفاح . فهو يؤثر العافية ، ويحرص على إرضاء الحكام والرؤساء . يتقرب بالمدح ، ضمانا لسلامته واطمئنانه ، وطمعا فى مالهم وعطائهم ، ويبلغ فى ذلك حد التلون والنفاق . لا يكاد يصل إلى عبد الملك حتى يرضيه بشتم ابن الزبير (أبى خبيب) ، والتعريض به فى أول قصيدة مدحه بها فيقول :

دعوتَ الملحدين أبا خُبَيب ... جِماحاً هل شُفِيتُ من الجماح[1]

فقد وجدوا الخليفة هِبْرِزِيًّا ... أَلَفَّ العِيص ليس من النواحى[2]

فما شجراتُ عيصك فى قريش ... بعَشَّات الفروع ولا الضواحى[3]

رأى الناسُ البصيرةَ فاستقاموا ... وبيَّنَت المِراض من الصِحاح

و لا يكاد الحجاج يموت ، حتى يستبيح جرير لنفسه أن يعرض به عند سليمان بن عبد الملك ، أرضاء له ، لما هو معروف من تباغضهما . وهو لا يستحى أن يفعل ذلك ، مع ما سلف من مدائحه الرائعة فيه ، ومن إحسان الحجاج إليه . يقول لسليمان إنك قد أنقذت الناس من بلاء عظيم . ويصف تعذيب الحجاج للناس فى سجنه المشهور (ديماس) وتنكيله بهم . فهذا رجل مكبل فى القيود ، وذاك قتيل ، وتلك امرأة قد علقت من ثديها .

أجرتَ من المظالم كل نفس ... وأديت الذى عهد الرسول

ويدعوك المكلَّفُ بعد جَهْد ... وعانٍ قد أضرَّ به الكُبُول

(١) الجماح العناد والخلاف . الملحد المخالف . ومنه الالحاد بمعنى الكفر لانه انحراف عن الدين .

(٢) الهبرزى الخالص . الألف الملتف . العيص الشجر . هذا مثل ضربه ، يريد أنه من وسط العز ليس من نواحيه .

(٣) العشة بفتح العين وتشديد الشين الشجرة اللئيمة المنبت الدقيقة القضبان . الضواحى التى سقط ورقها فبدت عيدانها .

وما زالت معلقةٌ بشدى بذى الدَّيماس أو رجلٌ قتيل

فَرَجْتَ الهمَّ والحلقاتِ عنهم فأحيى الناسُ والبلدُ المحُول

كان جرير لا يبالى غير سلامته ، فهو لا يهجو إلا من تعرض له من الشعراء ، ولا يعرض لنقد الولاة والعمال أو مواجهة سياستهم . وهو لا يرتزق بالهجاء ، لأن ذلك قد يعرضه للشر ، ولكنه يعول فى ذلك على المدح ، ويسوم نفسه فى سبيل المال أقبح الذل ، وأبغض الإلحاف فهو لا ينتظر عطاء من يمدحه ، ولكنه يصرح بالسؤال مستجديا ، ويكثر من الشكوى متمسكنا ، وكأنه يستكثر بذلك من العطاء ، ويراه داعيا للزيادة .

يقول لعبد العزيز بن الوليد .

إلى عبد العزيز شكوتُ جهدا من البيضاء أو زمن القَتاد

سنين مع الجراد تعرّقَتْنا فما تُبقِى السنون مع الجراد[١]

ويقول للحجاج .

ألا نشكو إليك زمان محل وشربَ الماء فى زمن الجليد

ويقول لمعاوية بن هشام (وهو هنا مداعب خفيف الروح) .

ماذا ترى فى عيال قد برمتُ بهم لم تُحصَ عِدّتهم إلا بعدّاد

كانوا ثمانين أو زادوا ثمانيـة لولا رجاؤك قد قتّلت أولادى

ومن دعابته فى السؤال المحلف قوله لسليمان بن سعد صاحب ديوان العطاء باليمامة .

تركتُ عيالى لا فواكه عندهم وعند ابن سعد سكر وزبيب

تَحَنّى العظام الراجفات من البِلى وليس لداء الركبتين طبيب

---

(١) البيضاء السنة التى لا نبات فيها . وزمن القتاد حين يرعى الناس رعى القتاد فيلهبوا فيه النار لتأكل شوكه ، ثم ترعاه الابل . تعرق العظمة وعرقها أكل ما عليها من اللحم .

كأن النساء الآسرات حنيننى ... عريشاً فمشى فى الرجال دبيب

منعتَ عطائى يا ابن سعد وإنما ... سبقتَ إلىَّ الموتَ وهو قريب

فإن ترجعوا رزقى إلىّ فإنه ... متاع ليال والحياة كذوب

ومن قبيح إلحافه، قوله فى بعض مدائحه لبنى أمية .

أشكو إليك فأشتكى ذرية ... لا يشبعون وأمهم لا تشبع

كثروا علىّ فما يموت كبيرهم ... حتى الحساب ولا الصغير المرضع

وإذا نظرتُ يريبنى من أمهم ... عين مهجَّجَة وخد أسفع[1]

وإذا تقسمت العيال غبوقها ... كثر الأنين وفاض منها المدمع

رشْنِى فقد دخلت علىَّ خَصاصةٌ ... مما جمعتَ وكل خير تجمع[2]

ولعل الفرزدق لم يبعد كثيرا عن الصواب حين صور شره جرير فى جمع المال ، وابتذاله نفسه فى السؤال ، مع أن قومه من تميم كانوا يستطيعون أن يغنوه ويكفوه ، حيث يقول :

يطل بأسواق اليمامة عاجزا ... إذا قال بيتاً بالطعام يُكايلُه

ولو جعلوا لابن المراغة درهما ... على إسكتيها قال إنى مزاوله

لظل مكباً يبتغى بلسانه ... ليخرجه إذ لم تنله أنامله

تقدَّمْ عليها يا جرير فإن تكن ... رفيقاً إذا استلقت فإنك نائله

أظَنَّ بنا زوج المراغة أنه ... من الفقر لاقيــة الهزال فقاتله

وقد كان فى الدنيــا مَرادٌ لقعبه ... وفى هَجَرٍ تمرٌ ثقال جلائله

وكانت تميمٌ مطعميه ونابتا ... بهم ريشه حتى توازَى نواصلُه

---

(١) المهججة الغائرة العينين . السفع سواد يعلو حمرة الخدين

(٢) الخصاصة الفقر والحاجة .

ومع ذلك فلم يكن جرير بالمادح المجيد . فالرقة والسهولة الغالبتان على شعره تحرمان مديحه ما ينبغى له من قوة وشدة أسر . وهو لا يقع على صفات الملوك والخلفاء ، ولا يعرف كيف يمدحهم ، فهو من هذه الناحية لا يقارن بشاعر كالأخطل .

يقول لسليمان بن عبد الملك ، وكأنه يمدح رجلا كريما من عامة الناس :

تُهينون الحَاضَ لكل ضيف　　إذا ما حُبَّ فى السنة الجَميلُ[1]

ولا يوصف الناس بأنهم ضيوف الخليفة ولكنهم رعيته .

ويقول لعبد العزيز بن مروان حين رحل إليه يمدحه بمصر .

إذا ما أناخ الراغبون ببابكم　　مع الوفد لم ترجع عِبابُهم صفرا

وذلك أدنى ما يقال فى رجل . فلو أن هذه العباب عادت مملوءة تبنا أو ترابا لما كانت صفرا .

ويقول فى مدح يزيد بن عبد الملك إنه نزل به ضيفا فأكرمه وغطاه من فضل لحافه .

ما مَن جفانا إذا حاجاتنا نزلت　　كمن لنا عنده التكريم واللَّطَف

كم قد نزلت بكم ضيفا فتَلحَفُنى　　فضلَ اللحاف ونعم الفضلُ يُلتَحف

وليس مثل جرير ضيفا على مثل يزيد ، وإنما هو معتف يرجو فضله ويسعى لسيبه . واستعارة اللحاف هنا للفضل من أقبح الاستعارات .

ثم يقول إن له حسادا لا يغنون غناءه .

يا رب قوم وقوم حاسدين لكم　　ما فيهم بدَلٌ منكم ولا خلف

وهذا نزول بالخليفة إلى مستوى عامة الناس .

---

(١) الجميل الشحم المذاب . يكنى بذلك عن الجدب .

ويقول لعبد الملك .

الله طوقك الخلافة والهدى   والله ليس لما قضى تبديل

وليس يحسن استعمال التطويق فى النعمة ، فإنما يطوق الناس البلاء والمصائب . فالطوق أدنى إلى أن يصور التضييق والتنكيل .

ويقول للوليد بن عبد الملك :

وترى الجفان يمدها قمع الذرى   مدّ الجداول بالأتىّ المفعم[1]

والقدر تَنْهِمُ بالمَحَال وترتمى   بالزَّوْر همهمة الحِصان الأدهم[2]

وليس يوصف الخليفة بأنه يمد للناس جفانا يعلوها شحم السنام ، وبأن قدوره تغلى بالقطع من فقار الظهر ، كأنها الحصان الأدهم حين يهمهم ويصهل . فذلك قليل جداً على الخليفة ، وإنما يمدح به عامة الناس الذين ينتابهم الفقر .

ويقول لهشام :

وكان أبوك قد علمت معد   يفرج عنهم الكرب العظاما

وقد وجدوك أكرمهم جدودا   إذا نسبوا وأثبتهم مقاما

وتحرز حين تضرب بالمعلّى   من الحسب الكواهل والسناما

وليس نسب الخليفة موضع بحث ، ولا هو مما يحتاج إلى إثبات ، أنه أفضل الناس نسباً .

ويقول له فى مديحة أخرى .

فيا ابن المطعمين إذا شتونا   ويا ابن الذائدين عن الحريم

فما الأم التى ولدت أباكم   بمُقرِفة النجار ولا عقيم

---

(١) الذروة السنام . قمعة الذروة أعلى السنام . الجداول الانهار . الأتى الجارى .

(٢) المحال فقار الظهر واحدها محالة . الزور الصدر . الهمهمة صوت دون الصهيل .

فلو أن أما ولدت شرطيا لم تكن مقرفة النجار ولا عقيما .

ويقول للعباس من الوليد :

فيا ابن المطعمين إذا شتونا ويا ابن الذائدين عن الذمار

وتمطر من نداك يداك فضلا إلى كرم الشمائل والنجار

وتوقد نار مكرمة وأخرى إذا ما المحل أخمد كل نار

وكأن بيت الخليفة مجهول يحتاج إلى أن توقد أمامه النار ليهتدى إليه الضيفان .

كانت السهولة الغالبة على شعر جرير صورة من طبعه السمح ، ونفسه الرقيقة المطمئنة . فقد كان جرير رجلا مؤمناً شديد ، التمسك بدينه ، يؤثر السلامة والعافية فى الآخرة كما يرجوهما فى الدنيا . كان إذا صلى الصبح جلس فى فناء منعزل أمام داره ، لا يكلم أحدا حتى تطلع الشمس ، ولا يبرح موضعه ولو تناحر الحى[١] . ولقد مرت به جنازة وهو يملى على رجل قصيدته

ودع أمامة حان منك رحيل إن الوداع لمن تحب قليل

فقطع الإنشاد وجعل يبكى . ثم قال شيبتنى هذه الجنازة[١] . ولقى الفرزدق بمنى وهما حاجان ، فقال له الفرزدق :

فإنك لاق بالمحصّب من منى فخاراً فحدثنى بمن أنت فاخر

فلم يجبه إلا بقوله : لبيك اللهم لبيك[٢]

وهذه الرقة الغالبة على طبعه ، جعلته من أكثر شعراء عصره توفقا فى الغزل والرثاء . وبهذا كان يمتاز من زميليه الأخطل والفرزدق لم يفرغ جرير للغزل ، ولم ينشىء فيه قصائد مستقلة ، ولكنه كان يقدم لمدائحه وأهاجيه بنسيب يسيل رقة وعذوبة وكان جرير يعرف من نفسه هذه الرقة ، فهو

(١) النقائض ١ : ٣٢

(٢) الأغانى ٨ : ١٥ (٣) الأغانى ٨ : ٣٣

يقول : ماعشقت قط . ولو عشقت لنسبت نسيبا تسمعه العجوز فتبكى على مافاتها من شبابها [١] أنظر إلى قوله فى مقدمة قصيدة يهجو بها الفرزدق :

فلما التقى الحيان ألقيت بالعصى ومات الهوى لما أصيبت مقاتله

لقد طال كتمانى أمامة حبها فهذا أوان الحب تبدو شواكله

ويوم كإبهام القطاة مزينٍ إلىَّ صباه غالبٍ لى باطلُه

لهوت بجنِّىٍّ عليه سُمُوطُه وأنس مجاليه وأنس شمائله

فلو كان هذا الحبُ حباً سلوتُه ولـكنه داء تعود عقابِلُهُ

هذا شعر معظم جماله فى ألفاظه السمحة الرقيقة ، التى تطرب الأذن وتستخف اللب . ولقد حق لجرير أن يصبو ويبكى ، حين قدم المدينة فاستمع إلى أشعب يغنى فى قوله .

ياأخت ناجية السلام عليكم قبل الفراق وقبل لوم العُذَّل

لو كنت أعلم أن آخرَ عهدكم يوم الفراق فعلتُ مالم أفعل

فجعل يستعيده وهو يبكى حتى اخضلت لحيته . والذى يقرأ رثاء جرير لزوجته وولده سوادة ، لايستطيع أن ينتشل نفسه من الحزن العميق الذى أملاهما ، والرقة الباكية التى تفيضان بها . ولقد ماتت زوجة الفرزدق ، فلم يجد النادبات من شعره مايندبنها به ، فندبنها بقصيدة جرير هذه التى رثى بها زوجته .

هذه بعض مواهب جرير الشعرية وملكاته وإنما كانت تتجلى هذه المواهب فى كامل قوتها وروعتها حين يهجو الأفراد فقد كان هذا الرجل الرقيق الطبع جرو هراش كما يقول الحجاج ، يندفع فى الهجاء متدفقا لايمل ، وكأنه يمارس أحب الهوايات إلى نفسه . وكان يعينه على ذلك هدوء طبعه

(١) الأغانى ٨ ٤٣

وبرود أعصابه . فقد كان ينهشه ثمانون شاعراً من معاصريه ، لم يستطع أحدهم أن يحفظه أو يثير غضبه ، فهو يستمع إلى هجائهم فى اطمئنان ، ثم يرد عليهم بهذا الاطمئنان نفسه ، فيطيل مقدماته فى النسيب ، متأنيا لا يستعجله الغضب ، حتى إذا أرضى منه نفسه ، تناول خصمه متهكماً ساخراً ، مفتنا فى تهكمه وسخريته بما يضحك منهم الناس ، ويثير حولهم عواصف الضحك ، ويضيق عليهم الدنيا . فحيثما ذهبوا ، وجدوا هجاءه فيهم قد سبق على الألسن ، يتندر به فى كل مكان . يقول ابن سلام : كان الفرزدق يتضور ويجزع إذا أنشد لجرير ، وكان جرير أصبرهما . دخل رجل على الفرزدق فقال : وردت اليوم المربد قصيدة لجرير تناشدها الناس . فامتقع لون الفرزدق . فقال الرجل : ليست فيك يا أبا فراس فقال فيمن ؟ قال : فى ابن لجأ التيمى . قال : أحفظت منها شيئا ؟ قال : علقت منها بيتين [1]

كان جرير ممتازاً فى حسه اللفظى ، عالما بوحى الكلمات وأسرارها . فهو إذا تغزل رأيت ألفاظه تسيل رقة وعزوبة فى مثل قوله .

عوجى علينا واربعى ربة البغل ولا تقتلينى لا يحل لكم قتلى

ليالى إذ أهلى وأهلك جيرة وإذ لا نخاف الصرم إلا على وصل

وإذ أنا لا مال أريد ابتياعه بمالى ولا أهل أبيع بهم أهلى

وإذا رثى رأيت ألفاظه تنهار حزناً وكمداً ، فى مثل قوله يرثى ولده سوادة

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم كيف العزاء وقد فارقت أشبالى

فارقتنى حين كف الدهر من بصرى وحين صرت كعظم الرمة البالى

إن الثوى بذى الزيتون . فاحتسبى . قد أسرع اليوم فى عقلى وفى حالى

---

(١) ابن سلام ١٣

وإذا هجا كانت ألفاظه مشحونة بالسخرية والاستهزاء، تستعجل القارىء بالضحك، قبل أن يفهم ماتضمنت من معنى. يقول للفرزدق :

عُدوا خضَافٍ إذا الفحول تُنجِّبَتْ ... والجيشَلُوطِ ونَخْبَةَ خوارا

وإذا فخرت بأمهات مجاشع ... فافخر بقَبْقَبٍ واذكر النِّخْوارا

وتأمل اختياره لهذه الألقاب العجيبة، وإلى غرابتها المضحكة، فى الجيشلوط (وهو لفظ مخترع، كأن معناه الكذاب السلاح، مركب من جلط وجشط وسلط) وقبقب والنخوار .

ويقول له :

بئس الفوارس يانوار مجاشع ... خور إذا أكلوا خزيرا ضفدعوا

وتأمل هؤلاء القوم الذين يضفدعون (أى يسلحون ويضرطون)

ويقول له

فإن مجاشعاً فتعرَّفُوهم ... بنو جَوْخَى وخَجْخَجَ والقِذام

وتأمل اختياره لهذة الأسماء الغريبة، وهى أسماء بعض من كان يشتغل بالحدادة من رقيقهم، يتهم نساء مجاشع بهم. ويقول: هؤلاء القيون هم آباؤهم

ثم انظر أخيراً إلى هذه الأبيات العجيبة، ولا تتعب نفسك فى فهمها، فهى تؤدى ماأريد بها بمجرد ملامستها للأذن، وتستفز للضحك بخصائصها الصوتية وحدها

أنت ابنُ هاتيكَ وتيكَ تيكا ... أشبهتَ منها شبهاً يُخزيكا

أشبهتَ حُمرانَ وعُصْل كيكا ... أما ترى الحمرةَ فى بنيكا

يا ابن التى كانت تمشّى رحيكا ... كأن بين إسكتيها ديكا

فرجُ آستها مثل مَشقٌ فيكا ... تقول لما ملّتْ التَّوْريكا

عال أخاك العبدَ عن أبيكا

وقد وهب جرير مع هذا الحس اللفظى الممتاز عينا نقادة ، تقع على العيوب ووجوه النقص من أول نظرة ، وتهتدى إلى مواضع السخرية ، اهتداء المغناطيس إلى دقائق الحديد المنتشر ، ومن وراء هذه الملاحظة الدقيقة النقادة خيال خصب ، وذكاء نفاذ ، يمده بالصور الغريبة فى الافتنان ، البارعة اللاذعة ، يتناقلها الناس متندرين فمن أمثلة هذا الهجاء الذى يعتمد على الصور ، قوله يصف بنى مجاشع بالسمن والترهل ، مع قلة الغناء فى الحروب .

متى تغمز ذراع مجاشعى   تجد لحماً وليس على عظام
فما صدق اللقاء مجاشعىٌّ   وما جمع القناة مع اللجام
تولون الظهور إذا لقيتم   وتدنون الصدور من الطعام

وقوله فيهم :

تلقى ضِفَنَّ مجاشعٍ ذا لحية   وله إذا وضع الإزار حِران[1]
من كل منتفخ الوريد كأنه   بغل تقاعَسَ فوقه خُرجان

وقوله للتيم :

وتيم تُماشيها الكلاب إذا غدوا   ولم تمش تيم فى ظلال الخوافق
وتيم بأبواب الزروب أذلة   وما تهتدى تيم لِباب السُرادق
وتمسح تيم قُصّة النيس واستَه   ولا يمسحون الدهرَ غُرّةَ سابق

وقوله للبعيث المجاشعى :

يفيش ابن حمراء العِجان كأنه   خِصىٌّ براذين تقاعس فى الوحل[2]

---

(١) الضفن القصير المكتنز . الحر موضع العورة من المرأة .
(٢) ابن حمراء العجان يكنى بذلك عن أن أمه أعجمية ليست بعربية . والعجان الموضع الذى بين القبل والدبر .

وقوله فى الأخطل :

والتغلبى إذا تنحنح للقرى حكّ أسته وتمثل الأمثالا

وقوله للفرزدق :

إذا أسفرت يوماً نساء مجاشع بدت سوءةٌ مما تُجِن البراقع
مناخر شانتْها القيونُ كأنها أنوفُ خنازير السوادِ القوابع
مَباشيم من غِبِّ الخزير كأنما تُصوِّتُ فى أعفاجهن الضفادع[١]

وقوله له :

وأوصى جُبيرٌ إلى غالب وصيةَ ذى الرحم المُجهَد
فقال أرفقَنَّ بلىِّ الكتيف وحكِّ المَشاعب بالمبرد[٢]
وفاز الفرزدق بالكلبتين وعدل من الجُمَم الأسود[٣]
فرقعْ لجدك أكياره وأصلح متاعك لا تفسد
وأدْنِ العلاة وأدن القدوم ووسع لكيرك فى المقعد

وهو يتهم جدة الفرزدق بعبدها جبير ، ويقول إنها ولدت ابنها غالبا (أب الفرزدق) منه . ثم هو يمر بذلك مرور من يلقى الخبر وكأنه حقيقة مفروغ من صحتها لا تحتاج إلى إثبات . ومن ذلك قوله :

وجدنا جُبَيْراً أبا غالب بعيد القرابة من معْبَد

---

(١) الخزير والخزيرة دقيق يخلط بالماء ويوضع على النار حتى يتماسك قوامه ، وقد يوضع فيه لحم . أو هو مرقة تتخذ من بلالة النخالة . الاعفاج الأمعاء . وغب كل شىء عاقبته .
(٢) الكتيف ضباب الحديد ، والواحدة كتيفة . المشاعب جمع مشعب على وزن منبر وهو المثقب الذى يثقب به .
(٣) الكلبتان ما يأخذ به الحداد الحديد المحمى . العدل بفتح العين وكسرها المثل والنظير . الحمم بضم الحاء وفتح الميم الفحم .
(٤) العلاة بفتح العين السندان الذى يطرق عليه الحديد .

ومن أمثلة الهجاء الذى يعتمد على النكتة المضحكة قوله فى هجاء التيم :

ولو يُدفَن التَّيْمى ثم دعوته   إلى فضل زاد جاء يسعى من القبر
وآية لؤم التيم أن لو عددتم   أصابع تيمى نقصن عن العشر

وقوله فيهم :

يا تيم إن وجوهكم — فتقنعوا —   طُبِعت بألأم خاتم وكتاب
قوم إذا حضر الملوكَ وفودُهم   نُتِفَتْ شواربهم على الأَبواب

وقوله فيهم :

وتيم يفخرون وضَرْبُ تَيْمٍ   كضرب الزَّيْف بار على التجار

وقوله للفرزدق فى نفس المعنى ، حين طرد من الحجاز لسوء سيرته ، وإفحاشه فى شعره :

نفاك حجيجُ البيت عن كلِ مَشْعَر   كما رُدَّ ذو النُمِيَّتَيْن المزيَّف

وقوله للأخطل

أتزعم ذا المناخر كان سبطا   يهودياً وتزعمه أباكا

وهو بذلك يشير إلى مايروى من أن الخنزير كان من بنى إسرائيل فمسخ.

وهذا الخيال الخصب ، وهذه النكتة البارعة ،قد جعلت جريراً من أخطر الهجائين ، فى إطلاق الألقاب على خصومه ، وترويج الإشاعات الباطلة ، يكررها فى شعره ، ويفتن فى عرضها ، حتى تصبح عند الناس حقيقة مؤكدة

فهو يلقب الأخطل بدَوبل ، لأنه كان نصرانيا يأكل الخنزير. يقول له :

بكى دَوْبَلٌ لا يُرقِء الله دمعَه   ألا إنما يبكى من الذل دوبل[1]

ويقول :

فكم من خبيث الريح من رهط دوبل   بدجلة لا تبكى عليه النوائح

---

(١) الدوبل الخنزير أو ذكره أو ذكر ولده .

ويقول :

فإنك يا خنزير تغلب إن تقل   ربيعة وزن من تميم تكذب

ويلقب أبا الفرزدق بحوض الحمار ، لأنه كان أحدب داخل الصدر طويل االلحية .

حوض الحمار أبو الفرزدق فاعرفوا   منـه قفا ومقلَّداً وعِذارا[1]

ويقول :

حوض الحمار أبو الفرزدق فاعلموا   عَقْدَ الأخادع وانشناجَ المِرفَق

شَرُّ الخليقة من علمنا منهم   حوضُ الحمار وشر من لم يخلق

ويلقب بنى نمير بالتيوس .

فصبراً يا تيوس بنى نمـير   فإن الحرب موقدة شهابا

ويسمى الفرزدق القرد لقصره ودمامة وجهه ، ويلقبه أحياناً القرد الأصلع لجمعه الصلع إلى القصر والدمامة .

إن البَلِيَّة لا بليةَ مثلَهـا   قردٌ يعلِّل نفسه بالباطل

ويقول :

ولقدصككت بنىالفَدَوْكَسِ صكة   فلقوا كما لقى القريد الأَصلع[2]

ويلقب رجلا من سعد اسمه أبو كامل (ضرة الأرنب)

أخالفت سـعدا وحكامها   أيا ضرة الأرنب الحافل

---

(١) العذار جانبا اللحية . وهو كذلك ما سال من اللجام على خدالفرس . والمقصود هنا المعنى الأول . المقلد موضع القلادة .

(٢) الأخدع عرق فى الرقبة هو فرع من الوريد ، والاخادع جمعه : يقال لوىفلان أخدعه أى أعرض وتكبر ، وسوى أخدعة أى ترك الكبر . المرفق منفصل الذراع ، وانشناجة تقبضه .

(٣) بنو الفدوكس بيت من بيوت تغلب : وهم قوم الأخطل .

ويلقب رجلا آخر اسمه ميجاس (دودة الحَش) .

لو كان غيرُك يا ميجاسُ يشتمنا ... يا دودة الحش يا ضُلّ بن ضُلّال[1]

ويلقب شبة بن عقال (سلح النعامة) .

فضح الكتيبة يوم يضرط قائماً ... سلحُ النعامة شَبّةُ بن عقال

وجرير بعد هذا أمهر الناس فى اختراع الإشاعات وترويجها . يصهر الفرزدق إلى قوم من بكر حين يخطب ابنتهم حدراء ، فلا يزال جرير يشنع بهما ، حتى يمنعها أهلها منه ، كفاً لشره وهجائه . ويتهم ليلى أم غالب (جدة الفرزدق) بجبير عبدها — وكان قيناً — ويكرر ذلك حتى يشيع بين الناس .

تلقى نساء مجاشع من ريحهم ... مرضى وهن إلى جُبَيْر نُزّع

ليلى التى زفرت وقالت حبذا ... عرق القِيانة من جبير ينبع

ويتهم جعثن أخت الفرزدق برجل من منقر ، ولا يزال يفتن فى تصوير اتصاله بها أفحش افتنان ، ويفصل أقذر تفصيل ، حتى تصبح جعثن سبة الفرزدق وقومه ، ولا يرى الناس قوله فيها إلا حقيقة .

كان الفرزدق يشنع بجرير ، ويختلق الإشاعات حوله وحول قومه . ولكن لم تكن له جرأة جرير وبراعته ، فهو يشنع بصلة بنى يربوع بالحمير ، وهو شىء بعيد عن المعقول ، قد يتندر به الناس ، ولكنهم لا يصدقونه . فأما جرير فهو يلتقط مادة هجائه من الواقع المشاهد ، القريب من المعقول . ومن مظاهر هذه الواقعية التى تستند إلى دقة الملاحظة ، براعته فى حكاية الأصوات والأشياء — وإن كانت هذه البراعة فاحشة فى كثير من الأحيان . يقول فى هجاء بنى عقال

وسوداء المحاجر من عقال ... تُبايعُ من دنا : خذها وهات

(١) الحش الكنيف .

ويقول لعمر بن لجأ التيمى متهماً أمه :

تقول والعبد مسكين يُجَرِّرها ارفق فَدَيْتُكَ أن الناكح الذكر

ويقول فى جعثن أخت الفرزدق :

وتقول جعثن وابنُ مُرَّة جانح خَلْجاً رويداً قد نزعت طِحالى

وقد كان جرير يعالج موضوعاته معالجة الفنان الموهوب ، الذى يلمِّح ولا يصرح ، ويتناول الأشياء من أطرافها مترفقاً ، ويشير إليها ولا يلمسها .

يقول فى أعور نبهان :

وأعور من نَبْهان أما نهاره فأعمى وأما ليله فبصير

ويقول لعمر بن لجأ معيراً بأمه :

ما بال برزة فى المنحاة إذ نذرت صومَ المحرَّم إن لم يطلع القمر

ويقول له :

ولقد هممتُ بأن أدمِّر بارقا فرقبتُ فيهم عمَّنا إسحاقا

وهو بذلك ينفيهم عن العرب ، وينسبهم إلى بنى إسرائيل . وأبرع ما فى البيت أنه يدخر كل ما فيه من لذع للكلمة الأخيرة . فالقارىء لايرى بالبيت بأساً حتى تلقى هذه الكلمة كالقنبلة .

ويقول لتيم

ترى الأبطال قد كُلِموا وتيم صحيحو الجلد من أثر الكلوم

ويقول للفرزدق :

فإن مجاشعا جمعوا فياشًا وأستاهًا إذا فزعوا رِطابا

يتهمهم بالجبن ، ويقول إنهم يسلحون لفرط مابهم من فزع .

ويقول فى نساء بنى نمير .

إذا قامت — لغير صلاة وِتْرٍ — بُعَيد النوم أنبحَت الكلابا

ويقول لبنى مجاشع :

الظاعنون على أهواء نسوتهم والخافضون بدارٍ غيرِ محْلال

وجرير بعد كل هذا ساخر من خصمه ، متهكم به ، لا تراه غاضباً أبداً . وقد جعل هذا الهدوء لسخريته لذعاً كأنه السياط . انظر إلى قوله فى تعيير بنى مجاشع بلقيط بن زرارة ، الذى قتل فى بعض الحروب .

وخورُ مجاشعٍ تركوا لَقِيطا وقالوا حِنْوَ عينِك والغرابا[1]

جعلهم يتحدثون إلى الميت ، ويطلبون إليه أن يحافظ على عينه من الغراب .

وقوله للتيم .

وإنك لو لقيت عبيد تيم وتيما قلت أيهم العبيد

وقوله للأخطل :

أدِّ الجزَى ودع الفخار بتغلب واخسأ بمنزلة الذليل الصاغر

وقوله له :

قال الأخيطل إذ رأى راياتنا يا مار سرجس لا نريد قتالا

وقوله :

إذا ما كان خالك تغلبيا فبادِلْ إن وجدتَ له بِدالا

أبعلَ التغلبية لا تطأها فلادينا أصبت ولا جمالا

---

(١) حنو العين عظم الحاجب المنحنى على العين وقيل حنوها ناحيتها : يهزء به فيقول احفظ الغراب بعينك ، فان انصرفت عن مراقبته سقط عليها فأكلها :

وقوله له :

قيس وخندف إن عددت فعالهم   خير وأكرم من أبيك فعالا
إن حرَّموك لتحرُمَنَّ على العِدا   أو حللوك لتؤكَلَنَّ حلالا

ويقول للفرزدق :

زعم الفرزدق أن سيقتل مِرْبعا   أبشر بطول سلامة يا مربع

ويقول معيرا إياه قتل الزبير بن العوام وهو فى جوار قومه مجاشع :

فأدُّوا حواوِىَّ الرسول ورحلَه   إلى أهله ثم افخروا بعدُ أو دَعُوا

كل هذه الخصال كفلت لشعر جرير السيرورة والذيوع ، وجعلت منه أبرع هجاء عرفه الأدب العربى فى مهاجمة الأفراد . فلم يعرف الأدب العربى شاعرا تعرض له مثل هذا العدد الضخم من الشعراء الذين تعرضوا لجرير ، فكان لا يمل الرد عليهم ولا يضيق به . وكأن مواهب هذا الرجل الشعرية ، لم تكن تسخو وتجود إلا على الهجاء

الفـــرزدق

الحديث عن جرير لا بد أن يستدعى الحديث عن الفرزدق ، فهما صنوان لا يفترقان ، ربطت بينهما الأقدار فى النشأة ، فكان مولدهما فى عامين متقاربين ، سبق إليه الفرزدق ببضع سنوات ، وربطت بينهما فى الوفاة فماتا فى عام واحد ، وربطت بينهما فى النسب فكانا من قبيلة واحدة ، وربطت بينهما بعد كل ذلك فى هذا التلاحم والتنافس ، الذى دام بينهما نحوا من أربعين عاما ، يتهاجيان بما لم يتهاج بمثله شاعران فى جاهلية أو إسلام ، كما يقول ابن سلام .

ويتفق الذين أرخوا لهما على أنهما ماتا فى عام واحد ، ثم يختلفون فى تحديده ، بما لا يسبق عام ١١٠ هـ ، ولا يتأخر عن ١٤٤ [1]. ويرجح أبو الفرج أن تكون وفاتهما فى عام ١١٤ هـ ، لأن للفرزدق شعراً فى يوم كاظمة (١١٢ هـ) ، ولا بد أن تتأخر وفاته عنه . ويؤيد ما يذهب إليه أبو الفرج أن الفرزدق مدح خالد بن عبد الملك بن الحكم والى المدينة ، وخالد هذا قد وليها عام ١١٤هـ . ويتفق المؤرخون كذلك على أنه جاوز التسعين . ويؤيد ذلك عندنا قوله فى مقدمة قصيدة يمدح بها عبدالله بن عبد الأعلى بن أبى عمرة الشيبانى .

سما لك شوق من نوار ودونها ۞ مَهَامِهُ غُبْرٌ آجناتُ المَنَاهِلِ [2]

ومن بعد أن أكملت تسعين حِجَّةً ۞ وفارقت عن حلم النُهى كلَّ جاهل

وقول جرير فى رثائه :

فتى عاش يبنى المجد تسعين حجة ۞ وكان إلى الخيرات والمجد يرتقى

---

(١) العقد الفريد ٦ ٢٢٢ ، ابن خلكان ٢ ٢٦٥ ، الشعر والشعراء ١٧٦ و ١٧٩

(٢) المهامه جمع مهمه وهى الصحراء : المنهل الآجن الراكد الفاسد .

فمولد الفرزدق على ذلك حوالى عام ٢٤ هـ، أو قبله بقليل .

ويؤيد ذلك قوله فى مقدمة قصيدة يمدح بها الوليد بن عبد الملك (٨٦ هـ — ٩٦ هـ) ، ويفهم من جوها أنها فى أوائل عهده بالخلافة :

ألم يك جهلا بعد ستين حجة تذكرُ أم الفضل والرأسُ أشيب

ويؤيد ذلك أيضا قوله فى مقدمة قصيدة يمدح بها يزيد بن عبد الملك (١٠١ هـ — ١٠٥ هـ) .

تقول أما ينهاك عن طلب الصبا لداتُك قد شابوا و إن كنت أكبرا

من ابن الثمانين الذى ليس واردا ولا جائياً من غيبة مُتَنَظَّرا

وقوله بعد ذلك فى مدح هشام بن عبد الملك (١٠٥ هـ — ١٢٥ هـ) ، ولا بد أن يكون فى أول ملكه

رمتنى بالثمانين الليالى وسهمُ الدهرِ أصوبُ سهمِ رامى

نستطيع إذن أن نطمئن إلى هذا التاريخ ، الذى يصور الفرزدق أسن من جرير ببضع سنوات ، وأن يرفض ما يتعارض معه من الروايات ، مثل قول صاحب الأغانى[1] « حج الفرزدق بعد ما كبر وقد أتت له سبعون سنة ، وكان هشام بن عبد الملك قد حج فى ذلك العام » . فالمعروف أن هشاماً حج عام ١٠٦ هـ . فمولد الفرزدق على هذه الرواية عام ٣٦ وهو مناقض لما يروى أبو الفرج نفسه فى موضع آخر[2] ، من أن الفرزدق كان يجيد الهجاء فى أيام عثمان (٢٣ — ٣٥ هـ) . ومناقض كذلك لما يروى فى موضع ثالث من[3] أن أباه وفد به على على بن أبى طالب بعد موقعة الجمل (٣٦ هـ) ، فقال له : إن ابنى هذا من شعراء مضر فاسمع منه . فقال له : علمه القرآن .

(١) الأغانى ١٩ : ٤٠
(٢) الأغانى ١٩ : ٦
(٣) الأغانى ١٩ : ٤٠

وإذا كانت الأقدار قد ألفت بين جرير والفرزدق من وجوه، فقد خالفت بينهما من وجوه أخرى، فكانا متناقضين من نواحى كثيرة. فجرير خامل الأجداد، شديد الشعور بنقصه، ساخط على القدر الذى لم يجىء به إلى الدنيا إلا عن طريق أبيه، وهو عاق له، ضيق به. أما الفرزدق فهو عظيم الأب والجد، شديد الشعور بامتيازه وتفوقه، راض عن آبائه، شديد الفخر بهم. وجرير رقيق القلب، عميق الإيمان، ليس فى سيرته خروج على الدين أو العرف. وهو مسالم، حسن العلاقة، بالولاة والحكام وبالناس. أما الفرزدق فهو فظ غليظ القلب، لم يدخل الإسلام نفسه ولم يتغلغل فيها، ففى سيرته خروج على العرف والدين. وهو جلف جاف كثير الخلاف، مولع بالمشاكسة والمراء. ولذلك ساءت علاقته بالولاة جميعاً. وكان جرير لرقته وإيثاره حياة الوداعة والهدوء لا يتكسب بالهجاء. وكان يبتذل نفسه فى السؤال، ويهينها فى سبيل المال. أما الفرزدق فكان شديد الاعتداد بشخصه، يفرض نفسه على الناس فرضاً، يسألهم فى عنف، وكأنه يرى فى مالهم حقاً له، ويهجوهم إذا امتنعوا عنه وأبوا أن يبذلوا له. وهو كذلك شديد الاعتداد بنفسه حين يسأل الخلفاء والولاة، لا يتوسل إليهم إلا بنسبه ومكانته من قبيلته. وكان جرير زبيرى الهوى قيسى النزعة، يمثل الحزب اليربوعى من تميم أما الفرزدق فكان لا يعتد بغير قبيلته، ولا يفكر إلا فى حسبه وشرف أجداده، فهو يمثل حزب الأحنف من تميم.

وجد الفرزدق فى جرير منافساً خطيراً له حين نبغ فى الشعر، ورآه يسرع إلى المجد، وقد أوشك أن يبتلع كل من اعترض طريقه من شعراء تميم، حتى كاد يحتل من القبيلة مكان الشاعر الأول، فحسد هذا الرجل التياه بنفسه، ووقف فى طريقه، ليضع حداً لتقدم هذا الخامل، الذى يريد أن يحتل بشعره من تميم مكانا ينافسه به. وقد يتحدث الرواة عن بعض الأسباب المباشرة لتهاجى هذين الشاعرين، ولكن المدقق لقراءة شعرهما وما تبادلا من نقائض، يحس

أن التنافس على الزعامة الشعرية فى القبيلة ، والنزاع حول شرف الدفاع عنها هو الدافع الأول إلى هذه المعركة الشعرية الخطيرة ، التى لم تنته إلا بموت الفرزدق . يقول الفرزدق مخاطبا جرير :

واسأل بنا وبكم إذا وردَتْ مِنًى ... أطرافُ كل قبيلة من يُسمَع

صوتى وصوتك يخبروك من الذى ... عن كل مكرمة لخندف يدفع(١)

ويقول له

ستعلم يا حيض المراغة أنَّنا ... له حين يدعو من تميم قماقمه

ألم تَعْوِ عن قيس بن عَيْلان باسطاً ... إليهم يَدَىْ مستطعِم لا تُطاعمُه

بأعراض قوم خِندِفيين منهم ... لؤى بن فِهْرٍ والسُعود ودارمه

ويقول له :

منعتُ تميماً منك ، إنى أنا ابنها ... وراجلُها المعروف عند المواسم

أنا ابن تميم والمحامى وراءها ... إذا أسلَمَ الجانى ذمارَ المحارم

ونلاحظ هذا التنافس كذلك حين يعرض الشاعران لذكر سعد — وهى من أشرف فروع تميم وأكبرها ، فيها الزبرقان بن بدر والأحنف بن قيس — حيث نرى أن كلا منهما يحاول أن يكسب تأييدها ، وأن يضمها إلى جانبه .

يقول جرير فى بعض نقائضه .

ولم أنس من سعد بقُصْوان مشهدا ... وبالأُدَمَى ما دامت العينُ تَطْرِفُ

وسعد إذا صاح العدو بِسَرْحِهِم ... أبوا أن يُهَدُّوا للصياح فأزحفوا

ديار بنى سعد ولا سعدَ بعدَهم ... عفَتْ غيرَ أنقاء بيَبْرِين تُعرَف

إذا نزلَتْ أسلافُ سعد بلادها ... وأثقالُ سعد ظلت الأرضُ ترجُف

(١) خندف زوجة إلياس بن مضر . وهى الأم التى يجتمع عندها تميم وقريش .

فيجيبه الفرزدق بقولة :

تُبكِّي على سعد وسعد مقيمه   بيبرين منهم من يزيد ويُضعِف

على ما وراء الردم لودُكَّ منهم   لماجوا كما ماج الجرادُ وطوفوا [١]

فهم يعدلون الأرض لولاهم استوت   على الناس أو كادَتْ تسير فتُنسَف

ولو أن سعداً أقبلت من بلادها   لجاءت بيبرين الليالى تزَحَّف

كان الفرزدق عميق الإحساس بتفوقه وامتيازه . فجده صعصعة محيي الوئيدات ، الذى جعل على نفسه أن لا يسمع بموءودة إلا فداها ، فجاء الإسلام وقد فدى ثلاثمائة موءودة أو أربعمائة فيما يقول الرواة وأبوه غالب الذى يذهب فى كرمه إلى حد الإسراف والإتلاف ، يعطى الناس ولا يسألهم فيم يسألونه . ويبلغ به جنون الكرم والحرص على التفوق فيه أن يعقر كل أبله ، وهى تتجاوز المائة ، بل تبلغ أربعمائة فيما يرى بعض الرواة ، فينهبها الناس منافسة لرجل منهم سولت له نفسه أن يجاريه ويضاهى نفسه به [٢]

وقد كان الفرزدق يحس هذا الامتياز منذ نشأته ، فهو طموح عالى الهمة ويبدو ذلك فى القطعة ، التى يظهر أنها من أول شعره ، يخاطب بها أمه وقد أرسلته فى غنم يرعاها ـ وكان غلاما ـ فأغار عليها الذئب فاختطف كبشاً ، فلما راح إليها لامته .

ولائمتى يوماً على ما أتت به   صروفُ الليالى والخطوبُ القوارع

فقلت لها فيئى إليك وأقصرى   فأومُ الفتى سيف بوصليه قاطع [٣]

(١) يقصد بالردم سد ذى القرنين الذى ورد ذكره فى سورة الكهف بناه على أهل يأجوج ومأجوج ليكف أذاهم عن الناس . طوفوا خرجوا كالطوفان .

(٢) الأغانى ١٩ ٣ ـ ٥

(٣) فيئى أى ارجعى أوم الفتى ظماؤه ورغبته . يقول إنى لآتى الموت بسيف قاطع من إلحاحك فى اللوم .

تلوم على أن صبّح الذئبُ ضأنها ... فألوى بكبشٍ وهو فى الرَّعْى راتع

وقد مر حول بعد حول وأشهرٌ ... عليه ببؤسٍ وهو ظمآن جائع

فلما رأى الإقدام حزماً وأنه ... أخو الموت من سُدَّتْ عليه المطالع

أغار على خوف وصادف غرَّةً ... فلاقى التى كانتْ عليها المطامع

وما كنت مِضياعاً ولكنّ همتى ... سوى الرعى مفطوما و إذ أنا يافع

أبيت أسوم النفس كل عظيمة ... إذا وَطوَّتْ بالمُكثرين المضاجع

ويبدو هذا الطموح الجرىء فى قصة قدومه على معاوية ، مطالباً بميراث عمه الحُتات وكان قد قدم عليه وأخذ عطاءه ألف دينار ، ثم لم يلبث أن مات . فرد معاوية عطاءه إلى بيت المال ، فقدم عليه الفرزدق ـ وكان غلاماً ـ فقال

أبوك وعمى يا معاوى وَرَّثا ... تُراثاً فيحتاز التراثَ أقاربُه

فما بالُ ميراثِ الحُتاتِ أكلتَه ... وميراثُ حربٍ جامدٌ لكَ ذائبُه

فلو كان هذا الأمرُ فى جاهليَّةٍ ... علمتَ منَ المَوْلى القليلُ حلايبُه[1]

ولو كان هذا الأمر فى غير مُلْككم ... لأداهُ لى أو غَصَّ بالماء شاربُه

وكم من أب لى يا معاوىَ لم يكن ... أبوك الذى من عبد شمسٍ يُقارِبُه

وقد صادف هذا الطموح وهذا الشعور بالامتياز من طبع الفرزدق خشونة وجفاء . فبلغ به حد الجنون والمرض . فهو لا يرى أن قبيلته ستجد من يملأ فراغه ويحل محله إن مات :

ألا ليت شعرى ما تقول مجاشع ... إذا قال راعى النِّيب أودى الفرزدق

---

(١) الحلايب جمع حلبة بفتح الحاء وسكون اللام وهى الدفعة من الخيل فى الرهان . القليل حلايبه أى الضعيف .

ألم أكُ أكفيها وأحمى ذِمارها　　وأبلغ أقصى ما به مُتَعلّق

ويقول مفاخراً بتحمل غرامات قومه :

أرى كل جانٍ من تميم إذا جنى　　لهم حَدَثاً كانت علىّ جرائرُه

وقد علم الجانون أن ابنَ غالب　　لكلِ دمٍ قالوا هرقناه غارِمهُ

وهو لا يدع الفخر بنفسه بين أيدى الملوك والأمراء حين يمدحهم يقول فى قصيدة يمدح بها عمر بن عبد العزيز وهو والى الحجاز :

وقوم أبوهم غالبٌ أنا مالُهم　　وعام تَمَشّى بالفِراء أرامِلُه

ومجد أذود الناسَ أن يَلْحقوا به　　وما أحدٌ أو يبلغَ الشمسَ نائلُه

أنا الخِندِفىُّ الحَنْظَلى الذى به　　إذا جمعَتْ ركبان جمع منازلُه

أرى كل قوم وَدَّ أكرمُهم أبًا　　إذا ما انتمى لو كان مِنّا أوائلُه

بل هو يقرن نفسه به حين يقول :

إليك ابنَ لَيْلى يا ابنَ ليلى تجوّزَتْ　　فلاةً ودوايًّا دِفاناً مناهِلُه[1]

ويفد مع جرير على يزيد بن عبد الملك ، وبين يديه بنية له ، فيقول له الفرزدق : إن يكن دارم يضرب فيها فهى أكرم العرب[2].

ويقول فى قصيدة يمدح بها مسمع بن المنذر بن الجارود .

لها سَوْرةٌ كان المعَلَّى بنى لها　　مكارم ما كانت يدان تنالهـا

من الناس إلا من قريش ودارم　　إذا سبقَ الأيدى القصارَ طِوالهُا

وقد ظل الفرزدق زمانا وهو ممتنع على خلفاء بنى أمية ، يمدحهم من بعيد ، ولا يرحل إليهم . وقد كان سليمان أول من رحل إليه من ملوكهم ،

---

(١) ليلى أم عمر بن عبدالعزيز ، واسم جدة الفرزدق لأبيه ليلى كذلك . الفلاة والداوى والدوى والدو كلها أسماء للصحراء . دفان المناهل أى مطمسة من شدة الرياح بها فالمسافر فيها لا يجد حاجته من الماء

(٢) الأغانى ١٩ ٧

فهو يقول فى أول قصيدة مدحه بها :

فلو كان لى بالشلم مثلَ الذى جبَتْ ثقيفٌ بأمصار العراق وأكثرا[١]

فقيل آ أتِه لم آته الدهرَ ما دعا حمامٌ على ساقٍ هديلاً فقرقَرا[٢]

تركتُ بنى حرْبٍ وكانوا أئمةً ومروانَ لا آتيـه والمتخيَّرا

أباكَ وقد كان الوليدُ أرادنى ليفعل خيراً أو ليؤْمِنَ أوْجَرا[٣]

فما كنتُ من نفسى لأرحلَ طائعاً إلى الشام حتى كنتَ أنت المؤمَّرا

فحبُّكَ أغْشانى بلاداً بغيضَةً إلىَّ وروميًّا بعَمَّانَ أقشرا[٤]

وهو لا يرى لنفسه وقبيلته كفؤا إلا قريشاً . يقول :

وليس بعدل إن سبَبْتُ مُقاعِسًا بآبائى الشُّمِ الـكرام الخضارم

ولـكنَّ عدلاً لو سببتُ وسبَّنى بنو عبد شمس من منافٍ وهاشم

ويقول لابن الزبير ، حين احتكمت إليه النوار فحكم لها ، وتعرض الفرزدق بعد ذلك لابن الزبير بشعر أغضبه ، فقال له يا ألأم الناس ! هل أنت وقومك إلا جالية العرب ؟ يقصد بذلك إجلاء تميم عن تهامة قبل الإسلام بمائة وخمسين عاما لوثوبهم على البيت واستلابه فأجابه الفرزدق بأبيات بدأها بقوله[٥]

فإن تغضَبْ قريشٌ ثم تغضَبْ فإن الأرضَ ترعاها تميم

---

(١) مثل الذى جبت ثقيف يقصد الحجاج بن يوسف لأنه من ثقيف . يقول لو كان لى فى الشام مثل ما يجبى الحجاج من مال العراق ما أتيتها وإنما جئت من أجلك .

(٢) القرقرة صوت ترجيع الحمام وهديله

(٣) الأوجر الخائف الوجل

(٤) عمان من أعمال دمشق . سميت باسم عمان بن لوط عليه السلام . الأقشر الأحمر

(٥) الأغانى ٩ : ٣٢٨

بل إنه لا يعدل بقبيلته شيئا ، ولا يرى لهم كفؤا أو نظيراً . فلولاهم لضاع الإسلام والمسلمون :

وأفضل من يمشى على الأرض حيُّنا ... وما ضمِنَتْ فى الذاهبين قبورُها

لنا دونَ مَن تحتَ السماء عليهم ... من الناس طرا شمسُها و بدورُها

أخذنا بآفاق السماء عليهم ... لنا بَرُّها من دونهم وبُحورُها

ولو أنّ أرضَ المسلمين يحوطُها ... سوانا من الأحياء ضاعَتْ ثغورُها

لنا الجن قد دانتْ وكلُّ قبيلةٍ ... يدين مُصَلُّوها لنا وكَفُورُها

ويقول :

ولو أنَّ أمَّ الناس حواء حاربَتْ ... تميمَ بن مُرٍّ لم تجد من يُجيرها

وقدم على يزيد بن عمير الأسيدى — وكان على البصرة — فوقف على بابه ، فأبطأ فى الاذن له . فغضب الفرزدق وانصرف قائلا :

ألم يك من نُكْسِ الزمان على أسنه ... وقوفى على باب الوَقَاح أُزاوِلُه

فإن يك شرطيًا فإنى ابن غالب ... إذا جمعَتْ رُكْبانَ فَجّ منازلُه

وكان الفرزدق يتكلف فى حياته مظهر السادة ، فكان لا يرى إلا متقنعاً — وكان القناع من سيما الرؤساء — قال الجاحظ : والقناع من سيما الرؤساء والدليل على ذلك والشاهد الصادق والحجة القاطعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يكاد يرى إلا مقنعاً [(١)] .

يقول له جرير :

وتقول ظبيةُ إذ رأتك مقنَّعًا ... أنت الخبيثُ عِمامةً و إزارا

ويقول له :

وتقول جعثن إذ رأتك مقنعا ... قُبِّحتَ من أسدٍ أبى أشبال

(١) البيان والتبيين ٣ ٥٨

وقد كثرت الروايات واضطربت الأقوال فى ميل الفرزدق السياسى ، فبعض هذه الروايات يصوره أمويا مروانيا ، وبعضها يصوره شيعيا . ويستطيع الباحث أن يجد لكل هذه الروايات ما يؤيدها من شعره فمما يصور زبيريته ، قوله يؤنب مالك بن مسمع بن شيبان بن شهاب لفراقه قومه — وكانوا زبيرية — وانضوائه لآل مروان :

عجبتُ لأقوام تميمٌ أبوهم وهم فى بنى سعد عِراضُ المبَارِك

وكانوا سَراةَ الحىِّ قبل مسيرهم إلى الأزد مُصفراً لِحاها ومالك

ونحن نفينا مالكا عن بلادنا ونحن فقأنا عينه بالنيازك

فما ظنكم يا ابن الحوارىِّ مُصعَبٍ إذا افترَّ من أنيابه غيرَ ضاحك

أبا حاضر إن يحصر البأس تلقنى على سابح إبزيمه بالسنابك

ومما يصور تشيعه ، القصيدة المشهورة التى تنسب إليه فى مدح على بن الحسين . وينكر بعض المؤرخين نسبتها إليه .

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحِلُّ والحرم

ويؤيد ذلك ما يروى عن تشيع أبيه وعمه أعين ـ أبى النوار ـ [١] أما الشعر الذى يصور مروانيته فهو كثير يملأ ديوانه . وهو فى رأينا لا يدل على شىء ، لأن كل الشعراء كانوا يمدحون الأمويين فى ذلك الوقت ، عن رغبة أو رهبة .

وإذا تتبعنا سياسته العصبية ، وجدناه يؤيد قبيلة كلب المعروفه بعصبيتها الأموية فى مثل قوله :

إذا انتجعتْ كلبٌ عليكم فمكِّنوا

لها الدارَ من سهلِ المبَاءةَ والشرب [٢]

---

(١) الأغانى ١٩ ٦ ـ نقائض جرير والأخطل ٢٠٢

(٢) الانتجاع طلب الكلأ والمرعى . المباءة المنزل :

فإنهم الأحلافُ والغيثُ مِرَّةً
يكون بشرقٍ من بلادٍ ومن غرب
أشدّ حبالٍ بين حيَّيْن مِرَّةً
حبالٌ أُمِرَّتْ من تميمٍ ومن كلب[1]

وقـــوله :

وإنّا وكلباً إخوةٌ بيننا عُرًى | من العَقْدِ قد شَدَّ القُوى من يُغيرها
فمن يأتنا يرجو تفرُّقَ بيننا | يُلاق جبالا دون ذاك وُعُورها
نُجير على كلبٍ فيَمضِى جوارُنا | ويَعقِد من كلبٍ علينا مجيرُها[2]

ويهاجم قيسا مهاجمة صريحة فى مثل قوله :

رمى اللهُ فيما بين قيسٍ وبيننَا | على كلٌ حالٍ بالعداوة والبعد
وزادهم رَغماً وعضَّتْ رقابَهم | بأيدى تميم مُصلَتابٌ من الهند

ولكنه يعتز بهم ويربط بينهم وبين قومه فى مواضع أخرى فيقول :

إذا خِندفٌ بالأبطحين تغطرفَتْ | ورائى وقيسٌ ذيَّلَتْ بالمُشرَّق
فما أحـدٌ إلاّ يرانا أمامَه | وأربابَه من فوقهِ حين نلتقى
ومن يلق بحرَيْنا إذا ما تناطحا | بخِندفَ أو قيسِ بنِ عيْلانَ يغرَق
هما جبلا الله اللذان ذَراهُما | مع النجم فى أعلى السماء المحَلِّقِ
فتحنا بإذن اللهُ كلَّ مدينةٍ | من الهند أو بابٍ من الروم مغلَق

---

(١) المرة بكسر الميم وتشديد الراء القوة : أمر الحبل أجاد فتله : يقول إن الحلف الذى بين قومه و بين كلب قوى متين

(٢) يقول إذا أجرنا كان لجارنا حرمة عند كلب . وكذلك هى تجير علينا فتنفذ ما عقدت ونحترم جوارها .

ويقـــول :

إذا زخرَتْ قيسٌ وخِنْدِفُ والتقى صمياهما إذ طاح كلُّ صميم
وما أحدٌ من غيرهم بطريقهم من الناس إلا منهمُ بمُقيم
إذا مُضَرُ الحمراء يوماً تعطَّفَتْ عليَّ وقد دَقَّ اللجامَ شَـكيمى
أبوا أن أسومَ الناسَ إلا ظُلامةً وكنتُ ابنَ ضِرْغامِ العدوِّ ظَلُوم

ويهاجم اليمنية متعصبا لقيس ، حين قتل المنذر بن الجارود عمر بن يزيد الأسيدى . ويبلغ من عنفه فى ذلك ، أن يهاجم الخليفة هشام بن عبد الملك ، الذى يحمى هذا الحزب اليمنى ويتهدده .

فمَنْ مبلغٌ بالشام قيسا وخِندفا أحاديثَ ما يُشفَى ببرء سِقامُها
أحاديثَ منا نشتكيها إليهم ومُظلِمةٌ بغشى الوجوهَ ظلامُها
فإن من بها لم ينـكِر الضيم منهم فيَغضب منها كهلُها وغلامُها
يعُدْ مثلُها من مثلِهم فينـكاوا فيعلمَ أهلُ الجوْرِ كيف انتقامُها
بغَلباء من جمهورِها مضريةٍ تُزايلُ فيها أذرعَ القوم لامُها
فغيِّرْ أميرَ المؤمنين فإنهـا يمانيـةٌ حمقاء أنتَ هِشامُها

والواقع أن مثل هذه الروايات المتنافرة ، وهذا الشعر المتناقض ، يسهل فهمه إذا لم ناس ماقررنا من أن الفرزدق لم يكن يهب ولاءه وإخلاصه إلا لقومه من تميم . وهو بعد هذا مستقل فى تفكيره السياسى — إن جاز لنا أن نستعير هذا الاصلاح المعاصر ، لذلك العصر الغابر — فهو ينقد كل شىء ، ولا يتمسك بتأييد الدولة فى كل سياستها ، ولـكنه يهاجمها حين يبدو له أن الولاة لا يسيرون سيرة عادلة ، وحين يرى أن سياسة الدولة أو الحكام ، تتعارض مع تميم .

وبينما نجد جريرا فى مدائحه يكثر من الشكوى ، ويبالغ فى وصف بؤسه وفقر أهله ، استدراراً للعطف ، واستكثاراً من العطاء ، نجدالفرزدق لا يتوسل إلى ممدوحيه إلا بكرمه ونسبه ، فهو يسألهم فى إباء وترفع . يمدح عبد الرحمن بن عبد الله بن شيبة الثقفى ـ وأمه أم الحكم إبنة أبى سفيان ـ فيقول :

وما ساقَها من حاجةٍ أجحفَتْ بها   إليك ولا من قِلَّةٍ فى مجاشع

ولكنها اختارَتْ بلادَكَ رغبةً   على ما سواها من ثنايا المَطَالع [١]

ويمدح الوليد بن عبدالملك ، فلا يتوسل إليه بفقره كما يفعل جرير ، ولكنه يتوسل إليه بشرفه قائلا .

أغِثْنى بكُنْهِي من نزارٍ ومُقْبِلى   فإنى كريمُ المشرقين وشاعرُه

وهو يفرض نفسه على الناس ، فيطالبهم وكأنه يجبى ضريبة مفروضة يدفعونها اتقاء شره . كانت مية بنت الصلت بن حريث بن جابر الحنفى تعطيه فى كل سنة خمسمائة درهما ، فلم يزل يجىء إليها مطالباً بها ، حتى خرج إليه ابن أخ لها فطرده [١] . وأتى خالد بن عبد الله القسرى ، يستحمله فى ديات حملها فقال له : إيه يافرزدق ! كأنى بك قد قلت آتى الحائك ابن الحائك [٣] ، فآخذ من ماله إن أعطانى ، أو أذمه إن منعنى . فأنا حائك ابن حائك ولست أعطيك شيئا ، فاذممنى كيف شئت . فهجاه الفرزدق بشعر كثير منه :

ليتنى فى بَجِيلَةَ اللؤم حتى   يُعزَلَ العاملُ الذى بالعراق [٤]

فإذا عاملُ العراقَيْن ولَّى   عُدْتُ فى أسرةِ الكرامِ العِتاق

---

(١) وما ساقها الضمير يعود إلى ناقته الثنايا جمع ثنى بكسر الفاء وسكون اللام وهو المنعطف فى الجبل .

(٢) ديوان الفرزدق ٣٩٤

(٣) الحائك بن الحائك ، لأنه يمنى واليمن تعير باحتراف الحياكة والملاحة . والعرب تحقر أصحاب الصناعات كما قدمنا

(٤) بجيلة قبيلة يمنية ينتسب إليها خالدبن عبدالله القسرى والى العراق :

كان الفرزدق مغروراً شديد الاعتداد بنفسه . وقد جعله هذا الغرور عيابا للناس ، لا يعجبه شيء ، لأنه لا ينظر إليهم إلا مستخفا ، ولا يراهم إلا دونه . وهو من هذه الناحية يشبه المتنبي شبها كبيرا . كان الفرزدق يحس امتيازه بآبائه وأجداده إلى حد الجنون ، وكان المتنبي يحس امتيازه بمواهبه ، ويغلو فى تقديرها إلى حد الهوس والخبال . وقد أسرف المتنبي فى هجاء الناس حتى قتله الهجاء ، وأسرف الفرزدق فى الهجاء فعرضه ذلك لشر متصل ، فلم يكن إلا سجينا أو فارا من السجن ، لا جئا إلى من ينقذه منه . وقد ساءت علاقته بكل ولاة العراق ، ولم يسلم من هجائه منهم أحد . هجا زياد بن أبيه ، وظل طول حياته فارا منه ، لم يستقر حتى مات ثم هجا الحجاج من بعده ، وهجا عمر بن هبيرة ، وهجا خالد بن عبد الله القسرى بل لقد هجا الخليفة هشام بن عبد الملك ، حين حج معه فلم يعطه إلا خمسمائة درهم ، فقال فيه :

يُرَدِّدُنى بين المدينة والتى ... إليها قلوبُ الناس يَهوى مُنِيبُها
يُقَلِّب عيناً لم تكن لخليفةٍ ... مشوَّهةً حولاء بادٍ عيوبُها[1]

وقال فيه :

لَبِئس أميرُ المؤمنين أميرُكم ... وبئس أميرُ المؤمنين هشام
تَنَايَكُ عيناه إذا ما لقيتَه ... تبَيَّنَ فيه الشؤمُ وهو غلام

وقال لزياد حين تهدده ، لهجائه بنى فقيم ، فهرب منه إلى سعيد بن العاص بالحجاز :

ألا مَن مبلغ عنى زيادا ... بأنى قد لجأت إلى سعيد
وأنى قد فررت إليه منكم ... إلى ذى المجد والحسب التليد

---

(١) كان هشام بن عبدالملك أحول .

قراراً من شُتَيم الوجه وَرْدٍ ... يُفِزُّ الأُسْدَ خوفًا بالوعيد[١]

فإن شئتُ انتسبتُ إلى النصارى ... وإن شئت انتسبت إلى اليهود

وإن شئت انتسبت إلى فُقَيْمٍ ... وناسَبَنى وناسبْتُ القرودُ[٢]

وأبغضُهم إلىّ بنو فقيم ... ولكن سوف آتى ما أريدُ

وقال يهجو الحجاج ويتهدد الأمويين بالخروج عليهم :

إن تنصفونا يال مروانَ نقتربْ ... إليكم وإلا فأذنوا ببعاد

فإنّ لنا عنكم مُراحًا ومَذهبًا ... بعيسٍ إلى ريح الفَلاَةِ صَوادى

مُخَيَّسةٍ بُزْلٍ تَخايَلُ فى البُرَى ... سَوَارٍ على طُول الفَلاَةِ غَوادى[٣]

وفى الأرض عن ذى الجَوْر منأًى ومذهبٌ ... وكل بلادٍ أوطنَتْ كبِلادى

وماذا عسى الحجاجُ يبلغُ جهدَه ... إذا نحن جاوَزْنا حفَيرَ زياد

فبا ست أبى الحجاج وا ست عجوزه ... عُتَيِّدُ بَهْمٍ ترتعى بوهادِ[٤]

وقال فى عمر بن هبيرة الفزارى ، حين ولاه يزيد بن عبد الملك وعزل أخاه مسلمة بن عبد الملك .

ولَّتْ بمَسلَمَةَ الركابُ مودَّعًا ... فارعَىْ فزارة لا هَنَاكِ المرتَعُ

---

(١) شتيم الوجه كريهه . والشتيم أيضا الأسد العابس . ورد هنا صفة بمعنى جرىء . يفز الأسد أى يفزعها .

(٢) فى هذا البيت والبيت الذى يليه إقواء وهو معدود من عيوب القافية . فالدال هنا مضمومة ، وهى فى الأبيات السابقة مكسورة .

(٣) مخيسة محبوسة لا تسرح ، تعلف وهى فى أماكنها لا تبرحها لتسمن وتشتد . البازل من النوق التى بزل نابها أى ظهر . البرة حلقة توضع فى أنف البعير إذا كان عنيفا هائجا ثم تربط إلى حبل فاذا شد به البعير انقاد ولم يستطع المقاومة . تخايل فى البرى يكنى بذلك عن قوتها وشدة نشاطها .

(٤) عتيد مصغر عتود وهو الحولى من المعز .

ولقد علمتُ لئن فزارةُ أُمِّرَتْ أن سوف تَطْمَعُ فى الإمارة أشجَعُ
إن القيامةَ قد دنَتْ أشْراطُها حتى أميةُ عن فزارة تُنْزَع

ثم قال فيه :

أميرَ المؤمنين وأنت والٍ شفيقٌ لستَ بالطبع الحريص[1]
أأطعمتَ العراقَ ورافدَيْه فزاريًّا أحَذَّ يدَ القميص[2]
ولم يك قبلَها راعى مخاضٍ ليأمنَه على وَرِكَىْ قَلُوص
تفَيْهَقَ بالعراق أبو المثنّى وعلَّمَ قومه أكلَ الخبيص[3]
ستَحمِله الدنيئةُ عن قليلٍ على سِيسَاء زِعْلِبةٍ قَمُوص[4]

وقال حين ولى خالد القسرى ، مشيرا إلى هدمه منائر المساجد ، وكان قد هدمها لصعود الناس إليها و نظر الناس إلى الجيران .

ألا قطع الرحمنُ ظهرَ مطيّةٍ أتتنا تَمطَّى من دمشق بخالد
وكيف يؤم المسلمين وأُمُّـه تدين بأن الله ليس بواحد[1]
بَنَى بَيْعَةً فيها الصليب لأمه وهدَّم من كُفْرٍ منارَ المساجدِ

---

(١) الطبع الشديد الطمع .

(٢) رافداه دجلة والفرات . أحذ يد القميص ، لم يرد القميص وإنما أراد يده . أى لص قطعت يده فى الحد .

(٣) ابو المثنى كنية يكنى بها المخنثون من الرجال الخبيص لون من الطعام يصنع من التمر والسمن . تفيهق فى كلامه تنطع وتشدق كأنه يملأ فمه به .

(٤) الدنيئة الفعل الخسيس . السيساء منتظم فقار الظهر من الفرس والحمار . القموص الدابة التى تقمص بصاحبها ، وذلك بأن ترفع يديها وتطرحهما وتعجن برجليها الذعلبة الناقة السريعة يقصد بذلك أن دناءته ستحمله على مركب صعب .

(٥) كانت أمه نصرانية .

وقال فيه حين حفر النهر الذى سماه المبارك .

أهلكتَ مالَ اللهِ فى غيرِ حقِّه　　على نهرِكَ المشئومِ غيرِ المُبارَك

وتضربُ أقواماً صِحاحاً ظُهورُها　　وتتركُ حقَّ اللهِ فى ظَهرِ مالكٍ (١)

أإنفاقَ مالِ اللهِ فى غيرِ كُنْهِهِ　　ومنعاً لحقِّ المُرمِلاتِ الضَّوائك

وقال متشفيا فى جلده ، حين غضب عليه سليمان بن عبد الملك ، فأمر به أن يجلد ، وذلك لجلده رأس الحجبة — وكان قرشيا — فأخذت سليمان الحمية له ، وغضب حتى هم بقطع يده ، لولا شفاعة يزيد بن المهلب فيه .

لعمرى لقد صابَتْ على ظهر خالد　　شآبيبُ ما استَهْلَلْنَ من سَبَلِ القَطْرِ (٢)

أتَضرِبُ فى العِصيانِ تزعُمُ من عصا　　وتعصِى أميرَ المؤمنين أخا قَسْرِ؟

وأنتَ ابنُ نصرانيةٍ طال بَظْرُها　　غذتك بأولاد الخنازير والخمر

فلولا يزيدُ بنُ المهلب حلَّقَتْ　　بكفيك فتخاءُ إلى الفُتْخِ فى الوكْرِ (٣)

لعمرى لقد سار ابنُ شَيْبَةَ سيرةً　　أرَتْكَ نجومَ الليلِ ظاهرةً تجرى (٤)

فخُذْ بيديك الحتفَ إنك إنما　　جُزِيتَ قصاصاً بالمُحَدْرَجةِ السُّمرِ (٥)

أظُنُّكَ مفجوعاً برُبْعِ منافقٍ (٦)　　تَلَبَّس أثوابَ الخيانةِ والغدرِ

---

(١) يقصد مالك بن المنذر بن الجارود . وكان بعض الناس قد أدّعى عليه قرية ، فأبطل خالد حقه .

(٢) الشآبيب الدفعات من المطر ينهل مرة بعد مرة ، وشؤبوبا بعد شؤبوب . انهلت السماء بالمطر واستهلت وهو صوت المطر . أسبل المطر انهل . والسبل المطر المسبل .

(٣) الفتخاء اللينة الجناح والفتخ فراخها . يقول له لولا شفاعة يزيد لقطع الخليفة يدك فتخطفتها العقبان تطعم بها صغارها .

(٤) ابن شيبة هو الحجبي الذى ضربه خالد مائة سوط لأنه لم يفتح له الباب وتغافل ؛

(٥) المحدرجة المفتولة . ويقصد بالمحدرجة السمر السياط .

(٦) ربع منافق يعنى يده وكأنها ربع جسده لأن للانسان يدين ورجلين ، فاذا قطعت منها يد فقد ربع أطرافه .

وقال فيه .

سلوا خالداً لا أكرم اللهُ خالدا — متى وليَتْ قسرٌ قريشا تَدِينُها

أقَبلَ رسولِ الله أم بعدَ عهده — فتلك قريشٌ قد أغَثَّ سمينُها

رجونا هداه لا هدى الله خالدا — فما أمُّه بالأم يُهدَى جنينها

وبلغ من جرأة الفرزدق على الولاة ، أنه دخل على بلال بن أبي بردة ، فأنشده قصيدته المشهورة فيهم ، التي يقول فيها .

فإن أبا موسى خليل محمد — وكفاه يمنى للهدى وشمالها

فقال ابن أبي بردة : هلكتَ والله يا أبا فراس . فارتاع الفرزدق وقال : وكيف ذلك ؟ قال : ذهب شعرك أين مثل قولك فى سعيد وفى العباس بن الوليد . — وسمى قوما — فقال الفرزدق : جئنى بحسب مثل أحسابهم حتى أقول فيك كقولى فيهم . فغضب بلال حتى دعى له بطست فيه ماء بارد ، فوضع يده فيها حتى سكن . ثم كلمه فيه جلساؤه وقالوا : قد كفاك الشيخ نفسه ، وقلما يبقى حتى يموت . فلم يحل الحول على الفرزدق حتى مات [1] .

ولكن هذا الغرور الجنونى والكبرياء الجامحة ، كان يقابلهما ضعف شديد عن احتمال المكاره والصمود للكفاح . فقضى الفرزدق حياته خائفا ، وكان شعره مزاجا من هذين المرضين الخطيرين — شعور بالعظمة وشعور بالرهبة والخوف . وخير ما يمثل هذا اللون من الشعر ، الذى هو مزاج من الشعور بالرهبة والشعور بالعظمة ، قوله وهو فى سجن خالد القسرى ، يتوسل إلى هشام أن يطلقه ويأمر بالعفو عنه :

دعوتُ أمينَ الله فى الأرض دعوةً — ليفرُجَ عن ساقٌ خيرَ الخلائف

فيا خير أهل الأرض إنك لو ترى — بساقٌ آثار القيودِ النواسف [2]

(١) الأغانى ١٩ ٣٥

(٢) النواسف التى قد نسفت الجلد والشعر .

إذاً لرجوتُ العفوَ منك ورحمةً … وعدلَ امامٍ بالرعيـةِ رائف

فإن أكُ محبوساً بغير جريرة … فقد أخذونى آمنًا غيرَ خائف

وما سنونى غيرَ أنِّى ابنُ غالب … وأنى من الأثْرَيْن غيرِ الزعانف (١)

وأنى الذى كانت تَعُد لثغرها … تميمٌ لأبيات العـدوُّ المقاذف

وكم من عدوٍّ دونهم قد فَرَسْتُه … إلى الموت لم يَسْطَعْ إلى السِّم رائفِ

وإنى لأعداء الخنادف مِدْرَهٌ … بذَحْلٍ غنيٍّ بالنوائب كالَفِ

لجامُ شجىً بين اللهاتَـيْن من يقع … له فى فم يركَبْ سبيل المَتَالف

وإن غبتُ كانوا بين واوٍ ومحتبٍ … وبين مُغيبٍ قلبُه بالشَّنَائف (٢)

وبالأمس ما قد حاذروا وقعَ صولتى … فصيَّفَ عنها كلُّ باغٍ وقاذف (٣)

وقد علم المقرون بى أنّ رأسَه … سيذهَبُ أو يُرمَى به فى النَّفَانف (٤)

أرى شعراء الناس ـ غيرى ـ كأنهم … بمكة قُطَّانُ الحمام الأوالف

ولو كنت أخشى خالداً أن يروعنى … لِطرْتُ بوافٍ ريشُه غيرَ جادف (٥)

كما طرتُ من مصرَىْ زيادٍ وإنه … لتَصْرِفُ لى أنيابُه بالمَتَالف

وما كنت أخشى أن أُرى فى مخيَّس … قصيرَ الخطا أمشِى كمشى الرواسف (٦)

---

(١) الأثرين جمع الأثرى وهو الكثير العدد . أصل الزعانف أجنحة السمك ثم أطلقت على الدّعى الملصق الذى ليس بصريح النسب .

(٢) يقول إنهم ـ مع سابق صنيعى ـ إن غبت كانوا بين راوٍ لهجائى أو محتب يسمع ماهجيت به أو مضمر للشحناء . والشنائف البغضاء والفعل شنف له وشنفه .

(٣) صيف وصاف أى عدل عنها .

(٤) النفنف الجبل القائم كأنه الحائط . أو هو المهوى بين جبلين .

(٥) جدفه قطعه . وجدف الطائر طار وهو مقصوص الجناحين .

(٦) التخييس التذليل والمخيس السجن لأنه يذل .

أبيت تطوف الزُّطُّ حولى بجُلْجُل علىَّ رقيبٌ منهم كالمُحَالِف[1]

وقد كان الفرزدق لا يدعى إلى وال أو أمير إلا خاف وتوقع الشر . عبث به رجلان فقالا له أجب . الأمير يدعوك — وهما يلعبان معه — فهرب وترك رداءه معهما . ثم قال فيهما :

وما كنتُ لو فَرَّقتمانى كلاكما بأمكما عريانتَيْن لأفرقا

ولكنما فرقتمانى بضَيِّم اذا ما رأى قِرْناً أَبَنَّ ودقدقا[2]

وكان خوفه الشديد يلجئه فى كثير من الأحيان إلى التقرب من الشرط فيمدحهم بشعر غث ضعيف استجلابا لرضاهم [3] وهو بعد هذا كثير ذكر الخوف فى شعره . وخير ما يتصوره فى ممدوحيه من الفضائل ونبيل الصفات ، أنهم يؤمنون الخائفين . ولم تكد مدحة من مدائحه تخلو من طلب الأمان أو الحماية .

يقول لبشر من قصيدة يمدحه فيها .

لو أننى كنتُ ذا نفسَيْن قد هلكَت إحداهما كانت الأخرى لمن غبرا

إذن لجئتُ على ما كان من وَجَلٍ وما وجدتُ حذاراً يغلب القدرا

كلُّ أمرئٍ آمنٍ للخوف أمَّنَهُ بشرُ بن مروان والمذعورُ من ذَعَرا

ويقول فى مدح الوليد بن عبد الملك .

وكم من كريم يشتكى ضعفَ عظمه أقمتَ له ما يشتكى بالسقائف[4]

وآمنتَه مما يخاف إذا أوى إليك فأمسى آمناً غيرَ خائف

---

(١) الزط هم السبابجة وهم قوم من السند كانوا بالبصرة جلاوزة (جمع جلواز وهو الشرطى) وحراس سجن . الجلجل الجرس الصغير والجلجلة التحريك وشدة الصوت

(٢) أبن - أقام . دقق سمع له صوت وجلبة .

(٣) الديوان ص ٦٦١ و ٨٧٦ .

(٤) السقائف الجبائر التى يوضع فيها العضو المكسور .

ويقول فى مدح سليمان بن عبد الملك .

سليمانُ غيثُ المُمحلين ومَنْ به　　عن البائس المسكين حُلَّتْ سلاسله

ويقول فى مدح يزيد بن عبد الملك :

ولا جارَ بعد الله خيرٌ من الذى　　وضعتُ إلى أبوابه رَحْلَ خائف

إلى خيرِ جارٍ مُستَجارٍ بحبله　　وأوفاهُ حبلا للطريد المُشَارف[١]

ويمدح المهلب فيقول :

كان المهلبُ للعراق وقايةً　　وحَيا الربيعِ ومَعْقِلَ الفُرّار[٢]

ويمدح الوليد بن يزيد بن عبد الملك بقوله :

من يأت رابيَةَ الوليد ودِفئَها　　من خائف لجريرةٍ لا يُغْرَرِ

ويمدح أسد بن عبد الله القسرى لإنقاذه من سجن خالد فيقول :

رمى بى إليه الخوفُ حتى أتيته　　وقد يَمْنَعُ الحامى إذا ما تمنَّعا

به حطم اللهُ القيودَ وأُومِنَتْ　　مخافةُ نفسٍ طومنَتْ أن تَفَزّعا

فما يَجْىَ لا أخش العدوَّ ولا أزَلْ　　على الناس أعلو فى ذُرَى المجد مَفْزَعا

وشعر الفرزدق الذى صور فيه خوفه وحاله فى السجن من أروع الشعر وأجمله . يقول للوليد بن عبد الملك مصوراً خوفه من الحجاج .

وقد خفتُ حتى لو أرى الموتَ مُقبِلاً　　ليأخذنى والموت يكرهُ زائرُه

لكان من الحجاج أهونَ روعةً　　إذا هو أغضى وهو سامٍ نَواظرُه

أدِبُّ ودونى سَيْرُ شهر كأننى　　أراكَ وليلٌ مستحيرٌ عساكرُه[٣]

---

(١) المشارف الذى أشرف على الهلاك .

(٢) الحيا هو المطر

(٣) عساكره ظلمته واستحارتها ثبوتها .

ذكرت الذى بينى و بينك بعد ما رمى بى من نجدَىْ تهامة غائرُه
فأيقنتُ أنى إن نأيتُكَ لم يزد بى النأىُ إلاَّ كلَّ شىء أحاذره
وأن لو ركبتُ الريحَ ثم طلبتَنى لكنت كشىء أدركَتْه مقادره
فلم أر شيئاً غيرَ إقبالِ ناقتى إليكَ وأمرى قد تَعَيَّتْ مصادره
وما خاف شىء لم يَمُتْ من مَخَافةٍ كما قد أسرَّت فى فؤادى ضمائره
أخاف من الحجاج سورةَ خَدِرٍ ضواربَ بالأعناق منه خَوادِرُه

ويقول مصوراً رهبة الحجاج فى نفوس الناس.

إذا مابدا الحجاجُ للناس أطرقوا وأسكتَ منهم كلُّ من كان ينطق
فما هو إلا بائلٌ من مخافةٍ وآخر منهم ظَلَّ بالريق يَشْرَقُ
وطارت قلوبُ الناس شرقا ومغربا فما الناس إلا مُهْجِسٌ أومُقَلْقَلُ[1]

ويقول لمالك بن الجارود مصوراً حاله فى سجن خالد، متبرئاً من هجائه

وإذا حُمِلْتُ إلى الصلاة كأننى عِبءٌ يميلُ بِعَدْلِهِ المعدُول
يمشى الرجالُ به على أيديهم لله دَرُّ مقيَّدٍ محْمُول
إن القِرَى سُجِنَتْ معى نِيرانُه عن كلِّ نازل جَنْبَةٍ ودَخيل[2]
قد كنتُ أُطعِمُهن كلَّ سمينه للطارقين بأسرع التعجيل
يامَالِ هل لكَ فى أسيرٍ قد أتَتْ تسعون فوق يدَيْه غير قليل[3]
فتَجُزُّ ناصيتى وتفرجُ كُرْبتى عنى وتطلق لى يداكَ كُبولى[4]

---

(١) الهجس الصوت الخفى تسمعه ولا تفهمه. القلقلة اضطراب الصوت.

(٢) الجنبة الضيف الذى ينزل فى ناحية من البيت. والدخيل الضيف الذى ينزل داخل البيت.

(٣) يامال يخاطب مالك بن الجارود. مال ترخيم مالك.

(٤) يطلب منه الفرزدق أن يقص شعر رأسه و يطلقه. وجز الناصية عند العرب فيه معنى الاذلال. وكذلك كانوا يفعلون بأسراهم إذا منوا عليهم باطلاقهم.

يامال هل أنا مُهلكى مالم أقُلْ وليُعْرَفنَّ من القصائد قبلى

ويقول له من قصيدة يمدحه بها :

وكيف بمن خمسون قيداً وحَلْقَةً عليه مع الليل الذى هو أدهم

أبيت أقاسى الليلَ والقومُ منهمُ معى ساهرٌ لى لا ينامُ ونُوَّمُ

ولو أنها صُمُّ الجبال تحمَّلَتْ كما حملَتْ رجلاى كادَتْ تحَطَّمُ

وعلَّمَنى مَشْىَ المقيَّدِ خالدٌ وما كنتُ أدنى خَطْوِه أتعلَّمُ

أقول لرِجلَىَّ اللتين عليهما عرًى وحديدٌ يحبِسُ الخطو أبهَم

أما فى بنى الجارود من رائح لنا كما راح دُفَّاعُ الفرات المثَلَّمُ

ويقول أيضا مصوراً حاله فى سجن خالد ، متبرئاً من هجائه ، حين احتقر النهر الذى سماه المبارك من قصيدة يمدحه بها .

ألا تذكرون الرحْمَ أو تُقْرِضوننى لكم خلقاً من واسع الحلم ماجد

يقول لى الحدَّادُ هل أنت قائم وهل أنا إلا مثلَ آخر قاعد[1]

كأنى حَرُورِىٌّ له فوق كعبه ثلاثون قيداً من قُرُوضٍ ملاكِد[2]

وراوٍ علىَّ الشعرَ ما أنا قلتُه كمعترضٍ فى الرمح دون الطرائد[3]

ويقول من قصيدة يمدح بها هشام بن عبد الملك

إذا قلتُ للحراس هل ليلتى دنَتْ من الصبح أو كانَتْ جُنوحاً نجومُها

يقولون ما ينْزلن إلا تنزُّلاً بطيناً ومسودًّا علينا أديمها

فليت مكان الأربعين التى لها بساقَىَّ آثارٌ مبينٌ وُشُومُها

---

(١) الحداد السجان لأنه يحد الناس والحد المنع .

(٢) الحرورية الخوارج . قروص قيد يقرص ويعض فى الرجل . الملاكد الملازم

(٣) الطرائد جمع طريدة وهى ماطردت من وحش أو غيره يشبه نفسه بالذى يعترض دون الطريدة فيصاب بالرمح خطأ وليس هو بالمقصود .

أخا مجدقٍ عندى أخوه فجعتُه　　به والمنايا جانباتٌ حُتُومُها[١]

فنازلنى بالسيف عنــه ودونة　　مع السيف خِضْبُ الأرض بادٍ شَكِيمُها

كان الفرزدق أعرابياً جافياً غليظ الطبع . وتبدو هذه الغلظة وهذا الجفاء فى فنه وفى حياته على السواء . أما فنه فالخشونة بادية فى ألفاظه وفى صوره . فالكلمات تبدو فى شعره قلقة متنافرة ، وكأنه يجمعها بقوته واقتداره ، شاءت أو لم تشأ . فهو يؤلف بينها متعسفاً ، وكأنه ينحت من صخر كما كان يقول النقاد القدماء فى تصويره . وقد كان يقول : أنا أشعر الشعراء ، وقد يأتى على وقت وقلع ضرس أهون على من بيت شعر . وذلك صحيح . ولكننا نضيف إليه أن الشعراء يدعون الإنشاء فى مثل هذه الأوقات ، حتى تصفو نفوسهم وتسخو قرائحم . وهم يجعلون الرغبة فى قول الشعر هى الذريعة إلى إنشائه ، كما كان يقول أبو تمام فى وصيته للبحترى . أما الفرزدق ، فقد كان يمضى مكابرا ويجتلب الشعر من غير وجهه ، فيبدو وكأنه يقتلعه من نفسه اقتلاعا ، أو كأنه يقلع أضراسه على حد تصويره . ولذلك كثرت المعاظلة فى شعره . انظر إلى تراكب الألفاظ فى مثل قوله حين يتبرأ مما نسب إليه فى هجاء المبارك .

فلا رفعَتْ إن كنتُ قلتُ التى رَوَوا　　علىَّ رِدائى حينَ ألبَسهُ يَدِى

يريد أن يقول : فلا رفعت يدى ردائى حين ألبسه إن كنت قلت التى رووا على .

وفى قوله يمدح يزيد بن عبد الملك .

فلا أُمَّ إلا أمُّ عيسى علمتُها　　كأمكَ خيراً أمهاتٍ وأمجدا

---

(١) الحتوم جمع حتم بفتح الحاء وسكون التاء وهو القضاء . الجانب الذى لا ينقاد والغريب . وجانبه مشى إلى جنبه . الخضب بكسر الحاء وسكون الضاد نوع من الحيات أو ذكرها الضخم . الشكيم الأنفة والانتصار من الظلم يقول ليت لى مكان هذه القيود فارسا ينازلنى ثائراً لاخيه الذى قتلته ففجعته به ، ينازلنى بسيفه ، ومن دونه حية ضخمة أبدت شراستها .

وفى قوله يمدح الوليد

إلى ابن الإمامين اللذين أبوهما إمامٌ له لولا النبوةُ يُسجَد

وفى قوله يمدح أيوب بن سليمان بن عبد الملك .

تجاوزتَ عنهم فضلَ حلمٍ كما عفا بمَسْكِنَ والهندىُّ تعلو ذكورُها

أبوك جنوداً بعدَ ما مرَّ مصعبٌ تَفَلَّذَ عنه وهو يَدْعو كثيرُها

وانظر إلى الارتباك الذى يبدو فى رثائه لمحمد بن يوسف ومحمد بن الحجاج ابن يوسف ، وقد ماتا فى جمعة واحدة ، على ما فى الأبيات من تضمين قبيح .

لئن صبرَ الحجاجُ ما من مصيبةٍ تكون لمرزوء أجلَّ وأوجعا

من المصطفى والمصطفى من ثقاتِهِ خليلَيْه إذ بانَا جميعاً فودَّعا

فلاصبر إلاَّ دونَ صبرٍ على الذى رزئتَ على يوْمٍ من البأس أشنعَا

على ابنِك وابنِ الأُمِّ إذأدركتهما الـ منايا وقد أفنَيْن عَاداً وتبَّعا

وإلى قوله فى هجاء طىء .

وماطىء إلا مَجوسٌ كأنهم بهايم تعلو الأمهاتِ فحولُها

وما تلكم إلا مَجوسٌ نساؤها بناتُهم آباؤهن بُعولُها

وانظر إلى كثرة الضمائر وتراكبها واضطرابها فى قوله :

ولكن أبوها من لؤى بن غالب مناف له منها من المجد كاهلُه

ملوكٌ وأبناء الملوك أتَتْهُم من الله بالفُرقانِ منه رسائلُه

وانظر إلى الالتواء المتعب ، الذى جعل شعره أقرب للأحاجى والألغاز فى قوله يمدح جميل بن حمران الفزارى .

أنت ابنُ أم أمرئ تَنْمى إذا نُسبَتْ حيث انتمت بأبيها بنتُ حسانا

نالت به الشمسَ لوكادتْ تناوَلَهَا بالمجد إن كان مجدٌ عندها كانا

لم يوهب الفرزدق ما وهب جرير من سلامة فى الذوق ، وامتياز فى الحس اللفظى ، فألفاظه كالصخر دائما ، ولذلك كان أكثر ما يصادفه التوفيق إذا افتخر . انظر إلى قوله فى قصيدته المشهورة (عزفت بأعشاش) حين يصور كرم قومه وقت الجدب ، كيف يصف العواصف العاتية ، فيخيل إلى السامع أن العالم قد أوشك على نهايته ، وأن الأرض قد زلزلت زلزالها ، وأخرجت أثقالها . فالسماء قد اغبرت آفاقها ، والرياح الحمراء تهجم على البيوت فى عنف فتنكشف ستورها . وذعرت النوق الضخمة التى امتلأ سنامها بالشحم ، فاندفعت تتبعها صغارها ، تقطع فى طريقها الحبال التى شدت إليها البيوت . وشغل عنها راعيها فى هذا البرد القارص ، فهو يباشر النار بصدره وبكفيه ، لا يتحرف عنها ، ولا يحس لذعها وحرارتها . وظهر نجم الشعرى فى السماء ، ينذر بشتاء شديد ، وجدب يتقشر منه وجه الأرض . وبدأت الثلوج تتساقط على أسنمة الإبل ، تعلوها كأنها قطن مندوف . وأجمد البرد الكلاب ، فاندفعت إلى النار تقاتل عنها أصحابها لتربض فيها . فإذا انتهى الفرزدق من هذا التصوير الرائع لشدة البرد ، وقسوة الجدب ، قال : فى مثل هذه الأزمات ، تجدنا أكرم الناس وأكثرهم بذلاً للضيفان :

إذا اغبرّ آفاقُ السماء وكشَّفَتْ كسورُ بيوتِ الحىّ حمراء حَرْجَفُ [1]

وهتَّكت الإطنابَ كلُّ عظيمةٍ لها تامِكٌ من صادق النَّىِّ أعرَفُ [2]

وجاء قريعُ الشَّوْل قبلَ إفالِها يَزِفُّ وراحَتْ خلفَه وهى زُفَّفُ [3]

---

(١) آفاق السماء جوانبها . الكسور جمع كسر وهو ماوقع على الأرض من الخباء . الحرجف الريح الشديدة .

(٢) الأطناب الحبال التى يشد بها الخباء . التامك السنام العظيم ، النى الشحم . أعرف مرتفع

(٣) القريع فحل الابل . الشول الابل التي جفت ألبانها . إفالها صغارها يزف يعدو مسرعاً

وباشرَ راعيها الصَّلا بلَبَانه   وكفَّيْه حرَّ النار ما يتَحَرَّف (١)

وأوقدَت الشِعرى مع الليل نارَها   وأمست مُحُولاً جِلدُها يتوَسَّف (٢)

وأصبحَ موضوعُ الصقيع كأنه   على سَرَوات النِيبِ قطنٌ مُندَّف (٣)

وقاتل كلبُ الحىِّ عن نار أهله   ليَرْبِضَ فيها والصَّلا متَكَنَّف (٤)

وجدتَ الثرى فينا إذا يَبِسَ الثرى   ومن هو يرجو فضلَه المُتَضَيِّف (٥)

هذا التوفيق العجيب الذى يصادف الفرزدق فى الفخر ، وفى تصوير مناظر الصحراء ، وحياة البدو ، يجافيه وينحرف عنه ، حين يتغزل أو يرثى أو يعرض لما يحتاج إلى الرقة من فنون الشعر . أنظر إلى جفاء غزله ، حين يطلب إلى صاحبته أن تديه لأنها قد قتلته ، فإن لم تفعل قتلها بالسيف .

فلم أر مقتولا ولم أر قاتلا   بغير سلاح مثلها حين أقصدا

فإن لا تُفادى أو تديه فلا أرى   لها طالباً إلا الحسامَ المهندا

وحين يهددها بالتخليد فى جهنم ، لأنها تسفك دمه بغير جريرة .

ياويح أختِ بنى كنانة إنها   لبخيلة بشفاء من لم يجزم

فلئن سفكتِ دمًا بغير جريمة   لتُخَلَّدِنَّ مع العذاب الآلأم

(١) الصلا النار اللبان الصدر يتحرف ينحرف عن النار ويحيد .

(٢) الشعرى نجم يطلع فى أول الشتاء . وأمست يعنى الأرض . محولا من المحل وهو الجدب . يتوسف يتقشر من الجفاف وقلة المطر

(٣) سروات النيب أسنمتها النيب مسان الابل .

(٤) الصلا متكنف اجتمع عليه الناس وقعدوا حوله

(٥) الفرزدق متأثر فى بعض صوره ومعانيه بطرفة حيث يقول :

إنا إذا ما الغيم أمسى كأنه   سماحيق ثرب وهى حمراء حرجف

وجاءت بصراد كأن صقيعه   خلال البيوت والمنازل كرسف

وجاء قريع الشول يرقص قبلها   من الدفء والراعى لها متحرف

ترد العشار المنقيات شطيها   إلى الحى حتى يمرع المتصيف

تبيت إماء الحى تطهى قدورنا   ويأوى إلينا الأشعث المتجرف

ولئن حملتِ دمى عليكِ لتَحملنْ ثِقلاً يكونُ عليكِ مثل يلملم[١]

وإلى سوء اختياره للألفاظ ، مع تراكب العبارات ، فى قوله يرثى الحجاج

فلم أر يومًا كان أنكى رزيَّةً وأكثرَ لطًّا للعيون الذوارف

من اليوم للحجاج لما غدَوا به وقد كان يحمى مضلعات المكالفِ

فاختياره لكلمة (لط) هنا ، على ما فيها من ثقل ، غير موفق . وسوء اختيار الفرزدق للكلمات ، وبلادة حسه اللفظى واضح فى اختياره لأسماء أولاده ، فقد سمى أحدهم خبطة ؛ وسمى الثانى سبطة ، وسمى الثالث لبطة . ولو أن الأسماء كانت شيئا يشترى ، لقد كان له عن هذه الأسماء مندوحة ولو أن عدوالهم أراد أن يلقبهم بأثقل الألقاب ، ما اختار غير الأسماء التى سماهم بها أبوهم .

وانظر إلى خشونة التصوير ؛ حين يشبه صاحبته لفرط حيائها بمن ألح عليه النزف ؛ أو أنهكه السل .

يشبِّهْنَ من فرط الحياء كأنها مِراضُ سُلالٍ أو هوالكُ نُزَّفُ

وحين يتمنى لها ولنفسه أن يكونا بعيرين أجربين ، يخاف الناس عدواهما فيتركونهما منفردين ، ليعيشا فى عزلة سعيدين .

فياليتنا كنا بعيرَيْن لا نَرِدْ على منهلٍ إلا نُشَلُّ ونُقْذَفُ

كلانا به عَرٌّ يخاف قِرافُه على الناس مَطْلِيُّ المساعرِ أخشف[٢]

وانظر إلى بشاعة تصويره لكرم العباس بن الوليد بن عبد الملك ، حين

---

(١) يلملم جبل .

(٢) العر بفتح العين الجرب ، القراف المخالطة ، المساعر أصول الفخذين والابطين وهى أول ما يصيب الجرب ، أخشف ، يابس الجلد من الجرب ، مطلى المساعر أى مطلى بالقطران ، ولكثير أبيات شبيهة بهذه حيث يقول :

ألا ليتنا ياعزُّ من غير ريبة بعيرين نرعى بالخلاء ونعذب

كلانا به عر فمن يرنا يقل على حسنها جرباء تعدى وأجرب

إذا ما وردنا منهلا صاح أهله علينا فما تنفك نرمى ونضرب

يقول إن الندى والجود قد صاحباه ، وقد تحالفوا على إغراق البشر — (وهو يقصد بإغراق البشر) طبعا إغداق النعم عليهم .

إن الندى صاحبَ العباسِ حالَفَهُ   والجودَ هم أخوةٌ قد أغرقوا البشرا

وانظر إلى خشونة ذوقه ، حين يمدح يزيد بن عبد الملك ؛ فيقول له إنك فعلت ما أعيا أباك :

تناولتَ ما أعيى ابن حربٍ وقبلَه   وأعيى أباك الحازم المُتَخيَّرا

وإنما يمدح الخليفة بأنه كريم ابن كرام ، شجاع ابن شجعان .

وانظر إلى جفاء ذوقه ، حين يصور لذع الخمر القوية ، وشدة تأثيرها فى الشارب فيقول :

شربنا فى بنى جُشَمٍ بن بكر   شرابا ليس من سَقَط المتاع

شراباً يضرِط الباسورُ منه   ويذهب بالمُلَيْلَة والصداع[1]

وقد كان الفرزدق لجفاء طبعه بعيدا عن التأثر العميق بالإسلام ، لم يدخل الإيمان قلبه ، ولم يرقق طبعه الوحشى الفظ . فهو يعيش بشعوره وعواطفه فى الجاهلية ، يهجم على اللذة متهتكا ، ويفتخر بذلك ، ولا يبالى أن يصم نفسه بالزنا وشرب الخمر ، فى بلد إسلامى ، يتحرج فيه الناس من إعلان هذه الآثام الغليظة ، وينكرونها أشد الإنكار . يقول فى نديم له اسمه (ديكل)

شربتُ ونادمت الملوكَ فلم أجد   على الكأس نَدْمانا لها مثلَ دَيْكَل

أقلَّ مِكاساً فى جَزورٍ سمينة   وأسرعَ إنضاجاً وإنزالَ مِرْجَل

فتى كريم يهتز للمجد لا ترى   نداماهُ إلا كل خَرْقٍ مُعَذَّل[2]

عشية نَسينا قَبيصَة نعلَه   فبات الفتى القَيسىُّ غيرَ مُنَعَّل

---

(١) المليلة وجع الظهر .

(٢) الخرق الجواد . معذل يلام على إسرافه وتبذيره .

ويقول فى هجاء جرير :

إن تك كلباً من كليب فإننى ... من الدارميين الطوال الشقاشق (١)

نظلُّ ندامى للملوك وأنتم ... تمشّون بالأرباق ميل العوائق (٢)

وإنا لتجرى الخمرُ بين سراتنا ... وبين أبى قابوس فوقَ النمّارق

لدُنْ غُدوةً حتى نروحَ وتاجُه ... علينا وذاكى المسك فوق المفارِق

ويذهب مذهب الفتاك المتعهرين من شعراء الجاهلية ، أمثال الأعشى وامرىء القيس ، فيصف نزوله عند شيخ مسن ، وتظاهره أمامه بالتقوى ، حتى اطمأن إليه وضيفة ، ثم غلبه على زوجته :

نبئتُ عند الشيخ مُهراً يبيعه ... من ال الحرُون لم تُقطَّع أباجلُه

فلما أتيتُ الشيخَ يرجُف رأسُه ... وتُرعَدُ من بعد المشيب مفاصلُه

قرأت عليه سورةَ الكهف واقفًا ... ليأخذَ فيه الحلمُ والجهلُ شامله

وأطرقتْ إطراق الشجاع وشمّرَتْ ... عن الساقِ تشميراً رقيقًا ذلاذله (٣)

فما زلتُ حتى قال هل أنت نازلٌ ... فإنك ممن لا تُخاف غوائلُه

فلما انبَرتْ للفتىّ والشيخُ غافل ... من الخدْر تُخفى شخصَها وتضائله

فقلت أبَرقٌ لاح فى مدلهمة ... من الليل أم رِيمٌ لطيفٌ أناملة

فبت لها فى مَرْصدٍ كنت أدَّرى ... به الوحش لا يُخشَى علىَّ غوائلة (٤)

ويهجو المهلب فيقول إن قومه عن الأزد كانوا ملاحين ، فهم نبط لم يعبدوا الأصنام فى الجاهلية :

فكيف ولم يأتوا بمكة مَنْسكا ... ولم يعبدوا الأوثان عند المُحَصَّبِ

---

(١) الشقشقه لهاة البعير يخرجها عند هيجانه .

(٢) الأرباق العرى التى تشد إليها البهم . الواحد ربقة بكسر الراء .

(٣) الشجاع الثعبان .

(٤) أدَّرى به الوحش أتقيه .

ولم يَدْعُ داعٍ يا صباحا فيركبوا الى الروع إلا في السفين المُضَبَّب (١)

ويكرر ذلك فى قصيدة أخرى يهجوه بها :

وكيف ولم يقد فرسًا أبوكم ولم يحمل بنيه إلى الدوار (٢)

ولم يعبد يغوث ولم يشاهد لِحِمْيَر ما تدين ولا نزار

وما لله تسجد أزدُ بُصْرى ولكنْ يسجدُون بكل نار

ويفتخر بظلمه للناس ، على طريقة الجاهليين ، فى مواضع كثيرة من شعره . ومن ذلك قوله :

إذا مضرُ الحمراء حولى تعطَّفت علىَّ وقد دقَّ اللجام شكيمى

أَبَوا أن أسوم الناس الا ظلامةً وكنتُ ابنَ مرغام العدو ظلوم

وقوله :

لِخندفَ قبل الناس بيتان فيهما عديد الحصى والمأثرات العظائم

اذا ما هبطنا بلدةً كان أهلُها بها وُلِدوا يَظعَنْ بها كلُّ جارم (٣)

لنا العزُّ مَنْ تحلُلْ عليه بيوتُنا يمُتْ غرقًا أو يحتمل أنف راغم (٤)

وقد اقترن جفاء الفرزدق بفتكه وفجوره ، فأنتج قدرا ضخما من الشعر الممعن فى الفحش والفظاظة ومجافاة الذوق فى آن معا . انظر إلى ما يقول هذا الرجل الغليظ القلب ، فى زوجته حدراء حين ماتت :

---

(١) يقول إنهم لا يعرفون إلا ركوب السفن . ولم يركبوا الخيل قط فى قتال حين يصيح الداعى ياصباحا .

(٢) الدوار على وزن كتان بفتح الدال الكعبة واسم لصم . وقد تضم الدال وقد تخفف الواو فلا تشدد كما هى هنا فى البيت

(٣) الظعن الرحيل . الجارم الذى ارتكب جرما . ويقصد به هنا الشديد الجرىء على الناس .

(٤) الرغام التراب وأرغمه ألصقه بالتراب أى أذله . يحتمل أنف راغم يعنى يعيش ذليلا .

يقولون زُرْ حدراء والترب دونها ... وكيف بشيء وصلُه قد تقطّعا

ولستُ وإن عزّتْ عليّ بزائر ... ترابا على مَرْسومةٍ قد تَضَعْضعا

وأهْوَنُ مفقودٍ إذا الموتُ ناله ... على المرءِ مِن أصحابه من تَقنّعا

وأهونُ رُزء لامرئ غير عاجزٍ ... رزيّة مرتجّ الروادف أفْرعا

وانظر إلى ما يقول هذا الرجل الفظ المفحش ، فى رثاء جارية كانت قد حملت منه ، ثم لم تلبث أن ماتت :

وغمدِ سلاح قد رُزِئتُ فلم أنح ... عليه ولم أبعث عليه البواكيا

وفى جوفه من دارم ذو حفيظةٍ ... لو أنّ الليالى أنسأته لياليا

ولكن رأيتُ الدهر يعثُرُ بالفتى ... ولا يستطيع ردَّ ما كان جائيا

وكم مِثْله فى مثلها قد وضعتُه ... وقد كنتُ وثّابا أجُرُّ الدواهيا

ولكن وقانى ذو الجلال بقُدْرَةٍ ... شرورَ زوانى الناسِ إذ كنتُ زانيا

والفحش شيء أصيل فى طبع الفرزدق فهو ولوع بالتفصيل العارى عن الاحتشام ، وكأنه يجد لذة فى استعادة تجاربه ، وجر الناس إلى المشاركة فى التمتع بعرضها . يقول من قصيدة يمدح بها هشاما ، ويختم الغزل فيها بقوله:

مشَيْنَ إلىّ لم يُطمَثْن قبلى ... وهُنّ أصحُّ من بَيْض النعام[1]

فبِتْنَ بجانبىّ مُصرَّعات ... وبتُّ أفض أغلاقَ الختام

وليس الفحش وحده هو الذى يسترعى النظر فى مثل هذا الشعر ، ولكننا نلاحظ فيه أيضا أنه يذهب فيه مذهب الفتك والهجوم على اللذة .

يمدح يزيد بن عبد الملك ، فيقدم لمدحه بمقدمة طويلة تستغرق ثلاثين بيتا ، وهى من أفحش الغزل تفصيلا ، وأكثره إمعانا فى التدقيق العارى

(١) الطمث افتضاض البكارة .

المتحلل من كل القيود الأخلاقية . يبدأها بقوله :

وآلفةٍ بَرْدَ الحجال احتَوَيتُها   وقد نام من يُخشى عليها وأصحرا[1]

بل هو يحض الناس على الفجور ويدلهم على سبيله فى قوله :

عليكَ الدَّوَّ إن بمستواه   نساء الجنِّ فى البلد الرقاق[2]

فتنكح ما اشتهيتَ بغير مَهْرٍ   ولا عَدْوَى عليكَ ولا صَداق

وبينما نجد جريرا يبكى حين تمر به جنازةوهو يملى بعض شعره ، فيقطع الإملاء وقد أخذته رهبة الموت ، نجد الفرزدق يقول للحسن البصرى ، وقد اجتمع به فى جنازة فسأله : ما أعددت لهذا اليوم ؟ فيجيبه : شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة . وقد كان يبدوللفرزدق فى بعض الأحيان أن يتكلف النسك ، ويحمل نفسه على طريق الصالحين من أهل العبادة ، فيقول فى ذلك شيئاً من الشعر . ولكن قارىء هذا الشعر لا يجد فيه أثرا لخشوع أو إيمان ، بل هو يكاد يستفزه للضحك ، وكأن فيه شيئاً يشبه التهاون الساخر ـ وإن كان غير مقصود ـ يقول يوم لقيه الحسن البصرى فى الجنازة .

لقد خاب من أولاد دارم من مشى   إلى النار مشدودَ الخناقةِ أزرقا

إذا جاءنى يومَ القيامةِ قائدٌ   عنيفٌ وسوَّاقٌ يسوق الفرزدقا

أخاف وراء القبر إن لم يعافنى   أشدَّ من القبر التهاباً وأضيقا

إذا شربوا فيها الصديد رأيتهم   يذوبون من حر الصديد تمزُّقا

هذا شعر مضحك بقافيته القافية ، وبهذه القافات التى يستكثر منها فى ثنايا البيت ، فتجعله كقحقحة الدجاج الذى يتهيأ للبيض ، وبهذهالصورة التى يتخيل فيها الفرزدق ألوان العذاب ، من شد الخناق ، والقائد العنيف ، والسواق الذى(يسوق الفرزدقا) ، إلى آخر هذهالأخيلة . التى تصور رجلا يتكلف الخشوع ويحمل نفسه عليه حملا .

---

(١) الديوان ص ٤٢٧ـ٣٢١

(٢) الدَّوّ الصحراء ،

وانظر بعد هذا إلى قصيدته التي يهجو فيها إبليس ويبدأها بقوله :

أطعتُك يا ابليس سبعين حِجَّةً فلما انتهى شيبي وتَمَّ تَمامى

فررتُ إلى ربى وأيقنت أننى مُلَاقٍ لأيام المَنون حِمامى

فهى أبعد الأشياء عن هجائه . وكأنه كان ينطق فيها بلسانه ، كما قال له الحسن البصرى حين ذهب إليه فقال له إنى هجوت إبليس فاسمع . قال — لا حاجة لنا بما تقول . قال — لتسمعن أو لأخرجن فأقول للناس إن الحسن ينهى عن هجاء إبليس . قال له الحسن اسكت فإنه بلسانه تنطق(١).

وبعد ، فقد كان الفرزدق هو الشاعر الوحيد الذى استطاع أن يصمد لجرير من بين كل معاصريه ، وأن يكيل له بمثل كيله . وهو وإن لم يستطع أن يبلغ مبلغه فى هدوء الأعصاب ، وامتلاك النفس ، وذكاء القلب ، فقد استطاع أن يدانيه من وجوه كثيرة . فمن ذلك براعته فى خلق الصور وابتكارها ، والتمادى فى توليدها والكشف عن أجزائها ، حتى تبدوا واضحة مشرقة من كل نواحيها . يقول لجرير معيرا ذلة عماته وخالاته ، وابتذالهن فى رعى الغنم ، ويتهمهن بعبد من الرعاة اسمه يسار :

كم عمةٍ لك يا جريرُ وخالةٍ فَدْعاء قد حلبَتْ علىَّ عِشارى(٢)

كنا نُحاذِرُ أن تَضيع لِقاحُنا وَلَهًا إذا سمعَتْ دعاء يسار(٣)

شغّارةٍ تَقِذُ الفصيلَ برجلها فَطّارةٍ لقوادِمِ الأبْكارِ

(١) الأغانى ١٩ : ١٤ والديوان ص ٧٧٠

(٢) الفدع خروج مفصل الابهام مع ميل فى القدم قليل، يعيره بأنها راعية لأن الرعى فى الرجال خاصة .

(٣) يسار اسم راع ، يقول إذا سمعت هذه المرأه دعاء الراعى تركت الابل وذهبت اليه .

(٤) الشغارة التى تشغر الفصيل برجلها إذ دنا من أمه ليرضع ، الفطارة من الفطر وهو الحلب بالسبابة والوسطى مع الاستعانة بطرف الابهام ، والقوادم جميع القادمين وهما خلف الضرع ، ويقال إن الابكار تحلب فطراً لأنه لا يمكن حلبها ضبا لقصر الخلف والضب الحلب بأربع أصابع مع الاستعانة بالابهام ، أو الحلب باليدين جميعاً .

كانت تُراوحُ عاتقَيْها عُلْبَةً   خلفَ اللقاح سريعةَ الإدرار[1]

ويقول فى قوم من بنى يربوع نزل بهم فلم يعطوه إلا فصيلا

ألا قَبَّح اللهُ القلوصَ التى سرَتْ   برجلى إلى خصيىْ عِدَان المُهَّل

تجمَّعتُم لى فى فصيلٍ كأنما   تجمعتُمُ لى فى أغرَّ مُحجَّل

ويقول لمالك بن الجارود :

لعمركَ ما أشبهتَ جدَّكَ مالكاً   ولا جدَّكَ الجارودَ ياعَصَبَ الكاب

وما مالكٌ إلا عجوزٌ كبيرةٌ   مُضَبَّبَةُ الأسنانِ تزحَفُ فى الرَّكْب

ويقول لرجل من جيرانه :

قُعودُك فى الشَّرْب الكرام بَلِيَّةٌ   ورأسُكَ فى الإكليلِ إحدى الكبائر

فما نطُفَتْ كأسٌ ولا طاب طعمُها   ضرَبْتَ على حافاتِها بالمَشَافِر

ومن الهجاء الذى يعتمد على السخرية قوله فى هجاء طىء :

ولو أنّ عصفوراً يمدُّ جناحَه   على طىء فى دارها لاستظلَّت

وقوله فى هجاء رجل اسمه صالح بن كدير ؛ وقد دخل عليه فوجد بين يديه دراهم منثورة ، فسأله إياها ، فتنق له صنارها :

يقولون صَبِّحْ صالحًا فاستغِثْ به   وما صالحٌ إلا ريح الخُرُوءِ بصالحِ !

وقوله يهجو محمد بن جرير بن عبد الله البجلى :

تَنَحَّ أهانَ اللهُ مَثْواكَ خاسئاً   عن اسمِ نَبِيٍّ المسلمين محمَّدِ

وقوله فى هجاء رجل من بنى نهشل :

فِعِزَّاكَ أصلِحْها التِّلادَ فإنهما   سناؤكَ فيها أن تَنِبُّ وترضعا

---

(١) العلبة قدح ضخم من جلود الابل أو من الخشب يحلب فيها .

سيأتى ابنَ مسعودٍ على نأى داره ... ثناءٌ إذا غـنَّى به الركب أقذعا[1]

وقوله فى هجاء رجل من قومه أقرضه مائة درهم ، ثم ألح فى طلبها حتى دفعها إليه ، وبراعة السخرية هنا تستند إلى الواقعية التى تحكى أسلوب عامة الناس فى مألوف حديثهم .

أفى مائةٍ أقرضتَها ذا قرابةٍ ... على كلِّ بابٍ ماءُ عينيك يَدْمَعُ ؟

تسيلُ مآقيكَ الصَّديدَ تلومنى ... وأنت امرؤٌ قَحْمُ العِذارَيْن أصلعُ

فدونَـكَها إنِّى أخالُكَ لم تَزَلْ ... لدُنْ خرجَتْ من باب بيتكَ تلْمَعُ

تنادى وتدعو اللهَ فيهـا كأنما ... رُزِئت ابن أُمٍّ لم يكن يتضعضع

وقريب من هذا الأسلوب ، قوله يتهكم بالأنصار ، حين تحداه رجل منهم أن يقول مثل شعر حسان :

وبالله لولا أن تقولوا تكاثرتْ ... علينا تميمٌ ظالمين وأسرفوا

لما تركتْ كفٌّ تشير بإصبع ... ولا تركتْ عينٌ على الأرض تطرف

والفرزدق إن كان يقصر عن جرير فى الهجاء الشخصى ، فهو يتفوق عليه تفوقا ظاهراً فى الهجاء الاجتماعى ، الذى يبدو فيه أوسع أفقاً ، وأشمل نظراً فالدارس للحياة الاجتماعيه فى ذلك العصر ، يستطيع أن يجد صورة منها فى شعر الفرزدق ، هى أوضح بكثير مما يستطيع استخلاصه من شعر جرير . فقد استطاع الفرزدق أن يصور فساد الحكم وتجبر الولاة ، وظلم الجباة ، وانتشار الرشوة . وتأثر الحكام بالعصبية القبلية وقدم لنا صورا واضحة للسجون فى ذلك العصر ، فبينما كانت عين جرير النقادة لا تقع إلا على الأفراد من الناس ، كان الفرزدق يقف من عصره موقف الرقيب ، الذى يفتح عينه على كل ما حوله من أحداث ، لينهال بسوطه على المنحرفين عن جادة الصواب

---

(١) نبيب التيس صياحه عند الفساد ، يسخر به قائلا سيأتيك ثناء ولكنه ثناء مقذع

الموالى والهجـــاء

عرفت الدولة الأموية بتعصبها لعنصر العرب ولكل ماهو عربى، والاستخفاف بمن عداهم من سائر الأجناس. وبينما كان العرب ينظرون إلى هذا السيل من الموالى، الذى يتدفق عليهم مع الفتوحات، أسرى من الرجال والولدان، وسبايا من الجوارى والإماء، نظر الغالب إلى المغلوب، كان هؤلاء الموالى ينظرون إليهم فى شىء من الحقد والاستخفاف. فالعرب من ناحيتهم لا يؤمنون إلا بالقوة. عليها وحدها كانت تدور حياتهم، وفيها وحدها تركزت كل مثلهم وقيمهم الأخلاقية والاجتماعية، فهم لا يرون هذا الخليط من الأسرى والإماء إلا عبيدا أرقاء، قد أباحهم السيف لهم ليسخروا فى لذاتهم ولهوهم. والموالى - ومعظمهم من الفرس - لا يرون العرب إلا بدوا جفاة قد أتاهم الملك، فغدوا ليس فى قديمهم ما يؤهلهم لسيادة أو تدبير سياسة: وإنما هو الحظ ومحض الصدفة قد أسعدهم، فقضى لهم الغلبة، ونكب هذه الأمم العريقة، فقضى عليها الذل والاستعباد.

ولم يكن بد لهذه الجيوش الجرارة من الموالى من أن تعيش وتلتمس طريقها للحياة، وتستر هذه الحسرة اللاذعة، وهذا الحقد الدفين بستار من الرياء. فاتخذ بعضهم صناعة الغناء، وكسب مكانه بالزلفى والغلبة على قلوب هؤلاء البدو، الذين بهرتهم الألحان الجديدة المتقنة، وما يصاحبها من آلات موسيقية لا عهد لهم بها. ولم يكن فتنتهم بهذه الطائفة نفسها من مغنين ومغنيات، بأقل من فتنتهم بألحانهم الجديدة وموسيقاهم. فقد كانت هذه الطائفة تنشر البدع الجديدة فى أساليب الحياة الاجتماعية، فى نفس الوقت الذى تفتن فيه الناس بهذا البدع الجديد من ضروب الغناء.

فهذا هو ابن سريج يخفى صلعه بجمة مركبة، ويخضب أطراف أصابعه

بالحناء ، ويلبس الثياب المصبغة ، ويسير فى الطرقات عابثا ، يجر وراءه جرادة قد شد رجلها بخيط ، يطيرها ويجذبها كلما تخلفت عنه . وهو يصحب طبقة المترفين من أشراف العرب فى مواسم الحج ، يتعرضون للنساء فى طوافهن . يحج مرة مع عمر بن أبى ربيعة على نجيبين ، رحالتا هما ملبستان بالديباج ، وقد خضبا النجيبين . ويحج معه مرة أخرى ، وقد ركب عمر نجيباً مخضوبا بالحناء مشهر الرحل بقراب مذهب ، وركب ابن سريج بغلة شقراء ، ومعه غلام له يقود فرساً أدهم أغر محجلا ، فى عنقه طوق ذهب ، ومع عمر جماعة من حشمه وغلمانه ومواليه ، وعليه حلة موشية يمانية ، وعلى ابن سريج ثوبان هراويان مرتفعان[1]

وهذا هو حنين الحيرى ، يتخذ الأزياء الفارسية الزاهية الألوان ، فيغنى عند بشر بن مروان وعوده فى حجره ، وعليه قباء زاهى اللون ، وجبة واسعة من الفرو الأحمر طويلة الكم تتذبذب يداها ، وخفان موشيان[2] . وهذا هو الغريض ، يُصنِّع نفسه ويُبرِّقها ـ كما يقول صاحب الأغانى[3] ـ حين يغنى ، فيضرب بالعود ، وينقر بالدف ، ويوقع بالقضيب ، فيفتن الناس بغنائه وبوضاءة وجهه وحسن زيه .

افتتن العرب بهذه الطبقة من الموالى التى اتخذت الغناء ، حتى لقد وقف ابن عائشة يغنى فى الموسم ، فحبس الناس ، واضطربت المحامل ، ومدت الإبل أعناقها ، وكادت الفتنه أن تقع ، فجىء به إلى هشام بن عبد الملك فقال له ، ياعدو الله ! أردت أن تفتن الناس ؟ فأمسك ابن عائشة عنه ، وكان تَيَّاها . فقال له هشام: أرفق بتيهك ! فقال : حق لمن كانت هذه مقدرته على القلوب أن يكون تياها فضحك وخلى سبيله[4] . ولم يسلم الفقهاء ورجال الدين

---

(١) الأغانى ١ ٤٤٩ — ٢٧٤
(٢) الأغانى ٢ ٣٥٠
(٣) الأغانى ٢ ٣٦٠
(٤) الأغانى ٢ ٢٠٨

— وهم أكثر الناس تحرجا — من هذه الفتنة . روى صاحب الأغانى أن الأوقص المخزومى ولى قضاء مكة، فما رأى الناس مثله فى عفافه ونبله فأنه لنائم ليلة فى جناح له ، إذ مر به سكران يتغنى .

عوجى علينا ربة الهودج

فأشرف عليه فقال : ياهذا ، شربت حراما ، وأيقظت نياما، وغنيت خطأ . خده عنى . . . . ثم أصلحه له . وبلغ من فتنة الناس بهم أنهم كانوا يحتفلون بمقدمهم ! فيجتمعون لاستقبالهم بما لا يجتمع لمثله خلق فى استقبال أمير أو خليفة قدم حنين الحيرى على الحجاز ، حين دعاه إليها مغنوها الثلاثة المشهورون — ابن سريج والغريض ومعبد — فلما كان على مرحلة من المدينة بلغهم خبره ، فخرجوا يتلقونه ، فلم ير يوما كان أكثر حشراً ولا جمعاً من يومئذ . ودخلوا منزل سكينة بنت الحسين ، فلما دخلوا إليها أذنت للناس أذانا عاما ، فضاقت الدار بهم ، وصعدوا فوق السطح فسقط الرواق على من تحته . ومات حنين تحت الردم[1] .

هذه طائفة من الموالى ، قد ابتغت الوسيلة للظهور والثراء بالغناء ، وانتقمت بسلاح المستضعف الذى يغزو القلوب والجيوب ، حين يعجز عن مواجهة الخصم ويمكننا أن نضيف إلى هذه الطائفة أشعب وأضرابه من المهرجين ، الذى يكسبون مكانتهم بحركاتهم الجسمية ونوادرهم البارعة . فقد مرن أشعب على ألوان من الحركات العجيبة ، فكان يغضّن وجهه ويشنجه ، حتى يصير عرضه أكثر من طوله ، ويصير فى هيئة لم يعرفه أحد بها ، ثم يرسل وجهه ويطوله ، حتى يكاد ذقنه أن يجوز صدره ، ثم ينزع ثيابه ويتحادب فيصير فى ظهره حدبة كسنام البعير ، ويصير طوله مقدار شبر أو أكثر ، ثم يقوم فيتطاول ، حتى يصير أطول مايكون من الرجال[2]. وكان مع هذا من أكثر الناس نادرة ، وأحسنهم فكاهة ، وأجودهم أداء للغناء .

(١) الأغانى ٢ ٣٥٥ (٢) الأغانى ١٧ ٩٥

وطائفة أخرى من الموالى قد انصرفت للدين ودراسة القرآن والفقه، كالحسن البصرى ومحمد بن سيرين وسعيد بن جبير وعطاء بن يسار وربيعة الرأى وابن جريج[١]. وهؤلاء قد انصرفوا للعبادة، فأذهب الإسلام غيظ قلوبهم، وبرأهم مما اتسم به جنسهم من الحقد على العرب والكيد لهم

وطائفة ثالثة اتخذت الشعر وبرعت فيه، فأتاح لهم نبوغهم شيئا من النفوذ. احترف بعضهم السياسة. فتعصب لهذا الفريق أو ذاك من الأحزاب العربية، كالذى يروى من تعصب سديف لبنى هاشم، وتعصب شبيب لبنى أمية[٢] ومناصرة أبى العباس الأعمى للأمويين[٣] وانقطاع اسمعيل ابن يسار لآل الزبير.[٤] وكان هؤلاء الشعراء فى معظمهم منافقين، لم يعتنقوا هذا المذهب أو ذاك عن عقيدة أو إيمان، فالعرب عندهم سواء لا يحملون لهم إلا البغض والأزدراء، ولكنهم يلتمسون السبيل للظهور، بما يتكلفون من تصنع الولاء والإخلاص لأصحاب النفوذ. وخير ما يصور علاقتهم بهذه الأحزاب العربية، ما يروى صاحب الأغانى من قدوم إسمعيل بن يسار على الغمر بن يزيد بن عبد الملك — وكان قد تحول إلى الأمويين بعد قتل ابن الزبير وإفضاء الملك إليهم — استأذن اسماعيل على الغمر فحجبه ساعة، ثم أذن له، فدخل يبكى، فقال له الغمر — مالك يا أبا فائد تبكى؟ قال وكيف لا أبكى، وأنا على مروانيتى ومروانية أبى أحجب عنك؟ فجعل الغمر يعتذر إليه، وهو يبكى، فما سكت حتى وصله الغمر بجملة لها قدر وخرج من عنده، فلحقه رجل فقال له: أخبرنى ويلك يا إسمعيل، أى مروانية لك ولأبيك؟ قال — بغضنا إياهم. امرأته طالق، إن لم يكن يلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح، وإن لم يكن أبوه حضره الموت فقيل له قل لا إله إلا الله، فقال لعن الله مروان،

---

(١) ضحى الاسلام ١ ٢٧
(٢) الأغانى ١٤ ١٦٢
(٣) الأغانى ١٥ ٥٩
(٤) الأغانى ٤ ٤٠٨

تقربا إلى الله تعالى وإبدالا له من التوحيد، وإقامة له مقامة [1] وقد كان إسمعيل هذا شعوبيا شديد التعصب على العرب، فكان لا يزال مضروبا محروما مطرودا. وكذلك كان ابنه إبراهيم. [2] دخل إسمعيل على هشام بن عبد الملك في خلافته، وهو بالرصافة جالس على بركة له في قصر، فاستنشده — وهو يرى أنه سينشده مديحا له — فأنشده قصيدته التي يفتخر فيها بالعجم.

يا ربع مية بالعلياء من ريم	هل ترجعن إذا حييت تسليمي

إلى أن انتهى إلى قوله.

إني وجدِكَ ما عودي بذي خور	عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم
أصلي كريم ومجدي لا يقاس به	ولي لسان كحد السيف مسموم
أحمي به مجد أقوام ذوي حسب	من كل قرم بتاج الملك معموم
جَحاجِحٌ سادةٌ بُلجٌ مَرازِبَةٌ	جُرْدٌ عِتاقٌ مَساميح مَطاعيم
مِنْ مثل كسرى وسابور الجود معاً	والهرمزانُ لفخرٍ أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا	وهم أذلوا ملوك الفرس والروم
يمشون في الحلق الماذي سابغة	مشي الضراغمةِ الأسدِ اللهاميم
هناك إن تسألي تُنْبَيْ بأن لنا	جُرْثومةً قهرتْ عِزَّ الجراثيم

فغضب هشام وقال: يا عاض بظر أمه، أعلى تفخر؟ وإياي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك؟ غطوه في الماء! فغطوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج. ثم أمر بإخراجه وهو بشر حال، ونفاه من وقته، فأخرج عن الرصافة منفيا إلى الحجاز [3]. ومما يصور نماق هذه الطائفة من الموالي في

---

(1) الأغاني ٤ ٤١٠ (2) الأغاني ٤ ٤١١ و ٤٢٧

(3) الأغاني ٤ ٤٢٢

علاقتهم بسادتهم، ما يروى الطبرى، من أن الوليد بن يزيد لما اشتد به الضيق واخذه الثوار من كل مكان، قال ـ من جاء برأس فله خمسمائة. فجاء قوم بأرؤس، فقال الوليد اكتبوا أسماءهم، فقال رجل من موالية ممن جاء برأس: يا أمير المؤمنين، ليس هذا يوم يعمل فيه بنسيئة [١]

وآثر بعض الشعراء من الموالى أن يبتعد عن السياسة ومغامراتها، وما تجر على محترفيها من مكاره، فكسبوا مكانتهم بهجاء الناس. وهؤلاء كثير، منهم الحزين الكنانى، وفيه يقول أبو الفرج: كان هجاء خبيث اللسان ساقطا يرضيه اليسير، ويتكسب بالشر وهجاء الناس.[٢] ومنهم ابن الخياط، كان ما جنا خليعا هجاء خبيث اللسان.[٣] ومنهم ابن ميادة، كان عريضا للشر يطلب مهاجاة الشعراء ومسابة الناس. وكان يضرب بيده على جنب أمه ويقول: اعرَنزِمى ميَّادُ للقوافى ـ واستمعيهن ولا تخافى ـ ستجدين ابنك ذا قِذَاف [٤]

ومنهم أبو عطاء السندى[٥]. ومنهم زياد الأعجم[٦]. ومنهم يزيد بن مفرغ الذى اشتهر بأهاجيه فى آل زياد، وصلابته فى احتمال أذاهم، وصبره على اضطهادهم [٧]

وقد كان كثير من هؤلاء الشعراء لا يكتمون تعصبهم لقومهم، وتهكمهم بكل ما هو عربى، حتى لقد غلب عليهم الاستهتار، وروى عن بعضهم ما يصور الاستخفاف بالإسلام، وكأنهم لم يروه إلا مذهبا سياسيا، قد أتاح للعرب هذا النفوذ العريض، الذى قوض دولتهم، وجعلهم فى هذا المكان من الذل والاستعباد.

فمثال تعصبهم قول ابن ميَّادة، وكان بن أم ولد ـ [٨].

---

(١) الطبرى ٥ ٥٥٦ (٢) الاغانى ١٤ ٧٦

(٣) الأغانى ١٨ ٩٤ (٤) الاغانى ٢ ٢٦٣

(٥) الأغانى ١٦ ٨١ (٦) الأغانى ١٤ ١٠٢

(٧) الأغانى ١٧ ٥١ (٨) الاغانى ٢ ٢٦٢

أنا ابن أبى سلمى وجدى ظالم وأمى حَصان أخلَصَتْها الأعاجم
أليس غلام بين كسرى وظالم بأكرم من نيطت عليه التمائم

وقوله :

لنا الملك إلا أن شيئاً تعده قريش ولو شئنا لداخت رقابها
وإن غضبت من ذا قريش فقل لها معاذ الإله أن أكون أهابها

وقوله :

فضلنا قريشا غير رهط محمد وغير بنى مروان أهل الفضائل

وقد لقيه إبراهيم بن إسمعيل فقال له ـ أنت فضلت قريشا ؟ وجرده وضربه أسواطاً [١]

ومن أمثلة هذا التعصب كذلك ما يروى من أن زيادا الأعجم كان يخرج وعلية قباء ديباج تشبها بالأعاجم ، حتى لقد مر به يزيد بن المهلب ذات يوم وهو على حاله تلك ، فأمر به فقنع أسواطا ومزق ثيابه قائلا . والترك تتشبه لا أم لك ؟ [٢]

أما استهتارهم ومجافاتهم للإسلام فالأمثلة عليه كثيرة . كان زياد الاعجم عند عمر بن عبد الله بن معمر بفارس . وقدم عليه غزال بن محمد الفقيه من مصر ،فكان غزال يحدثه بحديث الفقهاء ، فقال زياد :

يحدثنا أن القيامة قد أتت وجاء غزال يبتغى المال من مصر
فكم بين باب الترك إن كنت صادقاً وإيوان كسرى من فلاة ومن قصر

ومر به زيد بن حبناء الضبي وهو ينشد هجاء مفحشا ، فقال له : ألم يأن

---

(١) الأغانى ٢ ٢٩٤ و ٣٣٠ (٢) الأغانى ١٤ ١٠٤

لك أن ترعوى وتترك تمزيق أعراض الناس ؟ ويحك حتى متى تمادى فى الضلال ؟ كأنك بالموت قد صبحك أو مساك . فهجاه زياد بقوله : [١]

يحذرنى الموتَ ابنُ حبناء والفتى إلى الموت يغدو جاهداً ويروح

وكل أمرىء لا بد للموت سائر وإن عاش دهراً فى البلاد يسيح

فقل ليزيدٍ ياابن حبناء لا تعظ أخاك وعظ نفساً فأنت جَنُوح

تركت التقى والدين دين محمد لأهل التقى والمسلمين يلوح

وتابعت مُرّاقَ العراقين سادرا وأنت غليظ القُصْريين صحيح [٢]

وروى الزبير بن بكار أن أباه ولى الحجاز ، فألزم ابن الخياط حضور الصلاة مع الجماعة ، فجاء ابن الخياط وأنشده :

قل للأمير يا كريم الجنس يا خير من بالغور أو بالجلس

وعدّتنى لولدى ونفسى شغلتنى بالصلوات الخمس

فقال له ـ ويحك . أتريد أن أستعفيه لك من الصلاة ؟ والله لا يعفيك وإن ذلك ليبعثه على اللجاج فى أمرك ثم يضرك عنده . فمضى وقال ـ نصبر إذن حتى يفرج الله تعالى ! [٣] وقد حد ابن الخياط فى الخمر ، جلده مالك ابن أنس . فلما ولى ابن سعيد القضاء بالمدينة قال فيه . [٤]

بَكَّتَنِى الناسُ لأنْ جُلدتْ وسْطَ الرَّحبَهْ

وأننى أزنى وقد غنيت فى المحتسِبَة [٥]

أعزف فيهم بعصا ابـ ـن مالك المقتَضَبة

---

(١) الأغانى ١٤ : ١٠٧

(٢) السادز المتحير والذى لا يبالى ما صنع . القصريان ضلعان يليان الترقوتين .

(٣) الأغانى ١٨ ٩٧ (٤) الأغانى ١٨ ٩٩

(٥) المحتسبة طائفة من الشرطة يمشون فى الطرقات لمراقبة الناس وأخذ المستهترين والمخالفين .

فقلت لما أكثروا عليَّ فيم الجلبة

ذا ابنُ سعيدٍ قد قضى وحالُنـــا مقتربة

لا بل له الفضيل فيـ ـما لم أنَلْ والغلبة

بحسنِ صوت مطرب وزوجـةٍ مُعتصبة

وكان الحزين الكنانى مدمنا للشراب فاسد الدين . وفد على عبدالله بن عبد الملك فقال له : أى الرقيق أعجب إليك ؟ قال : ليختر لى الأمير . فاختار له عبدالله أحدهم وقال : قد رضيت لك هذا ، فإنى رأيته حسن الصلاح . فقال الحزين : لا حاجة لى به فأعطنى أخاه . فأعطاه إياه [١] .

وكان بعض هؤلاء الشعراء - على مكانتهم فى الشعر - لا يفصحون ولا يحسنون النطق بالعربية . كان أبو عطاء السندى يجمع بين لثغة ولكنه فلا يكاد يفهم كلامه . كان يقول (مرهبا مرهبا هيا كم الله) يقصد : مرحبا مرحبا حياكم الله . وكان يقول (زز) يعنى زُجّ . و (زرادة) يعنى : جرادة . ويقول (أزن) يعنى : أظن . ويقول (بنو سيطان) يعنى : بنو شيطان . وكان الناس يسمعونه فيكتمون الضحك ولا يجسرون على إظهاره خوفاً من شره [٢] . أتى سليمان ابن سليم فأنشده :

أعوزتنى الرُّواةُ يا ابن سُلَيم وأبى أن يُقيمَ شعرى لسانى

وغلا بالذى أُجَمجِمُ صـدرى وجفانى لعجمتى سلطانى

وازدرتنى العيون إذ كان لونى حالـكاً مُجتَوًى من الألوان

فضربت الأمور ظهراً لبطنٍ كيف أحتال حيلة للسانى

وتمنيت أننى كنت بالشعـ ـر فصيحاً وبان بعض بيانى

(١) الأغانى ١٤ ٧٩ (٢) الأغانى ١٦ ٨٣ و ٨٧

فاكفنى ما يضيق عنه لسانى بفصيح من صالح الغلمان
يفهم الناس ما أقول من الشعـ ـر فإن البيان قد أعيانى

فأمر له سليمان بوصيف بربرى فصيح ، فسماه عطاء ، وتكنى به ، ورواه الشعر ، فكان إذا مدح من يحتذيه أو ينتجعه أمره بإنشاده ما قاله .[1]

وكان زياد الأعجم لا يحسن النطق بالعربية على ما أتيح له من التقدم فى الشعر . وقد ضرب أبو الفرج مثلا لعجمته بقوله لغلام له دعاه فأبطأ عليه (منذ لدن د أوتك إلى أن قلت لى ما كنت تسنأ ؟) يقصد : منذ لدن دعوتك إلى أن قلت لى ما كنت تصنع ؟

وقد حقق الهجاء لهذه الطائفة ما طمحوا إليه من مكانة ، فكان سلاحا مرهوباً يخشاه الناس ، ويتقونه بإكرامهم ومداراتهم روى رجل أنه كان جالسا عند المهلب ، فأقبل عليه رجل طويل مضطرب ؛ فلما رآه المهلب قال اللهم إنى أعوذ بك من شره . فجاء فقال : أصلح الله الأمير . إنى قد مدحتك ببيت صفده مائة ألف درهم . فسكت المهلب . فأعاد عليه القول فقال : أنشدنيه . فأنشده :

فتى زاده السلطان فى الخير رغبة إذا غَيَّرَ السلطانُ كلَّ خليل

فقال له المهلب : يا أبا أمامه ، مائة ألف ! فوالله ما هى عندنا . ولكن ثلاثون ألفاً فيها عروض[2]. فالمهلب لم يدفع الثلاثين ألفا ثمنا لهذا البيت التافه من الشعر ، فهو لا يساوى شيئا . وإنما دفعها اتقاء هجائه ، واشترى بها عرضه . ولقد بلغ من رهبة هؤلاء الموالى عند الناس ، وجرأتهم عليهم ، أن زيادا

(١) الأغانى ١٦ ٨١
(٢) العروض جمع عرض بفتح العين وسكون الراء وهو المتاع وكل شىء سوى النقد . يريد المهلب أن يعطيه بعض المبلغ نقداً و بعضه متاعاً .
(٣) الأغانى ١٤ ١٠٧

هذا شرب يوما مع حبيب بن المهلب، فسجعت حمامة على شجرة، فقال لها زياد.

تَغَنَّىْ أنتِ فى ذِمَمى وعهدى وذمة والدى إن لم تُطَارى

فإمَّا يقتلوك طلبتُ ثأراً له نبأ لأنكِ فى جوارى

فتحداه ابن المهلب فأصاب الحمامة بسهم تهكما به، فانطلق زياد إلى المهلب ابن أبى صفرة شاكياً، فألزم ابنه دية الحمامة ألف دينار لأنها جارته[1]. وإنما فعل ذلك خوفاً من شره. وحج عبدالله بن عبدالملك بن مروان، فقال أبوه: سيأتيك الحزين الكنانى الشاعر بالمدينة، وهو ذرب اللسان، فإياك أن تحتجب عنه، وأرضه. ووصفه له، فقال إنه أشعر ذو بطن عظيم الأنف. فلما قدم عبدالله المدينة وصفه لحاجبه، وقال له: إياك أن ترده[2]. بل لقد بلغ من جرأة الحزين الكنانى، أنه كان يفرض الضرائب على أشراف الناس وعلى القرشيين أنفسهم.

روى صاحب الأغانى أنه ضرب على كل رجل من قريش درهمين فى كل شهر، منهم ابن أبى عتيق، فجاء يوما لأخذ درهميه وهو على حمار أعجف، وكان كثير الشاعر جالساً مع ابن أبى عتيق. فدعا ابن أبى عتيق للحزين بدرهمين. فقال له الحزين: من هذا الذى معك؟ قال: هذا أبو صخر كثير — وكان قصيراً دميما — فقال له الحزين: أتأذن لى أن أهجوه ببيت؟ قال: لا لعمرى لا آذن لك أن تهجو جليسى، ولكن أشترى عرضه منك بدرهمين آخرين. ودعا له بهما. فأصغى ثم قال: لابد من هجائه ببيت. قال: أو أشترى ذلك منك بدرهمين آخرين. ودعا له بهما. فأخذهما وقال ما أنا بتاركه حتى أهجوه. قال أو أشترى منك ذلك بدرهمين آخرين. فقال له كثير: ائذن له وما عسى أن يقول فى؟ فأذن له ابن أبى عتيق فقال:

---

(١) الأغانى ١٤ ١٠٣ (٢) الأغانى ١٤ ٧٧

قصيرُ القميص فاحشٌ عند بيته   يَعَضُّ القُرَادُ بأسته وهو قائم

فوثب كثير إليه فوكزه فسقط هو والحمار ، وخلص ابن أبي عتيق بينهما[١].

وقد كان معظم هجاء هذه الطبقة غثاً تافهاً إذا وزن بموازين الشعر . وكان شطر كبير منه مرتجلا ينشئه الشاعر لساعته . كان الحزين الكنانى يمدح محمد بن مروان ويهجو عمرو بن عمرو بن الزبير . ثم إن ابن مروان سأله أن يكف عن عمرو فأبى ، وقال : لا والله ولا بحمر النعم وسودها ، لو أعطيتها ما كففت عنه ، لأنه ما علمت كثير الشر ، قليل الخير ، متسلط على صديقه فظ على أهله . (وخير ابن عمرو بالثريا معلق) فقال له محمد بن مروان هذا شعر ؟ فقال : بعد ساعة يصير شعراً ، ولو شئت لعجلته ، ثم قال[٢] :

شَرُّ ابن عمرو حاضر لصديقه   وخير ابن عمرو بالثريا معلق

ووجه ابن عمرو باسِرٌ إن طلبته   نوالا إذا جاء الكريم الموفق

فنفس الفتى عمرو بن عمرو إذا غدت   كتائب هيجاءِ المنية تبرق[٣]

فلا زال عمرو للبلايا رَدِيَّةً   تباكره حتى يموت وتَطْرُق[٤]

يهِرُّ هريرَ الكلب عمرو إذا رأى   طعاماً فما ينفك يبكى ويشهق

وهذا شعر تافه كما هو بين ولكن أمثال هؤلاء الهجائيين كانوا من الضعة وضياع الحسب بحيث يكبر على الأشراف ما يقولون لهم وإن كان تافهاً . ثم هم لا يبالون أن يهجوهم الناس . ولذلك كانوا أكثر ما يتعرضون للسادة والوجهاء ولم يكونوا يتعرضون للذين لا يبالون أن يجيبوهم ؛ ويظهرون عدم الاكتراث بشعرهم هجا ابن الخياط موسى ابن طلحة ابن بلال التيمى فقال :

---

(١) الأغانى ١٤ ٧٦   (٢) الأغانى ١٤ ٨٣

(٣) برق كطرب تحير   (٤) ردية أى هدف وغرض

عجب الناس للعجيب المحال   حاض موسى بن طلحة بن بلال
زعموه يحيض فى كل شهر   ويرى صفْرَةً لكل هلال

فلقيه موسى فقال : يا هذا ، وأى شىء عليك ؟ نعم حضت وحملت وولدت وأرضعت   فقال له ابن الخياط   أنشدك الله أن لا يسمع هذا منك أحد فيجترىء على شعرى الناس فلا يكون شيئاً ، ولن يبلغك منى ما تكره بعد الآن[1]

وقد غلب على هجاء هذه الطبقة الاقتضاب والقصر ، فكان ذلك أدعى لذيوعه وخفته على الألسن ، وأشد للذعته ونكايته . كان عبيد الله بن زياد يقول : ما هجيت بشىء أشد على من قول ابن مفرغ :

فكّرٌ ففى ذاك إن فكرت مُعْتَبَرٌ   هل نلتَ مكرمةً إلا بتأمير
عاشت سُمَيَّةُ ما تدرى وقد عُمِرَتْ   أن ابنها من قريش فى الجماهير

وقال فى هجاء زياد بن أبى سفيان :

فأقسم ما زياد من قريش   ولا كانت سمية من تميم
ولكن نسلُ عبدٍ من بَغِيٍّ   عريق الأصل فى النسب اللئيم

وقال فيه :

إن زيادا ونافعا وأبا بكـ   ـرة عندى من أعجب العجب
إن رجالا ثلاثة خلقوا   فى رحم أنثى ما كلهم لأب
ذا قرشِيٌّ كما يقول وذا   مولى وهذا بزعمه عربى

ويقول زياد الأعجم لكعب الأشقرى الشاعر حين هجاه

قُبَيِّلة   خيرها   شرها   وأصدقها الكاذب الآثم

---

(١) الأغانى ١٨ : ٩٥

وضيفهم وسْطَ أبياتهـم و إن لم يكن صائما صائم

ويقول له :

إذا عذَّبَ اللهُ الرجال بِشعرهم أمنتُ لكعبٍ أن يُعَذَّبَ بالشعر

وقال لرجل من جرم :

قضى الله خلق الناس ثم خلقتم بقية خلق الله آخرَ آخرِ

فلم تُسمَعُوا إلا بما كان قبلكم ولم تُدْرَكوا إلا بدق الحوافر

فلو رَدَّ أهلُ الحق من مات منكم إلى حقه لم يدفنوا فى المقابر

هذه طبقة من المستضعفين المغلوبين على أمرهم ، فرضت عليهم القوة والذل ، وقضى عليهم التعصب المتطرف أن يعيشوا مستعبدين مهضومى الحقوق ، فتسلح بعضهم بالرياء يستر به حقده الكامن ، وتسلح فريق منهم بالهجاء ، ودفع اليأس فريقاً ثالثاً إلى الزهد ، يلتمسون فى نعيم الآخرة المقيم عوضاً من جاه الدنيا الحائل . ولكنهم فى جملتهم ظلوا يكيدون للعرب ، وينشرون حضارتهم الفارسية فى بطء وتصميم ، حتى أتيح لهم الظفر الكامل ، فقوضوا ملك الأمويين ، وأقاموا على أنقاضه دولة عربية المظهر ، فارسية الروح والصميم .

[انتهى القسم الثانى فى العصر الاسلامى]

المراجـــع

نصوص :

ديوان جرير	ط	الصاوى
« الفرزدق	ط	الصاوى
« الأخطل	ط	اليسوعيين
« أعشى همدان	ط	أوروبا
نقائص جرير والفرزدق	ط	أوروبا
نقائص جرير والأخطل	ط	اليسوعيين
وقعة صفين	ط	هارون
المفضليات	ط	هارون ١٣٦١ هـ
حماسة أبى تمام	ط	« مصر
شرح حماسة أبى تمام	ط	مصطفى محمد
جمهرة أشعار العرب	ط	مصر ١٣٤٥ هـ
شعراء النصرانية	ط	اليسوعيين

نقـــد

العمدة لابن رشيق	ط	مصطفى محمد
الموازنة للآمدى	ط	صبيح
ديوان المعانى للعسكرى	ط	مصر ١٣٥٢ هـ
الصناعتين للعسكرى	ط	الأستانة ١٣١٩ هـ
الوساطة للجرجانى	ط	مصر ١٣٦٤ هـ
الموشح للمرزبانى	ط	مصر ١٣٤٣ هـ
نقد الشعر لقدامة	ط	مصر ١٩٣٤ م
نقد النثر لقدامة	ط	الجامعة المصرية

أدب

نهاية الأرب للنويرى	ط . دار الكتب
العقد الفريد	ط . العريان ١٩٤٠ م
البيان والتبيين	ط . السندوبى ١٩٢٦ م
الكامل للمبرد	ط . مصطفى محمد
الأمالى للقالى	ط . دار الكتب
المعارف لابن قتيبة	ط . الصاوى ١٩٣٤ م

تراجم وطبقات :

الأغانى	ط . دار الكتب فى الأجزاء العشرة الأولى . وبولاق فيما يليها
وفيات الأعيان	ط . بولاق ، مصر (فريد رفاعى)
الشعر والشعراء لابن قتيبة	ط مصر (السقا) ١٩٣٢ م
طبقات الشعراء لابن سلام	ط مصر (السعادة)
خزانة الأدب للبغدادى	ط . مصر (الحلبى) ١٩٣٠ م
الفهرست لابن النديم	ط . مصر ١٣٤٨ هـ
معجم الشعراء للمرزبانى	ط مصر (القدسى) ١٣٥٤ هـ
المؤتلف والمختلف للآمدى	ط . مصر (القدسى) ١٣٥٤ هـ
الطبقات الكبرى لابن سعد	ط . أوروبا
معجم الأدباء لياقوت	ط . مصر (فريد رفاعى)

تاريخ

تاريخ الطبرى	ط مصر ١٩٣٩ م (مصطفى محمد)
تاريخ ابن الأثير	ط مصر ١٣٤٨ هـ (المنيرية)
مروج الذهب للمسعودى	ط ١٣٤٦ هـ
معجم البلدان لياقوت	ط . مصر

نسب عدنان وقحطان للمبرد ط مصر (لجنة التأليف)
الإنباه على قبائل الرواه لابن عبدالبر ط مصر (السعادة) ١٣٥٠ هـ
شرح نقائض جرير والفرزدق ط أوروبا
مقدمة ابن خلدون ط مصر ١٩٣١ م
فتوح البلدان للبلاذرى ط مصر ١٩٣٢ م
الخراج لأبى يوسف ط مصر (السلفية)
الخراج للقرشى ط مصر (شاكر)
التنبيه والإشراف للمسعودى ط ١٩٣٨ م
مختصر الفرق بين الفرق ط مصر ١٩٢٤ م (الهلال)
التبصير فى الدين الاسفرايينى ط مصر ١٩٤٠ م
النزاع والتخاصم بين بنى أميـة وبنى هاشم للمقريزى ط مصر

معاجم

لسان العرب لابن منظور
القاموس المحيط للفيروزبادى
أساس البلاغة للزمخشرى
مجمع الأمثال للميدانى
شرح القاموس للزبيدي
المعرب للجواليقى

كتب حديثة

بلوغ الأرب للألوسى
تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان
تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان
تاريخ آداب العرب للرافعى
النصرانية وآدابها لشيخو
الروائع للبستانى
فجر الإسلام لأحمد أمين
ضحى الإسلام لأحمد أمين
حديث الأربعاء لطه حسين

فهرس

نشأة الأحزاب السياسية

الهجاء السياسى

على تشجيع الشعراء وتألف الناس بالمال — عودة الشعر للظهور بعد أن خفت صوته منذ وفاة النبى — اعتماد الزعماء والملوك على الشعراء فى تهيئة الناس لمشاريعهم والترويج لها فى الدفاع عنهم ومهاجمة خصومهم — السياسة الحزبية حرفة يتكسب بها الشعراء — استفحال الهجاء السياسى — الهجاء بدع العصر — المربد فى العراق يحتل مكان عكاظ فى الجاهلية — اختلاف صور الهجاء السياسى وتعدد مذاهبه — بعضه جاهلى الأسلوب يقوم على العصبية ، و بعضه يهاجم أصحاب الدعوة والمطالبين بالملك ، وبعضه يهاجم الولاة ، و بعضه يصور سخطا على جميع المتنافسين فى الملك من قريش يصفهم بالطمع والجشع — شعر العصبية امتداد لشعر الحروب فى الجاهلية لم يتأثر بالمثل الاسلامية ـ الفتن الاسلامية منفذ للحزازات القديمة التى تلمست طريقها للظهور عن طريق الزعماء المتقاتلين على الحكم ـ ظهور لون جديد من الهجاء العصبى هو هجاء الاقليم ـ عصبية الشام وعصبية العراق — الشعر الذى يتصل بأصحاب الدعوة ويهاجم المطالبين بالملك يتميز بادراكه للحياة الجديدة وتأثره بمثل الاسلام وأسلوب القرآن ـ بعضه ينصب على نظام الحكم وبعضه ينصب على أشخاص الحكام ـ غلبة الحزن على شعر العلويين وغلبة الفدائية على شعر الخوارج — الشعر الذى يعارض الولاة و ينقد سياستهم من أمتع ألوان الشعر السياسى، وأكثرها دقة ووضوحا فى تصوير المجتمع والكشف عن معايبه — تدفق الأموال على الناس — تميز طائفة الحكام — الحجاب — تأثر الخلفاء والولاة بالعصبية — عنف الولاة وتجبرهم لاعادة الناس إلى احترام القانون — كثرة شكوى شعراء العراق من ظلم العمال فى جباية الاموال .

الأخطل

الأنصار واتصاله بيزيد ـ دخوله فى السياسة ودفاعه عن الدولة ومهاجمة أعدائها حظوته عند الأمويين وعلو شأنه فى قبيلته ـ الأخطل شاعر القبيلة وزعيمها ـ سعيه فى الإصلاح بين قومه وجمع كلمتهم ـ ربطه بين قبيلته وبين الأمويين ـ أثره فى موقف تغلب أيام الفتنة الثانية ـ اشتباك قيس بتغلب وموقف الأخطل — قسوته وبشاعة تصويره لمناظر القتال ـ الأخطل فى قمة مجده السياسى ـ تيهه وإدلاله على عبد الملك ـ الأخطل لسان الحكومة الذى يعبر عن رأيها واتجاهاتها هجاء القيسية فى النقائض ـ (خف القطين) مثال رائع للشعر السياسى ـ الغلظة القاسية طابع الأخطل فى أهاجيه ـ ألفاظه بدوية خشنة ـ تأييده لسياسة الولاة وتبرير مسلكهم فى عنفهم وشدتهم ـ حق الأمويين فى الملك ـ القوى الغالب هو صاحب الحق لأن الله لا ينصر الظالمين ـ المثل الجاهلية التى تعتمد على القوة تلبس ثوب الحق الإلهى على يد الأخطل ـ الأخطل بدوى يعيش على المثل الجاهلية فى حياته وفى فنه ـ كثرة الوشايات حول الأخطل وضعف نفوذه فى البلاط الأموى ـ عدى بن الرقاع يحتل مكان الأخطل عند الوليد .

الهجاء الشخصى

(ص ٩٧ ـ ١٢٥)

الهجاء الشخصى من أظهر فنون الشعر فى العصر الأموى ـ العراق بنوع خاص موضع هذا الفن ـ الشعراء يصطنعون أسلوب الحطيئة فى التكسب بالهجاء خوف الأشراف والوجهاء من الهجائين ـ المتهتكون من الهجائين المحترفين ـ الحكم بن عبدل ، الأقيشر ـ الهجاء القصير اللاذع ـ فن النقائض ـ محور هذا الفن شعراء العصر الثلاثة ، كثرة عدد الشعراء الذين دخلوا بينهم وانشغال الناس بأمرهم ، العداوة وحدها ليست هى الدافع للهجاء ، المناقضة منافسة فنية ومباراة

أدبية ، الارتجال فى النقائض ، الشعراء يتربصون بخصومهم ، مهارة الهجاء تتركز فى إدراكه لوجه النقص البارز فى خصمه وقدرته على الافتنان والتصرف فيه ، الإجابة من نفس البحر والروى مظهر للتنافس الفنى ، الشاعر يستكمل قصيدته بإضافة الأبيات بعد سماع نقيضة خصمه . الشاعر يقابل نقيضته بقصيدة خصمه فى الأسلوب والمعانى والأغراض. الأسلوب القصصى فى الهجاء، الواقعية العارية ـ الهجاء والعقد النفسية ، أمثلة من جرير والفرزدق والأخطل والأقيشر والمغيرة ابن حبناء والحكم بن عبدل وشعراء الموالى .

نقائض جرير والفرزدق والأخطل

(ص ١٢٦ ـ ١٤٣)

النقائض ليست هجاء خالصاً فهى خليط من فنون الشعر التى عرفها العرب لم يكن الهجاء هو الغرض الأساسى فى كل النقائض النقائض منافسة فنية . التزام نفس البحر والروى فى النقيضة مظهر للتحدى الفنى . كثرة فخر المتناقضين بالبراعة الشعرية ـ من الظلم للنقائض أن تقارن بغيرها من فنون الشعر المتأخرة أو شعر الأمم الأخرى والإنصاف يقتضى أن تقاس بعصرها و بيئتها، النقائض محدودة الغرض فهى شعر شخصى محوره الفرد لا يكاد يسمو إلى الحياة فى أفقها الواسع ، النقائض على قيمتها التاريخية والعلمية بعيدة عن أذواق المعاصرين، النقائض تصور عصرها جملة وتصور الناحية الأدبية فيه خاصة . النقائض سجل لكثير من الأحداث التاريخية التى عاصرتها والتى سبقتها منذ وعى العرب تاريخهم — تباين شعراء النقائض الثلاثة فى أسلوبهم الفنى — الأخطل يرضى فنه — جزالة ألفاظه تضعف هجاءه وتحرمه روح الدعابة — الأخطل شاعر خاصة — جرير مرح مداعب، جرير لا يجهد نفسه فى الشعر — ذيوع شعره وغلبته على قلوب الناس — الفرزدق معنى

بفنه ولكنه ليس موهوبا كجرير — الفرزدق يجارى جريرا فى تناول المعانى الهجائية من قرب — الخصائص العامة للنقائض : العامية والابتذال فى المعانى والألفاظ والأخلاق ، تكرار المعانى والفخر الكثير بالمقدرة الشعرية ، القصص الهجائى ، جرير أكثرهم تفوقا فى هذا المذهب والأخطل أكثرهم تخلفا

جـــرير

(ص ١٤٤ - ١٦٨)

بنو يربوع - غلبتهم على البصرة والكوفة وخراسان فى أيام الفتنة الثانية - ثروة الخطفى جد جرير وخمول عطية أبيه - مولده فى أواخر أيام عثمان حوالى ٣٠ هجرية اشتباكه بغسان السليطى - وفوده على يزيد - بنو يربوع يدعون لابن الزبير - تميم فى موقفها من الفتنة حزبان يتزعم أحدهما سلمة بن ذؤيب الرياحى ويتزعم الاخر الأحنف بن قيس - خلو شعر جرير مما يدل على لونه السياسى فى هذه الفترة وتعليل ذلك - زبيرية جرير وتعصبه للقيسية - ضعف جرير ونفاقه وصلابة الفرزدق وأنفته - جرير يعول فى التكسب على المدح ولا يهجو إلا من حاجة - إلحافه فى سؤال ممدوحية - شعر جرير رقيق سهل - عدم أصابته المدح- رقة شعر جرير صورة من طبعه السمح ونفسه المطمئنة - إجادته فى الغزل والرثاء- مواهب جرير الشعرية تبدوا كاملة حين يهاجم الأفراد - هدوء طبعه وبرود أعصابه - تهكمه وسخريته - امتياز حسه اللفظى - عينه نقادة تقع على العيوب وتهتدى إلى مواضع السخرية - خياله الخصب وذكاؤه النفاذ يمده بالصور الغريبة فى الافتنان وبالنكت البارعة اللاذعة - جرير من أخطر الهجائين فى اطلاق الالقاب على خصومه وترويج الاشاعات الباطلة عنهم - هجاء جرير واقعى يستند إلى دقة الملاحظة وبراعة الحكاية للأصوات والأشياء .

الفـــرزدق

(ص ١٩٦ - ٢٠٤)

بين جرير والفرزدق - مولد الفرزدق حوالى ٢٤ هـ - الفت الظروف بين جرير والفرزدق من وجوه وخالفت بينهما من وجوه . ضعة جرير وشرف الفرزدق رقة جرير وغلظة الفرزدق ، جرير رقيق يؤسر السلام والفرزدق عنيف يحيا حياة نضال ، جرير زبيرى قيسى والفرزدق لا يعتد إلا بقبيلته ; جرير ينافس الفرزدق على زعامة تميم فى الشعر — الفرزدق يحاول أن يضع حداً لتقدم جرير وشهرته — التنافس على الزعامة الشعرية للقبيلة هو الدافع الاول لتهاجيهما — الفرزدق طموح شديد الاحساس بالتفوق والامتياز إلى حد الجنون والمرض — والفرزدق لا يرحل إلى الخلفاء — الفرزدق يتكلف فى حياته مظهر السادة — اضطراب الروايات وتناقض الآراء فى مذهبه السياسى - الفرزدق مستقل فى تفكيره السياسى لا يصدر فى شعره وتصرفاته إلا عن مصلحة قبيلته — الفرزدق لا يستجدى ممدوحيه كجرير ولكنه يسألهم فى أنفة وترفع — الفرزدق هجاء لانه مغرور بنفسه لا ينظر إلى الناس إلا مستخفا هازئا — تشابه الفرزدق والمتنبى — سوء علاقة الفرزدق بالولاة وهجاؤه لهم وجرأته عليهم — الفرزدق يجمع بين نقيضتين فهو مجنون بالغرور والكبرياء ولكنه شديد الضعف فى احتمال المكاره والصمود للكفاح — شعر الفرزدق مزاج من الشعور بالعظمة والشعور بالرهبة والخوف — شعر الفرزدق رائع فى وصف السجون وتصوير خوفه — الفرزدق جاف غليظ الطبع فى فنه وفى حياته — الفرزدق ينحت من صخر — تراكب الالفاظ واضطرب الضمائر والتعسف فى التراكيب — ملاءمة طبعه الشعرى للفخر ولوصف المظاهر العنيفة وتصوير حياة الصحراء والبادية — فشله فى الغزل والمدح —

الفرزدق لجفاء طبعه بعيد عن الإيمان العميق والإسلام الصحيح — مثله جاهلية تدور حول القوة — يذهب مذهب الفتاك المتهورين كامرىء القيس والأعشى — يفتخر بالزنا وشرب الخمر ويجهر بذلك فى شعره — اقتران جفائه بفتكه وفجوره قد أنتج قدرا ضخما من الشعر الممعن فى الفحش — الفرزدق ولوع بالتصوير العارى يجد فى ذلك لذة حسية — الفرزدق يبدو مضحكا حين يتكلف النسك والخشوع — الفرزدق هو الشاعر الوحيد الذى استطاع أن يصمد لجرير — موازنة أخيرة بينه وبين جرير فى الفن الهجائى — تفوق جرير فى الهجاء الشخصى ونبوغ الفرزدق فى الهجاء الاجتماعى ·

الهجاء والموالى

(ص ٢٠٥ — ٢١٨)

العرب يرون الموالى عبيدا أرقاء والموالى لايرون العرب إلا بدوا جفاة — الموالى يسترون حقدهم بستار من الرياء — بعض الموالى يحترفون الغناء ويتغلغلون فى البيوت العربية الكبيرة ويفتنونهم بموسيقاهم وبأزيائهم وبما ينشرون من ألوان الحضارة والبدع — فريق آخر من الموالى ينصرف إلى الدراسات الدينية فيذهب تعصبهم — فريق ثالث يتخذ الشعر صناعه — بعضهم يحترف السياسة وبعضهم يكسب عيشه ومكانته بهجاء الناس — رقة دين معظم هؤلاء الموالى صورة لاستخفافهم بكل ماهو عربى — بعض شعراء الموالى لايحسنون النطق بالعربية — الهجاء يحقق لشعراء الموالى مكانة وجاها — خوف الناس من شعرهم على تفاهته من الناحية الفنية — غلبة المقطوعات القصيرة على هجائهم — الموالى ثلاث فرق فريق منافق يستر حقده مداهنا ، وفريق يدفع عن نفسه بالهجاء ، وفريق دفعه يأسه إلى الزهد والانصراف عن الدنيا — ولكنهم فى مجموعهم يكيدون للعرب حتى يتحقق لهم الظفر بالقضاء على الدولة الأموية وإقامة الدولة العباسية

فهرست الأخطاء المهمة

الصفحة	السطر	الصواب
٦	٧	بن خويلد
٧	٢	فأبصرا
٧	٢	والدافع إليها
٨	١١	يجرف فى طريقه
١١	١٥	على فتية
١٥	١٩	بالأرض الفضاء
٢٠	٧	أنَّا سنرضى
٢١	١٢	يتجالدون بالسيوف
٢٧	١٠	والحكام من مُضَر
٢٩	٥	إلا تهدَّدا
٣٣	٢	رميناهُمُ
٣٣	١١	المتخلف الرجعى
٤٢	٥	يخوض الناس فيه
٤٥	٦	سـبْرَة بن الجعْد
٤٥	٦	سمير الحجاج
٤٥	١٠	يجُر الخزَّ
٤٦	٧	عند التَّهايجُ
٤٨	٤	فشِبْه الفتاة
٤٩	١٦	ذلك المنتن
٦٥ هامش	٢	النضار(بالهامش)
٦٦	٩	وغالَتْ مالكا
٦٧	٤	أغلَيْتَ حين
٦٧	١٢	تُؤْ وكِلَتْ أعناقُها
٦٨	١٢	عند قبيلته من جهة ، وعند البيت الحاكم . .
٧٠	٤	فى تصوير
٧١	١٨	وكنتم بنى العَجْلان
٧٢	١	ترى كعبها
٧٣	٧	تَنُوشه
٧٤	١٠	من بَكْر
٨٠	١	من بى أمية
٨٢	١	العِقْبان
٩٠	٩	وعتـاد
٩٥	١٥	طريد القتل
٩٦	١	من أنوائه
٩٩	٥	تعين على
١٠٠	١١	إلا ذلك

الصفحة	السطر	الموضوع
١٠٣	١٥	رأت بعد عهد . . .
١٠٨	٣	المحتبى
١١٢	٣	عن سبالكم
١٢١	١٧	مِذْرار
١٢٧	١	على القانون
١٣٢	١٦	لستم إليهم
١٣٣	١٢	شهدْتَ
١٣٤	١٦	أوائله
١٣٥	٢٢	كان الفرزدق
١٣٧	١١	و يولدون
١٣٩	٢	محبوكة القرَى
١٤٠	٨	قصدت له
١٤٥	٢	وادعاها لنفسه
١٥٤	١	عريشاً
١٥٥	٩	عيابهم صفرا
١٥٩	١٥	لا نخاف
١٦٦	٢	أنت
١٦٨	٧	حوارى الرسول
١٦٩	٩	١١٤ هـ
١٦٩	١٥	غُبْرٌ
١٧٧	١٣	رُكبانَ فجٍ
١٨٠	١٨	الأصطلاح
١٨٢	١٣	مُنيبها
١٨٧	٣	وما سجنونى
١٨٧	٨	و بين مغيبِ
١٨٩	١١	وقد يمنَع
١٩٠	٦	سَورة مُخْدِرِ
١٩٣	٤	والهندىُّ
١٩٤	١٦	كُسورَ . . حمراء
١٩٦	٥	ونعزب (هـ مش)
٢٠٢	٧	فانك بلسانه
٢٠٢	١٧	لقَوادِ الأبكار
٢٠٥	٢١	بجُمَّة مركَّبة
٢٠٩	١٢	والهرمزانِ